جواهر الأدب

في

أدبيات وإنشاء لغة العرب

تأليف
المرحوم السيد أحمد الهاشمي

مدير مدارس فؤاد الأول
ومراقب مدارس فيكتوريا سابقا

الجزء الأول

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص ب ٥٧٨

لسان العرب

الطبعة السابعة والعشرون سنة ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م

قرظت على طبعه مشيخة الأزهر الشريف
وقرظه أيضا كثير من فضلاء وزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحلى ما سجعتْ به بلابلُ الأَقلام ، وأَغلى ما انتظمت فيه عقودُ البلاغة والانْسِجام ، وأَشهى ما ينعت به (جَوَاهر الأَدب) حمدُ مولانا الذى شَرَّف لغة العرب ، وأَرسل لنا نبيًّا عربِيًّا منزهًا عن جميع الرِّيب ، سيدنا محمدًا صلى الله عليه وعلى آله ومَنْ صَحِبَ .

(أَمَّا بعْدُ) فهذا كتاب سميتُهُ «جَوَاهر الأَدب ، فى أَدبيَّات وإنشاءِ لغة العرب» أَودعته ما وقع عليه اختيارى ، لا من نثرى وأَشعارى ، فليس لى فى تأْليفه من الافتخار ، أَكثرُ من الاختيار ، واختيار المرءِ قطْعَةٌ من عقله ، تدلُّ على تخلُّقِه وفضله . وفضيلة هذا التأليف هى جمع ما افترق ، مما تَنَاسَبَ وَاتَّسَقَ ، واختيار عيون ، وترتيب فنون ، من أَحاديث نبوية ، ومكاتبات أَدبيَّة ، وحِكم باهِرَة ، وأَبياتٍ نادرة ، وأَمثال شاردة ، وأَخبار واردة ، ووصايا نافعة ، ومَوَاعِظ جامعة ، ومُنَاظَرات مستظرفة ، ومقامات مستطرفة ، وأَوصاف عَلِيّة ، وخُطب اجتماعية ، لينتفع به مُقتنيه ، ويستغنى عن غيره الرَّاغبُ فيه ، إذ كان أَحسَنَ من الزهر والرياض ، والحدائق والغياض ، والزبرجد والمرجان ، والدُّرّ والعقيان ، والأَكاليل والتيجان ، والنزه والبستان ، إن دُعِىَ أَسرع ، وإن تحدث أَمتع ، وإن سُئِلَ أَجاب ، وإن حكم أَصاب ، جليس لصاحبه فى الحضر وأَنيس له فى السفر ، نديم ظريف ، وسمير حصيف ، بالغتُ فى تهذيبه ، وبذلت مجهودًا فى حسن ترتيبه ، وأَجزلتُ التُّحفة ، وانتقيت الطرفة ؛ وبالله نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المؤلف

السيد أحمد الهاشمى

تقريظ

وتقدير العلماء والعظماء لكتاب جواهر الأدب

١ - كتب إليَّ صاحب الفضيلة أُستاذى الأكبر شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى عَلّم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على أفصح العرب ، وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا منهج الأدب . أما بعد ، فقد اطلعت على الكتاب المسمَّى «بجواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب» لمؤلفه الألمعى ولدنا الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمى ، فألْفَيْتُه مشتملاً على فن الإنشاء والأمثال وافياً بالمقصود ، واسع المجال ، صحيح العبارة ، واضح الإشارة ، نافعاً فى بابه ، مفيداً لمطالعيه وطلابه ؛ نفع الله به وبمؤلفه ومحبيه بجاه نبيه وآله وصحبه وتابعيه .

٢ - وكتب إليَّ أُستاذى الإمام الحكيم فيلسوف الشرق المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه فوالاه . وبعد ، فقد اطلعت على مجموع كتاب «جواهر الأدب» المنتخب من حدائق العرب ، فإذا هو مجموعة لا بأس بها ، وافياً بما تريده الطلبة من الكتابة ووسائلها :

كما أزهرت روضات حسن وأثمرت فأضحت وعُجْمُ الطير فيها تُغَرِّدُ

فقد جمع لهم من عيون الكلام وروائع اللفظ مايحتذون حذوه ، وينسجون على منواله ، حتى لا تستعصى عليهم الكتابة بل يسلس لهم قيادها ، وبُعَيْدَ أن يصل من يحاول صناعة الإنشاء إلى ما يرضى منه بدون أن يرد الطرف فى كثير من كلام الفصحاء ، ويرد من مناهله كل عذب صاف ، ويحيط بشيء عظيم من

أساليب الكتاب حتى يتشبَّع من كلامهم ، وتنطبع فيه صورة من مجموع صورهم ولم يكن فيما بين أيديهم من الكتب ما يفى لهم بهذا الغرض ، حتى وُفِّقَ حضرة ولدنا الأُستاذ الهاشمى لسدِّ هذه الثلمة بما كابده من التعليم زمناً كبيراً . ولابدع فخير الأَطباء من عرف حقيقة الداء ، فيصف له أَنجع الدواء ، ولقد عرف هذا الأُستاذ العصامى حاجة العصر وناشئته إلى كتاب موضوع على أُسلوب عصرى يلائم أَذواق بنى العصر من معلمين ومتعلمين ، فإذا حاول أَهل العلم والتعليم أَن يشكروا له صنيعه فقد حاولوا عظيما وطلبوا خطيراً ، وحسب العامل أَن يقوم بشكره عملُه ، فالعمل أَعرف شىء بجميل عامله ، وفقنا الله وإياه لما يُحِبُّه ويرضاه ، وأَسأَله أَن ينفع به الطلاب ، ويجزل فيه الثواب .

٣ – وكتب شيخ الإسلام صاحب الفضيلة أُستاذى الأَكبر المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأَزهر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى أَنشأَ العالم على أَبدع مثال ، ونظم أَحواله بمعارف أَرباب العلوم حتى بلغ حد الكمال ، ونشر عجائب المعارف فى أَرجائه ، وغرائب العوارف فى أَنحائه ، والصلاة والسلام على ينبوع العلم وجواهر الأَدب سيدنا ونبينا محمد أَشرف مخلوق فى العجم والعرب ، وعلى آله وصحبه ذوى المناصب والرتب . أَما بعد ، فقد تناولت كتاب « جواهر الأَدب فى إنشاء لغة العرب » كما يتناول الكتاب المرقوم ، وفضضتُهُ كما يفض الرحيق المختوم ، واطلعت عليه فوجدته حوى من المبانى أَدقها ، ومن المعانى أَرقها ، ومن النثر أَعلاه ، ومن النظم أَحلاه ؛ ارتحت لعيانه ، واهتززت لعنوانه ، إذ قد جمع فيه الأَجناس ومما لا يستحيل الانعكاس ما أَدهش قاطبة الناس ؛ فلو شامه « البهائى » قبل تأْليف « مخلاته وكشكوله » لاعترف لهذا المؤلف وارعوى من فضوله ، وهو حضرة العالم الهمام اللوذعى ، الإمام ولدنا السيد أَحمد الهاشمى ، أَكثر الله من أَمثاله ، بجاه النبى وآله .

٤ ـ وكتب إلىَّ فضيلة أُستاذى المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأَول بوزارة المعارف العمومية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أَى بنىَّ الجهبذ النحرير والفذ العبقرى « السيد أَحمد الهاشمى » قد تصفَّحْت مجموعتك المختارة التى سميتها « جواهر الأَدب فى أَدبيات وإِنشاءِ لغة العرب » فإِذا هى دائرة معارف كبرى لا يستغنى عنها أَديب ، كلها صحاح وعلم صراح :

وما عسى أَن يقال فى وصف صحاح الجوهرى

إِى وربِّى إنه لكتاب صَرَّح على المخض زبده ، وأَسفر عن الأَدب ، فلم تتلفع بفضل مئزرها دعد ، وانفردت سطوره عن فضل اختيار ، وتعَرَّى ليل عن بياض نهار ، جلاه الفرناس ، على صفحات القرطاس .

اختار فى كتابه هذا من منتخبات الكتَّاب والشعراء ما يشفى الغلة ، ويروى الصدى ، ولقد أَتى فيما انتقاه لكتابه الثمين بيوت الكلام من أَبوابها ، وميّز أَبكارها من أَترابها ، وأَهدى إلى هولاءِ الشادين كلاماً يلطف كالهواءِ رقة ، ويسيل كالماءِ عذوبة ، يمتزج بالنفوس لنفاسته ، ويشرب بالقلوب لسلاسته :

أَحاديث لو صِيغت لأَلهت بحسنها عن الوشي أَو شُمَّت لأَغنت عن المسك

وبعد ، فإِن سنن مؤلفك العظيم القويم ، ما منى بشين ، فخشيت عليه العين ، وما أَطيب الخزامى فى قول بعض القدامى :

ما كان أَحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

كيف لا ، وقد عرفنا هذا المؤلف النابغة كاتباً مجيدًا يفلُّ الحزَّ ، ويطبق المفصل ، له حلى من البلاغة يتقلدها فيكاد السحر يحسدها ، يدل عليه بيانه كما يدل على الجواد عنانه ، فمن عرفه فقد اكتفى ، ومن قصر فلينشد :

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلا على اللبيب اختياره

فما أَجدر كتابه أَن يختص بسرعة المجال فى المجالس ، وخفة المدار فى المدارس

بل إن (هذا الكتاب يهدى التى هى أقوم) جزى الله مؤلفه خير الجزاء وأثابه أحسن المثوبة ، وأكثر فى الأمة من أمثاله ، لتبلغ من حسن القول والفعل غاية الكمال .

٥ - وكتب إلىَّ صديقى المرحوم حسن أفندى توفيق العدل المدرس بكلية كمبردج - بانجلترا :

عزيزى حضرة الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمى

تشرفت بكتابك المسمى « جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب » فوجدت بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبعك السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال الصديق الحميم ؛ فما أنفس فرائده ، وأثمن فوائده ، وأفصح مقاله ، وأفسح مجاله . صدر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ونفس صادق ، ورَوِية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ؛ فأكرم به من كتاب « جواهر » تكونت من ألفاظ. عذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاءُ بغير حساب . إذا تدبَّرَه الأديب أغنته تلك الأفانين عن نغمات القوانين ، وإذا تأمله الأريب نزه طرفه رياض البساتين ، قد سوّر على كل فنٍّ من البديع باب ، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللباب ، والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب .

حسن توفيق العدل

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية بنظارة المعارف العمومية

وقال صاحب الدولة المرحوم سعد باشا زغلول مخاطباً لى :

كتابك هذا يا أُستاذ « فضل ونعمة » ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم » .

وإنه لدائرة معارف أدبية كبرى ، وأنفس كتاب أُلف فى اللغة العربية وتاريخ آدابها ، صدر عن تجربة وحكمة « ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتى خيراً كثيراً » .

سعد زغلول

اليكم معشر الكتاب

أَما بعد ــ حفظكم الله ياأَهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأَرشدكم فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأَنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أَجمعين ومن بعد الملوك المكرمين ، أَصنافاً وإن كانوا فى الحقيقة سواء ، وصَرَّفهم فى صنوف الصناعات وضُرُوب المحاولات إلى أَسباب معاشهم وأَبواب أَرزاقهم . فجعلكم معشر الكُتَّاب فى أَشرف الجهات أَهل الأَدب والمروءة والعلم والرواية بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أُمورُها ، وبنصائحكم يُصْلح اللهللخلق سُلطانهم ويَعْمُرُ بُلدانهم . لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم . فموقعكم من الملوك موقعُ أَسماعهم التى بها يَسْمَعُون ، وأَبصارهم التى بها يُبْصِرون ، وأَلسنتهم التى بها يَنْطِقُون ، وأَيديهم التى بها يَبْطشون(١) ، فأَمتعكم(٢)الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أَضْفَاهُ(٣) من النعمة عليكم ، وليس أَحدٌ من أَهل الصناعات كلها أَحْوَج إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة وخِصال الفضل المذكورة المعدودة منكم .

أَيها الكُتَّاب : إذا كُنْتم على ما يأْتى فى هذا الكتاب مِنْ صِفَتِكم ، فإن الكاتبَ يحتاجُ من نفسه ويحتاج مِنْهُ صاحبُه الذى يثقُ به فى مُهمَّاتِ أُمُورِه أَن يكون حليما فى موضع الحلم فَهيماً فى موضع الحُكْم ، مِقْدَاماً فى موضع الإقدام محجاماً فى موضع الإحجام(٤) ، مُؤْثراً (٥) للعفاف والعدل والإنصاف ، كَتُوماً للأَسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالماً بما يأْتى من النَّوَازل ، يضع الأُمور مواضعها

---

(١) يدافعون (٢) أبقاكم (٣) أفاضه

(٤) التأخر (٥) مختارا له

والطَّوَارِق أماكنها . قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه فإن لم يُحْكِمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به ، يَعْرِف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ما يَرِدُ عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعدُّ لكل أمر عُدَّته(١) وعتاده(٢) ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يا معشر الكتاب صنوف الآداب ، وتفقَّهُوا فى الدين وابدءُوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثِقَاف(٣) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كُتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم ما تسمو إليه هممكم ، ولا تُضَيِّعوا النظر فى الحساب فإنه قَوَامُ(٤) كُتَّاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنيِّهَا(٥) ودنيِّها ، وسفساف(٦) الأُمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتَّاب ، ونزِّهوا صناعتكم عن الدناءة واربأُوا(٧) بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات . وإياكم والكِبْرَ والصلَفَ والعظمة فإنها عداوة مجتلبة من غير إحْنَة(٨) وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليه بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنُّبْل(٩) من سلفكم ، وإن نَبَا(١٠) الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وَوَاسُوه حتى يرجع إليه حاله ، ويَثُوبَ(١١) إليه أمره ، وإن أقْعَدَ أحدًا منكم الكِبَر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظِّمُوهُ وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَت فى الشغل محمدة فلا يصرفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فيحملها هو من دونه ، وليحذر

---

(١) ما أعددته لحوادث الدهر (٢) العدة (٣) تعديلها (٤) نظام (٥) رفعها (٦) الردىء من كل شىء (٧) أعرضوا وفروا (٨) اضمار حقد (٩) الرفعة والسمو (١٠) قصر ونفر (١١) يرجع

السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكُتَّاب أَسرعُ منه إلى الفِرَاءِ (١) وهو لكم أَفسدمنه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبهُ الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أَن يعتقد له من وفائه وشكره ، واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سِرِّه وتدبير أَمره ما هو جزاء لحقه ، ويُصْدِقُ ذلك فعله له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أَنفسكم فى حالتى الشدة والرخاء والحرمان والمواساة والإحسان والسَّرَّاءِ(٢) والضراءِ ، فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أَهل هذه الصناعة الشريفة المنيفة .

وإذا وَلِيَ الرجل منكم أَو صُيِّرَ إليه من أَمر خلق الله أَمرٌ فليرقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم مُنْصِفاً ، فإن الخلق عِيَالُ الله وأَحبُّهُم إليه أَرفَقُهُم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكمًا ، وللاشراف مُكْرِماً ، وللفَيْءِ(٢) مُوَفِّراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعيَّة متألفاً ، وعن أَذاهم مُتخلِّفاً ، وليكن فى مجلسه متواضعاً حليماً ، وفى سجلات خراجه واستقصاءِ حقوقه دقيقاً ، وإذا صحب أَحدكم رجلا فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حَسَنها وقبيحها أَعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بأَلطف حيلة وأَجمل وسيلة ، وقد علمتم أَن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة أَخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً لم يُهِجْها إذا ركبها ، وإن كانت شَبُوباً اتَّقَاها من بين يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً تَوَقَّاها من ناحية رأْسها ، وإن كانت حَرُوناً قمع هواها برفق فى طريقها (٣) فإن استمرَّت عطفها يسيراً فَيَسْلس(٤) له قيادها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم.

---

(١) الجلد ، لأنه سريع العطب (٢) الغنيمة والخراج
(٣) فى مرة من المرات (٤) وفى نسخة يسلس أى ينقاد ويسهل

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاول من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته وتقويم أَوْدِهِ من سائس البهيمة التي لا تفقه جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يُصَيرها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فَامْعِنُوا رحمكم الله في النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرَّوِيَّة والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتُمُوهُ النَّبْوَة(١) والاستثقال والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتَصِيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاءَ الله .

ولا يُجَاوِزَنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم به الله من شرف صنعتكم خَدَمَةٌ لا تُحْمَلُونَ في خدمتكم على التقصير ، وحَفَظَة لا تحتمل منكم أفعال التَّضْييع والتبذير . واستعينوا على أفعالكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصتُهُ عليكم ، واحذروا متالف السَّرَفِ وسوءَ عاقبة الترف(٢) فإنهما يُعْقِبان الفقر ويذلّان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سِيَّمَا الكُتَّاب وأرباب الآداب وللأُمور أَشباهٌ وبعضها دليلٌ على بعض فاستدلوا على مُؤْتَنَفِ(٣) أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها مَحَجَّة وأصدقها حُجَّة وأحمدها عاقبة ، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورُؤْيَتِه ، فليقصد الرجل في مجلسه قصد الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حُججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل من إكثاره .

وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظانٌّ أو قال قائل إن الذي بَرَزَ من جميل

---

(١) القبح (٢) التنعم (٣) مبدأ

صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصيرُ منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأَمَّلَهُ غيرُ خافٍ .

ولا يقُلْ أحدٌ منكم إنه أبصر بالأُمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَمَى بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه وأجمل فى طريقته .

وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله عليه جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره . وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل « مَنْ تَلْزَمهُ النَّصِيحة يلزمه العَمَل » وهو « جواهر » هذا الكتاب وغُرَّة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله جلَّ جلاله ، فلذلك جعلته آخره وتممته به ، تَوَلَّانا الله وإياكم يامعشر الكَتَبَة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . (عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ[1])

---

(١) هو عبد الحميد بن يحيى العامرى ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين — قتله السفاح ١٣٢ هـ .

تمهيد فى مبادىء علم الأدب

الأَدب عبارة عن معرفة ما يُحْتَرَز به من جميع أَنواع الخطأ وهو قسمان : طبعى كسبىٌّ ؛ فالطبعى ما فُطِرَ عليه الإِنسانُ من الأَخلاق الحسنة والصفات المحمودة كالكرم والحلم . والكَسبىُّ ما اكتسبه بالدرس والحفظ والنظر ، وهو المقصود لنا فى هذا الكتاب ، وحينئذ يعرَّفُ بأَنه علم صناعى تُعْرف به أَساليب الكلام البليغ فى كل حال من أَحواله ، وهو المدعو «علم الأَدب» ،

وموضوعه الكلام المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته .

وغايته الإِجادة فى فنَّىْ المنظوم والمنثور على أَساليب العرب ، وتهذيب العقل وتذكية الْجَنان .

وفائدته : أَنه يعصم صاحبه من زلّة الجهل ، وأَنه يُرَوِّض الأَخلاق ويلين الطبائع ، وأَنه يعين على المروءة ، وينهض بالهمم إِلى طلب المعالى والأُمور الشريفة .

وأَركانه أَربعة ، الأَول : قوَى العقل الغريزية ، وهى خمسة : الذكاءُ (١) والخيال (٢) . والحافظة (٣) ، والحس (٤) ، والذَّوْق (٥) .

الثانى : معرفة الأُصول وهى مجموع قوانين الكتابة ، وفيها طرق حسن التأْليف وضروب الإِنشاء وفنون الخطابة .

---

(١) الاستعداد التام لادراك العلوم والمعارف بالفكر وفى كتب اللغة الذكاء عبارة عن حدة الفؤاد وسرعة الفطنة (٢) باطنة تحفظ صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة وهو من أكبر أسباب النجاح فى فن الكتابة (٣) قوة من شأنها حفظ ما يدركه العقل من المعانى فتذكره عند الحاجة ولذلك سميت ذاكرة (٤) قوة يتأثر بها الانسان من صور المدركات كاللذة والالم وهو من شروط الكتابة اذ يعين الكاتب مما يحدث فيه من التأثير على رسم صور المحسوسات رسما محكما فيقتدر اذ ذاك على تحريك العواطف واستمالة القلوب ، الا ترى أن الكلام العذب اذا حل فى القلب أحدث فيه حركة وهزة ؟

(٥) قوة غريزية لها اختصاص بادراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية وتحصل بالمثابرة على الدرس وبالممارسة لكلام البلغاء وتكراره على السمع والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه وبتنزيه العقل والقلب عما يفسد الأخلاق والآداب .

وتنقسم هذه الأُصول إلى قسمين : عامَّة ، وخاصَّة . فالعامة : كالتآليف الأَدبية من منظوم ومنثور فى أَغراض شتى . والخاصة : كالتآليف المفردة بالرسائل أَو بالأَمثال .

الثالث – مطالعة تصانيف البُلغاءِ بالتأَنى والتَّبَصر فيها ، ليدَّخِر الكاتبُ كل لفظ مؤنق شريف وكل معنى بديع بحيث يتصرف بهما عند الضرورة .

وشروطها ثلاثة ، الأَول : أَن يستقلَّ المطالع ببعض علماءِ اللغة وأَئمة الأَدب فيقتصر على درسهم حتى ينسجَ على منوالهم . الثانى : أَن يُطيل النظر فى هذه المطالعة ويُرَدِّدُ مراراً ما استحسنه من تصانيفهم كى يروض الذهن فى حلبة(١) سباقهم فيقف على غريب أَسلوبهم وعجيب تراكيبهم . الثالث : أَن ينتقى منها شيئاً مما استجاده(٢) من اللفظ الحر والتراكيب الصحيحة والمعانى البليغة ذُخْراً لذاكرته وَمِهْمازاً(٣) لقريحته .

الرابع – الارْتِيَاضُ ، وهو التدرب بوجوه الإِنشاءِ بأَن تتوسع فى شرح بعض المعانى فتبينه بأَوجه شتى وتُنَمِّقُهُ بأَشكال البديع ، وبأَن تجتهد فى وضع بعض مواضيع وجيزة فتصوغ تارة وصف مدينة أَو مدحاً أَو تهنئة ، وأُخرى تسرد مثلا أَو تسبك رواية إلى غير ذلك . وأَن تحْذُوَ حذو المتقدمين فى أَوضاعهم باستعمال أَلفاظهم ومعانيهم ، وبأَن تحلَّ النظم فتأتى به نثراً أَنيقاً(٤) وتعقد النثر فتصوغه صوغاً رشيقاً(٥) .

مقدمة فى علم الانشاء

الإِنشاءُ لغة : الشَّرْعُ والإِيجادُ والوضع ، تقول : أَنشأَ الغلام يمشى إذا شَرَعَ فى المشى ، وأَنشأَ الله العالم : أَوجدهم ، وأَنشأَ فلان الحديث : وَضَعَه .

(١) الميدان (٢) وجده جيدا (٣) حديدة تكون فى مؤخر خف الرائد للمهر (٤) معجبا (٥) حسنا

واصطلاحاً علم يُعْرف به كيفية استنباط المعانى وتأليفها مع التعبير عنها بلفظ لائق بالمقام . وهو مُسْتمد من جميع العلوم وذلك لأَن الكاتب لا يستثنى صِنْفاً من الكتابة فيخوضُ فى كل المباحث ويتعمَّد الإِنشاء فى كل المعارف البشرية .

وينحصر المقصود منه فى ثلاثة أَبواب وخاتمة وَمُلحق .

الباب الأول : فى أصول الأنشاء

وهى أَربعة : موادُّهُ وخواصُّه وطبقاتُهُ ومحاسِنُهُ .

أَما مواده فثلاث : الأُولى الأَلفاظ الفصيحة (١) الصريحة (٢) الثانية المعانى (٣) الثالثة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ومرجعها إلى الفصاحة وعلمى المعانى والبيان .

---

(١) الالفاظ البينة الظاهرة المتبادرة الى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها .

(٢) الألفاظ التى تدل على نفس المطلوب بحيث تكون كقالب لمعناها ويتوصل الى ذلك بمعرفة المترادفات والصفات والابدال .

(٣) بحيث يكون المعنى واضحا ، أى سهل المأخذ خاليا من اللبس والاشكال كقول الأخطل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

وأن يكون المعنى سديدا أى أن يكون القول مطابقا للواقع كقول لبيد :

الا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأن يكون مطابقا لمقتضى الحال كقول أبى العتاهية :

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط فى زمن البذر

ولهذا قال أبو الفتح البستى :

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حى والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

والمراد بمقتضى الحال الأمر الذى يقتضيه الداعى الى المتكلم على وجه مخصوص الناشىء عن مراعاة احوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام ، والمعنى أما أن يكون مبتكرا اى مخترعا كقول ابن النبيه :

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وكقول آخر فى وصف الشتاء :

والنار فاكهة الشتاء فمن يرد اكل الفواكه شاتيا فليصطل =

. . . .

= أو دقيقا فهو ما لطف مأخذه وبعد مرامه ودل على توقد فهم قائله كقول ابن عنين فى فخر الدين الرازى وكانت قد دخلت الى مجلسه حمامة خلفها صقر يريد صيدها فاستجارب بحجرته :

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلمح فى جناحى خاطف
من أنبأ الورقاء أن محلكم حرم ، وأنك ملجأ للخائف

أو فطريا وهو ما أورده الطبع السليم بلا تصنع ولا أعمال روية ودل على بعض السذاجة فى قائله ، كقول أحدهم وقد سئل هلا تسافر بحرا؟ فأنشد :

لا أركب البحر أخشى علىّ منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء ، والطين فى الماء ذائب

وكقول الصياد :

سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكه

أو لينا وهو ما كان لطيف التعبير سلس الالفاظ دالا على أشياء تطرب المسامع وتبهج القلب كقوله :

أن السماء اذا لم تبك مقلتها لم تضحك الأرض عن شىء من الزهر

أو نافذا وهو ما وصل الى الفهم بسرعة البرق وأخذ لحدته ومضائه بمجامع القلب كقول عنترة :

وما دانيت شخص الموت الا كما يدنو الشجاع من الجبان

أو جامعا وهو ما أفاد باللفظ القليل المعنى الكثير كقول أبى تمام فى المعتصم :

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضا لم تطعه أنامله

وكقول المتنبى :

وقد شرف الله أرضا أنت ساكنها وشرف الناس اذ سواك انسانا

أو متينا وهو ما اتسم بالضبط والحزم وتمكن من ذهن سامعه كقول أبى العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى ذهاب

والموغل أو الايغال هو ما فتن بسموه القلب وسبى العقل وبلغ الغاية القصوى من البلاغة كما قال قائل على لسان ربه : =

وأَما خواصّه فَهى محاسنهُ السبعة ، وهى ؛ أولاً : الوُضُوح(١) بأَن يختارَ المفرَدَات البيِّنة الدالة على المقصود وأَن يَعدل عن كثرة العَوَامل(٢) فى الجملة الواحدة ، وأَن يتحاشى الالتباس فى استعمال الضمائر ، وأَن يَسْبك الجمل سبكا جلياً بدون تعقيد والتباس ، وأَن يتحاشى كثرة الْجُمل الاعتراضية .

وثانيًا : الصَّرَاحة بأَن يكون الإِنشاءُ سالماً من ضعف التأْليف وغرابة التَّعبير بحيث يكون الكلام حُرًّا مهذَّباً تناسب أَلفاظُه المعانى المقصودة كما قيل :

تَزِينُ مَعَانيه أَلفَاظُهُ وأَلفاظُهُ زائِناتُ المعانى

ويكون الكلام صريحًا بانتقاءِ الأَلفاظ الفصيحة والمُفردات الْحُرَّة الكريمة وكذا بإِصابة المعانى وتَنقيح العبارات مع جودة مقاطع الكلام وحسن صوغه وتأْليفه ، وكذا بمرَاعاة الفصل والوصل وهو العلم بموَاضع العطف والاستئناف والاهتداءِ إلى كَيفية إِيقاف حروف العطف فى مواقعها .

وثالثاً : الضبط وهو حذف فُضُول الكلام وإسقاط مشتركات الأَلفاظ كقول قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١٢ م :

= سألت عبــدى وانت فى كنفى وكل ما قلت قــد ســمعناه
سانى بلا خشــية ولا رهب ولا تخف ، انى أنــا الله

واعلم أنه ليس لهذه المعــانى مصدر خاص ، وانما يحصل عليها الاديب من مطالعة كتب البلغاء واعمال الفكرة الطويلة والتبصر فى الموضوع الذى يقصد وصفه ليست منه المعانى اللائقة به ، وانما يلتجىء الأديب الى هذه المعــانى عند مسيس الحاجة وذلك يختلف باختلاف أحوال المتكلم ، ومقام المخاطب ومواقع الكلام .

(١) كقــوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننــا ان الجمال جمال العــلم والأدب
ليس اليتيم الذى قد مات والده بل اليتيم يتيم العلم والحسب

(٢) كقول بعضهم :

❋ اقسم لا أعود أقوم أخطب فيكم ❋

أَرَى الْمَوْت لا يَرْعَى على ذى قرابةٍ   وإن كان فى الدنيا عزيزًا بمقعَدِ
لَعَمرك ما الأَيام إِلَّا مُعارَة   فما اسطعْتَ من معرُوفها فتزَوَّد

ورابعاً : الطبَعيَّة بأَن يَخْلو الكلام من التكلُّف والتَّصنُّع كما قال فى رثاءِ ابنِهِ أَبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ هـ :

بكيتك يا بُنَىَّ بدمع عَيْنى   فلم يُغْنَ البكاءُ عليك شيّا
وكانت فى حياتك لى عظات   وأَنت اليوم أَوعظ منك حيَّا

وذلك لأَن من تطبَّع بغيرطبعه نَزَعَتْهُ العادة حتى تردّه إلى طبعه كما أَن الماءَ إذا أَسخنته وتركته عاد إلى طبعه من البرودة وحينئذ فالطبع أَملك .

وخامساً : السهولة بأَن يَخْلُصَ الكلام من التعسف فى السبك وأَن يختار ما لان منها كما قال فى الأَشواق بَهَاءُ الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ :

شَوْقى إليك شديدٌ   كما علمتَ وأزيدْ
فكيف تنكرُ حبًّا   بهِ ضميرُك يشهدْ

وأَن تُهذّب الْجُمل وأَن يأْتَلف اللفظ مع مُرَاعاة النظير كما قال الشاعر فى الودَاعِ :

فى كنف الله ظَاعِنٌ ظَعَنَا   أَودَع قلبى ودَاعه حَزَنَا
لا أبصرتْ مُقلتى محاسنه   إن كنتُ أَبصرْتُ بعده حَسَنَا

قال بعض البُلَغاء : أُحذركم من التقعير والتَّعمُّق فى القول وعليكم بمحاسن الأَلفاظ والمعانى المُستخفّة المُستملحة فإن المعنى المليح إذا كُسِىَ لفظًا حسناً وأَعاره البليغ مخرجًا سهلا كان فى قلب السامع أَحلى ولصدره أَملأُ – قال البستى :

إذا انقادَ الكلام فقدْهُ عفوًا   إلى ما تشتهيه من المعانى
ولا تُكْرِهْ بيَانَك إن تأَبَّى   فلا إكراه فى دين البيان

وسادساً : الاتساق بأَن تتناسب المعانى كقول المتنبى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ :

وما زلت حتى قادنى الشوقُ نحوه يُسايرنى فى كلِّ ركب له ذكْر(١)
وأستكبرُ الأَخبار قبل لِقَائِهِ فلما التقيْنا صغَّرَ الخبر الْخُبْر

وسابعاً : الجزالة وهى إبرازُ المعانى الشريفة فى معارض من الأَلفاظ الأَنيقة(٢) اللطيفة كقول الصّابئ المتوفى سنة ٣٨٤ هـ :

لك فى المحافل منطقٌ يشْفى الْجَوَى(٣) ويسوغُ فى أُذن الأَديب سُلافُهُ(٤)
فكأَنَّ لفظكَ لؤلؤ متَنَخّلٌ(٥) وكأَنَّما آذننا أَصدافه

وأما عُيوبه فسبعة : الهُجنة بأَن يكون اللفظ سخيفاً والمعنى مُسْتَقْبحًا كقوله :

وإذا أَدنيتَ منه بَصلاً غَلَبَ المسكُ على ريح البَصل

والوحشية : كون الكلام غليظًا تمجه الأَسماع وتنفر منه الطباع كقوله :

وما أَرْضى لِمقْلته بحُلم إذَا انْتبهتْ تَوَهَّمَه ابتشاكا (٦)

والركاكة أى ضعف التأْليف وسخافة العبارة كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ :

إن كان مِثلك كان أَو هُو كائنٌ فبرئتُ حينئذ من الإِسلام

والسّهوُ عبارة عن ضعف البصر بمواقع الكلام كقول المتَنبِّى يُشبِّه ممدوحه بالله تعالى (وهو كفر) :

تتقاصر الأَفهام عن إدراكه مِثلُ اللّذى الأَفلاكُ مِنه والدنى(٧)

والإِسهاب أى الإطالة الزائدة المُمِلَّة فى شرح المادة والعدول إلى الحشو كقوله :

وأَعنى فتى لم تذر الشمس طالعةً يوماً من الدهر إلا ضَرَّ أَو نفعا

(١) خبر زلت يسايرنى ، والركب : جماعة الراكبين ، أى مازلت أسمع ذكره فى كل ركب صحبته حتى قادنى الشوق الى زيارته ، والمتيبى يمدح عليا الأنطاكى ، ومعنى البيت الثانى : انى مازلت أستعظم ما يذكر لى من أخباره حتى لقيته فصغرت عندى تلك الاخبار بالنسبة اليه لأنى وجدته أعظم مما وصفوا

(٢) المعجبة .

(٣) الحرقة .
(٤) الخمرة
(٥) مصطفى ومختار

(٦) يقول : وان حدثه حلم فى نومه عن شكرى له فلا أرضى به لعله يتوهمه كذبا

(٧) الدنيا .

والجفاف : الإيجاز والاختصار المخل كقول الحارث بن حِلِّزَةَ المتوفى سنة ٢٣٢ﻫ :

والعيشُ خيرٌ فى ظلال النـوكِ (١) ممن عاش كدًّا (٢)

ووحدَةُ السياقِ التزام أُسلوب واحد من التعبير وطريقة واحِدة من التركيب بحيث تكون للأذهان كلالا (٣) وللقلوب ملالا (٤) .

وللكلام عيوبٌ كثيرةٌ منها اللَّحنُ ومخالفة القياس الصَّرْفى وضعف التَّأْليف والتعْقيدُ اللفظى وَالمَعنوى والتِّكرار وَتَتَابُعُ الإضافات إلى غير ذلك من الأَشياء التى تكون ثقيلة على اللسان مخالفة للذوق وَالْعُرْف غريبة على السَّمع (٥) .

وأما طبقاته فثلاث (الأُولى الطبقة السُّفلى) ومَرْجِعُها إلى الإنشاء الساذج وهُوَ ما عرِى عن رقة المعانى وجزالة الأَلفاظ والتأَنق فى التَّعبير فهو بالكلام العادى أَشْبه لسُهُولة مأْخذهِ وقُرْب مورده ، ويُستعمل فى المحافل العمومية ليقرِّب مثالَ المعانى على جُمْهور السامعين وفى المقالات والتآليف العلمية لينصرف الذهْن إلى أَخذ المعنى وليس دونه حائلٌ من جهة العبارة ، وفى المكاتبات الأَهليَّة والرحلات والأَسفار والأَخبار وما شابه ذلك . (الثانية الطبقة العليا) ومرجعها إلى الإنشاءِ العالى ، وهو ما شُحن بغُرَر الأَلفاظ ، وتعلَّق بأَهداب المجاز ولطائف التَّخيلات وبدائع التشابيه فيفتِنُ ببراعتَه العُقُولَ ويَسْحَرَ الأَلباب ويصلُح فى التَّرَسُّل بين بُلغاءِ الكتَّاب وفى المجالس الأَدبيَّة وديباجة بعض التَّصانيف إلى غير ذلك من المواضع التى من شأْنها الزجر وتحريك العواطف والحماسة .

---

(١) بفتح النون وضمها الحمق (٢) تعبا (٣) سيئة

(٤) سآمه . (٥) حكى عن الصفى الحلى أن بعض الفضلاء بلغه أنه طلع على ديوانه وقال لاعيب فيه سوى أنه خال من الالفاظ العربية فأجابه الصفى :

انما الحيزبون والدرديس والطخا والنقاخ والعلطبيس
لغة تنفر للسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشى منها ويترك المأنوس
ان خير الألفاظ ما طرب السامع منه وطاب فيه الجليس
ولذيذ الألفاظ مغناطيس

(الثالثة الطبقة الوسطى) ومَرْجعها إلى الإنشاء الأَنيق(١) وهو ما توسط بين الإنشاء العالى والساذج فيأْخذ من الأَول رَوْنَقَه وَرَشَاقَتَهُ ومن الثانى جلاءه وسلاسته – ويَصْلُح فى مُرَاسَلات ذَوى المراتب ، وفى الروايات المُنمقة والأَوصاف المُسْهبة ، وفى خطب المحافل وما أَشبه ذلك(٢) .

وأَما محاسنه فهى أَساليب وطرائق معلومة وُضِعت لتزيين الكلام وتَنميقه لغرض أَن يتمكَّن البليغُ مِن ذِهن السامع بما يورده من أَساليب الكلام المُستحسنة ، فيحرك أَهواء النفس ويُثير كامن حركاتها . والغرض أن يكون قوله أَشد اتصالا بالعقل وأَقرب للادراك بتصرفه فى فنون البلاغة .

كيفية الشروع فى عمل مواضيع الانشاء

إِذَا عَنّ(٣) لك أَو اقترح عليك إنشاءُ موضوع فأَنت مَنُوط(٤) إذًا بأَمرين : التَّفكر أَولا ، والكتابة ثانياً . فإذا أَنْعَمْت الفكر مليًّا(٥) فى أَجزاءِ الموضوع بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك ، وقلَّبتَهَا على جميع الأَوجه المُمكنة فيهَا تولد فى خيالك لكل جزء عدةُ صُور(٦) تتفاوت فى تأْديته كتفاوت صُوَر المنظوم فى الحسن والقبح ؛ فبعضُها يستميل النفوس بتأْثيره فى الحواس ، وبعضها

(١) المحب .

(٢) الذى اشتهر بالانشاء الساذج السيوطى والماوردى والغزالى وأبو الفرج الاصبهانى وابن الاثير وأبو الفداء . والذى اشتهر بالانشاء الانيق الثعالبى وابن خلكان وابن خلدون والطبرى والفخرى وابن المعتز والبهاء زهير وابن المقفع والمسعودى . والذى اشتهر بالانشاء العالى الحريرى والهمذانى والمعرى والاخطل وجرير وأبو تمام البحترى والمتنبى وابن خاقان والعتبى والفارضى . واعلم أن طبقات الانشاء كثيرا ما تختلط ببعضها فيصعب تعيين طبقتها فربما جاء فى القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث لا يميزها الا المنتقد البصير .

(٣) عرض (٤) ملزم (٥) ساعة طويلة .

(٦) أما اذا تساوت فى حسن تأدية الغرض أخذ احداها فقط ولا يحسن جمعها .

يوجب نُفورَها ، بين بين ، وإذا تَشَخَّصَت الصُّوَرُ فى الخيال يتخيّر العقل منها ماله المكانة الرفيعة فى حُسن تأْدية الغرض المناسب للمقام ، فإن كان المقامُ للتَّحريض على القتَال مثلا انتخب الصورة المهيِّجَة للاحسَاس ، المشَجِّعة للنفس على اقتحَام الأَخطَار (١) ، وإن كان المقَامُ مَقَامَ فرحٍ وسُرُور انتخب مَا يشرح الصُّدور .

وبعد تشخص الصُّوَر وتخير المُنَاسبة منهَا تعين ـ أَيهَا المنشئ ـ بحُسن تأليف وترتيب مَا تخيرتَه أَنتجمع الصور المُناسَبة التى يرتبطُ بعضهَا ببعض بدون تكلف بحيث يكون منسجمًا يمَضى وحده مع النَّفس دون علاج وتَعب فى فَهم الغرض منه وحينئذ يُمكنك إظهَارُ هذه الصورة المعقولة فى صورة محسوسةٍ بواسطة القلم .

أركان الكتابة

اعلم أَنَّ للكتَابةِ أَرْكَاناً لابُدّ من إيداعها فى كل كتَاب بلاغِيّ ذى شأْن ؛ أَولهَا : أَنْ يكون مَطلعُ الكتَابِ عليه جِدَّةٌ (٢) وَرَشَاقةٌ ، فإنّ الكاتب مَنْ أَجاد المطلع والمقطعَ ، أَو يكون مبنيًّا على مقصد الكتاب . الثانى أَن يكون خرُوجُ الكاتب من معنى إلى معنَى برابطَةٍ لتكونَ رقابُ المعَانى آخذة بعضهَا ببعض

(١) الأحزان . (٢) صار جديدا مبتكرا ، وهو نقيض الخاق الذائب .

تنبيه : يراعى حال المخاطب ومنزلته فان ما يحسن عند الذكى لايحسن عند الغبى ، ومايناسب ذا الجد لايناسب الهزلى ، وما يصلح للرئيس لايصلح للمرءوس . فخاطب كلا على قدر أبهته وجــلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته ونباهته ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميــزان التصريف اذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها اذا سنحت فكلما احلو لى الكلام وعذب وراق وســهلت مخارجه كان أسهل ولوجا فى الأســماع وأشد اتصالا بالقــلوب وأخف على الافواه ، ولا سيما اذا كان المعنى البديع مترجما بلفظ مؤنق شريف ومعايرا بكلام عذب بدون تكلف ولا تعقيد ، فالمعنى الخفى أشــبه بالروح الخفى واللفظ الظاهر ، والا تضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيــح كتضاؤل الحسناء فى الأطمار الرثة .

ولا تكون مقتضبة . الثالث أن تكون ألفاظ الكتاب غير مُخْلَوْلقة بكثرة الاستعمال . ولا أُريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيبٌ فاحش بل أُريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير ما فى أيدى الناس ، وهى مما فى أيدى الناس ، وهناك مُعْترك الفصاحة التى تظهر فيه الخواطر براعتها والأقلام شجاعتها . وهذا الموضع بعيد المنال كثير الإشكال يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ، وليس كل خاطر بَرّاق إلى هذه الدرجة (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ) . ومع هذا فلا تظن — أيها الناظر فى كتابى — أنى أردت بهذا القول إهمال جانب المعانى بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه ، فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة فى حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله . والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسما لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعانى الشريفة على الوجه الذى أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها . ولقد رأيت كثيراً من الْجُهال الذين هم من السُّوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوّج بين لفظتين . فالعبارة عن المعانى هى التى بها تخلب العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى ، فإنه لا يمنع الجاهل الذى لايعرف علماً من العلوم أن يكون ذكيًّا بالفطرة .

واستخراج المعانى إنما هو بالذكاء لا بتعلُّم العلم .

فإذا استكملت معرفة هذه الأركان وأتيت بها فى كل كتاب بلاغى ذى شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمّى نفسك كاتباً .

(عن «المثل السائر» باختصار)

كيفية نظم الكلام

إذا أردتَ أن تصنع كلاماً فأخطِر معَانيه ببالكَ ، وتنقَّ له كرائمَ اللَّفظ ، واجعلْهَا على ذِكْرٍ مِنْكَ ليقرُبَ عليكَ تنَاوُلُهَا ولا يُتعبكَ تطلّبُهَا ، واعمله ما دُمْتَ فى شبابِ نشاطك ، فإذا غشِيكَ الفتورُ وتخوّنكَ الملالُ فأَمسك ، فإن الكثيرَ مع الملالِ قليل ، والنفيسَ مع الضجَرِ خسيسٌ ، والخواطر كالينابيع يُسْتَقى منها شىءٌ بعد شىءٍ ، فتجد حاجتكَ من الرّىِّ ، وتنالُ إربكَ من المنفعة ، فإذا أكثرتَ عليها نضبَ ماؤها ، وقلَّ عنكَ غَنَاؤُها . واعلَمْ أنَّ ذلك أجدى عليك مما يُعْطيكَ يومكَ الأَطْوَلُ بالكدِّ والمطالبَةِ والمجاهدةِ والتكلُّف والمُعاودة . وإيَّاكَ والتوعُّرَ، فإن التَّوَعُّرَ يسلمكَ إلى التعقيدِ والتعقيدُ هو الذى يَسْتهلك معانيكَ ويشينُ ألفاظكَ .

ومَنْ أَرَادَ مَعْنًى كريماً فليلتمسْ لَهُ لفظًا كريماً ، فإنَّ مِنْ حقِّ المعنى الشريفِ اللفظَ الشريفَ .

فإذا لم تجِد اللفظة واقعةً مَوْقِعهَا صائرةً إلى مستقرِّها حالَّةً فى مركزها مُتَّصلة بسلكها ، بل وجدتَها قلقةً فى مَوْضِعها نافرةً عَنْ مكانها فلا تُكْرِهْهَا على اغتصاب الأماكن والنزُول فى غَيْرِ أَوْطَانها . فإنكَ إنْ لم تَتَعَاطَ قريضَ الشِّعْرِ المنظومِ ولمْ تَتكلفِ اخْتِيَارَ الكلام المنثورِ ، لم يَعِبْك بذلكَ أَحَدٌ .

وإن تكَلَفْتَهُ ولم تكُنْ حاذقاً مطبوعاً ولا مُحْكماً لشأْنك بصيراً ، عابكَ من أنتَ أقل عيبًا منه ، وزرى(١) عليكَ منْ هو دونكَ .

فإن لم تَسْمَح لكَ الطَّبيعة بنظم الكلام فى أوَّلِ وَهْلَةٍ ، وتعصَّى عليكَ بعد إجالةِ الفكرةِ ، فلا تعجل ، ودعْه سحابةَ يَوْمِك ولا تضجر ، وأمهلْهُ سَوَادَ ليْلَتِك وعاودهُ عندَ نشاطكَ ، فإنكَ لَا تعدَمُ الإجابةَ والمُوَاتَاةَ . فإن تَمَنَّعَ عليك بعد ذلك — مع تَرْوِيح الخاطرِ وطولِ الإمهالِ — فتحول منْ هذه

(١) زرى : عاب .

الصناعة إلى أشهَى الصِّناعات إليك وأخفها عليك ، فإنكَ لم تشتّهها إلّا وبينكُمَا نسبٌ .

والشيءُ لا يحنُّ إلّا إلى ما شاكلَهُ .

وينبغي أن تعرفَ أقدارَ المعانى ، فتُوَازِنَ بينها وبينَ أَوْزَانِ المستمعينَ وبين أَقدَارِ الحالات ، فتجعلَ لِكُلِّ طبقةٍ كلاماً ، ولكلِّ حالٍ مقاماً ، حتَّى تقسم أَقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدَار المستمعينَ على أقدارِ الْحَالاتِ .

(من « كتاب الصناعتين » باختصار)

الطريق الى تعلم الكتابة

إنّ الطريق إلى تعلُّمِ الكتابة على ثلاثِ شُعَبٍ :

الأُولى : أَنْ يَتصفَّح الكاتبُ كتابةَ المتقدمين ، ويطّلع على أَوْضاعهم فى استعمالِ الأَلفاظ والمعانى ، ثمّ يحذوَ حذْوَهم ؛ وهذه أدنى الطبقاتِ عندى .

والثانية : أَنْ يمزجَ كتابة المتقدمينَ بما يَستجيدهُ لنفسه من زيادة حسنة ، إمّا فى تحسينِ أَلفاظ ، أَو فى تحسين معانٍ . وهذهِ هىَ الطبقة الوُسطى ، وهى أعلى من التى قبلها .

والثالثة : أَنْ لايتصفّحَ كتابةَ المتقدمينَ ولايطّلعَ على شىء منها ، بل يصرف همّه إلى حفظ القرآنِ الكريمِ وَعِدّةٍ من دواوينِ فُحُولِ الشعراء ممّن غلبَ على شعرهِ الإجادة فى المعانى والأَلفاظ . ثم يأْخذُ فى الاقتباس ، فيقومُ ويقعُ ويخطئُ ويصيبُ ويضلُّ ويهتدى حتى يستقيمَ على طريقة يفتتحُها لنفسه ، وأَخْلِقْ بتلك الطريق أن تكونَ مبتدعَةً غريبة لا شركة لأَحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريقُ هى طريق الاجتهادِ وصاحبُها يُعَدُّ إماماً فى فنِّ الكتابةِ ، إلّا أنها مُستوْعَرَةٌ جدًّا ، ولَا يستطيعُها إلا مَنْ رَزَقَهُ اللهُ لساناً هَجاماً وخاطرًا رقّاماً . ولا أُريدُ بهذه الطّريق أَن يكونَ الكاتبُ مُرتَبطًا فى كتابتِه بما يستخرجه منَ القرآنِ الكريمِ

والشِّعر ، بحيثُ أنّهُ لا يُنشئُ كتاباً إلّا مِنْ ذَلك ، بلْ أُريدُ أنَّهُ إذا حَفِظَ القُرآنَ وَأَكثَر من حفظ الأَشعارِ ثمَّ نقَّب عنْ ذلكَ تَنقيبَ مُطَّلع على معانيهِ مفتِّشٍ عنْ دفائنهِ وقلَّبهُ ظَهْرًا لبطن عرفَ حينئذ مِنْ أين تؤْكل الكَتِفُ فيما يُنشئه مِنْ ذَاتِ نفسهِ ، واستعانَ بالمحفوظ على الغريزة الطَّبيعية .

(عن «المثل السائر» باختصار)

كيفية تهذيب الكلام وأوقات تأليفه

تهذِيبُ الكلامِ : عبارة عن تردَادِ النظرِ فيه بعد عملهِ ـ نظمًا كان أَوْ نثرًا ـ وتغييرما يجبُ تغييرُهُ ، وحذف ما ينبغى حذفهُ وإصلاح ما يتعينُ إصلاحُه ، وتحريرِ ما يدقُّ مِنْ معانيه ، واطِّراح ما يتجافى عن مضاجع الرقةِ من غليظ أَلفاظه ، لتُشْرِق شُموسُ التهذيبِ فى سماءِ بلاغته ، وترشُف الأَسماعُ على الطرب رَقيق سُلافته ، فإن الكلام إذا كانَ مَوْصُوفاً بالمهذَّبِ ، منعوتاً بالمنقَّح ، علتْ رُتْبَتُهُ وإن كانت معانيهِ غير مبتكرة ، وكلُّ كلامٍ قيل فيه : لو كان موْضع هذه الكلمة غيرُها ، ولوْ تقدّمَ هذا المتأَخِّرُ وتأَخر هذا المتقدّمُ ، أَو لو تُممَ هذا النقص بكذا ، أَو لو حذفتْ هذه اللفظة ، أَو لو اتضح هذا المقْصد وسُهل هذا المطلبُ لكان الكلام أَحسن والمعنى أَبين ـ كان ذلك الكلام غير منتظمٍ فى نوع التهذيبِ .

وكان زُهيْر بن أَبى سُلمى معروفاً بالتَّنقيحِ والتَّهْذيبِ ، وله قصائدُ تعرفُ بالحوْليَّاتِ ـ قيل : إنه كان ينظِمُ القصيدة فى أَرْبَعةِ أَشهُر ، ويُهذبُها ويُنقِّحُها فى أَربعة أَشهرٍ ، ويعرضها على عُلماءِ قبيلتهِ أَربعة أَشهر ، ولهذا كان الخليفةُ عُمرُ بن الخطاب ـ مع جلالته فى العلمِ ، وتقدمِهِ فى النقد ـ يقدِّمه على سائر الْفُحُولِ من طبقته .

وما أَحسن ما أَشار أَبو تمام إلى التهذيب بقوله :

خُذْهَا ابنةَ الفكرِ المُهذَّبِ فى الدُّجَى والليْلُ أَسْودُ رقْعةِ الجلباب

فإنه خصّ تهذيبَ الفكر بالدُّجى لكون اللَّيْلِ تهدأُ فيه الأَصوات وتسكُنُ الحركاتُ ، فيكونُ الفكْرُ فيهِ مجتمعًا ومرآة التهذيبِ فيهِ صقيلة ، لخلو الخاطرِ وصفاءِ القريحةِ ، لاسيا وسط. الليْل .

قالَ أَبو عُبَادَةَ الْبُحْتُرِىُّ : كنتُ فى حداثتى أَروى الشِّعْرَ ، وكُنت أَرجع فيه إلى طبع سَليم ، ولم أَكُنْ وقفت له على تسهيلِ مأْخذٍ ووُجُوهِ اقتضاب حتى قصدت أَبا تَمَّامٍ وانقطعْتُ إليهِ واتَّكلْتُ فى تعريفه عليهِ ، فكان أَوَّلَ ما قال لى : يا أَبا عُبَادَةَ ، تخيَّرِ الأَوقاتَ وأَنتَ قليلُ الهُمومِ ، صِفْرٌ منَ الغُمومِ .

واعلم أَن العادَةَ فى الأَوقاتِ إذا قصدَ الإِنسانُ تأْليفَ شيءٍ أَو حِفْظَهُ أَن يختار وقتَ السحرِ ؛ وذلك أَن النفسَ تكونُ قدْ أَخَذَت حظَّها منَ الرَّاحةِ وقسطَهَا منَ النَّومِ وخف عليها ثِقَل الغذاءِ ؛ واحذَر المجهول منَ المعانى وإيّاك أَن تُشينَ شِعْرَك بالأَلفاظ الوحشيةِ وناسب بين الأَلفاظ والمعانى فى تأْليف الكلام ، وكُنْ كأَنكَ خياطٌ تُقَدِّرَ الثيابَ على مقَاديرِ الأَجسام ، وإذا عارَضَكَ الضجرُ فأَرِحْ نَفسكَ ولا تعملْ إلا وأَنتَ فارغ القلبِ ولا تنظمْ إلا بشهوةٍ ، فإِن الشهوة نعمَ المعين على حُسنِ النَّظمِ ، وَجُملةُ الحال : أَن تعتبرَ شعرَكَ بما سلف من أَشعارِ الماضينَ ، فما استَحْسَنَ العلماءُ فاقصده وما استقبحُوهُ فاجتنبهُ .

(عن «خزانة الأدب ـ وزهر الآداب» باختصار)

محاسن الانشاء ومعايبه

إنَّ للنثر محاسنَ ومعايبَ ، يجبُ على المنشئ أَنْ يفرّقَ بينهما مُحترزًا استعمال الأَلفاظِ الغريبة ، ولا يخلُّ بفَهم المرادِ ويوجبُ صعوبتَه ـ ولا بدّ من أَنْ يجعلَ الأَلفاظ تابعةً للمعانى دون العكسِ ، لأَنَّ المعانى إذا تركتْ على

سَجيتّها طلبتُ لأَنفسها أَلفاظاً تليقُ بها فيحسنُ اللفظُ والمعنى جميعًا ، وأَما جعلُ الأَلفاظِ متكلفة والمعانى تابعةً لها ، فهو شأن من لهم شغفٌ بإيراد شيءٍ من المحسِّنات اللفظية فيصرفون العنايةَ إِليها ، ويجعلون الكلامَ كأنَّه غير مسبوقٍ لإِفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاءِ الدلالات وركاكة المعنى .

ومن أَعظم ما يليق بمن يتعاطى الإنشاءَ أَن يكتب ما يُراد لا ما يُريد ، كما قيل فى الصَّاحب والصَّابئ : إن الصابئ يكتب ما يُراد ، والصاحبَ يكتبُ ما يُريد .

(عن «آداب المنشئ» ببعض تصرف)

فصاحة الألفاظ ومطابقتها للمعانى

فصاحة الأَلفاظ تكون بثلاثة أَوجه :

الأَول : مجانبةُ الغريب الوحشيِّ حتى لا يمجّه سمعٌ ، ولا ينفر منه طبعٌ .

والثانى : تنكبُ اللفظِ المبتذلِ ، والبعد عن الكلام المستَرذل حتى لا يستسقِطُه خاصيٌّ ، ولا ينبو عنهُ فهمُ عاميّ ، كما قال الجاحظ فى كتاب البيانِ : أَما أَنا فلم أَرَ قوماً أَمثلَ طريقة فى البلاغةِ من الكتَّابِ : وذلك أَنهم قدِ التمسوا منَ الأَلفاظ ما لَمْ يكنْ مُتَوَعِّرًا وحشيًّا ، ولا ساقطًا عاميًّا .

والثالثُ : أَنْ يكونَ بينَ الأَلفاظِ ومعانيها مُناسبةٌ ومُطابقةٌ .

أَما المطابقَةُ : فهى أَنْ يكونَ بين الأَلفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تَزِيد عليها ولا تنقصُ عنها .

وأَمّا المناسبةُ : فهى أَنْ يكونَ المعنى يليقُ ببعض الأَلفاظِ - إما لعُرف مستعمل ، أَو لاتفاقٍ مستحسنٍ - حتى إذا ذُكرَت تلك المعانى بغير تلك

الأَلفاظِ كانتْ نافرةً عنها ، وإن كانتْ أفصحَ وأوضحَ لاعتياد ماسوَاها .

(عن « أَدب الدين والدنيا » باختصار)

حقيقة الفصاحة

اعلم أَنَّ هذا موضوع متعذِّرٌ على الوالج ، ومسلكٌ مُتَوَعِّرٌ على الناهجِ ، ولم تزل العلماءُ من قديمِ الوقت وحديثه يكثرون القَوْلَ فيهِ والبحثَ عنهُ ، ولم أَجِدْ من ذلك ما يعوّل عليهِ إلَّا القليلَ ، وغاية ما يقالُ فى هذا البابِ : إنَّ الفصاحةَ هى الظهورُ والبيان فى أَصلِ الوَضعِ اللغوىِّ – يقال : أَفصح الصبحُ إذا ظهرَ ، ثم إنهم يَقِفُونَ عند ذلك ولا يكْشِفُونَ عن السِّرِّ فيهِ ، وبهذا القَوْل لا تتبيَّنُ حقيقة الفصاحةِ ، لأَنَّه يُعْتَرَضُ عليهِ بوجُوهٍ منَ الاعتراضات .

الوجه الأَول : إذا لم يَكُنْ اللفظُ ظاهرًا بَيِّنًا لم يَكُنْ فصيحاً ثم إذ ظهرَ وتبيَّنَ صارَ فصيحًا .

الوجه الثانى : أَنه إذا كانَ اللَّفظُ الفصيح هو الظاهر البيِّن فقد صارَ ذلك بالنِّسَبِ والإضافات إلى الأَشخاص ؛ فإنَّ اللفظَ قد يكون ظاهرًا لزَيْدٍ ولايكون ظاهرًا لِعَمْرٍو ، فهوَ إذًا فصيحٌ عند هذا ، وغير فصيحٍ عند ذاك ؛ وليس كذلك بل الفصيح هو فصيحٌ عند الجميع لاخلاف فيه بحالٍ من الأَحوالِ ولأَنه إذا تحقّقَ حدُّ الفصاحة وعُرف ما هى ، لم يبق فى اللفظ الذى يختصُّ به خلافٌ .

الوجهُ الثالث : أَنه إذا جىءَ بلفظٍ قبيح ينْبو عنه السَّمْعُ وهو مع ذلك ظاهر بَيِّن ينبغى أَن يكون فصيحًا ، وليس كذلك لأَنَّ الفصاحةَ وصفُ حُسْنٍ للفظ لا وصفُ قبح .

ولما وقفتُ على أَقْوَال النّاسِ فى هذا الباب ملكْتنِى الْحَيرة فيها ،

ولم يثبُتْ عندى منها ما أُعَوِّلُ عليه ، ولكثرةِ مُلابستى هذا الفنِّ ومُعاركتى إيَّاهُ ، انكشف لِىَ السِّرُّ فيه . وسَأُوَضِّحُهُ فى كتابى هذا وأُحَقِّقُ القول فيه فأقولُ :

إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البَيِّن ، وأَعنى بالظاهر البَيِّن : أَن تكون أَلفاظه مفهومة لا يُحتاجُ فى فهمها إلى استخراج لُغَةٍ .

وإنما كانت بهذه الصفةِ لأَنَّها تكونُ مأْلوفة الاستعمال بين أَربابِ النظم والنثر دائرةً فى كلامهم ، وإنما كَانت مأْلوفة الاستعمالِ دائرة فى الكلام دَون غيرها من الأَلفاظ لمكان حُسْنِهَا ، وذلك أَن أَرباب النظم والنثر غَرْبَلوا اللغة باعتبارِ أَلفاظها ، وسَبَرُوا وقَسَّموا ، فاختارُوا الحسن من الأَلفاظِ حتى استعملُوه وعلموا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحُسنُ الاستعمال سببُ استعمالها دُونَ غيرها ، واستعمالُها دُونَ غيرها سَبَبُ ظُهورها وبيَانها ؛ فالفَصِيحُ إذًا مِنَ الأَلفاظ هو الحسنُ .

فإن قيل : مِنْ أَىِّ وجه عَلِمَ أَرباب النَّظْم والنَّثر الحسن مِنَ الأَلفاظِ حتى استعملوه ، وعلموا القبيح منها حتى نَفَوْهُ ، ولم يستعملوهُ ؟ قُلتُ فى الجواب : إنَّ هذا من الأُمور المحسُوسة التى شاهدُوها من نفسها ؛ لأَن الأَلفاظَ داخلةٌ فى حيِّز الأَصوات ، فالذى يستلذهُ السَّمعُ منها ويميلُ إليه هو الحَسَنُ والذى يكرهُهُ ويَنْفِرُ عنه هُوَ القبيحُ . أَلا تَرَى أَن السَّمعَ يستلذُّ صَوْتَ البُلْبلِ من الطيْرِ وصوتَ الشَّحْرُرِ ويميلُ إليهما ، ويكرهُ صوتَ الغرابِ ويَنْفُرُ عنه ؟ وكذلك يكرَهُ نهيق الحمار ، ولا يجدُ ذلك فى صهيل الفَرَس؟ والأَلفاظُ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنه لا خلاف فى أَن لفظَةَ المُزْنة والديمة حسنةٌ يستلذُّها السَّمع ، وأَنَّ لفظة البُعَاق قبيحة يكرهها السمع ، وهذه اللفظات من صفة المطر ، وهى

تدلُّ على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظَتى المزنةِ والدّيمة وما جرى مجْرَاهُما مأْلوفتى الاستعمال ، وترى لفظ البعاقِ ، وما جرى مجراه متروكاً لا يُسْتَعْملُ ، وإن اسْتُعْمل فإنما يَسْتَعْمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو منْ ذَوْقُه غير ذوْق سليم .

ولا جرَم أنه ذُمَّ وقُدح فيه ولم يُلتفت إليه وكان عربيًّا محضًا من الجاهلية الأَقدمين ؛ فإن حقيقة الشيء إذا عُلِمَتْ وجب الوقوفُ عندها ولم يُعَرِّج على ما خرج عنها .

(عن « ابن الأَثير » باختصار)

الانسجام

الانسجامُ لغة : جريان الماء ، وعند أهل البلاغة : هو أَن يأْتى الناظم أَو الناثر بكلام خالٍ من التَّعْقيد اللفظى والتَّعقِيد المعنوى ، بسيطًا مفهوماً دقيق الأَلفاظِ جليل المعنى ، لا تكُّلف ولا تعَسّفَ فيه ، يتحدّرُ كتحدر الماءِ المنْسَجِمِ ، فيكادُ لسهولة تركيبه ، وعذوبة ألفاظه ، أَن يسيل رِقةً .

ولا يكون ذلك إلّا فى من هو مطبوعٌ على سلامةِ الذَّوْقِ ، وتوقد الفكرة وبراعة الإنشاءِ وحُسْن الأَساليبِ .

وإنَّ فحول هذا الميدانِ ما أثقلوا كاهل سُهُولته بِنَوْعٍ من أَنواع البديعِ ، اللهُمْ إلا أَن يأْتى عفوًا من غير قصد .

وعلى هذا أَجمع علماءُ البديع فى حدّ هذا النوع ، فإنهم قرروا أَن يكون بعيدًا عن التصنع ، خالياً من الأَنواع البديعيَّة إلا أَن يأْتى فى ضمْنِ السُّهولة من غير قصد ، فإن كان الانسجام فى النثر تكون أَغلب فقرَاتِه موزونة من غير

قصدٍ ، وإن كان فى النظم فتكادُ الأَبياتُ أَن تسيلَ رقةً وعذوبة ، ورُبما دخلت فى المُطْرِبِ المُرْقص .

(عن « بديعة العميان وبديعة الحموى »)

حل الشعر

حلُّ الأَبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أَقسام :

الأَول منها وهو أَدناها مَرْتَبَةً : أَن يأخذ الناثرَ بيتاً من الشعر فينثرُه بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيبٌ فاحشٌ . ومثاله كمن أَخذ عِقْداً قد أَتقن نظمه وأَحسن تأليفه فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ ، وكان يقوم عذره فى ذلك أَن لو نقله عن كَوْنه عقداً إلى صورة أُخرى مثله أَو أَحسن منه ، وأَيضاً فإِنه إِذا نُثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السَّرِقة ، فيقال : هذا شعرُ فلان بعينه ، لكون أَلفاظه باقيةً لم يتغير منها شىءٌ ؛ وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاءَ مُسْتهجناً ، كقوله فى حل بعض أَبيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىَّ كَأَنَّما تَغْلِى عَدَاوةُ صدرِهِ فى مِرْجَلِ
أَزْجَيْتُهُ عنى فأَبصرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النواظر من عَلِ

إذ قال فى نثر هذين البيتين : « فكم لقى أَلدَّ ذا حَنَق كأَنه ينظر إلى الكواكب من عل ، وتغلى عداوة صدره فى مرجل ، فكَوَاهُ فوق ناظريه وأَكَبَّه لفمه ويديه » . فلم يزد هذا الناثرُ على أَن أَزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير .

ومن هذا القسم ضربٌ محمودٌ لا عيب فيه ، وهو أَن يكون البيت من الشعر قد تضمَّن شيئاً لا يُمكن تغيير لفظه فحينئذ يُعذر ناثرُه إذا أَتى بذلك اللفظ ، وكذلك الأَمثال السائرة فإِنه لا بد من ذكرها على ماجاءَت فى الشعر .

وأما القسم الثانى – وهو وَسَطٌ بين الأول والثالث فى المرتبة – فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبر عن البعض بألفاظٍ أُخَر ، وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشابهة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المُرْتجلة . فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعر مجيد ، قد نَقَّحَه وصَحَّحَه فقَرَنه بما لا يلائمه ، كان كمن جمع بين لُولُؤة وحصاة ، ولا خفاء فى ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن ، والطريق المسلوك إلى هذا القسم : أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن ما فيه ثم تماثله .

وسأوردُ هنا مثالا واحداً ، ليكون قدوة للمتعلم ، فأقول : قد ورد هذا البيت من شعر أبى تمام فى وصف قصيدة له :

حذاء تملأُ كل أُذْنٍ حِكمةً وبلاغةً وَتُدِرُّ كل وريد

فقوله (تملأُ كلَّ أُذْنٍ حكمة) من الكلام الحسن ، وهو أحسن مافى البيت فإذا أردت أن تنثر هذا البيت فلا بد من استعمال لفظه بعينه ، لأنه فى الغاية القُصْوى من الفصاحة والبلاغة ، فعليك حينئذ أن تُؤاخيه بمثله .

وهذا عَسِرٌ جداً ، وهو عندى أصعب منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ، لأنه مسلك ضيقٌ لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثرُهُ على حسب ما يراهُ ، ولا يكون مقيَّداً فيه بمثال يضطر إلى مُؤاخاته ، وقد نثرْتُ هذه الكلمات المشار إليها وأتيتُ بها فى جملة كتاب فقلتُ : وكلامى قد عرف بين الناس واشتهر ، وفاق مسير الشمس والقمر ، وإذا عُرِف الكلام صارت المعرفة له علامةً وأُمِنَ من سرقته ، إذ لو سُرِقَ لدلَّتْ عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أن يملأَ كل أُذْن حكمة ، ويجعل فصاحة كل لسان عجبة ، وإذا جرت نفثاته فى الأفهام ، قالت : أهذه بنت فكرة أم بنت كَرْمة ؟

فانظر كيف فعلت فى هذا الموضع ، فإنى [حين] أَخَذْتُ تلك الكلمات من البيت الشعرى التزمت بأَن أُؤاخيها بما هو مثلها أَو أَحسن منها ، فجئت بهذا الفصل كما تراه ، وكذلك ينبغى أَن يُفعل فى ما هذا سبيله .

وأَما القسم الثالث — وهو أَعلى من القسمين الأَوَّلين — فهو أَن يؤخذ المعنى فيصاغ بأَلفاظٍ غير أَلفاظِهِ . ومن ثم يتبينُ حِذْقُ الصائغ فى صياغته ويعلم مقدارُ تَصَرُّفه فى صناعته ، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدَّرَجَة العالية ، وإلَّا أَحسن التصرف وأَتقن التأليف ليكون أَولى بذلك المعنى من صاحبه الأَول .

واعلم أَن من أَبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فَيُورِدُه بضروب من العبارات وذلك عندى شبيهٌ بالمسائل السَّيَّالة فى الحساب التى يُجَاوب عنها بعدة من الأَجوبة ومن الأَبيات ما يضيق فيه المجالُ حتى ما يكاد الماهر فى هذه الصناعة أَن يخرج من ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظير . فأَمَّا ما يتسع المجال فى نثره فكقول المتنبى :

لا تعْذِلُ المشتاق فى أَشواقه حتى يكون حشاك فى أَحشائه

وقد نثرتُ هذا المعنى ، فمن ذلك قولى : لا تعذل المحب فى ما يهواه حتى تطوى القلب على ما طواه . ومن ذلك وجه آخر ، وهو : إذا اختلفت العينان فى النظر فالعذل ضرب من الهذر ، وأَما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل أَلفاظه كقول أَبى تمام :

تردَّى ثياب الموت حُمْراً فما أَتى لها الليلُ إلا وهى من سندس خضر

قصد أَبو تمام المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب من الأَحمر والأَخضر ، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذى أَرادهُ من لون ثياب القتلى وثياب الجنة . وهذا البيت لا يمكن تبديل أَلفاظه ، وهو وأَمثالُهُ مما يجبُ على الناثرِ أَن يُحْسِن

الصنعة فى فك نظامه لأنه يتصدى لنثره بألفاظه ، فإن كان عنده قُوَّة تصرُّفٍ وبَسْطة عبارة ، فإنه يأتى به حسناً رائقاً .

وقد قلت فى نثره : لم تَكْسه المنايا نسج شفارها حتى كَسَتْهُ الجنة نسج شعارها فَبُدِّلَ أَحمر ثوبه بأَخضره ، وكأْس حمامه بكأْس كَوثره .

وإذا انتهى بنا الكلام إلى هٰهنا فى التنبيه على نثر الشعر ، وكيفية نثره وذكْر ما يسهل منه ، وما يعسُرُ ، فلنتبع ذلك بقولٍ كُلِّىّ فى هذا الباب فنقول :

من أَحبَّ أَن يكون كَاتباً ، أَو كَان عندَهُ طبعٌ مجيبٌ ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأْخذ فى نثر الشعر من محفوظاته .

وطريقه : أَن يبتدى فيأْخذ قصيداً من القصائد ، فينثره بيتاً بيتاً على التوالى .

ولا يستنكف فى الابتداء أَن ينثر الشعر بأَلفاظه أَو بأَغلبها ، فإنه لا يستطيع إلا ذلك .

وإذا مَرِنت نفسه ، وتدرَّب خاطره ، ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأْخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك فيكسوه ضروباً من العبارات المختلفة ، وحينئذ يحْصُلُ لخاطره بمباشرة المَعانى لِقَاحٌ ، فيستنتج منها معانى غير تلك المعانى .

وسبيله : أَن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة ، فإذا كَتَبَ كِتاباً أَو خطب خطبة تدفَّقَتِ المعانى فى أَثناء كلامه وجاءت أَلفاظه معسولة ، وكَان عليها جدة حتى تكاد ترقص رقصاً ، وهذا شيء خبرته بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير .

(عن « المثل السائر » باختصار)

التخلص والاقتضاب فى مواضيع الانشاء

التخلص : هو أن يأْخذَ مؤلف الكلام فى معنًى من المعانى ، فبينما هو فيه إذ أخذ فى معنى آخر غيره ، وجعل الأَول سبباً إليه ، فيكونُ بعضُه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطعَ كلامَه ، ويستأْنف كلاماً آخرَ ، بل يكون جميع كلامه كأَنما أُفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدلُّ على حذق الشاعر وقوة تصرُّفه من أَجل أَن نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متَّبعاً للوزن والقافية ، تُؤْاتيه الأَلفاظ على حسب إرادته .

وأَما الناثر فإِنه مطلق العنان يمضى حيث شاءَ ، فلذلك يشقُّ التخلُّصُ على الشاعر أَكثر مما يشق على الناثر ، ومما جاءَ من التخلصات الحسنة قول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ ﻫ :

خَلِيلَيَّ إنِّى لا أَرى غير شاعرٍ   فَلِمْ منهم الدعوى ومنِّى القصائدُ
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ،   ولكنَّ سيْف الدولة اليوم واحدٌ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، أَلا ترى أَن الخروج إلى مدح الممدوح فى هذه الأَبيات كأَنه أُفرغ فى قالب واحد ؟

والاقتضاب : أَن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ، ويستأْنف كلاماً آخر غيره من مديح أَو هجاءٍ أَو غير ذلك ، ولا يكون للثانى علاقة بالأُول : كقول أَبى نواس ـ المتوفى سنة ١٩٨ ﻫ ـ فى قصيدته النُّونية التى لم يكمِّل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ؛ فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فاسقنى كأْساً على عذلٍ   كرِهتْ مسموعه أُذنى
من كُمَيْتٍ اللّون صافية   خير ما سَلستَ فى بدنى
ما استقرت فى فؤاد فتًى   فَدَرى ما لوعة الحزن

حتى قال :

تَضحكُ الدنيا إلى مَلكٍ قام بالآثار والسُّنَنِ
سَنَّ للنَاس النَّدَى فندَوْا فكأَن البُخلَ لم يكُن

وإذا لم يحسن التخلص ، بأَن كَان قبيحاً ممسوخاً فالاقتضابُ أَولى منه .

فينبغى لسالك هذه الطريقة أن ينظر إلى ما يَصوغُه ، فإن أَتاهُ التخلصُ حَسناً كما ينبغى ، وإلا فليدعه ولا يستكرهْهُ ، حتى يكونَ مثلَ هذا .

واعلم أَن التخلص غيرُ ممكن فى كل الأَحوال ، وهو من مُستصعبات علم البيان فليتدبر الشاعر ذلك .

(عن « المثل السائر » بتصرف)

كيفية افتتاح مواضيع الانشاء وختامها

الافتتاحُ أَن تجعل مَطلع الكلام من الشِّعر أَو الرسائل دالّاً على المعنى المقصود من ذلك الكلام : إن كَان فتحاً ففتحاً ، وإن كَان هناءً فهناءً ، أَو كَان عزاءً فعزاءً وهكذا . وفائدته أَن يُعرف من مبدإِ الكلام ما المراد منه ، فإذا نظم الشاعر قصيدة ــ فإن كانت مديحاً صِرفاً لا يَختصّ بحادثة من الحوادث ، فهو مخيرٌ بين أَن يفتتحها بغزل ، وبين أَن يرتجل المديح ارتجالا من أَوَّلها ــ كقول القائل :

إن حارَتِ الأَلبابُ كيف تقولُ فى ذا المَقَامِ فعُذرُها مَقْبولٌ
سامِحْ بفَضْلكَ مادِحيك فما لهم أَبداً إلى ما تستحق سبيلُ
إن كان لا يُرضيكَ إلا مُحسنٌ فالمُحسنون إذَنْ لديك قليلُ

وأَما إذا كان القصيدُ فى حادثة من الحوادثِ كفتح مُقْفَل ، أَو هزيمة جيش أَو غير ذلك ، فإنه لا ينبغى أَن يُبدأَ فيه بغزل ، ومن أَدب هذا النوع أَن لا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح ما يُتطيرُ منه أَو يُستقبحُ ، لا سيما إذا كان فى التهانى

فإنه يكون أَشدَّ قبحاً ، وإنما يُسْتَعْمَلُ فى الخطوب النازلة ، والنوائب الحادثة ، ومتى كَان الكلامُ فى المديح مفتتحاً بشيءٍ من ذلك ، تَطيَّر منه سامعه ، وإنما خُصَّت الابتداءَات بالاختيار لأَنها أَول ما يَطرُق السمعَ من الكلام ، فإذا كان الابتداءُ لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على استعماله . والختامُ : أَن يكون الكلامُ مُؤْذناً بتمامه ، بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى ، فلا ينتظرُ السامع شيئاً بعده ؛ فعلى الشاعر والناثر أَن يتأَنَّقا فيه غاية التأَنُّق ، ويُجوِّدا فيه ما استطاعا لأَنه آخر ما ينتهى إلى السمع ، ويتردَّدُ صداهُ فى الأَذن ، ويعلَقُ بحواشى الذِّكْر فهو كَمَقْطع الشراب ، يكون آخر ما يَمرُّ بالفَمِ ، ويُعْرَضُ على الذَّوْق ، فَيَشعُرُ منه بما لا يشعُرُ من سِواهُ ، ولذلك ينبغى أَن يكون الختامُ مُميَّزاً عن سائر الكلام قبلَه بنكْتةٍ لطيفةٍ أَو أُسلوبٍ رشيق أَو معنًى بليغ ، ويُختار له من اللفظ. الرَّقيقُ الحاشيةِ ، الخفيفُ المحمل على السمع والسهلُ الوُرُودِ على الطَّبع ، ويتجافى به عن الإِسهاب والتعقيد والثِّقَل ، وغير ذلك . وحُكمُ الختام كما سبق أَن يكون مُؤْذناً بتمام الكلام بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى فلا ينتظر السامع شيئاً بعدَهُ ، وإذا لم يكن المعنَى دالاًّ بنفسه على الختام حَسُن أَن يُدَلَّ عليه بكلام آخرَ ، يُذكر عَقِبَ الفراغ من سِياقه الأَغراض السابقة ، وحكمه أَن يكون مُنتزعاً مما سبقه فيُقَفَّى به تقريراً لشيءٍ من الأَغراض أَو إجمالاً لِمُفَصَّلها ، مُورداً على وجه من وجُوه البلاغة ، أَو الكلام الجامع ، أَو مخرَج المثل ، أَو الحكمةِ ، أَو ما شا كل ذلك ، مما تعلقُهُ الخواطر وتُقيدهُ الأَذهان ، كقول المتنبى المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

وَمَا أَخُصُّكَ فى بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ ... إذا سَلِمْتَ فكلُّ الناس قدسَلِمُوا

وكقول الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى ختام إحدى مقالاته : « إن الطيش فى الكلام يُترجِمُ عن خِفةِ الأَحلام ، وما دَخَلَ الرِّفْقُ شيئاً إلا زانهُ ، وما زان المتكلم إلا الرَّزانةُ » .

وأما فى غير ذلك ، فالأكثرُ فيه يُضَمَّنُ غرضاً آخر من الدعاء ، أو عَرْضِ النفس على خدمة المكتوب إليه ، أو توقُّع الجوابِ منه ، أو غير ذلك ممَّا تحتَمله مقاماتُ الكلام ، وتقتضيه دواعى الحال .

وأكثر ما يختمونها فى النثر بعد الأغراض المذكورة بقولهم : « إن شاء الله » أَوْ « بمنِّ الله وفضله » وما أشبه ذلك .

وكثيرا ما يختمُ الناثر بقوله : « والسلام » أو « بلَا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله » أو بقوله : « واللهُ المستعان » أو بقوله : « والحمدُ لِلهِ أوَّلاً وآخراً ، باطناً وظاهراً » أو بقوله : « والله أعلم » أو غير ذلك .

وربُما خُتم بِمَثَلٍ ، كَخِتَام الْخوارزْمِىِّ المتوفى سنة ٣٨٣ ه رسالته بقوله : « ولقد سلك الأمير منَ الكَرمِ طريقاً يستوحش فيها لِقلَّة سالكها ، ويتيه فى قفارها لدروس آثارها ، وانهدام منازلها ، أعانه الله على صعوبة الطريق ، وقِلَّة الرفيق ، وألهمَهُ صبراً يُهوِّن عليه احتمالَ المَغارِمَ ، ويقرب عليه مسافة المكارم . فبالصبر تنال العُلَا ، وعند الصَّباح يُحْمَدُ القوم السُّرَى » .

ومن أمثلته فى الشِّعر قَول ابن الوَرْدِى المتوفى سنة ٧٤٩ ه :

سلامٌ عَليكم مَا أحبّ وِصالكم وغايَةُ مجهودِ المُقلِّ سَلَام

تقسيم الانشاء الى فنى النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم يدور على فنين : فن الشعر المنظوم ، وهو الكلام المقفّى الموزون بأوزان مخصوصة ، وفن النثر ، وهو الكلام غير الموزون . فأما الشعر فمنهُ المدح والهجاءُ ، والرثاءُ . وأما النَّثر فمنه ما يؤتى به قِطعاً ويُلْتزم فى كل كلمتين منه قافيةٌ واحدة ويسمى سَجْعاً . وهو ثلاثة أقسام : القسم الأول :

أن يكون الفصلان متساويين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مثل قوله تعالى : (فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَاتَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَاتَنْهَر) وهو أشرف السجع منزلة للاعتدال الذى بيه .

والقسم الثانى أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول ، طولًا لايخرج به عن الاعتدال خروجاً كثيراً ، فإنه يقبح عند ذلك ويُسْتكره ، ويعد عيباً ؛ فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لمن كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيرا . إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لها تَغَيُّظاً وَزَفيراً . وإذا أُلْقُوا منها مكاناً ضَيِّقاً دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورا)(١) ، فالفصل الأول ثمان لفظات ، والثانى والثالث تسعٌ تسع ؛ ويستثنى من هذا القسم : ما كان من السجع على ثلاث فِقَر ، فإن الفقرتين الأوليين تحسبان فى عدة واحدة ، ثم تأتى الثالثة فينبغى أن تكون طويلة طولا يزيد عليهما ، وقد تكون الثلاث متساويات ، كقوله تعالى : (فى سِدْرٍ(٢) مَخْضُودٍ(٣) وَطَلْحٍ(٤) مَنْضُودٍ وَظِلٍّ ممدُودٍ(٥)) .

والقسم الثالث : أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وهو عيب فاحش(٦) . وأما النثر المرسل ، فهو ما يؤتى به قطعاً من غير تقيد بقافية ولا غيرها وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يُقَطَّع أجزاءً ، بل يُرْسَلُ إرسالا من غير تقيد بقافية .

(من «المثل السائر» باختصار)

---

(١) ويلا . (٢) شجر النبق .
(٣) مقطوع شوكه . (٤) الموز .
(٥) متراكم بعضه فوق بعض .
(٦) للسجع أربعة شروط : اختيار المفردات الفصيحة ، واختيار التأليف الفصيح ، وكون اللفظ تابعا للمعنى لا عكسه ، وكون كل واحدة من الفقرتين أو الفقرة دالة على معنى لئلا يصبح الكلام طويلا معيبا .

كيفية عمل الشعر

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً :

أولهما : الحفظ (١) من جنسه – أى من جنس شعر العَرَبِ – حتى تنشأ فى النفس ملكة يُنسج على منوالها ، ويُتَخَير المحفوظ من الحر النقى الكثير الأساليب وهذا المحفوظ المختار أقلُّ ما يكفى فيه شعر شاعر من فحول الإسلام ، مثل : عمر بن أبى ربيعة ، وكُثَيِّر ، وذِى الرُّمَّة ، وجرير ، وأبى نواس ، وأبى تمام ، والبُحْترى ، والشريف الرَّضى ، وأبى فراس ، وأَكْثَرُهُ شعر « كتاب الأغانى » لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية .

ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظوم فيه ، باشتماله على مثل المياه والأزهار ، كما يستحسن استجادة المسموع ، لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله ، فشرطه أن يكون على جمام (٢) ونشاط فذلك أجمع له ، وأنشط للقريحة أن تأتى بمثل ذلك المنوال الذى يساعد فى حفظه ، قالوا : وخير الأوقات لذلك أوقات البُكَرِ (٣) عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وربما يكون من بواعثه العشق والإنشاء .

(١) ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ردىء – ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط . واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم وبالاكثار منه تستحكم الملكة وترسخ ، وربما يقال : ان من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة ، اذ هى صادرة عن استعمالها بعينها . فاذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ فى النسيج عليه بمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

(٢) الراحة . (٣) جمع بكرة وهو الصباح ووزانه غرفة وغرف

قالوا : فإن استصعب عليه بعد ذلك ، فليتركه إلى وقت آخر ، ولا يُكْره نفسه عليه ، وليكن بناءُ البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ، يضعها ويبنى الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صَعُبَ وضعها فى محلها ، فربما تجىءُ نافرة قلقة . وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذى عنده ، فليتركه إلى موضعه الأليق به ، فان كل بيت مستقل بنفسه ، ولم تبق إلا المناسبة ، فليتخير فيها كما يشاءُ ،وليراجع شعره بعد الخلاص منه ، بالتنقيح (١) والنقد ، ولا يضن (٢) به على الترك إذا لم يبلغ الإجادة ،فإن الإنسان مفتون بشعره ، إذ هو بنات فكره واختراع قريحته ، ولا يستعمل فيه إلا الأفصح من التراكيب . والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فإنها تنزلُ بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان على المولد(٣) ارتكاب الضرورة ، إذ هو فى سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ، ويجتنب أيضاً المقعد من التراكيب جهده ، بحيث تكون ألفاظه على طِبْق معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم ، ويجتنب أيضاً الوحشى من الألفاظ ، والمقصر ، وكذلك السوق المبتذل ، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً ، فيصير مبتَذَلاً ، ويقرب من عدم الإفادة ، وفى هذا القدر كفاية لمتعاطى صناعة الإنشاء .

(عن «ابن خلدون» باختصار)

---

(١) بالتهذيب .

(٢) بفتح الضاد وكسرها لا يبخل .

(٣) هو من وجد بعد اختلاط العجم بالعرب كالعباس بن الأحنف ومن بعـــده .

فنون الانشاء

فنون الإنشاء سبعةٌ وهى : المُكاتباتُ ، والمُناظراتُ ، والأَمثالُ ، والأَوصافُ ، والمقاماتُ ، والرواياتُ ، والتاريخ

الفن الأول

فى المكاتبات والمراسلات

المكاتبة ، وتعرف أيضاً بالمراسلة ، هى مخاطبة الغائب بلسان القلم ؛ وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث أنها تُرْجمان الجنان ، ونائب الغائب فى قضاء أوطاره(١) ، ورباط الوداد مع تباعد البلاد .

وطريقة المكاتبة هى طريقة المخاطبة البليغة مع مُرَاعاة أَحوال الكاتب والمكتوب إليه والنسبة بينهما(٢) ؛ وخواصُّها خمس : السذَاجة ، والجلاء ، والإيجازُ ، والملاءَمَةُ ، والطَّلَاوَة(٣) . فالسَّذَاجة : تجعل الكلام فطريًّا سليماً من شوائب التكلف ، منزَّهاً عن زخرف(٤) القول ، بعيداً عن بَهْرَجَة(٥) الكلام . والجلاء : هو العدول عن الكلام المغلق ، والتشابيه المستبعدة ، والتراكيب الملتبسة إلى الكلام المهَذَّب الصريح . والإيجازُ : تنقيحُ الرسالة من حشو الكلام ، وتطويل الجمل ، فيبرزها وافية الدلالة على المقصود ، مقتصرة على

(١) الحاجات . (٢) قال ابراهيم بن محمد الشيبانى : اذا احتجت الى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها فى مراسلتك . فلا تكتب لمن أصيب فى ماله أو فى عياله كما تكتب لمن فرغ باله ووفر ماله . وقال آخر : ان بلاغة الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين بالنسبة الى المتكلم ـ واعلم أن لكل مقام مقالا .

(٣) بتثليث الطاء . (٤) مزوره . (٥) العدول عن الجادة المقصودة .

المُحَسِّنات القريبة المنال(١) . والملاءمة : تنزل الأَلفاظ والمعانى على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، فلا تُعْطِى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام ، على أَنها تجعل الرسالة وتعابيرها مُسْتعذبة الأَوضاع ، حسنة الارتباط ، يأْخُذُ بعضها بأَزِمَّةِ بعض . والطلاوة : تكسو الكلام رونقاً وإشرافاً بجودة العبارة وسلامة المعانى وسلاسة الأَلفاظ (٢) . وتجعله بذلك أَحسن موقعاً عند سامعه.

أبواب الرسائل

تنقسم الرسائلُ باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أَقسام : الأَول الرسائل الأَهلية والثانى الرسائل المتداولة ، والثالث الرسائل العلمية

الكلام على الرسائل الأهلية

الرسائلُ الأَهلية ــ وتُعْرَفُ برسائل الأَشواق ــ هى ما دارت بين الأَقارب والأَصدقاء ، وأَسفَرَتْ(٣) عن مَكْنُون(٤) الوداد ، وسرائر الفؤاد ، ولا حَرَجَ على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على سجيته ، وأَخفى السؤال فى أَحوال أَصحابه . وتنفرد هذه الرسائل بأَن يُطلق الكاتب فيها العنان للقلم ، ويتجافى عن الكلفة ويعدل عن الانقباض . وقد قيل : « الأُنْسُ يُذْهِبُ المهابة ، والانقباض يُضَيِّعُ المَوَدَّة » . هذا ولا بد من مراعاة مقتضى الحال ، والاعتصام بركْنِ الفطنة أَخذاً بقول أَبى الأَسود الدُّؤلى :

لا تُرْسِلَنَّ رِسَالة مشهورَةً ‏ ‏ ‏ ‏ لا تستطيعُ إذا مَضَتْ إدراكها

---

(١) ولا يعد مناقضا للايجاز ما يستدعيه المقام من البسط فى الموضوع : أما تعزيزا للمعنى واما حذراً من الابهام ، أو دلالة على عواطف القلب ، أو رغبة فى تفكيه الخواطر . قال الاقدمون : « خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل » .

(٢) سهولتها . ‏ ‏ (٣) كشف .

(٤) مستور .

وإلى هذا الباب ترجع مكاتبات الشوق ، والتَّعارف قبل اللِّقاء ، والهدايا ، والاستعطاف ، والاعتذار وغير ذلك ولنذكر شذرات من أَقوال الكُتَّاب (١) :

الفصل الأول : فى الشـــــوق

كَتَبَ أَبو منصور الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

شوقى إليكَ رهينُ قلبي ، وقرينُ صَدْرِي ، والزعيم (٢) بتعليق فكرى ، وتفريق صبرى ، وسميرُ ذِكْرى ، ونديمُ فِكْرى ، زادى فى سفرى ، وعِتَادِى (٣) فى حَضَرى ، لا يستقلُّ به صدرى ولا يقوى عليه صبرى ، يكاد يكُونُ لزاماً ويعدُّ غراماً ، لا يرحل مقيمه ، ولا يُصرف غريمه . استخفَّ نفسى واستفزَّها ، وحرَّك جوانحى وهزَّها . شوقى أَخذ بسمع خاطرى وبصره ، وحال بين مورد (٤) قلبي ومصدره (٥) شوق قد استنفد جَلَدِى (٦) وملك خَلَدى (٧) . شوق برانى برى الخلال (٨) ، ومحقنى مَحْق الهلال . شوق تركنى حَرَضاً (٩) وأَوسعنى مضضاً (١٠) أَرانى الصبر حسرة ، والوجد يمنة ويسرة . شوق يزيد الأُيَام (١١) توقداً وتأَجُّجا وتضرماً وتوهجاً . نار الشوق حشو ضلوعى ، وماءُ الصبابة ملءُ جُفونى . أَنا من لواعج الشوق بين غمائم ، لا تمطر إلا صواعق وسمائم (١٢) . قد قرحت كبدى من الحرقة بهذه الفرقة ، ما يفوت أَيسره حد الشكاية ، ويجوز أَضعفه كُنْهَ الكتابة . شوق الروض الماحل (١٣) إلى الغيث الهاطل .

---

(١) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتابا خاصا أسميناه (انشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية) وطبعناه عدة طبعات متوالية ، فارجع اليه اذا شئت ، ولهذا نختصر فى هذا الكتاب أبواب الرسائل ونذكر ما تمس اليه الحاجة فقط . (٢) الرئيس .

(٣) ما أعددته لحوادث الدهر (٤) موضع الورود (٥) الرجوع (٦) القوة . (٧) القلب (٨) الضعف (٩) مريضا (١٠) وجعا . (١١) بضم الهمزة وكسرها الدخان (١٢) الرياح الحارة (١٣) المجدب .

وكتب فى تشبيه الشوق :

ما الأعرابية حَنَّتْ إلى نجد ، وأَنَّتْ من وَجْد ، بأَشدَّ منى كلَفاً(١) ، وأتم منى شغفاً ؛ أنا فى شدة الشوق إليك كالعطشان كُشِفَ له عن ماءٍ عذب ، ومُنع منهُ بمانع ؛ شوق لو فُرِّق على القلوب الخالية لاشتغلت ، ولو قُسِّم على الأَكْبَادِ الباردة لاشتعلت ؛ أنا أشتاقك مع كل صباح طالع ، وضياءٍ شارق ، ونجم طارق(٢) .

وفى أثر الفراق :

وَجْدٌ يتكرر على كَرِّ الجديدين(٣) ، ويستغرق ساعات المَلَوَيْنِ(٤) قد تحمات مع يسير الفُرْقة عظيم الحرقة ، ومع قليل البُعْدِ كثير الوجد ؛ قد انثنيتُ بجسم ناحل وصِرْتُ من صبرى على مراحل ، فأرَّقَتْنِى (٥) وفَرَّقت جميع صبرى ؛ واستصحبت فريقاً من قلبى؛ فرقت بين عينى والرُّقَاد (٦) وجنبى والمهاد (٧) ، ما أُعوِّلُ إلا على العَوِيل(٨) لو كان يُغْنِى ، ولا أَستنصرُ غير الوجد لو كان يُجْدِى(٩) يدى لا تُساعِدُنى ، وخَطِّى لا يُشْبِهُ فى الدِّقَّة إلا بدنى ، لولا حصانة(١٠) الأَجل لخرجت روحى على عجل ؛ فارقتنى فتفرَّق عنى شمل أُنس منتظم ، وتمكَّن منى بَرَح شوق مضطرم ؛ فارقتنى فَتَمَرَّقتَ بين الرُّوح والبدن ، وتركْتنى والنزاع فى قرن(١١) ؛ قد صرتُ حليف وحشة وإن كُنتُ ثَاوِياً(١٢) فى وطن ، وقرين كُرْبة وإن كنتُ بين جِيرةٍ وسَكَن :

عسى الدهرُ يُدْنينا ويُدْنى دِيَارَكم ويجمعُ ما بينى وبينكُمُو الشملا

---

(١) كلفا مصدر كلف من باب فرح : التغير (٢) الآتى ليلا (٣) الليل والنهار . (٤) الليل والنهار أيضا (٥) أسهرتنى (٦) النوم (٧) مكان النوم . (٨) رفع الصوت بالبكاء (٩) ينفع (١٠) حفظ وهو مصدر . (١١) قرن وقرن من باب فرح التقى (١٢) مقيما .

فأشكُو تباريحَ الغرام إليكُمُو ... وحَرّ جوى يُبْلِي عظامى وما يَبْلَى

وكتب البسطامى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ :

قلبي بِنَارِ الهوى مُعَذَّبْ ... شوقاً إلى حضرةِ المُهَذبْ
شوقاً إلى ماجدٍ كَريم ... يخطُرُ لى ذِكْرُهُ فأَطْرَبْ

وبعدُ ، فالعبدُ ينهى من لواقح(٢) شوقه ، ولَوَافح(٢) تَوْقِه(٣) إلى شهود ذاتكم الجميلة ، ومشاهدة صفاتكم الجليلة ، لِيَنْشَق عَرْفكم(٤) الفائح ، وبخورَ عُرْفكم(٥) الفاتح ، مدَّ اللهُ ــ سبحانه وتعالى ! ــ ظلكم ، وأَدَرَّ وبلكم(٦) وطلكم(٧) .

أُحِبُّ الوعدَ منك وإن تمادى ... وأَقنعُ بالخيالِ إذا أَلَمَّا
عسى الأَيامُ تسْمَحُ لى بِوَصْل ... وتأْخُذُ لى مِنَ الهِجْرَانِ سِلْما

والجنابُ منذُ طوى عنا أَبواب مُلاقاته ، وزوى منا أَطايبَ أَوقاته ، قبض العبدُ عنان مقاله وخفض لسان حاله :

شكَوْتُ وما الشكْوَى بمثلِيَ عادةٌ ... ولكن تفيض العين عند امتلائها

فجلس الفراق بعظيم حجابه وأَليم عذابه ، على ذروة(٨) عَرْشه ، وافترس بقوة بطشه ، وصار للسرّ جاراً ، وأَوقد للحرب ناراً جهاراً :

طوعاً لقاضٍ أَتى فى حكمه عجباً ... أَفتى بِسَفْكِ دمى فى الْحِلِّ والْحَرَم

وهذه حالته المفصح عنها مقالته :

إنَّ الأُمور إذا التَوَتْ وتعقدت ... جاءَ القضاءُ من الكريم فَحَلَّها

---

(١) الرياح . (٢) الرياح الحارة . (٣) الشوق الطيب .
(٤) الريح الطيبة . (٥) نبت يقال له التمام طيب الرائحة .
(٦) المطر الكثير . (٧) الندى .
(٨) بضم الذال وكسرها أعلاه .

فلعلَّ يُسْرًا بَعد عُسْرٍ علَّها ولعلَّ مَنْ عَقَدَ العقودَ يحلُّها

فلعلَّ غروس التَّمَنِّى قد أثمرَتْ ، وليالى الحظِّ قد أقمرتْ :

سأَلتُ أَحِبَّتى ما كان ذنبي أَجابونى وأَحشائى تَذُوبُ
إذا كان المُحِبٌّ قليل حظٍّ فَمَا حَسَنَاتُه إلا ذُنُوبُ

فَرَعَى اللهُ أَياماً لاحت(١) فيها أَقْمَارُ غُرُوزها(٢) ، وفاحت فيها أطراز طروزها ، من بهاءِ سمائها ، على منار ضيائها ، من ذات جلالها ، وصفات دلالها ؛ فى جنَّاتِ عواطفها وجنَّاتِ تعاطفها .

فإن كُنتُ لا أَطْرُقُ(٣) رَحْبَ(٤) فِنَائِكُم(٥) ، فقد أَطرقُ بابَ ثنائكم :

لئن غيَّبتنى عن ذُرَاكَ حَوَادِثٌ فليس ثَنَائِى عن فِنَاك بغائِبِ

وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ هـ :

كنت — أعزَّك الله — عن ضمير انْدَمَج(٦) على سِرِّ اعتقادك دُرُّه ، وتبلج(٧) فى أُفق ودادك بَدْرُه ، وسالَ عَلَى صَفحات ثنائك مسكهُ ، وصار فى راحتىْ سَنائك(٨) ملكهُ . ولما ظفرت بفلان حَمّلته من تحيتى زهرًا جنيًا ، يُوَافيك عَرْفُهُ ذكيًّا ، ويُوَاليك أُنسُهُ نجيًّا(٩) ، ويقضى من حقِّك فرضاً مأْتيًّا(١٠) على أن شخص جلالك لى ماثلٌ(١١) ، وبين ضلوعى نازلٌ ، لا يملّه خاطر ؛ ولا يمَسه عرض دائر(١٢) ، إن شاءَ الله عزّ وجلّ .

وكتب أبو الفضل بن العَميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ :

قد قَرُبَ — أَيدكَ الله — مَحَلُّكَ على تراخيه ، وتَصَاقَبَ مُسْتَقَرُّكَ على تنائيه ؛

(١) ظهرت (٢) مراده ماتخرجه الأغصان من النوار (٣) آتى ليلا
(٤) المتسع (٥) بكسر الفاء متسع البيت (٦) خفى واستتر (٧) أضاء
(٨) رفعتك (٩) مناجيا (١٠) آتيا (١١) متمثل (١٢) هالك

لأَن الشوقَ يمثلك ، والذكر يُخَيّلك ، فنحنُ فى الظاهر على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، وفى النِّسبة مُتباينون ، وفى المعنى متواصلون ، ولئن تفارقت الأَشباح لقد تعانقت الأَرواحُ .

ويكتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

يعزُّ علىَّ – أطال الله بقاءَ مولاى – أن يَنُوبَ فى خدمته قلمى عن قَدَمى ويَسْعَد برؤيته رسولى دون وُصُولى ، ويَرِدَ مشرعة الأُنس به كتابى قبل ركابى ولكن : ما الحيلة والعوائق جمة ! !

وعلىَّ أَن أَسعى وليس علىَّ إدراكُ النجاح

وقد حضرتُ دارَهُ وقَبَّلتُ جِدَاره ، وما بى حُبُّ الحيطان ، ولكن شغفًا بالقُطَّان ، ولا عشقُ الجدران ولكن شوقاً إلى السكان :

أَمرُّ على الديار ديار سَلمى أُقبِّلُ ذا الجدار وذا الجدارا
وما حُبُّ الديار شَغَفْنَ قلبى ولكن حُبُّ من سَكَنَ الديارا

وحين عدت العَوَادى عنه ، أَمليتُ ضمير الشوق على لسان القلم ، معتذراً إلى مولاى على الحقيقة عن تقصير وقع ، وفُتُور فى الخدمة عَرَض ، ولكنى أَقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنبًا فكَفى أَن لا أَراك عقابا

وكتب أَبو محمد عبد الله البَطْلَيُوسىُّ المتوفى سنة ٦٢٧ هـ :

يا سيدى الأَعلى ، وعمادى الأَسنى ، وحسنَةَ الدهر الحسنى ، الذى جلّ قدره وسار مسير الشمس ذكره ، ومن أَطال الله بقاءه ، لفضل يُعلى منارُهُ ، وعلم يُحيي آثاره . نحن – أَعزَّك الله – نَتَدَانى إخلاصاً وإن تناءَينا أَشخاصاً ، ويجمعنا الأَدبُ ، وإن فرَّقنا النسب ، فالأَشكال أَقاربُ ، والآدابُ مناسِب ، وليس يضر تنائى الأَشباح ، إذا تقاربت الأَرواح :

نسيبى فى رأْيى وعلمى ومذهبى وإن باعدتنا فى الأُصول المناسبُ

وكتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

أَرانى أَذكُرُ « مولاى » إذا طلَعت الشمس ، أَو هبّت الرِّيح ، أَو نَجَمَ النّجم ، أَو لمع البرقُ ، أَو عَرَضَ الغيث ، أَو ذُكِرَ اللَّيثُ ، أَو ضحكَ الرّوْضُ ، وأَنّى(١) للشمس مُحَيّاه (٢) ، وللرِّيح ريّاه (٣) ، وللنجم حُلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤه(٤) وسناه (٥) ، وللغيث نِدَاه(٦) ونَدَاه(٧) ، وفى كلِّ صالحةٍ ذكراه ، وفى كُلِّ حادثة أَراه ، فمتى أَنساه ؟ وَاشِدَّة شوقاه ! عسى الله أَن يجمعنى وإِيّاه .

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ :

مازلتُ أُدافعُ النفْسَ عمَّا تَتقاضانى من شَكْوَى أَشْوَاقها ، وفى الشَّكْوَى شِفَاءٌ ، واستنزال أَثرٍ من لدنك تتعللُ به مسافة البين(٨) ، إلى أَن يمُنَّ الله باللِّقاءِ ، ومن دون إجابتها مشادة(٩) قد شغلت الذرع(١٠) ، وشواغلُ قد أُفرع من دونها الوسعُ ؛ إلى أَن غلبَ جيش الوجد على معاقل الصَّبر ، وزَاحم مناكب العَدْوَاءِ حتى ضَرَب أَطنابه(١١) بين الحجاب(١٢) والصّدر ، فاتخذتُ هذه الرّقعة أُزجيها (١٣) إليك ، وفيها من وِقرِ(١٤) الشوق ما ينوءُ(١٥) برسولها ، ومن رِقَّة الصبابة ما يكاد يطيرُ بها ، أَو يخلُفها فيصافحُ الأَعْتَابَ قبل وصولها راجياً لها أَن تُتَلَقَّى بما عُهِدَ فى سيدى من الطلاقة وَالبِشْر ، وأَن لا يَضِنّ(١٦) عليها بما عَوَّدنى من تمهيد العذر ، وَيَصِلَنى من بعدها بأَنبائه(١٧) الطيِّبة ، عائدة عنه بما يكون للناظر قرَّة ، وللخاطر مَسَرَّة . إن شاءَ الله تعالى بمنِّه وكَرمه .

(١) أى من أين (٢) وجهه (٣) رائحة طيبة (٤) الرفعة
(٥) بالقصر الضوء (٦) بضم النون وكسرها أشهر الصوت (٧) العطاء
(٨) البعد (٩) مشاغل (١٠) بسط اليد (١١) الحبل يشد به سرادق البيت .
(١٢) لحمة رقيقة بين الجنبين (١٣) ارفعها (١٤) بكسر الواو الحمل الثقيل . (١٥) يثقل به (١٦) أى لايبخل (١٧) أخباره .

وكتب أيضاً :

وافانى كتابُك العزيز ـ فأهلاً بأكرم رسول : جاءَ ببيِّنَات الإخلاصِ والوفاءِ ، مصدقاً لما بين يديه من ذِمَّة الوداد والإخاء ، يتلو علىّ من حديث الشَّوْق ، ما شهد بصحته سقمى ، وهتف مؤذّنه فى مِفْصَل من جسمى ، ويذكِّرنى من عهدك ، ما طالما أذكرنِيه البرقُ إذا لمعَ ، والبدرُ إذا طلعَ ، والقمرىُّ(١) إذا سجع ، إنما عدانى عنك : ما أنا فيه من مُجَاذبة الشواغل ، ومساورة(٢) البلابل(٣) :

وفى القلب مافى القلب من شَجَن الهوى تَبَدَّلت الحالاتُ وهو مُقيمُ

وأنا ـ على ما بى من غلِّ البنان(٤) ، وشُغل الجَنَان(٥) ـ ما زالت أنباؤك(٦) عندى ، لا يخطئنى بريدها ، ولا يَنْقَطِعُ عَنِّى وُرُودها ، أُهنئ النَّفسَ منها بما تتمنَّى لك من سلامة لا يرثُّ(٧) لها شعارٌ ، وإقبال لا يعترضُهُ بإذن الله إدبارٌ .

وقُصَارى المأمول فى كرمك : أن تُعَامِلَنى بما سبق لك من جميل الصِّلة ، إلى أن يمنّ الله بالاجتماع ، ويُغْنى بالعيان عن السماع ، وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ .

وكتب أبو العباس الغَسَّانى المتوفى سنة ٤٩٨ هـ :

سِرْ إلى مجلسٍ يكادُ يسيرُ شوقاً ، ويطيرُ بأجنحةٍ مِنْ جواه حتى يحلّ بين يديك ، فللّه دَرُّ(٨) كماله : إنْ طلعت بدراً بأعلاه ، وجماله : إن ظهرت غُرَّةً بمُحْياه ؛ فهو أُفُقٌ قد حوى نجوماً تَتَشَوّقُ إلى طلوع بُدُورِها ، وقطْرٌ قد اشتمل عَلَى أنهارٍ يَتَشَوّقُ إلى بحرها ، لنستمِدّ منها ـ إنْ مننتَ بالحضور ، وإلا فياخيبة السرور .

---

(١) طير من جنس الحمام يقال لأنثاه قمرية ، وللذكر ساق أحمر .
(٢) ملابسة (٣) الاحزان (٤) الاصابع (٥) القلب
(٦) أخبارك (٧) لايبلى (٨) كلمة تعجب

وكتب الصاحب إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ :

مجلِسُنا ياسيدى مُفتقرٌ إليك ، معوِّلٌ فى شوقه عليك ، ولقد توردت خُدود بنفسجه ، وفتقت فَارة(١) نارنجه(٢) ، وانطلقت أَلسنُ الأَوتار ، وقامت خطباءُ الأَطيار ، وهبت رياحُ الأَقداح ، ونفقت(٣) سوق الأُنس والأَفراح . وقد أَبتْ راحته أَن تصفوَ إلا أَن تَتَنَاوَلها بمناك ، وأَقسم غناؤه لا طيب حتى تعيه أُذناك ، ووجنات أُترجه قد احمرّت خجلاً لإبطائك ، وعيون نرجسه قد حدقت(٤) تأميلاً للقائك ، ونحن لغيبتك كعقد ذَهَبَتْ واسطتُه(٥) ، وشباب قد أُخذت جَدَّته(٦) ، وإذا غابت شمسُ السماءِ عنَّا ، فلا أَن تدنو شمسُ الأَرض منَّا . فإن رأَيت أَن تحضر لتتصل الواسطة بالعقد ، ونحصل بك فى جنَّة الْخُلْد . فكُن إلينا أَسْرَع من السَّهم فى ممرّه ، والماءِ إلى مقرّه ، لئلا يخبث من يومى ما طابَ ، ويعود من نومى ما طار .

وكتب أَبو بكر الْخُوَارزمى المتوفى سنة ٣٨٣هـ :

كتابى : وَأَنَا بما يَبْلُغنى من صالح أَخبار « السيد » مُغتبطٌ مسرورٌ ، وبما يعرفه الزمان وأَهله من اعتضادى(٧) به مصون موفور ، والله على الأُولى محمودٌ ، وعلى الأُخرى مشكور ، التَّطفل وإن كان محظورًا فى غير مواطنه ، فإنه مباحٌ فى أَماكنه وهو وإن كان فى بعض الأَحوال يجمع عارًا وَوِزْرًا ، فإنه فى بعضها يجمع فخرًا وذخرًا ، وربّ فعل يصاب به وقته فيكونُ سُنَّةً ، وهو فى غير وقته بدعةٌ ، وقد تطفلت على « السيد » بهذه الأَحرف ، أَخطب بها مودّته إليه ، وأَعرض فيها مودّتى عليه وأَسأَله أَن يرسم لى فى لسانى وقلبى رَسْماً ، ويختم عليهما خَتماً .

---

(١) فجآت المسك (٢) تمر معرب باريك (٣) راجت
(٤) تاقت (٥) الجوهرة التى فى وسطه وهى أجوده
(٦) الطريقة (٧) استعانتى

فقد جعلتُهما باسمه وقصرتُهما على حكمه ، وسأَضعهما تحت خَتْمه ، وبرئت إليه منهما ، وصِرْتُ وكيله فيهما ، فَهُمَا على غيره حمى (١) لايُقْرَبُ ، وبحيرةٌ (٢) لا تحلبُ ولا تركب . ولما نظرتُ إلى آثار السيد على الأَحرار ، وَنُشِرَتْ طرازُ محاسنه من أَيدى القاصدين والزُّوَّار ، ورأَيتُ نفسى غُفْلاً (٣) من سِمَة (٤) مودّته ، وعُطْلاً (٥) من جمال عِشْرته حَمَيْتُها من أَن يحمى عليها وِرْدٌ مورود ، ويحسر (٦) عنها ظلٌّ على الجميع ممدود ، وعجبتُ من :

سحابٌ خَطانى جُودُه (٧) وَهو صَيِّبٌ (٨) وبحرٌ عدانى سيلُهُ وهو مُفْعَمُ (٩)
وبدرٌ أَضاءَ الأَرض شرقاً وغرباً وموضعُ رجلى منْهُ أَسودُ مُظلم

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى ١٣٣٦ هـ :

مولاى : أَمَّا الشَّوْقُ إلى رويتك فشديدٌ . وسلْ فؤادك عن صديق حميم (١٠) وَوَدّ صميم (١١) وخلة لايزيدُهاتعاقبُ الملوين (١٢) وَتَأَلُّق (١٣) النيرين (١٤) إلا وُثُوقاً فى العرى ، وإحكاماً فى البناء ، ونماءً فى الغراس وتشييداً فى الدّعائم (١٥) ولايظنن سيدى أن عدم ازديارى (١٦) ساحته الشريفة واجتلائى طلعته المنيفة لتقاعُسٍ (١٧) أَو تقصير ؛ فإن لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد (أَطال الله بقاءه) أَجدرُ (١٨) مَن قَبِل معذرة صديقه وأَغضى عن ريث (١٩) استدعته الضرورةُ .

(وبعدُ) فرجائى من مقامكم السَّامى أَن لا تكون معذرتى هذه عائقًا لكم عن زيارتى ، فَلَكُمْ مِنَنًا طَوَّقتمونيها ولكم فيها فضلُ البداءة ! وعلىَّ دوامُ الشكران . والسلام .

---

(١) محظور (٢) الشاة التى اذا نتجت عشرة أبطن شقوا أذنهــا فكانت حراما لحمها ولبنها وركوبها (٣) من علامة عليها (٤) العلامة (٥) من لاحلى عليها
(٦) يكشف (٧) المطر الشديد (٨) ذو المطر (٩) الممتلىء
(١٠) القريب الذى يهتم لامره (١١) الخالص (١٢) الليل والنهار
(١٣) اللمعان (١٤) الشمس والقمر (١٥) الأركان
(١٦) زيارتى (١٧) التأخير (١٨) أحق (١٩) البطء

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ :

كتابي إليك : وقد طالَ بيَ الانتظار ، وشوق يجلُّ عن الكيف والانحصار فشخصُكَ دائم المثول(١) أمام إنساني(٢) ، وعنَ سواك من الأَخِلَّاءِ ألهاني وأَنساني . فللهِ أيامٌ قضيناها ، وليالٍ من الدهر اختلسناها (٣) ، كان السرُورُ فيها ضارباً خيامَه ، والأُنس ناشرًا أَعلامَه ـ طُوِىَ بساطُها ، وكأَنَّ الأَمر ما كانَ غيرَ أَنها زَرَعَتْ بفؤادى شجرةَ الأَشجان(٤) ، لكن عودُها حليفُ أَوْبتك(٥) وتجدُّدَها رَهينُ إشارتك . فمتى يقربُ المَزارُ ، وتنجلى سُحبُ الأَكْدار ؟ فاضربْ لعَوْدِكَ أَجلاً ، فالعودُ لا شك أَحمدُ ، واكْتُبْ بقُرْبك وصْلاً فالوصلُ أَضمنُ للعهد ، وعهدى من خُلقك الوَفاءُ ، وحُسنُ الوَلاءِ ، فلا تجعل صَفْقَةَ(٦) شوقى إليك خُسرًا ، بل هَبْنِى بعد العسر يسرًا .

وكتب وفاء أفندى محمد المتوفى سنة ١٣١٩ هـ :

أَما بعدُ سلامى عليك ، فهذا كتابى إليكَ ، يُنبئُك(٧) عنِّى وعن شوقى وعن وُدِّى . ولا أَزيدك عِلمًا أَنى ما كتبتهُ من دواةٍ ، ولا أَجريتُ عليه قلماً ، ولكنها دُموعٌ وشوقٌ سَالت على القرطاس ، وجرَتْ على حركات الخواطر والأَنفاس وَهَبَّتْ عليه حرارة كبدى بالأَشواقِ ، ووجدى بالفراق ؛ فبينما هى عقيقةٌ حمراءُ ، إذْ صارتْ فحمةً سوداءَ ! أَلَا وإنَّ كتابى هو قلبى ولسانى . أَمَا تراهُ على رِقَّته ، ولُطفِ عبارَته ، وصدْق طويّته ، بين يديك مُقبلاً عليكَ ؟ ينْشرُهُ الشوقُ ويطويه لا يُخفى عليك أَمرًا ولايَكتمُ عَنك سِرًا ، وتلك صفاتُ لسانى وقلبى معك . فما الذى ابتغيته بعدُ ؟ ! وقد بعثت إليك بالأَصغرَين(٨)

---

(١) القيام منتصبا (٢) انسان عبنى وهو ما يرى فى السواد .
(٣) انتهز فرصتها (٤) الاحزان (٥) رجوعك (٦) أصلها لعقد البيع (٧) يخبرك (٨) القلب واللسان .

وما أنا إلّا بهذين ! نعم أَرجو بقاك ، ممتعاً بنعماك ، لأَكونَ على الدَّوام محلَّ نظرك . والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

كتابى لديك ، يصفُ شوقى إليك ، ولا يخفى عليك ، فمُذ فارقْتنى فرَّقْت بينَ أُنسى ونفسى ، بلْ بين رُوحى وجسمى . ولا تعجَب إذا كنتُ أَغدو وأرُوح فالطيرُ يمشى منَ الأَلَم وهو مذبوح ، وإنِّى أَشكو إليكَ منْ أَلم الوحشة غراماً لا يشعرُ به إلا من ذاقَ أُنسَك وعرَفَ مِقدارَ نفسكَ وشاهَدَ جمالَ لُطفِكَ ، ورَأى كمالَ أَدبك وظَرْفك . ولقد أَوْدع الله فى شخصك نورًا لعينى ، وفى حديثك سُرورًا لفؤادى ، وفى صفاتك ترويحاً لرُوحى ، وفى كرم خُلُقِكَ تفريحاً لنفسى :

وإذا وَصف الناسُ أَشواقَهُمُ فشوقى لوجهك لا يوصفُ

فعندى لك منَ المحبةِ والشَّوق ، والتَّلَهُّفِ والتوق ، مالا يَصفه الواصفون ولا يُعبِّر عن حقيقتِه العارفون :

الشوق فوق الذى أَشكو إليك وهلْ تَخفى عليكَ صبَاباتى وأَشواقى ؟ !

فياشوْقِى إلى لُقْياكَ ! ووَالهفى على جَمال مُحيَّاك ! قَيَّدْتَ أَملى عنَ سِواك وبهرْت ناظرى بنظرَة سَناك ، وكسرْتَ جيش قرارى ، وتركتنى لا أُفرِّق بين ليلى ونهارى :

فؤادى والهَوَى سِلْمٌ وحرب وسُلوانى أَقامَ على الحِيادَه
وشوقى كامِلٌ ما فيهِ نقصٌ فَلَسْت عليْهِ أَطمع فى الزيادَه

فليت شِعرى ، ماذا أَصنع فى شوْقٍ أَنا مدفوعٌ إليه من صادقِ حبى ، بعواملَ صادفَتْ منِّى قلباً خالياً ، فتمكَّنت بالتَّعارف ، ولم تدَع للسلوَان سبيلا ؟

عرَفتُ هواه قَبلَ أَنْ أَعرَفَ الهوى فصادَفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

إى وربى ، إن شوقى إليك شوقُ الظمآن إلى برْد الشّراب ، وحنينى لك حنينُ الشيخ إلى زمن الشباب ؛ فما الإبلُ وقد حنّت إلى أعطانها ، والغرباءُ وقد أنَّت إلى أوطانها ، بأَعدمَ منّى حنينًا ، ولا أكثر أنينًا .

ولكنَّ التّفرُّق طال حتّى توقّدَ فى الضُّلوع لهُ حريق

فكلما تخطرُ ببالى ، فى أى وقتٍ من الأوقات ، يمثّلُ لى التذكرُ منك محاسنَ ولطائفَ ، تجذبنى مَيلاً إليك ، وتُطربنى شغفًا واغتباطاً بإخائك ، فلا عجب أن كان شوقى لرُؤيتك عظيمًا ، لأنه كما قيل «من كَرِم الرَّجل حنينهُ إلى أوطانه ، وشوقُه إلى إخوانه » :

يا خلَاص الأَسير يَاصِحَّةَ المُد نف يا زَوْرَةً على غيرِ وعدِ
يا نَجاةَ الغَريقِ يا فرْحَةَ الأَو بَة ياقفْلةً أَتَتْ بَعد بُعد
إرْض عنّى فَدَتْكَ نفسى إنى لك عبد أَذلُّ من كلِّ عبد

ناشدتُك اللهَ أن ترفُقَ بحالى ، وتعيدَ وصالى ؛ وارْع الودَّ القديم ، وأبدلْ شقاءَ محبّك بالنعيم ؛ وأغمد سيف ظُلمات القطيعة المسلولَ ، وأَوْف بالعَهْدِ إنَّ العهد كان مسئولا .

الفصل الثانى : فى التعارف قبل اللقاء

كتب أبو منصور الثعالبى النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

نحن فى الظّاهرِ على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، نحن نتَناجَى بالضمائر ونتخاطبُ بالسرائر ، إذا حَصلَ القُرْبُ بالإخلاص ، لم يُضر البُعد بالأشخاص ، أنا أُناجيكَ بخواطرِ قلبى ، وإن كان قد غاب شخصُك عنّى ، إن أَخطأَتكَ يدى بالمكاتبة ، ناجاك سرِّى بالمواصلة ، رُبّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ

بخلوص نفسه إن تراخى اللقاءُ ، فإنَّنا نتلاقى على البعاد ، وتتلاقى (١) نظر العين بالفؤاد .

وكتب أيضاً :

أنا أشتاقك كما تُشتاقُ الجنان ، وإن لم تتقدّم لها العينان ، أنا وإن كنت مِمّنْ لا يَسعدُ بلقائك ، فقد اشتَمل عليّ الأُنسُ ببقائك ، والشوق إلى محاسنك التى سارت أخبارها ، ولاحت آثارُها . لازالت الأَيَّام تكشف لى من فضلك ، والأَخبار تعرض علىّ من عقلك ، ما يشوِّقنى إليك ، وإن لم أَرَك ، ويزيدنى رغبةً فى ودّك وقد سمعتُ خبرَك .

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

كما أَن شَغفَ(٢) الْجَنَانِ(٣) بالحسنِ والإحسان ، تكونُ داعيَتُهُ المشاهدة وتسريح الأَنظار ، فى مُحيًّا الكمال ، ومُجتلى الجمال ، فَترى العينُ من تلك الغرّة ، ما يملؤها قِرَّة ، فكذلك السماع يَسْتدعى هذا الشَّغفَ ، فيتأَثرُ الفؤادُ بما يُشَنِّفُ(٤) الأُذنَ ، مما تهديه إليه طرائف(٥) الأَخبار ، حتى كأَنّ حاسّتى السَّمع والبصر فى ذلك صِنْوان(٦) ، بل أَخَوَانِ فى هيكل هذا الجثْمانِ(٧) .

وقد يعلمُ السيدُ (أَطال اللهُ بقاءَه وأَدام ارتقاءَهُ) أن ذلكَ الأَمرَ (أَى الشغَف بالسَّماع) ليس بالحديث العهد ، والقريب الجدة(٨) ، بل هو أَمرٌ عُرِفَ قديماً أَن يهدىَ السَّماع إلى سُويْداءِ القلب لاعجَ(٩) الحب سَعّرَهُ(١٠)من الأَنباءِ (١١) عَرْف(١٢) شميم(١٣) فتهيمُ(١٤) بمجرد استنشاق ذلك الشَّميم(١٥) حتى يقولَ الشاعرُ العرَبى : * والأُذنُ تعشقُ قبل العَيْنِ أَحياناً *

---

(١) تتدارك (٢) دخول الحب فى غلاف القلب (٣) القلب
(٤) يزين (٥) المستملحة (٦) هما فرع النخلة (٧) بالثاء والسين الجسم .
(٨) الخطوة (٩) المتردد (١٠) أوقده (١١) الأخبار
(١٢) الريح الطيبة (١٣) مشموم (١٤) تذهب (١٥) المرتفع

أَجَلْ ! (١) والقُدْرَة فى هذا المعنى ، والأُسّ(٢) لذلك المَبْنَى ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إنى لأَشمُّ نفَس(٣) الرَّحمن مِنْ قِبَل اليمن » لما أَمْلَته العناية الرَّبَّانِيَّة ، والملكُ الرَّوحانى ، على قلبه الشَّريف من نبأْ(٤) القرنى(٥) أُويس(٦) ولم يكن رآه بعدُ .

ألا وإن محاسن السَّيد الأَجل ، لمَّا سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كلّ لسان مابين أَخلاق أَبهى من الرّوض النَّضِير(٧) ، وأَعراق أَشْهى من عذيب النمير(٨) قد احتلت من فؤادى ، لا أَقولُ منزلًا رحيبًا ، ولا وادِياً خصيبًا ، بل منزلة شماء(٩) ، ودارةً(١٠) علْياءَ ، وأَوجًا(١١) بطوالعها السّعيدة يُسْعد ، ويلوح بها من ذكراه كلَّ حين فَرْقد(١٢) فلم أَنْشَبْ(١٣) أَنْ قَدَّمت كتابى هذا لمولاى بين يدى اللِّقَاءِ عَلَّه أَن يسمحَ بهِ الزَّمانُ ، وتُسْفر(١٤) عنه الليالى والأَيام ليُتَاح(١٥) لى رِىّ الفؤاد بما أَرْوِيه من حديث زيد الخيل ، الذى سَمَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : « ما وُصِفَ لى أَحد فرأَيتُه إلا وجدتُه دونَ ما وصف لى سِوَاك ، وإن فيك خَصْلتين يُحِبُّهمَا الله : الحلم ، والأَناة » . مقتدياً بالإمام « محمود جارِ الله » فى تقديم هذا الحديث الشريف ، على ماأَنشدهُ إياه « الشريفُ بن الشجرَىّ » أَوّل ما لقيه ، وكانا قد تحابّا بالسَّماع :

كانت مُساءَلةُ الرُّكْبَان تخبرنا عن جابر بن رَباحٍ أَطيبَ الخَبرِ
حتى اجْتَمَعْنَا فَلَا والله ماسَمِعَت أُذُنى بأَحسنَ مما قد رأَى بَصَرِى

---

(١) حرف جواب مثل نعم (٢) الاصل (٣) كناية عن الوحى (٤) الخبر (٥) نسبة الى قرن وهى قبيلة (٦) هو سيد التابعين أويس بن عامر قتل فى واقعة صفين مع على كرم الله وجهه وخبره قوله صلى الله عليه وسلم يأتيكم أويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرىء منه الا موضع درهم وله والدة هو بها بار ولو أقسم على الله لابره (٧) الحسن (٨) الماء الزاكى (٩) مرتفعة (١٠) دارا (١١) علوا (١٢) النجم (١٣) لم تزل (١٤) تكشف (١٥) يعطى

وكتب حفنى بك ناصف المتوفى سنة ١٩١٩ م :

يعلم الله ماعندى من الشوق إلى لقاء السيد ، وإن لم يَرَهُ البصر ، والشوق إلى شهوده ، وإن لم يكتَحِل بإثْمِدِ(١) محاسنه النّظر والشّغفُ بسماع الحديث منه ، كما سمعته عنه ، فقد سَبَقَتْ ذكرى محاسنه إلى السمع ، ووصل خبرُ لطائفه إلى النّفس (وما المرءُ إلّا ذِكرُه ومآثره) وحَسَدَت العين عليه الأُذُنَ ، ووَدّتْ لو أنها السابقة إلى اجتلاء رقائقه ، وشهود حقائقه .

* فللعَيْنِ عشقٌ مثلُ ما يعشَقُ السمعُ *

لا جَرَمَ أن ما تعارف من الأَرواح ائتلَف ، وما تناكر منها كما قيل اختلف ، ونحن — وإن بَعُدَتْ بيننا الشقةُ (٢) ، ولم يسبق لنا بالالْتِمَاءِ عهد — فلُحْمَةُ (٣) الأَدب تجمعُنَا ، ووحدة الوجهة تضمُّنَا ، ولُحْمة الأَدب أقوى مِنْ لُحْمة النسب ، وجامعة الوجهة فوق اجتماع الوجوه ؛ وقد رأَيت أَن أَزْدَلف (٤) إليك بالمكاتبة ، وأَتوسّل إلى شرف التعرف بالمراسلة ، حتى لم يبقِ فى الصبْر على الافتراق مسكة (٥) ، ولبى الجسم دَعْوَة الروح ، فاندفع إلى الاجتماع ، أَكُونُ قد مَهّدْتُ له سبيلاً ، ووطّأْت (٦) له طريقًا ، فلا تبهرنى (٧) فرحة اللقيا ، ولا يغرنى (٨) طَرَب الظفر « فمن فرح النَّفس ما يقتُلُ ، ومن نشوَةِ (٩) الراح (١٠) ما يُزْهِقُ الأَرواحَ » .

فإن رأَى السيد أَن يكاتِبَ عبده ، ويعتقه من رقّ الفرقة ، عجّل بجواب هذا الكتاب ، ليعلم العبد أَن نميقَتَه صادفت (١١) قبولا ، وأَن وسِيلَتَه اتخذتْ

(١) كحل بالحجاز (٢) بالضم والكسر الناحية (٣) قرابته (٤) اتقرب (٥) قوة أو عقد (٦) بالتخفيف والتشديد هيأت (٧) لاتغلبنى (٨) لا يعلونى (٩) بفتح النون وكسرها السكر (١٠) الخمر (١١) وجدت .

إلى سَيِّده سبيلاً ، قَرَّب الله زمن اللِّقاءِ وقَصَّرَ أَمد النَّوَى (١) ، حتى أُنشِدُ فى الختام :

تطابقَ الْخُبْرُ فى علياك والْخَبْرُ وصدَّقَ السَّمْع فى أَوْصَافِكَ البَصَرُ

وكتب أَحمد أَفندى سمير المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

يعلم سيِّدى أَن المودة لاتُبَاع ولاتُشْرى ، وإنما هى نتيجة الاجتماع والتَّعَارُف ، وقد خُلِقَ الإنسان مضطرا إليهما ، لأَن انتظام العُمران عليهما موقوفٌ ، ولهذا شهد العيان بأَنّ المنفرد بأَعماله المستبد بآرائه ، عرضة للخطأ ، مظنة لعدم الثقة ، بخلاف ما إذا كان الاشتراك فى الفكر قاعدة للعمل فلا بد أَن الصواب يتمحّضُ منه ، لضعف التفرُّد وقُوَّة الاجتماع ، إذ لا جَرَمَ أَن المرء كما قيل : « قليل بنفسه كثير بإخوانه » .

وقد سمعت عن السيد ، وقرأت من آثاره المأْثورة ماحبَّبَهُ إلى ، وشاقنى للتعرُّف به ، لنشترك فى مَنفعَة تبادل الأَفكار ، فإنى لا أَكتفى بمجرد السماع ولا أَقول : « إن الأُذن تعشق قبل العين » فإنما هى جارحة صغيرة – ولكن كلِّ مَيَّال إليه ، محب لاستجلاء مَرْآهُ ، عالم أَنى إذا دخلت إلى مَودَّتِهِ من باب التلاقى ، لا أَجد دهرى .

يقرب مِنِّى كل شخصٍ كرهته ويبعد عنِّى من إِلَيْهِ أَميلُ

فإن لم يتيسر أَن يَرانى أَو أَراهُ ، فليسعدنى ببضعة أَسطُرٍ تضمن لى رضاه عن هذه المعرفة الترسُّلِيَّة ؛ لنتراءَى بأَعيُنِ الطروس(٢) ، قبل أَعيُنِ الرؤُوس ، ونتجاذَب أَحاديثَ المراسلة ، إن عَزَّت المقابلة. وقد وقفت عليه خالص وُدِّى ، واختَرْتُهُ من بين رجال العصر ، سعيًا لكسب المعالى بمعرفته ، فكلٌّ

(١) البعد (٢) الصحائف

امرئ بما كَسَب رهين(١) ، وأن ليس للانسان إلا ما سعَى .

عن المرءِ لا تسألْ وَسلْ عن قَرينه فكل قرين بالمقارن يقتَدى

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ ﻫ :

لم أكن فيما أكتبه لك إلا سارياً فى ليل التعارف على ضياءِ خِلَالك (٢) ، التى أملاها علىّ لسان المدح ، الذى شَرّق وغَرّب ، وطبق الأَرض صيته ؛ وإنى وإن لم أَكُنْ أُسْعِدتُ من قبل باجتلاءِ طلعتك الزاهرةِ ، واجتناءِ مُفاكهتِك الغضةِ(٣) ، فقد دلنى على الليث زئيرُه (٤) وعلى البحر خَريره (٥) ، وعلى العقل أثره ، وعلى السيف أثره(٦) ولئن لم تجمعنا لُحمة(٧) النسب ، فقد جمعتنا حرْفَةُ الأَدب ، أَو لم يضمنا قبلُ مصيفٌ ومُرْتَبَع ، فالطيور على أَشكالها تقع ، وشبه الشيءِ مُنجذِبٌ إليه ، وأَخو الفضائل هو المُعَوَّل عليه .

وهذه الرُّقعة وَإن وَصَفَت لك بعض ما أَنا مَطْوِىٌّ عليه من التهافتِ على رُؤْيتك ، والميل إلى صداقتك ؛ فَقَلما تَنُوب عن المشافهة ، أَو تقضى حاجات فى النَّفْس طالما تردَّد صداها ، وفى ظنِّى أَن (سيدى) يودُّ ما أَوَدُّه ، وعما قليل يُسْفر صبح اللقاءِ ، ونتجاذَبُ أَهداب المعرفة ، وأَرى من (سيِّدى) فَوْقَ ما توسمته وسمعته ، ويرى منى ما يرضيه . والسلام .

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥ ﻫ :

أَيها (السيد) العزيز الجناب ، الغزير الآداب :

قد علمت ــ ولا أَزيدك علماً ، زادك الله ولانقصك ــ أَن الإِنسان كما اشتق اسمه من الأُنس ، كذلك جُبل عليه مسماه ، وأَن المجتمع الإِنسانى عقد

(١) مرهون (٢) مصادقتك واخائك (٣) اللينة (٤) صوته (٥) صوته أيضا (٦) جوهره (٧) القرابة

يتحلى به صدر الزمان ، نظامه متآلف ، ووساطته (١) التعارف ، فهذان الأمران هما قطب المدار فى هذه الدار ، لهذا العالم ، من لدن آدم ، وليس إلا بهما يحسُنُ الحال وينعم البال ، وتدر ضروع المنافع ، وتَتفجّرُ عيون الفوائد ، ومن ثم كان أوفر الناس حظا من مغنم الإنسانية ، من يَألف ويُؤْلف ، ولا خير فيمن لا . . . ولا ، وناهيك بخلق امتن الله به على عباده ، إذ قال عز من قائل : «وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» .

ذلك – أيها السيد – هو الذى بعثنى أن أكتب إليك ، أستفتح باب مودتك بمفتاح الترسل وأستصبح فى سبيل صحبتك بمصباح التوسّل ، لا أبالى بما ينسب إلىّ ويُنتَقَمُ علىّ ، ممن عسى أن يقول : مالك ولهذا الفضول ! وكيف تتطفل على مأدبة أدبية لم تدع إليها !! وهل هذا منك إلا أشبه بالتبرج (٢) لغير خاطب ؟

أيها المنتقد : هون عليك ما تجد ، فلو علمت أن ظل الآداب شامل ، ودعوة المودة الجفلى (٣) لايذاد (٤) عنها وَاغِلٌ (٥) ، لأسرعت معى إلى الوغول (٦) ، ولم تر فى التودد إلى أهل الفضل من فضول . وأى عيب على النكرة فى التحلى بحلية المعرفة ؟ ومصاحبة الأعلام ؟ ! أما سمعت قول القائل :

بصُحْبتك الكرام تعدُّ منهم   وتأْمن من مُلمَّات الزمان !

وكيف أضع نفسى بحيث يقول الأول :

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها (٧)   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى !

وشتان ما بين الرجلين : رجل يهوى المكارم وبنيها ، ويبتغى المناقب

---

(١) الجوهرة التى فى وسط العقد وهى أجوده (٢) اظهار المرأة زينتها للرجال (٣) العامة للجماعة (٤) لايطرد (٥) المتطفل (٦) التطفل (٨) بكسر الباء وبضمها الحاجة .

وذويها ، ويقِفُ نفسه على مسألة يعلمها ، وفضيلة يتحلى بها ، وآخر يبذل وجهه المصون ، في ملء الحقائب (١) والبطون !

هذا : وقد رجوت أن أكون الرجل الأول بصحبتك – أيها السيد – فكم رُوِى لنا من أحاديث فضائلك الصحاح ، وتلى علينا من آيات فضائلك الحسان ، ما (٢) أشخص إليك القلوب قبل قوالبها ، وأوفد عليك الأرواح قبل أشباحها ، وأعجلنى أن أكتب إليك بهذا الرقيم ، ألتمس بالتعرف إلى جنابك الكريم ، ما التمس الكليم من صحبة ذى الوجه النضر (٣) ، أبى العباس الخضر . وإنى وإن كنت والحمد لله ممن آمنوا بالغيب ، وليس عندى فى صدق هذه الآيات مرية (٤) ولا ريب ، بَيْدَ (٥) أن للصحبة فضلاً لا ينكر ، وللمؤاخاة مزية لا يتمارى (٦) فيها اثنان .

فإذا ورد على السيد كتابى هذا : وانشرح صدره – شرح الله صدره – إلى إجابة سؤلى ، وارتاحت نفسه إلى اصطناعى ، كتب إلى عبده بما يكون آية جلية على ارتياحه ؛ لتحقيق هذه الأُمنية .

حتى أقولَ لوَجْه آمالى ابتهج   لأُوَلِّيَنَّكَ قِبلَةً تَرْضاها

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر المتوفى سنة ١٩٣٠ م :

إنسان العينِ . وعَيْن الإنسان :

المودة – وصل الله بأجفان الأشواق أهدابها ، وفتح لنا أبوابها – أمر عزيز المرتقى ، على من يصطفى صديقه ، ويرعى حقوقه . وإنى اصطفيتك على الناس برسالتى هذه ، وعهدى بكرم سجاياك أن تصافحها براحة القبول ، وتتخذها فاتحة ودٍّ طارت به إليك رياح فضلك بعد ما مَثَّلَت آياته لك فى القلوب معنى ظهرت فى مرآة الأعين صورته .

(١) الزكائب (٢) ما : فاعل روى (٣) الحسن (٤) شك
(٥) غير (٦) لايختلف

فإِنْ أَبَيْتَ وِدادى غير مكتَرِثٍ فعنْك ما دُمتُ حيًّا لا أَرى بدلا

وحاشاكَ عن مثل ذلك الإِباءِ ، ونحن وإِن لم تَحْظَ أَشباحنا باللِّقاءِ ، فأَرْواحنَا من قبل جُنودٌ ، وأَعيننا شُهود ، فإِن أَنت مَنحتنى ولاءً خالصاً ، وإِخاءً صادقاً ، (وإلا فهَبنى أمرءًا هالكاً) ولا إِخالُك ترْضاه ، وإِن كنتُ المتطفلَ على مائدة موَدَّتك ، فلى نفسُ أَديب لا ترى العزَّ إِلا فى التَّرَامى على ذُرى الكمال ، لا زلتَ على مَرْقَى الجلال ، والسلام .

وكتب الفاضل السيد محمد الببلاوى :

سيّدى : إِنَّ مكارمَ الأَخلاق ومعالىَ الهِمَم مما تسترقُّ القلوب ، وتسرِقُ العقول ، وتمتلك الأَرواح ، وإِن لَمْ تتلاقَ الأَشباحُ ، فإِنى مُذْ سرَى إِلىّ النسيم بأَخلاقكم الغرَّاءِ ، وابتَسم لى ثَغرُ هذا العَصْرِ عن آثاركم الزَّهرَاءِ ، وتواترتِ الأَخبار بحبكمَ للفضل وأَهلِهِ ، وارتياحِكُمْ للعلم وذَويه ، وأَنا مشغوفُ الفؤاد بالتعرُّف بسيادتكم ، مشغولُ البال بالتَّوَسُّل إِلى رِياض مودّتكم . ولِعلمى أَن للصّدَاقة حقوقاً ، وللمُصاحبة شرُوطاً ، ربما صعُبت على من حاولها ، وعزَّت على من أَراد الوفاءَ بها ، كنتُ أَرى الوَحدة لى أَوْلى ، والانفرادَ بى أَسلَمَ ، ولكن ما زالت تَنْمى(١) إِلىَّ أَحاسنُ شمائلكم المشرفةِ ، وتتوَاردُ على مسامعى محاسنُ سيركم المطهرة ، فينمُو الوجد ويزْدَادُ الشَّوْق «والأُذن تَعشقُ قبل العين أَحياناً» وما كنت أَجدُ سبيلا للتعرُّف ولا سبباً للتَّوَدُّد ، ولا تجسرُ نفسى على المراسَلة ابتداءً ، إِلى أَن رأَيتُ سيِّدى قد اهتم للأَدب فأَعلى مَنارَه ، ونظرَ للإِنشاءِ فرفعَ مقدارَه ، ونَصر دوْلته وأَحيا صَوْلته ، وأَعادَ شبابُه ، وفتح لأُدباءِ هذا العصر بابه ، فعلمت أَنَّ الدّهرَ قد سَاعَدنى ، والفرصةَ قد أَمكنتنى مِن مُصافحةِ ما أَمّلتُ ومُصافاةِ ما أَردت ، من اجتناءِ ثمار مودَّة سيدى ، والتعرُّف به

(١) تزيد

والتمسُّكِ بأَهداب فضائله والتَّزَوُّد من آدابه ، فإن الأَدب أَحسنُ ما يُسْتَصْبحُ بأَنْوَارِهِ (١) ، وأَشرف ما يُتسابقُ لاقتطاف أَثمارِه (٢) ويُحْمَدُ التطفُّلُ على موائده ، ويُمدَح التنافس فى التِقاطِ فوائده ، فجعلت طلبَ الانتظامِ فى سلك أَرباب الأَقلام وسيلةً لوُرُودِ عذْب وِداده ، ونمير(٣) التعرُّف به ، فإن رَأَى سيدى أَن يَعُدَّ نفسَ حُرٍّ فى عِدَاد معارفه ، ويُقَابلَ رسالَتَهُ بما اشتهرَ من لطائفِهِ حتى تتمتع بالرؤية الأَبصارُ ، كما تمتعت المسامعُ بطيبِ الأَخبار ، كنتُ مُديمَ الشكر لأَفضالِه ، مُستمرَّ الثناءِ على كماله .

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

أَما بعد ــ فهذه رسالة أَكتُبُهَا إلى من لم تكُنْ لى به جامعة جسيمة ، ولم تضمنى وإياهُ حفلةُ تعارف شخصية ، وهى وإن كانت فى عُرْفِ غيرى تعدُّ هُجُوًا ، أَو تُحَسّ فُضولاً ، إلا أَنى أَعتقِدُ أَنها أُوفِدَتْ على كريم يُكرم وِفادتها ويتقبَّلُ ما تهديه إليه من زعيم تحية وجليل إجلال ، ويجتلى من خِلالها إرادة وُدّ ، ورجاءَ ولاءٍ وبُغْية فضل ورغبة فى إخاء ، فيُحلها منه محلَّ القبولِ ويدرَأُ(٤) عنها وصمةَ(٥) الفُضُول . إنَّ لسيدى آثارًا شاهدناها ، فاستفدناها ، ومآثر سمعناها ، فرَوَيناها أَو تناقلناها ، ولا مِرْية(٦) فى أَن ما غابَ عنا منها أَكثرُ مما وعينا ، وأَوفى مما سمعنا ، ونحنُ ــ واللهُ يعلم ــ طلابُ كمالٍ ، ومنتجعو أَفضالٍ(٧) ورُاوّد(٨) ما خصب من فيجاءِ العلوم . وقد توسَّمْنا(٩) فى السيد ــ أَطالَ اللهُ بقاءَه ــ طلبتَنَا ، ووجدنا لديه ضالتنا ، فحثثنا إلى رِحابه مطيَّةَ المكاتبة ، ولنا أَملٌ كبيرٌ فى نوال المأْمولِ ، لعَله يجنَح (١٠) إلى مُقابلة المثل بالمِثْلِ ، فيكتب

---

(١) أضوائه (٢) أزهاره (٣) الزاكى (٤) يدفع (٥) العار
(٦) بضم الميم وكسرها الشك (٧) طالبو معروف (٨) طالبون له
(٩) تفرسنا (١٠) بتثليث النون : يميل

لأخيه بعضَ كُلَيْمَاتٍ . يعرف منها أنه قَبِلَ الإخاءَ . ومال إلى مقتضى طبعهِ من الوفاءِ . ولا أظن ذلك إلا وقد كان أقرب ما يكون من الزمان . فإنَّ الأَرواح ما تعارَف منها ائتلف . كما برهنه الأَصحاب فى معاشراتهم خلفاً عن خلف .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

لقد سَمِعنَا بأَوصافٍ لكم كَمِلتْ ... فَسَرَّنَا ما سَمِعْنَاهُ وأَحيانا

من قبل رُؤيتكم نِلْنَا محبَّتكم ... (والأُذْنُ تعشقُ قبل العين أَحيانا)

سيدى ومولاى :

لقد بلغنى عنك فى وفائك وفضلك ، ما يدعونى لخطب ودك ، ويُرغِّبنى فى إخائك ، ويحببنى فى التوسل إلى معرفة جنابك ؛ وإن لم تجمعنا جامعة شخصية ولم تضمَّنَا حفلة تعارف ذاتية . إلا أن أَحاديث فضائلك الصحاح ، أَوْفدت عليك الأَرواح قبل الأَشباح ، والولاءَ والإخلاص قبل الأَجسام والأَشخاص . ولا غرابة فى ذلك ، فإن من سنةِ اللهِ فى خلقهِ : أَن يُؤَلِّفَ بينَ الأَرواح وأَمثالها ، وإنَّ لله ملائكة يسوقونَ الأَشكال إلى أَشكالها ؛ وشبْه الشيء مُنْجذبٌ إليهِ ، وأَخو الفضائل هو المعوّل عليه .

إنَّ القلوب لَأَجنادٌ مُجَنَّدةٌ ... للهِ فى الأَرض بالأَهواءِ تعترفُ

فما تعارفَ منها فهو مُؤْتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مُخْتَلفُ

فلذا اصطفيتك لنفسى ، واخْترتك لِمَوَدَّتى وأُنسى . نَتَنَاجَى بالضمائر ، ونتخاطب بالسَّرائر . وإن بَعُدَنَا فى الظاهر فَرُبَّ غائبٍ بنفسه . حاضِرٌ بخلوص نفسه .

فإن أَبَيتَ ودادى غيرَ مكترثٍ ... فعنكَ مادُمْت حيًّا لا أَرَى بَدَلا

وحاشاك عن مثل هذا الإباء ، والهجرِ والجفاء .

لكلِّ امرئٍ شكلٌ من الناسِ وكلُّ امرئٍ يَهْوَى إلى من يشاكله

ناشدتك الله أن تقبلَ مِنِّى الإخاءَ ، وتضمنَ لى الوفاءَ ؛ وأنا أَرْضى بك من الدنيا نصيباً ، وأختارك من العالمين حبيباً .

الفصل الثالث : فى رسائل الهدايا

وكتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥ هـ يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان :

أيها الشريف :

عِشت أطْوَل الأعمار بزيادة مِنَ العمر ، مَوْصُولةٍ بفرائضها مِنَ الشكر . لا ينقضى حقُّ نِعْمَةٍ حتى يجدِّدَ لك أُخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مُقَصِّراً عمَّا بعده ، موفياً عمَّا قبله .

إنى تصفحت أحوال الأَتباعِ الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة ،والتمست التَّأَسِّى بهم فى الإهداء – وإن قَصَّرَتْ بى الحال عن الواجب – فوجدت أنى إن أهديت نفسى فهى مِلْكٌ لك . لاحظ فيها لغيرك . ورميت بطَرْفى إلى كرائم مالى . فوجدتُهَا منك . فإن كُنْتُ أهديتُ منها شيئاً . فإنى لَمُهدٍ مالك إليك . ونزعتُ إلى مَودتى . فوَجدتها خالصةً لك قديمةً غير مُستحدثَةٍ . فرأيت إن جعلتُها هديَّتى . أنى لم أُجدِّد لهذا اليوم الجديد براًّ ولطفاً . ولم أُمَيِّزْ منزِلة من شكرى بمنزلةٍ من نعمتك . إلا كان الشكر مُقَصِّراً عن الحقِّ . والنعمة زائدة على ما تبلُغُه الطاقة . فجعلتُ الاعترافَ بالتقصير عن حقك . هدية إليك . والإقرار بالتقصير عما يجبُ لك . براًّ أَتَوَسَّلُ به إليك . وقلت فى ذلك :

إن أهد مَالاً فهو وَاهِبُهُ وهوَ الحقيقُ عليه بالشكْرِ

أَو أهْد شكرى فهو مُرْتهَنٌ بجميل فعلك آخرَ الدهر

والشمس تستغنى إذا طلعت　　أن تستضىء بِسُنَّة(١) الدهر

وكتب حفنى بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ – ١٩١٩ م :

الهديَّةُ فى نظر الأَصفياءِ جليلةٌ ، وإن كانت فى نفسها قليلةً ، ومكانتها خطيرةٌ وإن كانت يسيرةً ، وسنَّةٌ حَسَنَةٌ اجتمعت على فضلها الأَلسنة .

مضَتِ الدُّهُورُ وأَمرُها مُسْتحسَنٌ　　وتعاقبتْ بمديحها الأَيام

اللَّهم إلا إن لَبست جلْباب (٢) الرياءِ ، وَوَلَجَتْ (٣) أَبواب الارتشاءِ ، ولا مِرَاءَ (٤) إن الأَودَّاءَ من ذلك براءٌ .

وما زالت الهديَّةُ شِعَار الأَصدقاءِ ، وعنوان تذكار الولاءِ ، وكم جدَّدتْ بين الأَصحاب عهود التَّحَاب .

وتعهدت وُدًّا فعادَ شتِيتهُ　　ولشَمْلِهِ بعد البَداد (٥) نظامُ

قد وصلتنى يدُ العصا فحبَّذا الإِهداء ، وأَهلاً بتلك اليد البيضاء ، وليست هذه أَوَّلَ أَياديك علىَّ ، ولا أَكبر عارِفةٍ جاءَت من ناديك إلىَّ ، أَمِنْت بها النوبَ (٦) واعتضدت بها (٧) على تفريق شمل الكُرَب .

فإِذا طغا (٨) بحرِ الهموم ضربتُهُ　　بعصاىَ فاجتازت (٩) به الأَقدام

تنفلق بها الأَيام صخُور ، فتنبجس(١٠) منها عيونُ السُّرُورِ ، وتلقفُ ما يصنع الأَعداءُ ، فتذهبُ البَغْضَاء ، وإذا اشتدَّ هَجيرُ(١١) الوحشة ، نشرَتْ ظلال أُنسها ، أَو عصى فرْعَوْنُ الدَّهْرَ ، راعته (١٢) ببأْسها (١٣) .

---

(١) الوجه (٢) القميص (٣) دخلت (٤) جدال (٥) التفريق
(٦) جمع نائبة : مصـيبة (٧) استعنت (٨) علا (٩) سلكت
(١٠) تنفجر (١١) حرها (١٢) أزعجته (١٣) بشدتها

فكأنما أوصى الكليم(١) لنا بها حتى يرى آياته الأقوامُ

وقد فكرتُ ماذا أُقابِلُ به طُرَّفتك(٢) ، وأتَلَقى به تحفَتك ، إلى أن هدانى الله أن يد المنعم إنما تقابَلُ بالأفواه ، ليُعزز القَبُول بالقُبل ، ويؤدى الرسم باللَّثم ، فأرسلت لك فم سيجارة ، وجعلته لهذا المعنى إشارة ، وقلت :

مولاى كم فاضت يمينك بالندى(٣) حتى غدوْتُ غريقَ بحرِ الأَنْعُمِ

والشكرُ أوْجب أَن أُقبِّل راحها فكنيت عن هذا بإهداءِ الفم

وقد علمت أن المنظرَ البهيج ، يتمُّ بالتدبيج (٤) ، فاخترتُ أن يكون مبدؤهُ كالليل إذا عَسْعَس(٥) ، ومُنتهاه كالصبح إذا تنفس(٦) ، إيذاناً(٧) بزوال الشرور بالسرور ، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر :

يا أيها المولى الذى عمت أياديه الجميله

اقبَلْ هدية مَنْ يرى فى حقك الدنيا قليله

غُرَّة وجه السعود وقرة عين الوجود ــ الأمير الجليل .

يا جليل الفضائل ــ إليك توجه الآمال ، ويا جميل الشمائل بساحتك تحط الرحال ، تلك هى الساحة الفيحاءُ(٨) ، والشِّيمة (٩) الحسناءُ ، والهمَّة العلياءُ ، واليد البيضاءُ ، والأعمال التى تُضرب بها الأمثال ، كم من نعم أسديتها(١٠) ، ومكارم أوليتها وعلوم أحييتها ، فأنت المصدَرُ والموْردُ ، والمقصد والموعِدُ ، إليك أُقدِّمُ تلك الهدية المرضية ، وأَرْفعُ ذلك الكتاب المُستطابَ ، مشفِّعاً فى قَبوله كرم سجاياك ، وعِظَمَ مزاياك ؛ وإن كنتُ أعلم أن مقامك العلىّ ، يجِل عن أن يرفعَ إليه مثله ، فقد عرفناك مُتواضعاً فى عُلاكَ ، قريباً مع اعتِلاك .

---

(١) سيدنا موسى عليه السلام (٢) احسانك (٣) العطاء
(٤) التزين (٥) أقبل بظلامه (٦) أضاء (٧) اعلاما (٨) الواسعة
(٩) الخلق (١٠) أعطيتها

دَنَوْتَ تواضعاً وعلَوْت مجداً فشأْناكَ انخفاضٌ وارتفاعُ
كذاك الشمس يَبْعُد أَن تُسَامى ويدنو الضوءُ منها والشُّعاعُ (١)

وحاشاك أَن أهدى للقمر نوراً ، أَو للشمس ضياءً ، أَو أَبعث ببُنية القطر(٢) إلى ذلك البحر ؛ ولكننى أَحببتُ أَن يحظى بلثم بنانك(٣) ، وينال من كرمك وإحسانك . وقد عهدناك تهتزُّ للمكارم اهتزاز الصارم(٤) ، وترتاح لإسداءِ الجميل كما يرتاح للكريم النزيلُ ، وللشفاءِ العليل ، وما هو إلا من نور فكرك مقتبس(٥) فعساه يحظى بالقبول ، فأَبلغ غاية المأْمول ، والسلام .

وكتب الأُستاذ عبد الله بك الأَنصارى المتوفى سنة ١٩٣٢ م :

المولى – أَدام الله وجوده ممتعاً بهدايا الأَيام ، وتحف الأَعوام – طالما أَوْفَدَ (٦) من الرِّفد(٧) إلىَّ ، ووجه من الخيرات ما أَفعَمَ(٨) يدىَّ ، حتى أَصبحتُ – وله الفضل والمنَّة – أَجُرُّ ذيول النعْمَاءِ(٩) على غبراءِ(١٠) البأْساءِ(١١) وأَجتلى معارف(١٢) السَّرَّاءِ بعوارفه البيضاءِ ، التى لا يُوَازِيها ثناءٌ وحمد ، ولا يوازنها عطاءٌ ورِفْد ، ولا يطاولهَا سماءٌ وبحر ، ولا يُغالبها بؤس وفقر . وإن لى من آلاءِ(١٣) السيد – حفظه الله وأَدام علاه – ما أَينَعَ وأَزهر وأَورق وَأَثمر حدائق قامت لشكره عيدانها وَسجدت لفضله أَغصانها ، وَترنمت طرباً وَتمايلت عجباً ، بنفحات هى عَرْفُه(١٤) ، وَبركات هى عُرْفه . وَلى أَمل فى جنَابه ، وَأَنا سليل(١٥) نعمته ، وعهدى بأَخلاقه وأَبا ابن مودته ، أَن يمنَّ بقبول ما أَهديته ؛ وهو من نفسه ، وثمرة غرسه (باكورة تُفَّاح) يرفعها إجلال وإعظام .

---

(١) تفاخر (٢) المطر (٣) الاصابع (٤) السيف القاطع (٥) مأخوذ
(٦) أرسل (٧) العطاء والصلة (٨) ملأها (٩) بالفتح النعمة
(١٠) الأرض (١١) الداهية (١٢) أنظر اليها بجلوة (١٣) نعم
(١٤) بالفتح الريح الطيبة (١٥) ابن نعمته

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

الهدية ــ غمرك الله بالمعروف ــ تَبسطُ يد المودّة ، وتَدُرُّ بها أخلاف(١) القرب وتغرس بين المتحابين من الائتلاف ، بقدر ما تقطع بينهما من شجر الخلاف ، وما أنا فيما أهديه إليك إلا كمستَبْضع(٢) تمراً إلى أرض خَيْبَرَ(٣) ، أو كالواهب الماءَ للبحر ، والضوءَ للبدر ، والملك لسليمان(٤) ، والمال لقارون(٥) والحلم لأحنف(٦) والذكاءَ لإياس(٧) ، والتفسير لابن عباس(٨) ؛ وما ذاك إلا كتاب كما تراه ضربَ فى الإحكام بسهم ، ووعى من الأحكام ، ما خلت منه مُفعماتُ(٩) الأسفار(١٠) ، وموجزات الرسائل ، فهو كما قيل : «كل الصَّيد فى جَوْفِ الفَرَا»(١١) .

تزينُ معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

على أنى وإن تطفلت عليك ، وسقتُ لك هذا الكتاب مُزْدَلفاً(١٢) إلى جنابك الرَّحْب ، ومقامك الأسنى ، فقد أصبتُ كبد الصَّوَاب ، وَوَضعته حيث يعرفه أهلوه ، ويتقبله من باذله عالموه ، علماً بأنك عماد العلوم ، وأساس الفضائل لا تغادِرُ(١٣) شاردة إلا وعيتها ، ولا نادرة إلا رويتها ، وإلا :

---

(١) جمع خلف بالكسر الضرع (٢) جاعله بضاعة (٣) موضع بالحجاز (٤) ابن داود النبى عليهما الصلاة والسلام (٥) من قوم موسى عليه السلام أعطاه الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره (٦) هو أبو بحر صخر بن قيس تابعى كبير يضرب به المثل فى الحلم توفى سنة ٦٧ هـ (٧) هو أبو وائلة بن معاوية بن مرة المزنى يضرب به المثل فى الذكاء توفى سنة ١٢٢ هـ (٨) هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابى جليل يلقب ترجمان القرآن توفى سنة ٩٨ هـ (٩) مملوآت (١٠) الكتب (١١) حمار الوحش ، ومعناه ــ كل ما عداه دونه قاله النبى عليه الصلاة والسلام تطمينا لرجل خرج يصطاد مع أصحابه فلم يصب غير الحمار الوحشى (١٢) متقربا (١٣) لا تترك .

لو كان يُهْدَى على قَدْرِي وقدركُم لكُنْتُ أُهْدِي لك الدنيا وما فيها

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أُستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده :

سيدى ومولاى . . .

أَطالَ الله بقاءَك ، ورفع فى الدارين عُلَاك – الهدية مفتاح باب المودة ، وعنوان تذكَار المحبَّة ، يتسابق إليه كِرَامُ السَّجَايَا (١) ، ويتسارع إلى إحياء شعائرها عُشَّاق المزايا ، حرصاً على حفظ عهود الوداد والتآلف ، وإذهاباً لوحشة التقاطُعُ والتَّخَالُف :

هدايا الناس بعضهمُ لبعضٍ تُوَلِّدُ فى قلوبهمُ الوِصَالا

وتزرعُ فى القلوبِ هَوًى وَوُدًّا وتكسوكَ المهابةَ والجلالا

ولقد وجدتك إماماً حكيما ، وفيلسوفاً عليماً ، تقدِّرُ الأَعمال حق قدرها ، وتضعُ الأَشياءَ فى مواضعها ، سَبَّاقاً إلى نشر العلوم والمعارف ، بين أَرجاءِ المشارق والمغارب :

يبقى الثَّنَاءُ وتَنْفَدُ الأَموال ولكلِّ دهر دولةٌ ورجالُ

ما نَالَ مَحمدَةَ الرِّجالِ وشكْرَهُمْ إلا الصَّبُور عليهم المفضال

سيدى ومولاى . . .

أُهْديك كتابى « جواهر الأَدب ، فى أَدبيات وإنشاءِ لغة العرب » جمعَ فأَوْعَى من الآداب والحكم ما خلت منه الأَسفار(٢) ، فهو بلا شك ولا مِرَا ، كلُّ الصيدِ فى جوفِ الفَرَا .

تزينُ معانيهِ أَلْفاظهُ وأَلفاظه زائناتُ المعانى

---

(١) الاخلاق (٢) الكتب الكبيرة .

على أنى ـ وإن تَطَفَّلْتُ عليك ، ووضعت كتابى هذا بين يديك ـ فقد ولجت الأُمورَ من الأَبواب وأَصبتُ كبدَ الصواب ، حيثُ يعرف الفضل من الناس ذووه ، ويتقبَّله بِقَبُولٍ حسن عالموه :

شُكْرا وحَمْدا إن قبلتَ هديتى وجعلت لى فضلاً على أَقْرَانى

فبتنازلك بقبوله يكون الإِقبالُ جليلا ، ويعجز لسانى عن أَن أَشكرك شكراً جزيلاً ، والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم سعد باشا زغلول يُهْدِيه كتابه « جواهر الأَدب ، فى أَدبيات وإنشاءِ لغة العرب » :

مولاى ، أَطالَ الله بقاءَك فى أَهنإِ عيشَةٍ وأَرْغَدِها ، وأَتم نعمة وأَسعدها ، وأَعَمِّ عافيةٍ وأَزيدها ، وأَولاكَ من الآلاءِ بأَمدها مزيداً ، ومن السَّلَامةِ بأَسْبَلِها سِتْرا ، ومِنَ السرور بأَوفَرِه حظًّا ، ومن العِزِّ بأَشَدِّه ركناً ، والعمر بأَبْعَدِه مدى ؛ تولاك المَوْلىٰ بحفظه وحِيَاطته ، وحَرَسَك تحت جناح السلامة بكلاءَتهِ ورعايتهِ .

إن الله تعالى قد خَصَّك بالعِزِّ المنيع ، والشرف الرفيع ، والخُلُقِ السنىّ ، والفخر البهىّ ، والرأْى والحزم ، والبلاغة والفهم ، والبراعة والكمال ، والبَذْل والنَّوَال ، والجود والإِفضال ، والحمد والثناء ، والكرم والوفاءِ ، والمذهب الجميل ، والقدرِ الجليل .

فأَنت ـ أَدامَ الله كَرَامتك ، وأَكْرَمَ حياطتك ـ معدن الفضائل وَزَيْن المحافل ، غياث اللاجىِ إليك ، وسَنَد المعَوّلِ عليك ، لايُجْحَدُ فضلك ولا يُنسى ذِكْرُك ، عَرْفك شائع ، وجودك واسع ، ومعروفك ذائع ، وفضلكَ شاملٌ ، ولُبُّك كامل ، سِلْمٌ لأَوليائك ، حَرْب لأَعدائك ، سحائبُ كفيك تمطِرُ ديم

الإنعام ، وشآبيبُ يَديك تفوق أَفعال الكرام ، زَادَكَ اللهُ أَيُّهَا الرئيسُ عقلاً إلى عقلك ، وفخراً إلى فخرك ، وفضلاً إلى فضلك ، وطَوْلاً إلى طَوْلك ، وَسُؤدَدًا إلى سُؤددك ، إنَّه لطيف كريم .

لمَّا رأَيتُك – أَدام الله عُلُوَّكَ ، وأَجزل من كلِّ خير حظك وقسمك – تغنى عن التَّوَسُّل إليك بكريم أَخلاقك ، وشريف أَعْرَاقك ، جعلتُ كَرَمك ذريعتى إليك ، لما دلَّنِى من فضلك عليك ، وكفى به عن اللبيب شَاهِداً ، وإلى الكريم قائداً ، فأَطْمَعنى فيك ما رأَيتُ من جودك وسماحتك ، وَحُسْنِ بِشْرِك وطلاقتك ، ولئن أَمَّلتك عند الشدائد ، ودفعت بك صَوْلة النوائب ورَجَوْتك لكشف المُلمَّات ، والحوادث الطَّارِقَات ، واستغثتُ بسَيبك وجدواك على غير شافع ، أَطمعُ فى شفاعته إليك ، أَو مُتوسل فى ما لديك ، فإنى أَقول كما قال الشاعر :

من غير ما سبب يُدْنِي كَفى سبباً للْحُرّ أَن يجتَدِى حُرًّا بلا سببِ

ولما كانت الوسيلة إلى السادات ، وأَهل الأَخطار والمُرُوءات ، إنما هى وكيد حُرْمة أَو قديم خدمة ، وكُنْتُ صفرا من ذلك كُله ، غير داخل فى جملة أَهله ، توسلتُ بكتابى « جواهر الأَدب ، فى أَدبيَّات وإنشاء لُغة العرب » ، إذ كان المتوسِّل بها على ثقة ممن عَرَف قدرها ، لأَن الآداب عند ذوى الكرم ، أَعطفُ من صلة الرَّحم ، وهو سببٌ بين الكرام موصول ينزعون إليه ، وحق يتعاطفون عليه ، وفيه قال الشاعر :

أَدبٌ بَيْننا تَوَلد منه نسبٌ والأَديبُ صِنْوُ الأَديب

وقال الآخر :

حَقُّ الأَديب وإنْ لَمْ يُدْنِهِ نسبٌ فَرْض على كلِّ مَنْ أَمْسَى له أَدبُ

وقد ضمنتُ كتابى هذا من الآداب أَظرفها ، ومِنَ الأَشعار أَفضلها وأَجملها

وجعلتُه سبباً أَمُتُّ به إليك ، وهدية أَضَعُها بين يديك . فتنازل دولتكم بشرف القُبُول ، يكون غاية مطلوبى ، ونهاية المأْمُول .

الفصل الرابع : فى رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أَبو منصور الثعالبي النِّيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الكريم إذا قَدَر غفرَ ، وإذا أَوْثَقَ أَطلق ، وإذا أَسرَ أَعتق ، قد هربت منك إليك ، واستعنتُ بعفوك عليك ، فأَذِقْنى حلاوة رضاك عنِّى ، كماأَذقتنى مرارة انتقامِكَ منِّى الحرُّ كَريم الظَّفر ، إذا نالَ أَقال(١) ، واللئيمُ إذا نال استطال(٢) ، قد هابك من استتر ، ولم يُذنب إليك من اعتذر ، تكلفُ الاعتذار بلا زَلة(٣) ، كتكلف الدواءِ بلا علة ، مولاى يوجبُ الصفحَ عند الزلة(٤) ، كما يلتزم البذل عند الخلة(٥) ، مولاى يُوليتى صفيحة(٦) صفحه ، ويُؤتينى العفوَ من عفوه ، زَللت وقد يزلُّ العالمُ الذى لا أُساويه ، وعثرتُ وقد يعثر الجوادُ الذى لا أجاريه ، لا تضيقن عنِّى سعة خلُقك ، ولا تكدرن علىّ صفوَ وُدك ، مالى ذَنْبٌ يضيقُ عنه عفْوُك ، ولا جُرْمٌ يتجافى تجاوُزك وصفحك . والسلام .

وكتب عبد الله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤ هـ إلى أَبى مسلم :

من الأَسيرِ فى يديه ، بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . (أَما بعد) فقد آتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرَّعِيَّة ، وأَلهمكَ عدل القضيَّة فإنك مُسْتودعُ الودائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ ودائعك ، بحسن صنائعك . فالودائع عارية . والصنائع مرعية . وما النِّعم عليك وعلينا فيك بمنزُور نداها . ولا بمبلوغ مداها . فنبه للتفكير قلبك . واتَّقِ ربك وأَعط من نفسك من هو تحتك . ما تحب

---

(١) ترك (٢) تملك وتمسك (٣) بالفتح السقطة (٤) بالفتح الفلظة (٥) بفتح الخاء الحاجة والفقر (٦) صفيحة – عريضة .أى عظيم صفحه .

أن يعطيك من فوقك من العدل والرَّأفة ، والأَمْن مِنَ المخافة . فقد أَنعمَ الله عليك ، بأَن فَوَّض أَمرنا إليك . فاعرفْ لنا لِينَ شكر المَوَدَّةِ . واغتفار مَسّ الشدة والرِّضا بما رضيت والقناعة بما هوَيت . فإن علينا من سمكِ الحديد وثقْله أَذًى شديداً ، مع معالجة الأَغلال ، وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ؛ زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الإياسة ! فإليك – بعد الله – نرفعُ كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى . فمتى تمل إلينا طرفاً ، وتولنا منك عطفاً تجد عندنا نصحاً صريحاً ووُدًّا صحيحاً . لا يضيِّع مثلك مثله ، ولا ينفى مثلك أهله ؛ فارع حُرْمة من أَدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلجت بحجته(١) فإن الناس من حوضك رِوَاءٌ ، ونحن منه ظِمَاءٌ . يمشون فى الأَبراد ، ونحن فى الأَقياد ، بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة ؛ والله المستعان ، وعليه التكلان .

وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٧٩٩ ﻫ :

رفقاً بمن ملك الوجد قياده . وعطفاً على من أذاب الشوق فواده . مُتَيَّم(٢) أَقلقه فرط صدودك . ومغرمٌ أَغراه بحبك قول حسودك . وسقيم لا شفاء له دون مزارك . ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك . إلَامَ هذا التنائى(٣) والنفور! وعلام ياذا القد العادل تجور ؟! لقد تضاعف الأَسف والأَسى ، وتطاول التعلل بلعلّ ، وعَسى :

هبنى تخطيتُ إلى زَلة ولم أَكُنْ أَذْنبتُ فيا مضى
أَلَيْسَ لى من بعدها حرمةٌ ؟ تُوجب لى منك جميل الرِّضَا ؟!

ولست أَلوذ إلا بباب نعمك ، ولا أَعتمد فى محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك وما جل(٤) ذنب يضاف إلى صفحك ، ولا عظم جُرْمٌ(٥) يسند إلى عفوك .

---

(١) فلج بحجته – أثبتها (٢) مستعبد ذليل (٣) التباعد
(٤) ما عظم (٥) ذنب .

ومثلك من يقيلُ العثرَاتِ ، ويتجاوز عن الهفوات :

وَكُنْت أَظُنُّ أَنَّ جبال رضوَى(١) تزولُ وَأَنَّ وُدَّكَ لا يزول
ولكنَّ القُلوبَ لها انقلابٌ وَحَالاتُ ابن آدم تَسْتحيل

طالما آنَسْتنى بقربك ، وَدَنَوْتَ مِنِّى مفارقاً ظباءَ سِرْبك ، وأَنجزت وُعُودى ، وأَطعتَ نجومَ سعودى :

وكُنت إذا ما جئت أَدنيت مجلسى ووجهك من ماءِ البشاشةِ يَقْطُرُ
فَمَنْ لِىَ بالعين التى كُنْت مَرَّة إِلَىَّ بها فى سالف الدهر تَنْظُرُ

قيدت أَملى عن سواك ، وبَهرْتَ ناظرى بنظرة سَنَاك(٢) ، وكسرت جيش قرارى ، وتركتنى لا أُفرِّقُ بين ليلى ونهارى ، أَحُوم حَوْلَ الدِّيَار ، وأَعُوم فى بحر الأَفكار ، وأَتمسك بعطف عطفك ، وأَتعلق بأَذيال مكارمك ولُطفك . أَما علمت أَن الكريم إذا قدر غفر ؟ وإذا صدرت من عبده زَلَةٌ أَسْبَلَ عليها رداءَ العفو وستر ؟ وأَن شفيع المذنب إقراره ؟ ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره ؟

وَمَنْ كان ذا عُذْرٍ لديك وحجةٍ فعذرى إقرارى بأَن ليس لى عذر

لهفِى على عيش بسلاف(٣) حديثك سَلف ! وأَوقاتٍ حلت ، ثم خلت وأَورثت التَّلف ! وَآهاً لأَيام أُنسك مضت ! وبُرُوقِ ليالٍ لولا قُرْبك ما أَوْمَضت(٤) :

قد كُنْت أَعْرِف فى الهَوَى مقدارَهَا رَحلَتْ وبالأَسف المبَرِّح عَوَّضَتْ
كيف السبيل إلى إعَادَة مثلها وهى التى بالبعد قلبى أَمْرَضَتْ

فَجُدْ بالتدانى ، واسمح بنيل الأَمانى ، وَأَلِنْ قلبك القاسى ، وعد عن التنائى

---

(١) جبل بالمدينة (٢) ضوئك (٣) الخمر (٤) ما لمعت

والتَّناسى ، وارْعَ الود القديم وأَبدل شقاءَ محبك بالنَّعيم ، ولا تعْدِلْ عن منهاج المَعْدَلة ، وسلم فقد أَخذَتْ حقها المسأَلة ، وأَغْمد سيف حيف(١) صيَّرته مسلولاً ، وأَوْفِ بِالْعَهْد إِنَّ العهدَ كانَ مَسْئولا .

وكتب أَبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

ليس عندى ــ أعزك الله ــ سببٌ ولا أَقدرُ على شفيعٍ ، إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة ، والتأْميل الذى لا يكون إلا من نَتاجِ حُسْن الظن ، وإثبات الفضل بحال المأْمُول . وأَرجو أَن أَكون من الشاكرين ، فتكون خير مُعتب(٢) ، وأَكون أَفضل شاكر ، ولعل الله يجعل هذا الأَمر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم ، والكون تحت أَجنحتكم(٣) ، فيكون لا أَعظم بركة ولا أَنمى بقيةً من ذنب أَصبحتُ فيه ، وبمثلك (جعلت فِدَاك) عَاد الذنبُ وسيلةً والسَّيئةَ حسنةً ، ومثلك من انقلب به الشر خيراً ، والغرم غنما(٥) .

من عاقب فقد أَخذ حظه . وإنما الأَجر فى الآخرة وطيب الذِّكْر فى الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرع المرائر . وأَرجو أَن لا أَضيع (وأَهْلكَ) فيما بين كرمك وعقلك . وما أَكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه . وإنما الفضل والثناءُ العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة . وإن كان العفو العظيم مستطرفاً(٦) من غيركم فهو تلاد(٧) فيكم ، حتى دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أَمركم ، فلا أَنتم عن ذلك تنكلون(٨) ، ولا على سالف إحسانكم تندمون . ولا مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم ؛ حين كان لا يمر بملإٍ من بنى إسرائيل إلا أَسمعوه شرا ، وأَسمعهم خيراً ، فقال له (شمعون الصفار)(٩) : ما رأَيت

(١) الجور (٢) مسر بعد اساءة (٣) حمايتكم (٤) ما يلزم أداؤه (٥) الغنيمة (٦) مستحدثا (٧) المال القديم (٨) ترجعوا
(٩) شمعون الصفار : هو أحد حوارى عيسى عليه السلام .

كاليوم ! كلما أَسمعوك شرًا ، أَسمعتهم خيراً ؟ ! فقال : «كلُّ امرئ يُنفق مما عنده» وليس عندكم إلا الخير ، ولا فى أَوْعيتكم إلا الرحمة . وكل إناءٍ بالذى فيه ينضح .

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء :

نَبَت(١) بى غرَّةُ الحداثَة ، فردتنى التَّجربة ، وأَفادتنى الضرورة ؛ ثِقةً بإِسراعكَ إلى وإن أَبطأَت عنك ، وقبولك لعذرِى وإن قَصَّرت عن واجبك . وإن كانت ذنوبى سدَّت علىَّ مسالك الصفح عَنِّى ، فراجعْ فى مجدك وسُؤْدَدك(٢) وإنى لا أَعرفُ موقفاً أَذل من موقفى ، لولا أَن المخاطبة فيه لك ، ولا خطةً أَدنأ من خطتى ، لولا أَنها فى طلب رضاك – والسلام .

وكتب أَبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٧٤٠ هـ :

لو بغير الماء حَلقِى شرق كنت كالغصان بالماءِ اعتصارى

كيف يقدر (يقى الله السيد) على الدواءِ ، من لا يهتدى إلى أَوجه الداءِ ؟ وكيف يدارى أَعداءَه ، من لا يعرف الأَصدقاء من الأَعداءِ ، وكيف يعالج علة القرحة العمياءِ ؟ أَم كيف يسرى بلا دليل فى الظلماءِ ؟ ! أَم كيف يخرج الهارب من الأَرض والسماءِ ؟ ! الكريم إذا قدر غفر ، وإذا أَوثق أَطلق ، وإذا أَسرَ أَعتق . ولقد هربت من السيد إليه ، وتسلحت(٣) بعفوه عليه ، وأَلقيت ربقة (٤) حياتى ومماتى بيديه . فليذقنى حلاوة رضاه عنى كما أَذاقنى مرارة انتقامه منى ، ولْتَلح(٥) على حالى غرة عفوه ، كما لاحت عليها مواسِم(٦) غضبه وسطْوِه . وليعلم أَن الحر كريم الظفر إذا نال أَقال ، وأَن اللئيم لَئِيمُ الظفر إذا نال استطال . ولْيغنم التجاوز عن عثرات الأَحرار ، ولْيَنْتهز فُرص الاقتدار .

---

(١) أبعدتنى (٢) السيادة (٣) استعنت (٤) العروة التى يربط بها والمراد بها الزمام (٥) تظهر (٦) العلامات .

وَلْيحْمد اللهَ الذى أَقامهُ مَقَامَ من يُرْتجى ويخشى ، وركَّبَ نصابه فى رُتْبةٍ شابَ الزّمَانُ ومجدها فَتِيٌّ ، وأَخلَقَ العالمُ وَذِكْرُها طرِيّ ، وليعتقد أَنه قد هَابَهُ من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر ، وأَن من رُدَّ عليه عُذْرُه ، فقد أُخرج إلى الشجاعة بعد الجُبْنِ ، وأُخرجَ ذنبُه إلى صَحن اليقين من سُترة الظنّ . وفق اللهُ السيد لما يحفظ عليه قلوبَ أَوليائه ، وعصمه مّما يزيد به فى عدد جماجم أعدائه .

وكتب بعضهم إلى رئيسه :

وَجَدْتُ استصغارك لعظيم ذنبي أَعظم بقدر تجَاوُزك عنِّى ، ولعمرى ! ما جل ذَنْبٌ يُقَاسُ إلى فضلك ، ولا عظُمَ جُرْمٌ يُضاف إلى صفحك ، وَيُعَوَّلُ فيه على كَرَم عفوك . وإن كان قد وسعه حلمك ، فأَصبح جليلهُ عندك محتقرًا ، وعظيمه لديك مستصغرًا ، إنه عندى لفى أَقبح صور الذنوب ، وأَعلى رُتب العيوب . غير أَنه لولا بوادر(١) السُّفَهاءِ ، لم تعرف فضائلُ الحلماءِ ولولا ظهور نقص بعض الأَتباع ، لم يَبن جمال الرُّؤساءِ ، ولولا إلمام الملمِّين بالذنب ، لبطل تَطَوُّل المتطَوّلين بالصفح . وإنى لأَرجو أَن يمنحك الله السلامة بطلبك لها ، وَيُقيلك العثرات بإِقالتك أَهلها . وما علمت أَنى وقفتُ منك على نعمة أَتدبّرُها ، إلا وجدتها تشتمل على فائدة فضل ، تتبعها عائدة عَقل .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ :

بمَ يعتذرُ إليك من لا يرى لنفسه عُذْرًا ؟! وكيف يستتر مِنْ عتْبك مَنْ لايستطيعُ لذنبه سترًا ؟! بل كفانى من العتب : تعنيف نفسى على ما أَلقيت عليها من تبعة تقصيرى ، وما حُلتُ به من التفريط بينها وبين معاذيرى . واللهُ

---

(١) جمع بادرة : وهى الحدة عند الغضب .

يعلم ماكان تقصيرى شيئًا أَرَدْته وكان تفريطى أمرًا قصدته ، ولكنها الأَيام ! إن صاحبتها لم تَصْحب ، وإن عاتبتها لم تُعْتب ، فلقد عبرتْ بى هذه البرهة كلُّها وأَنا بين شواغلَ لايشغلها عنّى شاغِل ، وبَلَابِلَ(١) قد اختلط حابلها بالنابل ، فتنازعتُهَا هذه النُّهزة(٢) اليسيرة ، أُجدِّدُ فيها التذكرة ، إلى أنْ يمنَّ اللهُ بصلة الحبل واجتماع الشمل ، وأَستنزلُ أَحْرُفاً من حَظِّكَ يكتحلُ بها النَّاظر ، ويأْنُسُ إليها الخاطر ، متوقعًا بعد ذلك أَن أَبقى بين يدى مودَّتك مذكورًا ، وألا يكون عجزى لديك شيئًا منظورًا ، وأَن تجرى بى على عادة حِلْمِك ، إلى أَن يجمعَ الله الشتيتين وَيُغنى العين(٣) عن الأَثر بالعين(٤) إن شاءَ الله تعالى . والسلام .

وكتب أَيضاً :

وافانى كتابك العزيز ، والنفْسُ نازعة(٥) إلى ما يزيلُ نِفَارَها ، والقريحة(٦) تائقةٌ(٧) إلى ما يشحذُ(٨) غرارها(٩) ؛ فكان روضةً باسمةَ(١٠) الكمائم(١١) فاتحة النَّسائم ، وقد ردّت على النفس انبساطها وأحيلت البادرة فاستأْنفت نشاطها ؛ فأَنا منه ما بَينَ وشى(١٢) يُخجلُ طِرَاز العَبقرية(١٣) ، وَزُخْرُفٍ(١٤) دُونهُ نضرةُ(١٥) السابرية(١٦) تُنَاجينى منه رَشَاقة(١٧) أَلفاظٍ تفضحُ قُدُود(١٨) الحسان ، وغضاضَةُ(١٩) أنفاسٍ يُغَارُ منها وَرْدُ الْجِنَان ، ورقّة خطاب يَشف(٢٠)

---

(١) هموم ، والحابل : قيل ناصب الحبالة للصيد ، وقيل : سدى الثوب . والنابل : صاحب النبال وقيل : لحمة الثوب ولفظ المثل «اختلط الحابل بالنابل » وهو مثل يضرب فى ارتباك الامر (٢) بضم النون الفرصة (٣) الباصرة (٤) الذات (٥) مشتاقة (٦) الملكة التى يقتدر بها على استنباط العلم بحدة الطبع (٧) مشتاقة (٨) يحد، وأصله السكين (٩) بكسر الغين والمراد أن الملكة مشتاقة الى مايجعلها قوية مصيبة (١٠) ضاحكة (١١) الزهر (١٢) نقش الثوب (١٣) ثياب تبلغ الغاية فى الحسن (١٤) كمال الحسن (١٥) الحسن (١٦) ثياب رقيقة جيدة وأصلها للدروع السابرية نسبة الى سابور كورة بفارس ، بينها وبين شيراز ستة عشر فرسخا (١٧) لطافة (١٨) جمع قد وهو القامة الرشيقة (١٩) الحسن (٢٠) يحكى .

عن ودّ صفىّ ، ولطف خفىّ(١) ، وكَرَم ٍ وفىّ ، وعتبٍ أعذبَ من الماءِ القراح(٢) ، وأَرَقَّ من نسماتِ الصبا فى الصَّبَاح ؛ حتى لقد حَبَّب إلَىَّ تقصيرى ، وشفعَ عند نفسى فى قبول معاذيرى . على أَنَّ ما عندى من الولاءِ لا يعتريه – معاذ الله ! – وهن(٣) ، ولا يخلفه(٤) تمادى زمن أَو ترامى وطن . ولكن صُرُفَ الأَحداث(٥) قد قصَّرَت الجهد(٦) ، وصرفت جواد العزيمة عن القصد . والله يعلم أَنى لو نزلت على حكم نوازل الدَّهْر ، ولم أَدافع طلائعها بما بقى من ساقة(٧) الصبر ، لما كان فى هِمَّتِى إلا كَسْرُ اليرَاع(٨) وهجرُ المحابرِ والرِّقاع(٩) . وحسبى من العذر ما أَعرفه من حلمك المأْلوف ، وما أَلفتهُ من كَرَمِكَ المعروف .

والله أَسأَل أَن يبقيك لى من الدَّهْرِ نصيبًا ، ويمتعنى بلقائك قريبًا ، بمنِّه وكرمه .

وكتب أَبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

أَما بعدُ : فنعمَ البديلُ من الزلة الاعتذار ، وَبِئْسَ العِوَضُ من التوبة الإِصْرَارُ ؛ فإنه لا عِوَضَ من إخائك ولا خلف من حُسْن رأْيك . وقد انتقمت منِّى فى زلَّتِى بجفائك ، فأَطلق أَسيرَ تَشَوُّقِى إلى لقائك . فإننى بمعرفتى بمبلغ حلمك وغاية عفوك ، ضَمِنْتُ لنفسى العَفْوَ مِنْ زلتها عندك . وقد مسنى من الأَلَمِ مَا لَمْ يشفِهِ غير مواصلتك .

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦ هـ إلى المأْمون :

كلُّ ذنبٍ – يا أَمير المؤمنين – وإن عظم صغير فى جنب عفوك . وكل

(١) ظاهر فهو من الاضداد (٢) بفتح القاف الخالص (٣) ضعف (٤) لا يبليه (٥) كلاهما مصائب الدهر (٦) بفتح الجيم وضمها أى الطاقة (٧) آخره (٨) الاقلام (٩) الرقاع بكسر الراء مفردة رقعة وبضمها القطعة من الورق التى تكتب .

إساءة وإن جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذى عَوَّدكه الله أطال مدّتك ، وتمم نعمتك ، وأدام بك الخير ، وَدَفَعَ عنك الشر والضير .

وبعد : فهذه رُقعة الوَلهى — التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر — فإن رأيت أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة حيلتى ، وأن تصل رحمى ، وتحتسبَ فيما جعلك اللهُ له طالباً ، وفيه راعياً — فافعل — وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعى إليك .

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتى :

وصلت رقعتك يا أُماه — أحاطك الله وتولاك بالرعاية(١) — ووقفتُ عليها ، وساءنى — شهد الله !(٢) — جميع ما أَوْضَحت فيها ، لكن الأقدار نافذةٌ(٣) ، والأحكام جارية ، والأُمور متصَرِّفَةٌ ، والمخلوقُونَ فى قبضتها ، لا يقدرون على دفاعها(٤) ، والدنيا كلها إلى شتات(٥) ، وكل حَىٍّ إلى ممات ، والغدر والبغى حتف الإنسان(٦) ، والمكرُ راجع إلى صاحبه .

وقد أَمَرْتُ برد جميع ما أُخذ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين(٧) . والسلام .

وكتب بعضهم :

إنّى وإن جنيتُ على نفسى ، وخرجتُ عن حد الأدب ، فيما يجب على العبد لسيّده — فإنّى عبدُ نعمتك وصنيع إحسانك ، وَذَنبى وإن عظم وضاقَ باب التوبة عن قبول المعذرة ، فالعفوُ عنه بعضُ حسناتك التى فُطِرْتَ عليها ، والإغضاءُ عنّى سرٌّ من أسرارك التى تميل إليها . فاجعل العفوَ عنّى

---

(١) يعنى حفظك الله وصانك برعايته (٢) جملة معترضة يقصد بها تأكيد ما يقول (٣) يعنى ما قدره الله لابد أن يكون (٤) يعنى أن المخلوقات مستسلمة لاحكام الله وأقداره (٥) مآلها التفرق (٦) يعنى أن البغى فيه هلاك الباغى (٧) يعنى أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة

قُرْبةً إلى مولى الموالى ، واترك العبد عتيق مكارم الأَخلاق ، وإلا فَضعْ سيفَ نقمتك ، فى نحر عبد نعمتِك ، وأَنْتَ حِلٌّ من دم أَرَاقه أَهله ، أَو آل أَمرُه إلى وارث لايسعهُ إلا النزولُ عن المطالبةِ به ، أَلا وهو مقامُ جلالتكم السامى .

وحاشاك أَن تَعدمَ الصادق فى خدمتك بهفوة لم يقصدها ، وذنب أَقلعَ عنهُ .

وعلى كل فالعبدُ بين يديك ، وأَمرُه منك وإليك ، فقد أَلقى إليك مقاليد الأَجل ، فافعل ما تشاءُ ، وَاتقِ الله عزَّ وجلَّ .

استعطاف أم جعفر(١) بن يحيى الرشيد

لأَجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كانت أُم جعفر بن يحيى أَرضعت الرشيد مع جعفر(٢) وربته فى حجرها وغذته برِسْلها(٣) وكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو فى كفالتها أَلا يحْجُبُهَا ولا استشفعته لأَحد إلا شفعها . وآلت أُم جعفر أَن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شَفَعت لأَحد مقترف ذنبًا ؛ فكم أسير فكتْ ، ومُبهم عنده فتحت ، ومُسْتغلق(٤) منه فرجت . فلما قَتل ابنها جعفراً وحبس يحيى زوجها وسائر أَهل بيته طلبت الإذن عليه ، ومَتت(٥) بوسائلها إليه ، فلم يأْذن لها ولا أَمر بشىءٍ فيها ؛ فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لِثَامَها محتفية فى مشيَتها ، حتى

(١) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة ، وذكر الطبرى أن اسمها زينب بنت منير ، وذكر ابن خلكان أن اسمها عنابة وكذا صاحب نجباء الابناء . وذكر بعضهم أن اسمها عادة والله أعلم (٢) كذا ذكر صاحب العقد وقال الطبرى انها أرضعته مع الفضل ويؤيده قول سليمان الاعمى يرثى جعفرا ويستعطف الرشيد للفضل :

أمين الله فى الفضل بن يحيى رضيعك ، والرضيع له ذمام

(٣) الرسل : اللبن (٤) المستغلق : العسير فتحه (٥) مت اليه : توسل بقربة أو نحوها .

صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال : ظئر(١) أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تقلب شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد ، فقال الرشيد : ويحك ياعبد الملك أوَساعية ؟ قال نعم ياأمير المؤمنين ، حافية ، قال : أدخلها ياعبد الملك فرب كَبِدٍ غذتها ، وكُرْبة فرجتها ، وعورة سترتها ، فدخلت . فلما نظر الرشيد إليها داخلة مُحْتفية قام مُحْتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس وأكَب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت : ياأمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان ؟ ويُحْرِدك(٢) علينا البهتان ، وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ فقالت : ظئرك يحيي وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أميرالمؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرضه لِلْحتف فى شأْن موسى أخيه(٣) ، فقال لها : ياأم الرشيد أمر سَبَق وقضاء حُمَّ(٤) وغضب من الله نفد ، قالت : يا أمير المؤمنين «يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِت وعنده أم الكتاب»(٥) قال : صدقت ، فهذا مما لم يمحه الله ، فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأَطْرَق الرشيد مَلِيًّا ثم قال :

وإذا المنية أَنشبَتْ أَظفارها ... أَلفيتَ كُلَّ تميمة لا تنفع(٦)

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيي بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخرًا يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يُحِبُّ المحسنين » . فأطرق مليًّا ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

(١) الظئر : المرضعة (٢) أحرده : أغضبه (٣) تشير الى ماكان أراده الهادى وهو موسى بن المهدى من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها الى ولده واحتيال يحيى بن خالد فى رد الهادى عن عزمه باذلا فى ذلك جهده (٤) حم الامر : قضي ونفد (٥) أم الكتاب أصله أو اللوح المحفوظ (٦) التميمة : ما يعلق للاولاد من كتابة أو غيرها دفعا للعين أو للمرض .

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر تُقْبِلُ

فقالت : يا أمير المؤمنين وأقول :

سَتَقْطَع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كف تَبَدل(١)

قال هارون : رَضِيتُ . قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئًا لله لم يُوجده(٢) الله لفقده » فأكب هارون مَليًا ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : ياأمير المؤمنين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاءُ وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيَّتك(٣) . ما استشفعتك إلا شفعْتَنى ، قال : واذكرى يا أُم الرشيد أليتك أن لاشفعت لمقْتَرِفٍ ذنبًا . فلما رأته صرح بمنعها ولاذ(٤) عن مَطْلَبَها ، أخرجت حقًا من زُمُرُّدة(٥) خضراء فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عَنْه قُفُلاً من ذهب فأخرجت منه خَفْضَه وذوائبه وثناياه قد غمَسَت جميع ذلك فى المسك ، فقالت : ياأمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك وبما صار معى من كريم جَسَدك ، وطيِّب جوارحك ليحيى عبدك ، فأخذ هارون ذلك فلَثَمَه ثم استعبر(٦) وبكى بكاءً شديدًا وبكى أهل المجلس . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها . لحسن ما(٧) حفظت الوديعة ، فقالت : وأهل للمكافأة أنت ياأمير المؤمنين ، فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال : « إن الله يأْمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قالت : والله يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، ويقول : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » قال : وما ذلك يا أُم الرشيد ؟ قالت : أَو ما أَقسمت لى أن لا تحجبنى وَلَا

---

(١) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية فى باب العتـــاب .
(٢) أوجده : أحزنه (٣) الالية : الحلف (٤) لا يلوذ : راغ وانحرف
(٥) الزمرد : من الاحجار النفيسة (٦) استعبر : جرت عبرته وهى الدمعة قبل أن تفيض (٧) ما مصدرية .

وَلَا تمتهنى(١) ؟ قال : أُحب يا أُم الرشيد أَن تشتريه مُحَكَّمة(٢) فيه . قالت : أَنْصفت يا أَمير المؤمنين وقد فعلت غير مُستقبلة لك ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسْخِطك . قال : يا أُم الرشيد أَمالى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالث : بلى يا أَمير المؤمنين أَنت أَعز على ، وهم أَحب إلى . قال : فتَحكمى فى تَمْنِيَةٍ(٣) بغيرهم . قالت : كلا . قد وهبتكه وجعلتك فى حِل منه . وقامت عنه وَبَقِى مَبْهوتاً ما يحِيرُ(٤) لفظة .

قال سهل بن هارون . وَخَرَجَتْ فلم تَعد ، ولا والله ما رأَيت لها عَبْرَة . ولا سمعت لها أَنةً .

استعطاف ابراهيم بن المهدى (٥) للمأمون

أَمر المأْمون بإِبراهيم بن المهدى فأُدخل عليه ، فلما وقف بين يديه قال : هيه(٦) ، يا إِبراهيم ! فقال : يا أَمير المؤمنين ولى الثأْرُ مُحَكم فى القَصاص «والعفو أَقربُ للتَّقوى» وعن تَنَاوله الاغترار بما مُدّ له من أَسباب الشفاءِ أَمكن عادية الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كلَّ ذِى ذنب دونك ، فإِن أَخذت فبحقك ، وإِن عفوت فبفضلك . ثم قال :

ذنبي إِلَيْك عظيمٌ وأَنت أَعظمُ منه
فخذ بحقك أَوْ لَا فاصفح بفضلك عنْهُ
إِن لم أَكُنْ فى فعالى من الكرام فكُنْهُ

---

(١) امتهنه ابتذله : وأهانه (٢) يقول أن تطلبى ما تشائين ازاء هذا القسم (٣) التمنية والمنيـــة : بمعنى واحد (٤) يقـال : هـو لا يحير جوابا أى لا يرد (٥) كان ابراهيم بن المهدى أخو الرشيد لابيه قد ادعى الخلافة بعد قتل الامين وقبـــل عودة المأمون من خراســان الى بغداد واعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمـره فاختفى حتى ظفر به المأمون . وكان ابراهيم بارعا فى الادب حسن الغنـــاء جيـــد الشعر توفى سنة ٢٤٢ هـ فى خلافة أخيه المعتصم .
(٦) هيه مثل ايه للاستزادة أو للاستنطاق فهى اسم فعل .

فقال المأْمون : شاورت أَبا إسحاق(١) والعباس فى قتلك فأَشارا به ، فقال : فما قلت لهمايا أَميرَ المؤمنين؟ قال المأْمون : قلتُ لهمانبدؤه بإِحسان ونستأْمره(٢) فيه فإن غيَّرَ فالله يغيرُ ما به . قال : أَمّا أَن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جرت عليه السياسة فقد فعلا وبَلَّغَا ما يلزمهما وهو الرأْىُ السديدُ ، ولكنك أَبيت أَن تستجلبَ النصر إلا من حيث عَوَّدَكَ الله . ثم استعبرَ باكيًا ، فقال له المأْمون : ما يُبْكيك ؟ قال : جَذَلًا إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الإنعام ؛ ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلالَ دمى فحلم أَمير المؤمنين وفضله يبلِّغَانى عفوه ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحق الأُبوة بعد الأَب . فقال المأْمون : ياإبراهيم لقد حُبِّبَ إلىَّ العفو حتى خفتُ أَن لا أُوجر عليه . أَما لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقرّبوا إلينا بالجنِيَّات ، لاتثريبَ(٣) عليك يغفر الله لك ، ولو لم يكن حق نَسَبِكَ ما يُبَلِّغ الصفحَ عن جُرمك لبَلغت ما أَملت حسنُ تنَصُّلِكَ ، ولُطف تَوَصُّلك ، ثم أَمر بردِّ ضياعه وأَمواله ؛ فقال إبراهيم :

رددت مالى ولم تبخل عَلَىَّ به ... وقبل رَدِّكَ مالى قد حَقَنْتَ دمى
وقام عِلْمك بى فاحتجَّ عندك لى (٤) ... مقامَ شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمى أَبغى رضاك به ... والمال حتى أَسُلَّ النعل من قدمى
ماكان ذاك سوى عارية سلفت ... لو لم تهَبْهَا لكنت اليوم لم تُلم

---

(١) أبو اسحاق هو المعتصم بن الرشيد ، والعباس هو ابن المأمون ولقد أحسن ابراهيم فى تصويب رأيهما لان ذلك أنجع فى طلب الرضا وأبلغ فى دفع المكروه من الازدراء عليهما فى رأيهما (٢) اصل الاستئمار : المشاورة : والمراد هنا التجربة (٣) آلتشريب : اللوم والتعيير بالذنب
(٤) حقن الدم : صانه .

استعطاف اسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس : تحسِبَنى أغفلتُ أمر ابن المهدى وتأييدك له وإيقادك لناره ؟ فقال : والله ياأمير المؤمنين لأَجْرَامُ قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أَعظم من جُرْمى إليك ، ولرحمى بك أَمتن من أَرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسف ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ لإخوته (لا تَثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أَرحم الراحمين) وأَنت يا أَمير المؤمنين أَحق وارث لهذه الأُمة فى الطول ، ومُمْتَثِلٌ(١) لخلال العفو والفضل .

قال : هيهات ، تلك أَجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجُرْمك جرم فى أَسلافك وفى دار خلافتك .

قال : ياأَمير المؤمنين ، فوالله للمسلم أَحقُّ بإقالة العَثْرَة وغفران الذنب من الكافر ، وهذا كتاب الله بينى وبينكم إذ يقول (سارِعُوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأَرض أُعِدَّتْ للمتقين * الذين يُنفقون فى السَّرَّاءِ والضَّراءِ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبُّ المحسنين) والناس يا أَمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف .

قال المأمون : صدقت ، وَرَتْ(٢) بك زنادى ، ولا بَرِحْتُ أَرى من أَهلك أَمثالك .

---

(١) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها (٢) ورت بك زنادى ووقدت بك زنادى مثلان يقالان لمن أنجدك أو أرشدك . والمراد بهما الدعاء .

استعطاف الفضل (١) بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يافضل ، أكان من حقى عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تَثْلبنى(٢) وَتَسُبَّنى وتحرِّض على دمى ؟ أتحبُّ أن أفعل بك ما فعلته بى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عذرى يحْقُدُكَ إذا كان واضحًا جميلا ، فكيف إذا أَخْفَتْهُ العيوب ! وقَبَّحَتْه الذنوب ! فلا يضيق عنى من عفوك ما وسع غيرى منك ، فأنت كما قل الشاعر(٣) فيك :

صَفُوحٌ عن الأَجرام حتى كأَنهُ ... من العفو لم يَعْرِف من الناس مجرما

وليس يبالى أن يكون به الأَذى ... إذا ما الأَذى لم يغش بالكره مسلما

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السَّدوسى(٤) قد خرج بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأَعراب ، فعظم أمره ، وبَعُدَ ذكره ، ثم ظُفِرَ به ، وحُمِل موثقًا إلى باب المعتصم ، فقال أحمد بن أبى دؤاد : ما رأيتُ رجلاً عاين الموتَ ، فما هاله(٥) ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه لما مَثُلَ بين

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة البرامكة ثم وزير الامين فى خلافته ويقال : انه هو الذى أوغر صدر الرشيد على البرامكة حسدا لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نواس :

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

توفى الفضل سنة ٢٠٨ هـ . (٢) ثلبه : تنقصه وصرح بعيبه . قال الشاعر :

* لا يحسن التعريض الا ثلبا *

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء (٤) سدوس : بطن من بنى شيبان ثم من بنى بكر (٥) هاله : أفزعه .

يدى المعتصم ، فَأُحْضِرَ السيف والنطعُ(١) وأوقف بينهما ، تأَمَّلَهُ المعتصم ـ وكَان جميلا وَسِيما ـ فأَحب أَن يعلم أَين لسانه وجَنَانه من منظره ، فقال : تكلم يا تميم . فقال : أَمّا إذ أَذنت يا أَمير المؤمنين فأَنا أَقول الحمد لله الذى أَحسنَ كل شيءٍ خَلَقَه وبدأَ خلق الإنسان من طين ، ثم جَعَل نَسْلَهُ من سُلَالة من ماءٍ مهين ، جَبَر بك صدع(٢) الدين ، ولمّ بك شَعَث(٣) المسلمين ، وأَوضح بك سُبُل الحق ، وأَخمدَ بك شهاب الباطل . إن الذنوب تُخْرِسُ الأَلسنة الفصيحة ، وتُعْيِي الأَفئدة الصحيحة ؛ ولقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساءَ الظن ، ولم يبق إلا عفوك أَو انتقامك ، وأَرجو أَن يكون أَقربهما منك وأَسرعهما إلى أَشبههما بك وأَولاهما بكرمك ، ثم قال على البديهة .

أَرى الموت بين السيف والنِّطع كَامِنًا ... يُلاحظنى من حيثما أَتَلَفَّتُ
وأَكْبَرُ ظنِّى أَنك اليومَ قاتلى ... وَأَى امرئٍ مما قضى اللهُ يُفلتُ ؟(٤)
وأَىُّ امرئٍ يأْتى بعذر وَحُجّة ... وَسيف المنايا بين عينيه مُصْلت
وما جزعى من أَن أَموت وَإِننى ... لأَعلم أَن الموت شيءٌ مُوَقت
وَلكن خلفى صِبْيَةٌ قد تركتُهُم ... وَأَكْبادُهم من حَسْرة تَتَفتت
كأَنى أَراهم حين أُنعى إليهم ... وَقد خَمَشوا تلك الوجوه وَصَوّتوا(٥)
فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة ... أَذود الرّدَى عنهم وَإِن مُت مُوِّتُوا(٦)
وَكم قائل لا يُبْعِدُ اللهُ روحه ... وَآخر جذلان يُسَرُّ وَيشمت

فتبسّم المعتصم وَقال : كَاد وَالله ياتميم أَن يسبق السيف العَذَل ، قد وَهبتك

---

(١) النطع : بســاط من الجـلد يفرش تحت من يراد قتـله حتى لا يسقط دمه على الارض (٢) الصدع : الشق فى الحائط ونحــوه (٣) الشعث : انتشار الامر والاشياء المتطرفة (٤) أفلت : تخلص ونجا (٥) أصلت السيف : استله من غموه (٦) خمش وجهه : لطمه وهو من باب ضرب ونصر (٧) موتوا : كثر فيهم الموت .

للصبية ، وغفرت لك الصَّبوة(١) . ثم أمر بفك قيوده وخلع(٢) عليه .

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر(٣) له وتَلَوَّن عليه :

أعاذك الله من سوءِ الغَضَب ، وعصمك من سرَفِ(٤) الهَوَى ، وصرفَ ما أعادك من الفوَّة إلى حب الإنصاف ، وَرَجَّحَ فى قلبك إيثار الإناة(٥) فقد خفت — أيدك الله ! — أن أكون عندك عن المنسوبين إلى نَزَق(٦) السُّفهاءِ ، ومجانبة سبل الحكماءِ ، وبعد فقد قال عبد الرحمن(٧) بن حسان بن ثابت :

وإن امرءًا أَمْسَى وأَصبح سَالما   من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر(٨) :

ومن دعا الناس إلى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل

فإن كُنْتُ اجترأْت — أَصلحك الله ! — فَلَمْ أَجترئ إِلَّا لأَن دوام تغافلك عنى شبيه بالإِهمال الذى يورث الإِغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأَة ، ولذلك قال عُيَيْنَةَ(٩) بن حصن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك أَرهبنى فاتَّقانى(١٠) وأَعطانى فأَغنانى ، فإن كنت لاتهب عقابى — أيدك الله ! — لخدمة فهبه لأَياديك عِنْدِى ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأُحدوثة(١١) ، وإلا فأْت ما أَنت أَهلُه من العفو دون ما أَنا أَهله من استحقاق العقوبة ؛ فسبحان من

---

(١) الصبوة : الزلة وجهلة الشباب (٢) خلع عليه خلعة : منحه بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء (٣) تنكر له : تغير (٤) السرف : مجاوزة الحد (٥) الاناة : الحلم والوقار (٦) النزق : الخفة والطيش (٧) هكذا يقول الجاحظ ، وغيره ينسب البيت لحسان نفسه . راجع الاغانى (٨) من الناس من يروى هذا البيت فى جملة أبيات لكعب بن زهير ، ومنهم من يرويه لمحمد بن حازم الباهلى ، راجع الاغانى (٩) هو سيد بنى ذبيان فى صدر الاسلام وهى سلالة حذيفة بن بدر الفزارى الذى كان السبب فى حرب داحس والغبراء (١٠) اتقاه : صيره تقيا (١١) الاحدوثة : الحديث والسيرة . جمعها أحاديث .

جعلك تعفو عن المتَعَمِّدِ وتَتَجَافى(١) عن عقاب المصِرِّ(٢) ؛ حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكِر (٣) ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هَجَمْت عليه بالعقوبة . واعلم – أيدك الله ! – أن شيْن غضبك علىَّ كَزَيْن صفحك عنى ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك(٤) . واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام .

استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور

ياأمير المؤمنين من انتقمَ فقد شفى غيظه وانتصف ، ومن عَفَا تفضل ، ومن أخذ حقه لم يجب شكره ، ولم يذكر فضله ، وكظم الغيظ حلم والتشفى طَرَفٌ من الجزع ، ولم يَمْدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل . وبعد : فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب (٥) والعافى مُسْتَرْعٍ لشكرهم آمن من مكافأتهم ، ولأن يُثْنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضِيقه ، على أن إقالتك عثراتِ عباد الله موجبةٌ لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه ، وعقابَك إياهم موصول بعقابه . قال الله عز وجل : « خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

روح بن زنباع يستعطف معاوية

أراد معاوية معاقبة رَوْح بن زِنباع ، فقال : ياأمير المؤمنين أنْشُدك الله تعالى

---

(١) تتجافى : تتباعد (٢) أصر على الذنب استمر (٣) يقول : هفوته هى تذكر الهفوة أو جريها على لسانه (٤) التشـبيه فى هاتين الفقرتين من قبيل قولهم فى التفضيل : العسل أحلى من الخل . يقول: ان مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وان مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال (٥) الاولياء : الاهـل والاقارب

أَلا تَضعمنى خَسِيسَة أَنت رَفَعتها أَو تنقُص منى مَريرةً(١) أَنت أَبْرَمْتها(٢) أَو تشمت بى عَدوًّا أَنت كَبَتَّه(٣) ، وحاسدًا بك وقَمْتُه (٤) وأَسأَلك بالله إلا أَرْبى حِلمك على خطئ وصفحك على جهلى . فقال معاوية : إذا الله سَنَّى(٥) عَقْد شيءٍ تيسرا ، وعفا عنه .

وقد أَلمّ المتنبى يقول رَوْح إذ يقول :

أَزِل حَسَد الْحُسّاد عنى بكَبْتهم فأَنتَ الذى صيرتهم لى حُسَّدا
إذا شدَّ زنْدِى حُسنُ رأيك فى يدى ضربتُ بسيفٍ يقطع الهام مغمدا

ابن الرومى يستعطف القاسم (٦) بن عبيدالله

كتب ابن الرومى يستعطف القاسم بن عبيد الله :

تَرَفع عن ظُلمى إن كنت بريئًا ، وتفَضل بالعفو إن كنتُ مُسيئًا ؛ فوالله إنى لأَطلبُ عفوَ ذنب لم أَجْنِه ، وأَلتمسُ الإقالَة مَّما لا أَعْرِفُه ، لِتَزْداد تطَوُّلا(٧) وأَزدادَ تَذَلُّلاً . وأَنا أُعِيذُ حالى عندك بكرمك من وَاشٍ يكيدها ، وأَحْرُسها بوفائك من بَاغٍ يُحَاول إفسادها ، وأَسأَل الله أَن يجعلَ حَظِّى منك بقدر وُدِّى لك ، ومَحلِّى من رَجَائك بحيثُ أَستحقُّ منك . والسلام .

(١) المريرة : الحبل الشديد الفتل (٢) أبرم الحبل : أجاد فتله ، والامر : أحكمه (٣) كبته : أذله وغاظه وصرعه لوجهه (٤) وقمه : قهره (٥) سنى الشىء : فتحه وسهله ، وهذا شطر بيت وهو :

واعلم علما ليس بالظن أنه اذا الله سنى عقد شىء تيسرا

(٦) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة وأدب ، فقد كان وزيرا ابن وزير اما الكتابة فهو فيها معرق لانه يرثها عن ثمانية آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وهو الذى دس لابن الرومى السم فى الطعام خوفا من لسانه توفى سنة ٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون (٧) التطول : الانعام .

وكتب إليه :

لو كان فى الصَّمت موضع يَسعُ حالِي لَخَفَّفْتُ عَن سَمْع الوزيرِ ونظَره ، ولم أَشغَل وجهًا من فكره ، وما زالت الشكوى تُعربُ عن لسان البَلوى . ومن اختلت حالتُه كان فى الصَّمت هَلَكته(١) ، وقد كان الصَّبر يَنْصُرُنى عَلَى ستر أمرى حتى خذلَنى .

استعطاف للخوارزمى

لَوْ بغير المَاءِ حلْقِى شرق كنْتُ كالغصَّان بالماءِ اعْتِصَارِى(٢)

كيف يقْدِر – أبقى الله السيد ! – عَلَى الدَّوَاءِ ، مَن لايهتدى إلى أَوْجُه الدَّاءِ ؟ وكيفَ يُدَارِى أَعداءَه مَن لا يعرفُ الأَعداءَ من الأَصدِقاءِ ؟ أَم كيفَ يَسرِى بلا دليل فى الظلماءِ ؟ أَم كيف يَخْرُجُ الهاربُ مِنْ بين الأَرض والسماءِ ؟ الكريم – أَيَّدَ الله مولاى ! – إذا قدَر غفر ، وإذا أَوْثَقَ أَطلقَ ، وإذا أَسَر أَعتقَ . ولقد هَربْت من الشيخ إليه ، وتَسلحت بعفوه عليه ، وأَلقيْت رِبْقة(٣) حَياتى ومماتى بيديه ، فلْيذِقْنى حلاوة رضاه عنى كما أَذاقنى مرارة انتقامه منى ، ولْتَلُح(٤) عَلَى حالى غرة(٥) عفوه كما لاحت عليها مواسم(٦) غضبه وسطوه ، وليعلم أَن الحر كريم الظفر إذا نال أَقال ، وأَن اللئيم لئيم الظفر إذا نال استطال(٧) ، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأَحرار ، ولينتهز فرص الاقتدار ، وليحمد الذى أَقامه مقام من يرتجي ويخشى ، وركب نصابه فى رتبةٍ شاب الزمان ومجدُها فتى ،

---

(١) الهلكة الهلاك (٢) الشرق بالماء كالغصة بالطعام والاعتصار معالجة الغصص بشرب الماء قليلا قليلا ، والبيت لعدى بن زيد العبادى الشاعر الجاهلى من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول ان الانسان اذا غص بالطعام عالجه بالماء فماذا يصنع اذا كانت غصته بالماء نفسه (٣) الريقة العروة التى يربط بها ويراد بها الزمام (٤) لاح ظهر (٥) الغرة بياض فى وجه الحيوان والمراد هنا الاثر (٦) المواسم: العلامات (٧) استطال : تطاول واعتدى .

وأَخلقَ العَالَمُ وذكرُها طرىّ ، وليعتقد أَنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر . وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أَوليائه ، وعصمه مما يزيد به فى جماجم أَعدائه .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد(١) بن حُمَيد يعتذر :

أَنا من لا يحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغَالطك عن جُرْمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى بِرَّكَ إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحداثة ، وردتنى إليك الْحُنْكة (٢) ، وباعدتنى منك الثقة بالأَيام ، وقادتنى إليك الضرورة ؛ فإن رأَيت أَن تستقبل الصَّنيعَة بقبول العذر ، وتجدِّد النعمة باطرَاح الحقد فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أَيام الحياة وإن طالت قصيرة ، والمُتْعَة بها وإن كثرت قليلة .

اعتذار لابى على البصير

كتب أَبو علي البصير يعتذر :

أَنا أَحد مَنْ أَسْكَنْته ظلك ، وأَعلقته حبلك(٣) ، وحبوته بلطيف بِرّكَ وخاص عنايتك ، وانتصف بك ، ولا يعتمد إلا عليك ، ولا يستنجح(٤) طلبه إلا بك ، وقد كان فَرَط مِنِّى قول إن تأَوَّلْتَه(٥) لى أَراك وجه عذرى وقام

(١) هو من أولاد الدهاقين ، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح ، أخذ عن الامام الاعرابى ويؤخذ عليه انه كثير الاخذ لكلام غيره .
(٢) الحنكة : خبرة التجارب (٣) وصلته وقيدته بزمام مودتك
(٤) استنجح حاجة وتنجحها : تنجزها وطلب نجاحها (٥) أول الكلام وتأوله فسره .

عندك بحجّتى ، فأغنانى عن توكيد الأيمان على حُسْن نِيَّتِى ، وإن تأولته على أحاق(١) بى لائمتك(٢) وحبسنى على أسوإ حال عندك . وقد أتيتنى معترفاً بالزّلة ، مُسْتكيناً(٣) للمَوْجِدَة(٤) عائذاً بالصفح والإقامة ، فإن رأيت [أن] تُقِرّ عَيْناً قرت بنعمتك عندى ، ولا تسلبنى منها ما ألبستنى ، وأن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتأْمُرَ بتعريفى رأيك بما يُطَامِن(٥) هلعى ، وَتَسْكُن إليه نفسى ، ويَأْمَنُ به رَوْعى(٦) ، فعلت ، إن شاء الله .

وكتب البديع إلى القاسم الكَرَخى يعتذر :

يعزّ علىّ — أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ! — أن ينوب فى خدمته قلمى ، عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وصولى ، ويرد شِرْعة(٧) الأُنْسِ به كتابى قبل رِكَابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة :

وَعَلَىَّ أَنْ أَسْعَى وليس علىَّ إدراك النَّجَاح

وقد حضرت داره ، وقبّلت جِدَاره ، وما بى حب الجدران ، ولكن شَغفاً بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكان(٨) ، وحين عَدَت(٩) العوادى عنك أمليت ضمير الشوق على لسان القلم معتذرًا إلى مولاى عن تقصير وقع ، وَفُتُور فى الخدمة عرض ، ولكنى أقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنبا   فكفى أن لا أراك عقابا

---

(١) أحاق : أنزل (٢) اللائمة : اللوم (٣) استكان : خضع ، وهو من الكون فوزنه افتعال بزيادة الالف للاشباع كما قالوا فى انظر (انظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجه لان المعنى لايعنيه (٤) الموجدة : الغضب (٥) يطامن : يخفض يخفف (٦) الروع القلب وهو أيضا الفزع والخوف (٧) الشريعة والشرعة والمشرعة مورد الشاربة من الماء (٨) ألم البديع هنا بقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى   اقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى   ولكن حب من سكن الديارا

(٩) منعت الموانع .

الباب الثانى

الفصل الثانى(١) فى رسائل حسن التقاضى والطلب

كتب عبد الله بن سليمان أبو العيناءِ المتوفى سنة ٢٨٢ هـ :

أَنا ـ أَعزَّك الله ! ـ وعيالى زرعٌ من زَرْعك ، إن أَسقيته رَاعَ(٢) وزكا ، وإن جفَوتَه ذبلَ وذوى(٣) ، وقد مَسَّنِى منك جفاءٌ بعد بر ، وإغفالٌ بعد تعاهد ، حتى تكلم عدُوٌ ، وشمت حاسدٌ ، ولعبت بى ظنونُ رجال كنتُ بهم لاعِباً ، ولهم مُخْرِساً :

لا تهنِّى بَعْدَ أَن أَكْرَمْتنى وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

وكتب المرحوم عبد الخالق باشا ثروت :

إليك ـ يا من قد استأْسَرَ النفوسَ بكرمه ، واسترقَّ الأَحرار بجميل صُنْعه ، وأَوْلى النعم والخيرات ، وأَسْدى المعروف وَالمَبَرَّات ـ أَرفعُ كتاباً ، تبعثه إلى ناديك العالى عواملُ الحاجة ، وتزجيه (٤) إلى ساحتك دواعى الشدة ، آملُ أَن يكون تذكرة بأَمرى (وَالذِّكْرَى تنفعُ المؤمنين) وتذكرةً بحالى (والله لا يضيعُ أَجْرَالمحسِنِين) فقد كان سيِّدى ، رفع الله قدره وأَعلى مرتبته ، وَعَدنى ـ ومثله من يتمسك من الوفاءِ بالعروة (٥) الوُثقى ، ويقطع حبل الإِخلاف بسيف الوفاءِ ، ويُطرز خلعة الوعد بِوَشْى العطاءِ ـ أَن يُرْسِلَ إِلىَّ مِنْ خَيْرَاته وَيوليَنى من آلائه وحسناته ، ويضاعف لى من مِنَنِه ، ويزيدنى من عطائه ما أَشُدُّ به أَزْرِى (٦) على الزَّمَان ، وَأُطَاولُ به نوائب الحدثان (٧) ، فقد بارزنى الدهر بسيوفه ، ورمانى

---

(١) والفصل الأول فى الرسائل التجارية التى أغفلناها فى كتابنا هذا لان لها مؤلفات خاصة بها فارجع اليها اذا شئت (٢) نما وزاد .
(٣) ذبل (٤) تدفعه (٥) من الحبل الوثيق المحكم (٦) ظهرى .
(٧) بفتح الحاء والدال أو بكسر الحاء وسكون الدال حوادث الدهر .

بسهامه ، وأناخ (١) علىَّ بكلاكِلِه (٢) ، وقد طال الأَمَدُ (٣) على حاجتى عند سيِّدى ـ أطال الله بقاءه ! ـ حتى شاب غرَاب شبابها ، وصاحَ بجانب ليلها ، فخفتُ أَن تكون هَبَّتْ عليها ريحُ النِّسْيَان ، وعصفت (٤) بها عاصفة (٥) الْحِدثان (٦) . فكتبتُ إلى سيدى ومولاى تلك الرقعة ، أَستعجلُ بها بِرَّهُ ، وأَسْتَدِرُّ بها ضَرْعَ عَطَائِهِ ، علماً بأَن التعجيل يُكَبِّر العَطية وإن كانت صغيرة ، ويُكثرها وإن كانت يسيرة ؛ فعسى أن يكونَ قد لاحَ نجم النجاح ، وهبَّ نسيم الفلاح فيُرْسلُ إلىَّ سيدى سحاب كرمه ، ويمطرنى من غِيَاث فَضْله ، فَتَرِفُّ (٧) غصون آمالى بعد ذُبُولها ، وتضحك وُجُوه مطالبى بعد عُبُوسها ، وَأَمَلى فى ذلك فسيحٌ ، فإن سيِّدى من أكرم الناس نسباً وأَشْرَفهم حسباً ، ومثله جديرٌ (٨) بحفظ العهد وإنجاز الوَعْد . فإن رأى سيدى أن يخفف ثقل الحاجة عَنِّى ، ويَرُدَّ ما سلبه الدَّهْر مِنِّى بقَطْرَةٍ من بحر عطائه ، وَمِنَّةٍ (٩) من بعض آلائه (١٠) ، ويُجبرَ ما كسرَهُ الفقرُ من جَنَاحى ، وَيَرُدَّ عَنِّى النوائب لا تفتأ (١١) تتوالى ، عقدتُ لسانى على مدحه ، ووقفت نفسى على شكره ، فَيُحْرِزَ من الله أجراً جزيلاً ، ومنى شكرًا جميلاً ، إن شاءَ الله بمنه وكرمه .

وكتب المرحوم أحمد بك رأْفت :

السيد الكامل ـ أدام الله علاءَهُ ، وأَطال بقاءَهُ ، وجعله مَوْئل (١٢) الكرم ، وَمُسْدِى النعم ـ قد غمرنى بنعمائه ، وطوقنى بآلائه ، حتى قصرتُ حَمْدِى عليه ، وأمسكت لسانى عن الشكر إلا إليه ، وكان من مِنَنِهِ علىّ وأياديه البيضاء لدى أن

---

(١) مال (٢) مصائبه (٣) الغاية (٤) اشتدت (٥) الريح
(٦) حوادث الدهر (٧) تتلألا (٨) حقيق (٩) نعمة (١٠) آلائه: أفضاله (١١) تستمر (١٢) ملجأ .

وعدنى يُقلِّدُنى فى أَول العام وظيفةً عالية ، ومرتبة سامية ، فاخضلَّ(١) رَوضُ الأَمل بعد ذبوله ، وبزغ(٢) كوكبُه بعد أُفوله(٣) واتسع نطاقه(٤) واستبشرَ القَلبُ بنيل أُمْنِيته ، والحصول على طِلْبته . واشتدَّ أَزْرِى(٥) على مقارعة كتائب(٦) الزمان ، وقَوى جنانى على صد جُيوش الحدثان ؛ وما زالت بى الأَيام حتى حان أَوَّلُ العام ، وما تحقَّقَ الوعدُ ، أَو أُوفِى العهْدُ . ومثل السيِّد من إذا وعد وَفَّى ، أَو تعهد أَوفى :

أَوَفِ دين ذِى المعروف يجمُلُ أَنَّنى ... تنوءُ بى البُؤسى ويُثقِلُنى العُسرُ
وأَنت الذى أَعطى المكارم حقها ... ولم يحك جَدْواك السّحاب ولا البَحْرُ
فعجّل فخيرُ البرِّ يُحمد عاجلاً ... وأَوْف فوعد الحر دِين به الحرُّ

هذا ؛ ولكننى رجعت وحكَّمت العقل ، فعذرتُ السيد ، وحملتُ ذلك على أَنه إنما لم يعجّل بإِنجاز وعده ، وإيفاءِ عهده ، إلا لتقليد عبده وظيفةً أَسمى ومرتبةً أَعلى ، علهُ يستدرِك ما فات ، ويُحسنُ إلى عبده فيما هُو آت .

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد :

عهدى بالسيد الجليل ــ أَدامه الله مصدراً للمكارم تَشْتَقُّ منه صفاتها ، ومظهراً للفضائل تَتجلى فيه آياتها ، سبَّاقاً إلى غايات المجد دَرَّاكا لمطالب الحمد ، أَريحيًّا(٧) لا يصبو(٨) إلا إلى إسداءِ المنن(٩) ، جواداً لا يطمع طرفه فى بث عوارفه إلى ثمن ، ما أَمَّه(١٠) أَسيرُ فاقة(١١) إلا وأَلفى(١٢) لديه كهفاً منيعاً ؛ وجاهاً رفيعاً ، وما قصدَهُ ذو حاجةٍ إلا وصدر(١٣) عن مورد(١٤) فضله

---

(١) صار نديا (٢) طلع (٣) غيبته (٤) ثوبه (٥) ظهرى
(٦) الجيوش (٧) يرتاح للعطاء (٨) لا يميل (٩) احسان
(١٠) قصد (١١) فقر (١٢) وجد (١٣) رجع (١٤) مكان الورود .

شادياً (١) بثنائه ، معلناً بولائه . وإن لى إلى السيّد حاجة إن لم يُسعف بقضائها فياحسرة نفسي وطول شقائها . وليست هذه بأول مرة استمحت (٢) فيها عالى مُروءته ، واستمطرت صيِّبَ (٣) هِمَّته ، فإنه طالما طوَّقنى قلائد نعمه ، وأرسل علىَّ مِدرار (٤) كرمه ، فليجر فى هذه أيضاً عادته ويقابلنى بما عوّدنى من كرامته . ومعاذ الله أن أَسأله ما ليس فى وسعه ، أو أن أَستقضيه شيئاً يحرصُ على مَنعه . ولكننى :

أُريدُ بسطةَ كفٍّ أَستعين بها   على قضاءِ حقوق للعُلَى قِبَلِي

والذى يكفل لى البسطة : أن يقلدنى سيدى وظيفة مناسبة لحالتى ، حتى تكون لى درعاً أتقى بها مهانة الفقر ، وسيفاً أكفُّ به عوادى الدهر ، ومالى والإقسام عليه فى إنالتى هذه البغية ، بنفيس وقت قضيته فى خدمة العلم ، واقتناء أبكاره ، وطويل عناء تحملته فى مزاولة (٥) الأَدب واكتشاف أَسراره ، ونفس ارتاضت (٦) بالفضل ، وآثرت (٧) غصة الفقر على منَّة البذل ، وله من سنيات (٨) الفضائل(٩) وعليات الفواضل(١٠) وجليات المآثر ، وجليلات المفاخر ـ ما لو أقسم به عليه فى إنالة أعز المطالب ، لألزمه كرم سجاياه برّ ذلك القسم ، وإجابة دواعى الهمم ، وإنك لفاعل إن شاءَ الله تعالى .

وكتب فقيد الأَدب حسن افندى توفيق العدل ، المتوفى بلندن سنة ١٣٢٢ للهجرة :

كتابى إلى ربّ النعماءِ ، واليدِ البيضاء ، وقد أَصبحت كما قال الحريرى :

---

(١) مترنما   (٢) سأله العطاء   (٣) السحاب   (٤) مايدربالمطر
(٥) معاناته   (٦) تمرنت   (٧) اخترت   (٨) عاليات   (٩) جمع فضيلة . وهى الدرجة   (١٠) جمع فاضلة ، وهى النعمة الجليلة .

«خاوِىَ(١) الوفاض(٢) بادى(٣) الإنفاض(٤) ، لا أملك بُلْغة(٥) ، ولا أجد فى جرابى مضنة »(٦) ـ قد التوى علىّ أمرى ، وثقل من حاجتى ظهرى ومدّ الاحتياجُ إلىّ أطنابه(٧) ، وسرْبلنى(٨) الافتقار إهابه(٩) ، والدنيا مكدرة بأَحداثها(١٠) وقصُورها منغصةٌ بإحداثها(١١) نعيمها يصفو(١٢) ولكن لا يصفو. وأَنت ـ كما أعلم ـ مفرِّج كُرْبتى ، وَمُنقذى مِن شدتى ، بطُرفة(١٣) من طرف رِفدك(١٤) ، ولمحةٍ من لمحات برِّك(١٥) فإن استدرَرْت(١٦) حلوبة(١٧) مالك ، فقد لاذ غيرى بجاهك ، ما يمت(١٨) غيرَك . وكيف يقصد النهر ، من جاور البحرَ ، ويحتاجُ إلى النجم من يسرى فى ضوء البدر ؟ فأَستهز عطف(١٩) جودك وأَستمطرُ سحاب كرَمك . كيف لا وأَنت قبلة المعروف ! وملاذ الملهوف ! إليك تُشد الرّحال ، وبك تُناط الآمال ، أَولياؤك منك فى ظل ممدود ، وهناءِ وسعود . أَفأَنت الشمس عَمَّت بالإِشراق ؟ ! أَو الغيث وَالىَ الاندفاق ؟ ! ـ لكن :

مَن قاسَ جدواك يوماً بالسحب أَخطأَ مدحك
فالسحبُ تعطِى وتبكى وأَنت تعطى وتضحك

نسَب الكرم بك عريق ، وروض المجد أَنيق ، أَصل راسخ ، وفرع شامخ ، تهتز للمكارم اهتزاز الحسام ، وتثبت أَمام الشدائد بثغر بسام :

تراهُ إذا ما جئتهُ متهللا كأَنك تعطيه الذى أَنت سائله

حكمت الآمال فى أَموالك ، واستعبدت الأَحرار بفعالك ، ينابيع الجود من أَملك تتفجر ، وربيع السماح بك ضاحك لا يضجر ، فلا زلت

---

(١) خالى (٢) بكسر الواو جراب الزاد (٣) ظاهر (٤) فناء الزاد والمال (٥) بضم الباء المؤنة القليلة (٦) انتهى كلام الحريرى (٧) حبال الخيمة (٨) ألبسنيه قميصا (٩) جلدة (١٠) مصائبها (١١) حدوثها (١٢) يكسو (١٣) بنعمة (١٤) عطائك (١٥) احسانك (١٦) استحلبت (١٧) ما تحلب (١٨) ما قصدت (١٩) جانب

مولاى ممتَّعًا بشرف سجاياك وشيمك ، مستمدًّا الشكر من غِرَاس نعمك ، ولا زالت الأَنام تنتفع بتلك الشيم وتجنى ثمار ذلك الكرم ، ودمتَ للمكارم بدْرَ تِمٍّ لا يناله خسوف ، وشمس فضلٍ لا يَلْحَقُهَا كسوف ، أَطال الله لك البقاء ، كتطول يديك بالعطاء ، آمين .

استمناح رجل لعبدالملك بن مروان

وَفَدَ رجلٌ من بَنِى ضَبَّة على عبد الملك بن مَرْوَان فقال :

والله مَا نَدْرِى إذا ما فاتَنَا ... طَلَبٌ إليكَ من الذى نَتَطَلَّبُ ؟
فلقد ضَرَبْنَا(١) فى البلاد فلم نَجِد ... أَحدًا سِوَاكَ إلى المكارِم يُنْسَبُ ؟
فاصْبر لعاداتنا التى عوَّدتنا ... أَوْلَا ، فأَرشدنا إلىمَنْ نذهبُ ؟

فقال عبد الملك : إلىَّ ! إلىَّ ! وأَمر له بأَلف دينار ، ثم أَتاهُ فى العام المقبل فقال :

يَرُبُّ(٢) الذى يأْتى من الخير أَنه ... إذا فعلَ المعروفَ زاد وتَمما
وليس كبانٍ حينَ تَمَّ بناؤهُ ... تَتَبَّعَه بالنقْض حتى تَهَدّما

فأَعطاه أَلفى دِينار . ثم أَتاه فى العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا مَغَازِير(٣) فى الندى ... يَجودُون بالمعروفِ عودا على بَدْءِ

فأَعطاه ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) ضرب فى الارض سافر (٢) رب : زاد وأصلح (٣) أغزر المعروف جعله غزيرا . والمغازير لا يكون الا جمعا لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما فى اللسان والقاموس ، وفى المخصوص سحابة مغزار : غزيرة فيكون جمعا لمغزار (حتا) .

استمناح العتابى لاحد أصدقائه

كتب كُلْثُوم(١) بن عمرو العَتَّابى إلى صديق له :

أَمَّا بَعْدُ ـ أطال الله بقاءك ، وجعله يمتد بك إلى رضوانه ، وَالْجنَّة ـ فإنك كنت عندنا رَوْضَةً من رياض الكَرَم ، تبتهج النُّفُوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وَكُنَّا نُعْفيها من النُّجعة(٢) استتماماً لزَهْرَتها ، وشفقة على خُضْرَتها ، وادّخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سَنَةٌ كانت عندى قطعةً من سِنِى يوسف ، واشتد علينا كَلَبُها(٣) ، وغابت قِطَّتها وكذبتنا غُيُومُها ، وَأَخْلَفَتْنا بُرُوقُها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فَانْتَجَعْتُك ، وأنا بانْتِجَاعِى إياك شديد الشَّفَقَة عليك ، مع عِلمى بأنك موضع الرَّائد(٤) ، وأنك تُغَطِّى عين الحاسد ، والله يعلم أنى ما أَعُدُّك إلا فى حومة(٥) الأهل .

واعلم أن الكَريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يُمكنه الكثير لم يُعْرَف جودُه ولم تَظهر هِمّته ، وأنا أقول فى ذلك(٦) :

إذا تَكَرَّمْت عن بذل القليل ولم ... تَقْدِر على سَعَةٍ لم يَظْهَر الجودُ
بُثَّ النَّوَال ولا تمْنَعك قِلَّتُه ... فكلّ ما سَدَّ فقرًا فهو محمود

قيل : فشاطره جميع ماله .

---

(١) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعرا مترسلا بليغا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره فى الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين ... اذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه ... لتعلم أنى امرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .

(٢) النجعة طلب الكلأ فى موضعه (٣) الكلب : القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب (٤) الرائد الطالب (٥) الحومة هنا الجماعة والطائفة (٦) كذا ذكر القالى فى أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض . هذا والمعروف أن هذه الابيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن برد لا للعتابى وتبعة هذا على القالى .

استمناح أعرابية لعبد الله بن أبى بكرة

دخلت أعرابية على عبد الله بن أَبِي بَكْرَة (١) بالْبَصرة ، فوقفت بين السماطَيْنِ(٢) ، فقالت : أَصلح اللهُ الأَمير وَأَمْتَع به ـ حَدَرَتْنَا إليك سنةٌ اشتدَّ بلاؤها ، وانكشف غطاوها ، أَقُودُ صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، فى بلدة شاسعة تخفِضُنا خافضة ، وتَرْفَعُنا رافعة ، لملمَّات من الدهر أَذْهَبْنَ لحمى وبَرَيْن عظمى ، وتركْننى وَالِهَةً (٣) أَدُور بالحضيض ، وقد ضاق بىَ البلدُ العريضُ ، فسأَلْتُ فى أَحياءِ العرب : مَنْ الكاملة فضائله ، المُعْطِى سائله ، الكافى نائله ؟ فدُلِلْتُ عليكَ ـ أَصلحك الله تعالى ! ـ وأَنا امرأَة من هَوَازن (٤) ، قد مات الوالد ، وغاب الرَّافِدُ ، وأَنتَ بعد الله غِيَاثى ومنتهى أَملى ، فاصنع بى إحدى ثلاث خصال : إمَّا أَن تردَّنى إلى بلدى أَو تحسن صَفَدى(٥) ، أَو تُقِيمَ أَوْدِى(٦) .

فقال : بل أَجمعُهُنَّ لك ، ولم يزل يُجْرِى عليها كما يجرى على عياله حتّى ماتت .

استمناح حكيم فارسى للمهلب

قال الهيثم بن عَدِى : قدم حكيم من حكماءِ أَهل فارس على المُهلِّب بن أَبى صُفْرة فقال : ـ أَصلح اللهُ الأَمير ! ـ ما أَشْخَصَتنى الحاجَةُ ، وما قَنَعْتُ بالمقام ، ولا أَرضى منك بالنصف إذ قمتُ هذا المقام . قال : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأَن الناس ثلاثة : غنىٌّ ، وفقير ، ومُسْتزيد . فالغنىُّ من أُعطى ما يستَحِقه ، والفقيرُ من أُمْنِعَ حقه ، والمستزيدُ الذى يطلبُ الفضلَ بعد الغِنَى ، وإنى نظرْتُ

(١) هو ابن أخى زياد ابن أبيه (٢) السماط الصف (٣) الوالهة والولهى الشديدة الحزن (٤) هوازن قسم من قيس وعبد الله بن أبى بكرة نسبه فى ثقيف وهم من هوازن فهى تريد أن تميله بعاطفة القرابة (٥) الصفد : العطاء (٦) الاود : الاعوجاج .

فى أَمرك فرأَيتُ أَنك قد أَدَّيت إِلَيَّ حقى ، فتاقت نفسى إِلى استزادتك ، فإِن منعتنى فقد أَنصفْتنى وإِنْ زدْتنى زادت نعمتك علىّ . فأَعْجب المهلب كلامُه وقضى حوائجه .

تلطف رجل من أهل الشام فى استمناح المنصور

قدم رجل من أَهل الشام على أَبى جعفر المنصور فتكلم كلاماً حسناً ، فقال له أَبو جعفر : حاجتك ؟ فقال : يُمْلِيك الله يا أَمير المومنين . قال : حاجتك ، فإِنه ليس كلَّ ساعة يمكنك هذا ولا تُؤْمر به . فقال : والله ما أَستقْصر عمرك ، ولا أَخاف بُخلك ، ولا أَغتنم مالك ، وإِن سُؤَالك لشرَفٌ ، وإِن عطاءَك لزَيْنٌ . وما بامرئٍ بَذل وجهه إِليك نقْصٌ ولا شَيْنٌ . فأَمر له المنصور بمنحة سنيَّة .

وقد أَلمَّ الرجل فى أَكثر معانيه بقول أُمَيَّة بن أَبى الصَّلت يستمنح عبد الله بن جُدْعان(١) القرشى :

عطَاوك زَيْنٌ لامرئٍ إِنْ حبوتهُ ... ببذل وما كلّ العطاء يَزِينُ
ولَيْسَ بشيْن لامرئٍ بذل وجهه ... إِليك كما بعض السُّؤال يشِين

* * *

ومن أَلطف الاستمناح قول أُمية يَخاطب ابن جُدْعان أَيضاً :

أَأَذكر حاجتى أَم قد كفانى ... حبَاؤك إِن شيمَتك الحباءُ
وعلمك بالأُمور وأَنت قَرم ... لك الحسب المهذَّب والسَّناءُ (٢)
كريم لا يُغَيِّرُه صباح ... عن الْخُلق الجميل ولا مَسَاءُ

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهط سيدنا أبى بكر الصديق ، وهو جواد مشهور . وكان أمية مداحاً له منقطعا اليه ، وتوفى أمية بين يدى الاسلام .

(٢) القرم : الفحل والسيد ، والسناء : الشرف والسنا : الضوء .

تُبَارى الرِّيح مَكْرُمة ومَجْداً   إذا ما الكلبُ أَجْحَره الشِّتَاءُ(١)
إذا أَثنى عليك المرءُ يوماً   كفاه مِن تَعَرُّضه الثناءُ(٢)

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية

قال العُتْبي : وفدَ عبدُ العزيز بن زرارة على معاوية ، فلما أَذِن له وقف بين يديه وقال : يا أَمير المؤمنين ! لم أَزل أَهُزُّ ذوائب(٣) الرحال إِليك ، إِذ لم أَجد مُعَوَّلا إِلَّا عليك ، أَمْتَطى الليل بعد النهار ، وأَسِم(٤) المجاهل بالآثار يَقُودُنى إِليك أَمَل وتَسُوقنى بَلْوَى ، والمجتهد يُعْذَر ، وإِذا قد بَلَغتك فقطنى(٥) فقال معاوية : احْطُط عن راحلتك .

* * *

ولما وَلّى الخليفةُ المُهتَدِى سُليمانَ(٦) بن وَهْب وزارته قامَ إِليه رجلٌ من ذوى حُرْمته فقال : ـ أَعزَّ الله الوزير ! ـ أَنا خادمك المؤمل لِدَوْلَتِك ، السعيد بأَيامك ، المنطوى القلب على وُدّك ، المنشُور اللسان بمدحك ، المُرْتَهَن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وفَّيْتُ كلَّ صديق وَدَّنى ثمناً   إِلَّا مُؤمل دوْلاتى وأَيَّامى
فإِنَّنى ضامن أَن لا أَكافئَه   إِلا بتسويغه فضلى وإِنعامى(٧)

وإِنى لكما قال القيسى(٨) : مازلت أَمتطى النهار إِليك وأَستدل بفضلك

---

(١) أجحره : ألجأه (٢) يقول : انك لا تجشم المحتاج مئونة السؤال لانك تستغنى بثنائه عن استجدائه (٣) الذوائب : جمع ذؤابة وهى الجلدة المتعلقة على آخر الرحل (٤) وسم الارض كوعد : ترك فيها أثرا (٥) قطنى اسم الفعل بمعنى يكفينى ومثلها قدنى (٦) سليمان ابن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية ، وقد تقدم ذكر ابنه عبيد الله وحفيد القاسم . توفى سليمان سنة ٢٧٢ هـ (٧) سوغه : أناله (٨) يريد بالقيسى عبد العزيز بن زرارة المتقدم ذكره لانه من بنم عامر ثم من قيس . وقد ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها .

عليك ، حتى إذا اجتن الليل فغض البصر ، ومحا الأثر ، قام الرجاءُ يدنى سائر أملى ، والنفس راغبة والاجتهاد عاذر ؛ وإذ قد بلغتك فقِدْنى .

فقال سليمان : لا عليك ، فإنى عارف بوسيتك ، مُحتاج إلى اصطناعك وكفايتك ، ولست أُؤخِّرُ عن يومى هذا توليتكَ مايحسُنُ عليك أثره ، ويطيب لك خبرُه .

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له :

أما بعد ، فإنه يسهل عَلَىَّ طلب الحاجة أمران فيك ، وأمران لى ، وأمر من قبل الله وبه تمامها . فأَمَّا اللذان فيك فاجتهادك فى النُّجْح ، ومبالغتك فى الاعتذار ، وأَمَّا اللذان لى فإنى أَضيق عليك بِعُذْرِى ، ولا أَصون عنك شكرى ، وأَما الذى من قِبَلِ الله عز وجل فإيمانى بأَن كل مقدر كائن ، والسلام .

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى :

أنا إن سأَلتك حاجتى ـ أَعزك الله ! ـ وبسطت إليك يد رجائى فقد طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر هِمَّةً وحَزْماً ، ونادرة الوجود كَرَماً وفضلاً . فإن أنجزتها فليست أُولى الهمم ، ولا وَاحِدة النعم ، فلكم سبقت إلىَّ منك أَيادٍ تخرس دونها أَلْسِنة الشكر ، وتضيقُ بها جرائدُ(١) الحصْرِ ؛ ولقد مثلت ـ أيدك الله ! ـ بين [أَن] أَسْتَشفعُ إليك بِذَوِى الجاه عندك ، والزلْفى(٢) لديك ، وبين(٣) أن أَكِلُ ذلك إلى كَرَمِكَ وفضلك وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر ، فرأَيت أَن الثانية بك أَحْرَى ، وبفضلك أَجْدَر ، والسلام .

---

(١) الجرائد : جمع جريدة وهى السعفة وكانت يكتب فيها ، فالمراد الصحائف (٢) الزلفى : القربة والمنــزلة . (٣) كرر الكاتب بين توكيدا ، وهو جائز مسموع ، وأنا استحسنه اذا أطال ما قبل المعطوف كما هنا .

استمناح الصابىء لاحد الرؤساء

وكتب أبو إسحاق الصابىء(١) إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة ـ أطال الله بقاء الأمير ! ـ بالتمهيد للحاجة قبل مَوْرِدها وإسْلَاف(٢) الظنون الداعية إلى نجاحها . وسالك هذه السبيل يُسيءُ الظن بالمسئول ، فهو لا يلتمسُ فضله إلا جزاءً ، ولا يستدعى طَوْلَه إلا قضاءً . والأمير بكرمِهِ الغريب ، ومذهَبِه البديع ، يؤْثر أن يكون السلف له بالابتداءُ منه ، ويوجبُ على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به . فالحمدُ لله الذى أفْرَدَهُ بالطرائق الشريفة ، وَوَحّدَه بالخلالِ المنِيفَة ، وجعله عين زمانه البصيرة ، ولَمْعَتِه (٣) الباقية المنيرة .

وكتب محمد بن عَيَّاد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقَرَّب إليه :

ما زلْتُ ـ أيدك الله تعالى ! ـ أَذُمُّ الدهر بِذَمِّكَ إياهُ ، وأَنتظرُ لنفسى ولك عُقْباهُ ، وأتمنى زوال من لا ذَنْبَ له ، إلى عاقبه محمودة تكون بزوال حاله وأترِكُ الإعْذَار(٤)فى الطلب على الاختلال(٥) الشديد ضَنًّا بالمعروف عندى إلَّا عن أهله ، وَحُبًّا لرجائى إلا عن مستحقه .

ومن أرق الاستماحة (٦) ما كتبه عبيد بن طاهر إلى سليمان بن وهب :

أَبى دهرنا إسعافَنا فى نفوسنا   وَأَسْعَفَنا فيمن نحِبُّ ونُكْرِمُ

---

(١) الصابىء : هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال كاتب ديوان الانشاء عن الخليفة وعن عز الدولة بن بويه ، وهو معدود من رجالات الكتابة ، توفى عام ٣٨٤ هـ (٢) الاسلاف : التقديم (٣) اللمعة : البقعة والقطعة من الجسد تبرق (٤) أعذر : بالغ (٥) الاختلال : الاحتياج (٦) الاستماحة : الاستمناح .

فقلتُ له : نُعْمَاك فيها أتمها   وَدَعْ أَمْرَنَا إن المُهِم المُقَدّمُ

فأعجب سليمان بلطف طلبه فى تهنئته وقضى حوائجه .

وقال أعرابى لرجل : ما اتهمت حسن ظنى بك ، منذ توجه رجائى نحوك ، ولا قعدت بجد قاتل(١) باعتمادى عليك ، ولا استدعتنى رغبة عنك إلى من سواك ، ولا أرانى الاختيار غيرك عوضاً منك .

وكتب البديع الهمذانى فى بابه إلى بعض أصحابه :

لك ـ أعزك الله ! ـ عادة فضل فى كل فضل ، ولنا شبه مقت فى كل وقت ، ولعمرى أن ذا الحاجة مقيت(٢) الطلعة ، ثقيل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء .

الفصل الثالث : فى رسائل الشكر

كتب أبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الشكر ترجمان النيَّة ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الاختصاص ، عندى من إنعامه ، وخاصّ برّه وعامّه ، ما يستغرق منه الشكر ، ويستنفد قوة النشر ، شكر الأسير لمن أطلقه ، والمملوك لمن أعتقه ، شكر كأنفاس الأحبار ، أو أنفاس الرياض غِبَّ الأمطار .

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢ هـ :

ومن شكركَ على درجة رفعتُه إليها ، أو ثروة أقدرته عليها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها ، وحشاشة أبقيتها ، ورمق أمسكت به ، وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ، ومدى تقف عنده ، وغاية من الشكر لا يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره .

---

(١) الجد : الحظ . والقاتل المخطىء (٢) المقيت والممقوت : البغيض والمكروه .

وأنت من وراء كل غاية : رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل ، وكنف(١) كريم ، فكيف يشكر الشاكر ؟ وأين يبلغ المجتهد ؟ !

وكتب الأمير أبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

فأما الشكر الذى أعارنى رداءه ، وقلدنى طوقه وسناءه(٢) ، فهيهات أن ينتسب إلا إلى عادات فضله وإفضاله ، أو يسير إلا تحت رايات عرفه (٣) ونواله(٤) ! وهو ثوب لا يحلى إلا بذكر طرازه واسم حقيقته ، ولسواه مجازه ، ولو أنه ـ حين ملك رقى بأياديه ، وأعجز وسعى عن حقوق مكارمه ومساعيه ـ خلّى لى مذهب(٥) الشكر وميدانه ، ولم يجاذبنى زمامه وعنانه ـ لتعلقت فى بلوغ بعض الواجب بعروة طمع ، ونهضت فيه ولو على وهن وظلع(٦) ، ولكنه يأبى إلا أن يستولى على أمد الفضائل(٧) ذرى (٨ الغوارب (٩) منها والكواهل(١٠) ، فلا يدع فى المجد غاية إلا سبق إليها فارضاً(١١) ، وتخلف سواه عنها حسيراً(١٢) ساقطاً ، لتكون المعالى بأسرها مجموعة فى ملكه ، منظومة فى سلكه ، خالصة له من دعوى القسم وشركه(١٣) .

وكتب أستاذى الشيخ محمد عبده (١٤) يشكر للمرحوم حافظ إبراهيم تعريبه كتاب البؤساء :

لو كان لى أن أشكرك لظن بالغت فى تحسينه ، أو أحمدك لرأى لك فينا

---

(١) جانب (٢) رفعته (٣) معرفة (٤) عطائه (٥) ريق (٦) كلاهما الضعف (٧) يعلو (٨) أعالى (٩) جمع غارب ما بين الظهر والعتق (١٠) جمع كاهل ما بين الكتفين (١١) سابقا (١٢) كليلا (١٣) مشاركته (١٤) هو الاستاذ الامام مفتى الديار المصرية سابقا ولد سنة ١٢٥٨ هـ وتوفى سنة ١٣٢٣ هـ وكتب هذا المكتوب شكرا لمترجم كتاب البؤساء وقد نظم قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالى أن يقال محمد ... أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضى عليه العمائم

أبدعتَ فى تزيينه ـ لكان لقلمى مطمعٌ أن يدنو من الوفاءِ بما يُوجِبُهُ حقُّك ، ويجرى فى الشكر إلى الغاية كما يطلبُه فضلُك ، لكنك لم تقف بعرفك (١) عندنا ، بل عمَّمت به من حولنا ، وبسطتَهُ على القريب والبعيد من أبناءِ لُغتنا ، زَفَفت إلى أَهل اللغة العربية عذراءَ من بنات الحكمة الغربيَّة ، سحرت قومها وملكت فيهم يومها ، ولا تزال تُنبِّه منهم خامدًا وتهز فيهم جامدًا ، بل لاتنفك تُحيي من قلوبهم ما أَماتته القسوة ، وتقوِّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأُسوة (٢) حكمة أَفاضها الله على رجلٍ منهم ، فهدَى إلى التقاطها رجلاً منا ، فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسيج الأَديب ، وجلاها للناظر ، وحلَّاها للطالب ، بعد ما أَصلح من حَلقها وزان من معارفها ، حتى ظهرت مُحبَّبة إلى القلوب ، شيقة (٣) إلى مؤانسة البصائر ، تهشُّ (٤) للفهم وتبش (٥) للطف الذَّوق ، وتسابق الفكر إلى موطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام .

حاول قومٌ من قبلك أن يَبلغُوا من ترجمة الأَعجم مبلغك فوَقفَ العجز بأَغلبهم عند مبتدإِ الطريق ، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مقصِدِه ، ولكنه لم يُعن بأَن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أَساليبها ، ويردَّ إليها ما سلبهُ المعتدونَ عليها من متانة التأْليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها إلى أَعلى مراتبه .

أَما أَنت ، فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مَطمَع لطالب أَن يبلغ حدَّه ، ولو كنتُ ممن يقول بالتَّناسخ ، لذهبتُ إلى أَن روح « ابن المُقفع » كانت من طيِّبات الأَرواح ، فظهرت لك اليوم فى صورة أَبدع ، ومعنى أَنفع ،

---

(١) المعروف (٢) بالكسر والضم : القدوة (٣) لطيفة (٤) بفتح التاء : تصل اليه بسهولة (٥) بفتح الباء : من البشاشة .

ولعلك قد سننت بطريقتك فى التَّعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان إلى أبناءِ ما يُستقبَلُ منهُ ، فتكون قد أَحسنت إلى الأَبناءِ كما أَجملت فى الصُّنع إلى الآباءِ ، وحكمت للغة العربية أَن لا يدخلها بعدُ من العُجْمة سِوَى ما هو فى أَسماءِ (الأَسماء الأَماكن والأَشخاص ، لا أَسماء المعانى والأَجناس) ومثلى من يعرف قدرَ الإِحسان إذا عمَّ ، ويعلى مكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل فى رأيه الحكيم العربى أَبى العلاءِ المعرى :

ولو أَنى حُبيتُ الخلد فرْدًا ... لما أَحببتُ بالخلد انفرادا

فلا هَطَلَتْ علىَّ ولا بأَرضى ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

فما أَعجز قلمى عن الشكر لك ! وما أَحقك بأَن ترضى من الوفاءِ باللقاءِ !

وكتب أَيضاً فى الشكر مع توثيق المودة إلى أَصحابه :

لك فى قلوبنا من المودة ما يزكيه سنَاؤك ، وفى مناطقنا من الحمد ما يوجبه كمالُك ، وفى صدورنا من الإِجلال ما يرفعه بهاؤك !

وما بيننا من المودّة لا تحدُّه مدة ، ولا تخلق جدَة ، نعيذه من حاجة للتجديد واستدعاءٍ للمزيد ، فلا المواصلةُ تربيه ، ولا المجاهلةُ تُوهيه ــ نعم إنّ ما يحفظُ لك فى الأَنفس هو تجلى فضلك ، ومثالُ علائك ونبلك ؛ وذلك الخالد بخلود الأَرواح ، والباقى فى تفانى الأَشباح .

وبعدُ ــ فقد تلقيت منك كتاباً يَبُوح بسرّ المحبَّة ، وينشرُ طىَّ الصداقة ، فيه تبيان وُجدانك مما وجدنا ، وتأثرك على ما فقدنا ، فكان نبأً عما نعلمُ ، وقضاء بما نحكم ، ولكن شكَرْنا لك فضلَ المرَاسلة ، وأَريحيَّة المجاملة ، والله يتولى إيفاءَك ، مثوبةً تكافئُ وفاءَك .

وكتب أَيضاً فى الشكر لآخر :

لوكان فى الثناءِ ، وملازمةِ الدُّعاءِ ، وحفظِ الجميل ، والقيام بالخدمةِ جهد المستطيع ما يفى بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأُ بصنائع المعروف ،

لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون فى ذلك وفاءٌ ؟ والمحبَّة سر نظام الأكوان ! والإحسانُ قِوام عالم الإمكان ! والقائمُ على كنْهِ جميعه قيُّوم السموات والأرض! والمفتتحون لأبواب العُرف على هذه النسبة الجليلة منهُ ؛ فليس لى إلا أن ألجأ إلى الله فى مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم ، ثم أُسلى نفسى عن عجزى بما أتخيلُ أن كرمكم سيروى :

سيكفى الكريم إخاءُ الكريم ويقنع بالوُدّ منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير فى المبادرة إلى المكاتبة ، لأنى شغلت بما شَغَلنى عن نفسى ، ولكن زالت العوارض (والحمد لله) وفاتنى لهذا العذر تهنئتكم بالعيد ، وإنما للمؤمن فى كل يوم بربه عيد ، فنهنئكم برضا الله عنكم وتقبله صالح الأعمال منكم ، وسلامى على نجلكم ومن ينتمى إليكم .

الفصل الرابع : فى رســـائل النصح والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

اسمع نصيحة ناصحٍ جمع النصيحة والمِقَهْ(١)

إياك واحذر أن تكو ن من الثقاتِ على ثقه

صدق الشاعر وأجاد ، وللثقات خيانة فى بعض الأوقات : هذه العينُ تريك السَّرَابَ(٢) شراباً ، وهذه الأُذنُ تُسْمعك الخطأَ صَوَابًا ، فلست بمعذور إن وثقت بمحذُور ، وهذه حالةُ الواثق بعينه ، السَّامع بأُذنه .

وأرى فلاناً يُكثر غشيانك(٣) وهو الدنىءُ دُخْلتُه(٤) ، الرَّدىءُ جُملته ، السيُّ وصلتُه ، الخبيث كلمته ، وقَدْ قاسمتَه فى زِرِّك(٥) ، وجعلته موضع سرِّك ،

---

(١) المحبة (٢) ماتراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالارض وهو مثل فى المخادع الـــكاذب (٣) اتيـــانك (٤) بتثليث الدال : نيته (٥) قوام القلب .

فأَرى موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضع إتلافيه(١) : أفظاهرُه غرَّك ؟ أَم باطنُه سرَّك ؟ ؟

يا مولاى : يُورِدك(٢) ثم لا يُصدِرُك(٣) ويُوقِعك ثم لا يعذرُك ، فاجتنبه ولا تقربه ، وإن حضر بابك ، فاكنُس جنابك(٤) ، وإن مَسَّ ثَوْبك فاغسل ثيابك ، وإن لَصِقَ بجلدك ، فاسْلخ إهابك ، ثم افتتح الصلاة بلعنِهِ ، وإذا استعذت بالله من الشيطان فاعْنهِ(٥) .

وكتب الإسكندر المقدونى إلى أُستاذه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعله بأَبناءِ ملوك فارس بعد أَن قتل آباءَهم وتغلب على بلادهم :

عليك أَيها الحكيم منا السَّلام ، أَما بعدُ فإِن الأَملاك الدائرة والعلل السماوية وإن كانت أَسعدتنا بالأُمور التى أَصبح الناس لنا بها دائنين ـ فإِنا مضطرون إلى حكمتك ، غيرُ جاحدينَ لفضلك والاجتباءِ(٦) لرأْيك ، لما بلونا من إجداءِ(٧) ذلك علينا ، وَذُقنا مِن جَنَى(٨) منفعته ، حتى صار ذلك بنُجُوعه(٩) فينا ، وترسخه فى أَذهاننا ، كالغذاءِ(١٠) لنا ، فما ننفك نعوَّلُ عليه ، ونستمد منه استمداد الجداول من البحار . وقدكان مما سَبق إلينا النَّصر ، وبلغنا من النكاية فى العدو ما يعجزُ القول عن وصفه ، والشكرُ على الإنعام به ، وكان من ذلك أَنا جاوزنا أَرض سورية والجزيرة ، إلى أَرض بابل وفارس ، فلما نزلنا بأَهلها ، لم يكن إلا ريثما(١١) تلقانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هدية ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأَمرنا

---

(١) تداركه (٢) يوصلك الى مكان ورد الماء (٣) لا يرجعك (٤) الفناء والناحية (٥) أقصده (٦) الاختيار (٧) اعطاء (٨) ما يجنى ويؤخذ من الثمر (٩) بتأثيره (١٠) بكسر الغين ما يتغذى به (١١) مقدار .

بصلب من جاءَ به وشُهْرَته ، لسوءِ بلائه وقلة ارعوائه ووفائه ، ثم أَمرنا بجمع من كان هنالك من أَولاد ملوكهم وأَحرارهم ، وذوى الشرفِ منهم ، فرأَينا رجالاً عظيمةً أَجسامُهم وأَحلامهم(١) ، حاضرةً أَلبابُهم وأَذهانهم ، رائقةً(٢) مناظرهم ومناطِقُهُمْ ، دليلاً على أَن وراءَ ذلك ما لم يكن معه سبيلٌ إلى غلبتهم ، ولولا أَنَّ القضاءَ أَدالنا(٣) منهم ، وأَظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيداً من الرأْى فى أَن نستَأْصل(٤) شأْفتهم(٥) ، ونَجْتَثَّ(٦) أَصلهم ، ونلحقَهُمْ بمن مضى من أَسلافهم لتَسْكن القلوب بذلك إلى الأَمن من جرائرهم(٧) وبوائقهم(٨) ، فرَأَينا أَن لا نعجل ببادرة(٩) الرأى فى قتلهم ، دون الاستظهار بمشورتك فيهم ، فارفع إلينا رأْيك فى ما استشرناك فيه صحته عندك ، وتقليبك إياه بِجَلِيِّ نظرك .

والسلام على أَهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب أَرسطو المتوفى قبل الميلاد إلى الإِسكندر المقدونى :

إنّ لكلِّ تُرْبة ــ ولا محالة ــ قسماً من كل فضيلة ، وإنّ لفارس قِسْمها من النجدة والقوة ، وإنَّكَ إن تقتل أَشْرَافهم ، تُخَلِّف الوضعاءَ منهم على أَعقابهم وتورَّث سفلتَهاَ(١٠) ، منازل عليتهم ، وتغلب أَدنياءَهم ، على مَرَاتب ذَوى أَخطارهم ؛ ولم تُبتل الملوكُ قط ببلاءٍ هو أَعظمُ عليهم من غَلبة السفلة وذُلِّ الوجوه . واحْذَر الحذر كله أَن تُمكِّن تلك الطبقة من الغلبة ، فإنهم إن نجم منهم

---

(١) جمع حلم بكسر الحاءالعقل وبضمهاالمنام ليلا (الرؤيا) (٢)زائدة
(٣) جعل لنا الكرة عليهم (٤) نقطع . (٥) عداوتهم (٦) نقتلع
(٧) كناية عن شرورهم (٨) الدواهى (٩) ما يظهر عند الغضب
(١٠) بفتح السين وكسر الفاء السقاط من الناس ، وبعض العرب يخفف فينقل كسرة الفاء الى السين .

ناجِمٌ على جُندك وأهل بلادك ، دهمهم مالا رَوِية فيه ولا منفعة معه . فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأَحْرَار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كلَّ من وَلَّيْتة منهم ناحية ، واعقد التاج على رَأْسه ، وإن صغر ملكه ، فإنَّ المُتَسَمَّى بالملك لازمٌ لاسمه ، والمعقود لهُ التاجُ لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقعَ بين كل ملك منهم وصاحبه ، تدابُرًا وتغالبًا على الملك وتَفاخُرًا بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وتَعود بذلك حربهم لك حَرْباً بينهم ، ثُمَّ لا يزدادُون بذلك بصيرةً إلا أحدثوا هنالك استقامة لك ، فإن دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأَيت عنهم تعززُوا بك ، حتى يَثِبَ كلٌّ منهم على جاره باسمك ، وفى ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لأَحداثهم بعدك ـ وإن كان لا أمان للدّهْرِ ـ وقد أدّيت للملك ما رأَيْتُه حَظًّا ، وعلىّ حقًّا ، والملك أبْعَدُ رَوِية ، وأعلى عيناً فى ما استعان بى عليه .

والسلام الذى لا انقضاءَ له ولا انتهاءَ ولا غاية ولا فناءَ ، فليكن على الملك .

ومن رسالة للإمام علىّ المتوفى سنة ٤٠ هـ كرم الله وجهه :

دَعِ الإِسْرَاف مقتصداً ، واذكر فى اليَوْمِ غداً ، وأَمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل(١) ليَوْم حاجتك ، أَتَرْجُو أن يُعْطيك الله أَجر المتواضعين وأَنت عندهُ من المتَكبِّرِين ؟ أَو تطمعُ وأَنت مُتَمَرِّغ فى نعيم تمنعه الضعيف والأَرملة ، أَن يوجب(٢) لك ثواب المتصدِّقين ؟ وإنما المرءُ مجزىٌّ بما أَسلف(٣) وقادمٌ على ما قدم ، والسلام .

---

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه .
(٢) أن ومدخولها مجرور بحـرف جر محذوف متعلق بتطمع .
(٣) قدمه فى سالف أيامه .

وكتب أيضاً ـ كرم الله وجهه ـ إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

أما بعد ـ فإنَّ المرءَ قد يسرُّه درك ما لم يكن ليفوتَه ، ويسوءُه فوتُ ما لم يكن ليُدْركه ، فليكنْ سرورُك بما نلت من آخرتِك ، وليكن أسفُك على ما فات منها ، وما نلت من دُنياك فلا تُكْثِرْ فيه فرَحًا ، وما فاتَكَ منها فلا تأْسَفْ عليه جزعاً ، وليكن هَمُّكَ فيما بعد الموت .

وكتب بطل الوطنية السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ :

لا حول ولا قُوّة إلا (بالله) اشتبَه المراقبُ باللّاه(١) ! واستبدل الْحُلْوُ بالمرّ ، وقُدِّمَ الرقيقُ على الْحُر ! وبيعَ الدُّرُّ بالخزف! والخزُّ بالخشف(٢) ، وأظهر كل لئيم كبره ! إن فى ذلك لَعِبرة ! سَمعًا سمعاً ، فالوُشاة إن سَعَوا لا يعقلون ، ويُحِبُّون أَن يُحمدُوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترُون منهم القار(٣) فى صفة العنبر ؟ وقد بدت(٤) البغضاءُ من أَفواههم ، وما تخفى صُدُورُهم أَكبر! وكيف تسمعُ الأَحبابُ لمن نَهى منهم وَزَجَر ؟ ولقد جاءَهُمْ من الأَنباءِ(٥) ما فيه مُزْدَجَر !(٦) عَجِبْتُ لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون ! فلما أَحسوا بأْسنا إذا هُم منها يَركُضون فقابلوهُم بنبال الطَّرْد فى الأَعناق ، حتى إذا أَثْخَنْتُمُوهُم(٧) فشُدُّوا الوثاق(٨) ، أَيدْخلون بما لا يَنفع ، فى بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن ترفع ! سيعلمون مقام الهبوط والعُرُوج(٩) ، «يومَ يسمعونَ الصَّيْحَةَ بالحقّ؛ ذلك يومُ الخُروج» ويقولون إذا لم يجدُوا ملاذاً يا ويلينا قد كنَّا فى غَفْلَةٍ من هذا ! فإنهم عزموا على الإقامة مدَّة ، ولو أَرادُوا الخروج لأَعدُّوا لَهُ عُدَّة(١٠) . وأَنت عزيز العليا ، ووحيد الدنيا

---

(١) باللاهى الذى يكون ملهيا ـ وغالبا الشيطان (٢) بفتح الخاء أو بضمها الردىء من الصوف (٣) الزفت (٤) ظهرت (٥) الاخبار (٦) النهى بشدة (٧) أكثرتم القتل فيهم (٨) ما يربط به (٩) الطلوع (١٠) ما أعده الانسان لحوادث الدهر من المال والسلاح .

قد بينتُ لك فعلهم ، فَبِما(١) رحمة من الله لِنْتَ لهم . ولكنهم طمعوا فى عميم طَولك(٢) ، ولو كنت فظًّا(٣) غليظ القلب(٤) لانفضوا(٥) من حولك أتراهُم يعقلون كلامك أم يفهمون ؟ لَعَمْرُك(٦) إنهم لفى سكرتهم يعْمَهُون(٧) لهم قلوبٌ لا يدرُون بها للحسد قرارًا ، لو اطَّلعت عليهمْ لَوَلَّيْتَ منهم فرارًا . وإنى قد شيدتُ(٨) لك بقلبى حصنًا(٩) صعبًا(١٠) ما اسطاعوا أن يظهروه(١١) وما استطاعوا له نقبًا(١٢) ، نسيت بالعاذل(١٣) جميل الصوت(١٤) وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكُرَهُ(١٥) . رُميتَ أيها العاذل بسيف الغدر فى نحرك ، أجئتنا لتُخْرِجَنَا من أرضِنا بسِحْرك ! فإن لم ترجعْ عنِ السحرِ وفعله ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مثله ، كيف يسعى العاذلُ بين النديم وإلفه ، وقد خَلَتِ النُّذُر من بين يديه ومنْ خلفِه! فياسادتى دعونى من المعجبِ والمطرب ! لَيْسَ البر أَنْ تُوَلُّوا وجوهكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، واجعلوا سيفَ ثباتكم للعذَّال مسلولا ، وأَوفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مسئولا ، فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بَطِر ، سَيَعْلَمُونَ غداً مَن الكذابُ الأَشِرِ(١٦) ،وها قد صار أمر الحزبينِ عندك جليًّا ، فأى الفَرِيقَيْنِ خير مقاماً وأَحْسَنُ نَدِيًّا ! (١٧) أتظنُّ عهد العاذل عند غضبك لاينكث(١٨) مثلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إن تحمل عليه يلهث ، إنه لكُمْ

---

(١) فبرحمة وما للتوكيد وللدلالة على أن لينه ما كان الا برحمةمن الله
(٢) احسانك (٣) سيء الخلق (٤) قاسيه (٥) لتفرقوا (٦) لحياتك واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف وتقديره قسمى (٧) بتحيرون
(٨) زينت (٩) موضعا حصينا (١٠) لا يقدر أحد أن يدخله والمراد المبالغة فى حصين المحبة (١١) لا يقدرون أن يعاوا ظهره لارتفاعه ونعومته
(١٢) خرقا لصلابته وسمكه (١٣) اللائم (١٤) الذكر الجميل ولا يستعمل الصوت بهذا المعنى الافى الجميل (١٥) أنسانىذكره (١٦)المتكبر
(١٧) مجلس القوم (١٨) لا ينقض .

عدوٌّ كبير ، ففرُّوا إلى الله إنى لكم منهُ نذير ، فإنه جمع لقتالكَ الأولاد ، والأحفاد(١) وآخرين مُقَرَّنين(٢) فى الأصفاد(٣) ، تركوا أمر الله بما لا يرضونه ، فأعقبهُم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه . وظنِّى إنْ وصل إليك كتابى ، أنهم يُطردون ويُرْدَعُون ، وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيعُجبك إذا مشى هذا اللّاهِ ، ثانى عطفه(٤) ليُضِلّ عن سبيلِ(٥) الله .

وإنك وإن فرِحت بعلم ما يجْهلُون ، قد نعلم أنه ليحْزُنك الذى يقولون . فإن قلتَ إنّ اجتماعى بهم لأجل الصدقة أو شيءٍ من هذا القبيل ، إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملين(٦) عليها والمؤلَّفةِ قلُوبُهُمْ(٧) ، وفى الرِّقاب (٨) ، والغارمين(٩) ، وفى سبيل الله(١٠) وابن السبيل(١١) ؛ على أنهُ لا تحلُّ الصدقة لذميم(١٢) هماز(١٣) مشاءٍ بنميمٍ(١٤) ، وطباعهم كما تعلمُ منكَرَةٌ مُسْتَقذَرَةٌ ! كأنهم حمرٌ(١٥) مستنفرَه(١٦) فرتْ من قَسْوَرَةٍ(١٧) .

وقد قال وفائى : خاطب عزيزك هذه المرّة ، وإن لم يعملْ فيك فكرًا ، وما يُدْريكَ لعله يزَّكّى(١٨) ، أوْ يَذكّرَ فتنْفَعُهُ الذِّكرى .

فقال لسانى : إنّ الوُدّ هوَ الرّسول المأمون ، فأرْسلهُ معى رِدْءًا(١٩) يصدِّقنى ، إنى أخاف أن يكذِّبون . فقلت : سيرُوا مع المحبّة ذات

(١) أولاد الابناء (٢) مشدودين (٣) القيود (٤) لاوى عنقه تكبرا (٥) عن دين الله (٦) السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر الحاكم (٧) أشراف من العرب كان النبى صلى الله عليه وسلم يستألفهم للاسلام (٨) المكاتبون من العبد (٩) من تحملوا الدين (١٠) الفقراء فى الجهاد (١١) المسافر والمنقطع عن ماله (١٢) القبيح والمراد قبيح الفعال ذميم الخصال (١٣) عياب يعيب الناس (١٤) ساع بالنميمة والفساد (١٥) جمع حمار (١٦) نافرة (١٧) الاسد (١٨) يتطهر من الذنوب (١٩) معينا .

الفُتُوَّة(١) ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها منْ بعد قوَّة ، وقولوا لهُ عند الغايةِ قد جِئناك بـآية . ولا تهابوا الجيش وإنْ كبرْ ، سيهزمُ الجمعُ ويولون الدُّبرْ(٢) ولاتظنُّوا من ظاهر الأَمر حُلول البلوى ، إذْ أَنتمْ بالعُدْوةِ(٣) الدُّنيا(٤) وهم بالعُدْوَةِ القصوَى(٥) ، بل قاتلوهم قتالَ المستشهدين ، ولْيَجِدُوا فيكم غلظة ، واعلمُوا أَنّ الله مع المتقين .

وإذا اشتبك القتالُ فليذُبَّ كلٌّ منكم عن مولاه(٦) ، وإنْ جنحوا(٧) للسلم(٨) فاجنح لها وتوكَّلْ عَلَى الله ، فسيروا ودعوا الأَولاد والْجُنَّة(٩) ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة ، ولا تسأَلوا عن الميرةِ(١٠) من أَصله ، وإن خفتمْ عَيْلَةً(١١) فسوف يغنيكم الله من فضلهِ ، فإن الله قد أَثاركم(١٢) لقتال العذال العائبين ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أَو يكبتهم(١٣) ، فينقلبوا خائبين .

واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا فى جنوبهم رَضُوا أَن يكونُوا مع الخوالفِ(١٤) وطبع(١٥) اللهُ على قلوبهم ؛ ولاتُدْبروا إذا رأَيتموهمْ قدامكم(١٦) ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّت أَقدامكم .

وإن أَخذتم أَسرَى فقاتلوا أَنصارها ، فإمَّا منًّا(١٧) بعدُ وإما فِدَاءًا حتى تضع الحربُ(١٨) أَوزارها(١٩) ، فإن أَطعتم دفعتم وأَصلحَ الله بالكمْ ، وإن تتولَّوْا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أَمثالكم .

---

(١) الكرم والتسامح (٢) الظهر (٣) بضم العين وكسرها جانب الوادى (٤) القريبة (٥) البعيد (٦) صاحبه (٧) مالوا (٨) الصلح (٩) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطى بها المرأة وجهها (١٠) جلب الطعام (١١) فقرا (١٢) نشركم (١٣) يصرفهم ويذلهم (١٤) النساء (١٥) كناية عن اعماء بصائرهم (١٦) سابقيكم (١٧) تمنون عليهم باطلاقهم من غير شىء (١٨) أهل الحرب (١٩) أثقالها من سلاح وغيره .

وسأتلو فى خطبتكم عند قدومكم سالمين : فقطع دابرُ(١) القومِ الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين .

* * *

وكتب أستاذنا الإمام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٣٣هـ :

عرض لى مامنعنى من قراءة الجرائد نحو أسبوع ، وكنتُ أسمعُ فيه بحادثة (ميت غمر) من بعض الأفواه ، أظنها من الحوادث المعتاد وقوعها ، حتى تمكّنتُ من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضى ، فإذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبى أكلهُ لجُسومِ أُولئك المساكين : سكان (ميت غمر) ، ويصهرُ(٢) من فؤادى مايصهرُه منْ لحومهم ، حتى أرقت(٣) تلك الليلةَ ولم تغمض عيناى إلا قليلاً وكيف ينامُ من يبيتُ يتقلبُ فى نعم الله ، وله هذا العددُ الجمٌّ من إخوةٍ وأخوات يتقلبون فى شدّة البأساءِ ؟ ! (٤) فأردتُ أن أُبادرَ بما أستطيع من المعونة ــ وما أستطيعهُ قليلٌ لايغنى من الحاجة ولا يكشفُ البلاءَ ــ ثم رأيتُ أن أدعوَ جمعًا من أعيان العاصمة ليشاركونى فى أفضل أعمال البر فى أقرب وقت ، وكان ذلك يومَ السبت فحضرَ منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرُون ، فشكرَ الله سعيَ من حضرَ ، وجزى خيرًا من اعتذر ، وغفر لمن تأخر . على أنهُ ليس الحادثُ بذى الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضعُ(٥) مئين منهم الأطفالُ الذين فقدوا عائليهم(٦) والتجار والصناع الذين هلكتْ آلاتهم ورُءُوسُ أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرّة أُخرى إلّا بمعونةٍ من إخوانهم ، وإلّا أصبحوا مُتلصّصلين أو سائلين ، والذين

(١) أهلكوا عن آخرهم (٢) يذيب (٣) سهرت (٤) الضرر والفقر (٥) بكسر التاء أو بفتحها ما بين الثلاث الى التسع ــ وبالضم الفرج (٦) من ينفقون .

فقدُوا بيوتهم ولايجدون ما يأْوُون إليه ، ولا مالَ لهم يقيمون مايؤويهم من مثل بيوتهم المتخرِّبة ـ لهذا رأيتُ ورأى كلٌّ من تفكَّرَ فى الأمرِ ، أَنْ يُجمع مبلغٌ وافرٌ يُتمكنُ به من تخفيف المصاب عن جميع أُولئك المصابين .

وكتب أيضاً فى الغرض المذكور :

قد بلغكم ـ وَلا ريْبَ ـ من أَخبار الجرائد ، ما عليه أَهلُ (ميت غمر) بعد الحريق الذى أَصابَ مدينتهم ، فهم بِلا قُوتٍ ولا ساتر ولا مأْوَى ، فليتصوّر أَحدكُمْ أَن الأَمرَ نزلَ بساحتهِ ، أَفما كان يتمنى أَن يكون جميعُ الناس فى معونته ؟ فليطالب الآن كلٌّ منا نفسَهُ بما كان يطالبُ به الناسَ ، لوْ نزلَ بهِ ما نزَلَ بهمْ ، ولْيُنْفِقْ مما له ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر . . . فأَرجو من همتكم أَن تدفعوا شيئًا من مالكم فى مساعدة إخوانكم ، وأَن تبذلوا ما فى وُسْعكم لِحَث من عندكم على مشاركتكم فى هذا العمل المبرور والسلام .

الفصل الخامس : فى رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٧ هـ :

لَئنْ ساءَنى أَنْ نِلتِنِى بمساءَةٍ لقد سَرَّنى أَنى خطرْتُ ببَالِكِ (١)

الأَميرُ ـ أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ـ فى حَالَىْ برّه وجفائه متفضل ، وفى يوْمَىْ إدنائه وإبعاده متطوِّل ، وَهنيئًا لهُ من حمانا ما يحله(٢) ، ومن عرانَا ما يحله(٣) ومن أَعراضنا ما يستحلُّه .

بلغنى أَنهُ ـ أَدام اللهُ عزّه ! ـ استزاد(٤) صنيعه(٥) ، فكنت أَظنُّنِى

(١) هذا البيت لعبد الله بن عبيد الله أحد بنى عامر المشهور بابن الدمينة من قصيدة والخطاب لمؤنث (٢) ينزل فيه (٣) يفكه (٤) زاد (٥) معروفه واحسانه .

مجنيًا(١) عليه مساءً إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذنب ، ومثارة(٢) العتْب ، ولَيتَ شعرى(٣) أَى محظور(٤) فى العشْرَة حضرْته ، أَو مفرُوض من الخدمة رفضتُهُ(٥) أَو واجب فى الزِّيارة أَهملته ! وهل كنت إلَّا ضيفًا أَهداه منزعٌ(٦) شاسع(٧) وأَداهُ أَمل واسع ، وحداه (٨) فضلٌ وإن قل ، وهداه رأىٌ وإن ضلّ ، ثم لم يلق إلا فى آل مكال رحله(٩) ولم يصلْ إلا بهم حبله ، ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره .

ثم ما بُعدت صحبةٌ إلا دنتْ مهانة ، ولا زادت حرْمةٌ إلا نقصتْ صيانة ، ولا تضاعفتْ منةٌ إلا تراجعتْ منزلة ، ولم تَزَلِ الصِّفة بنا حتى صار وابل(١٠) الإعظام قطرَه ، وعاد قميص القيام صَدْرَه(١١) ، ودخلت مجلسه وحوله من الأَعداءِ كتيبةٌ(١٢) ، فصار ذلك التقريبُ ازوِرَارًا(١٣) ، وذلك السلامُ اختصارًا ، والاهتزاز إيماءً ، والعبارَة إشارة . وحين عاتبته آمل أَعتابه(١٤) ، وكاتبتهُ أَنتظرُ جوَابه ، وسأَلته أَرجو إيجابه ، أَجاب بالسكوت فما ازْدَدتُ لهُ إلا ولاءً ، وعليه ثناءً ؛ ولا جرَمَ(١٥) أَنى اليوْم أَبيضُ وجه العهد ، واضحُ حُجّةِ الوُدّ ، طويلُ لسان القول ، رفيع حكم العذر . وقد حملتُ فلاناً من الرِّسالة ما تجافى القلم عنه .

والأَمير الرئيس ـ أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ـ يُنعمُ بالإِصغاءِ لما يوردُهُ مُوفقًا إن شاءَ الله تعالى .

---

(١) المؤاخذة بجنايته (٢) مكان الثوران (٣) ليتنى أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع (٤) ممنوع (٥) أبطلته (٦) مصدر ميمى بمعنى البعد (٧) بعيد (٨) ساقه ودفعه (٩) ما يأخذه المسافر من الأثاث وحوائج السفر (١٠) المراد به الكثير من الانعام وأصله المطر (١١) ثوب يلبس فيغطى الصدر (١٢) جماعة (١٣) انحرافا (١٤)ازالة عتبه وملامته (١٥) كلمة كانت فى الاصل بمنزلة لابد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت الى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا .

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرَجِى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :

أنا ــ وإن لم أَلقَ تطاوُل الإخوان إلا بالتَّطَوُّل ، وتحامُلَ الأَحرار إلا بالتَّحَمُّل ــ أُحاسبُ موْلاى ــ أَيَّدَه الله ! ــ على أَخلاقِه ، ضِنًّا(١) بما عقدتُ يدى عليه من الظن به ، والتقدير فى مذهبه ، ولَوْلا ذلك ، لقلتُ فى الأَرض مجالٌ ، إن ضاقت ظلالُك(٢) ، وفى الناس واصلٌ ، إنْ رَثَّتْ(٣) حبالك ، وآخذهُ بأَفعاله .

فإِنْ أَعارنى أُذُنًا واعية ، ونفسًا مراعية ، وقلبًا مُتَّعِظًا ، ورجوعاً عن ذهابه ، ونزوعًا(٤) عن هذا الباب الذى بقرَعُه(٥) ، ونزولاً عن الصُّعُود الذى يفْرعه(٦) ؛ فرشتُ لمودَّته خُوَان(٧) صدرى ، وعقدتُ عليهِ جَوَامعَ خصرى ومجامع عمرى(٨) . وإن ركب منَ التَّعَالى غير مركبه(٩) وذهب من التغالى فى غير مذهبه(١٠) أَقطعته خُطَّةَ(١١) أَخلاقه ، وَوَلَّيْتُهُ جانب إعراضه .

لا أَذُودُ(١٢) الطَّير عن شجر قد بلوت المُرّ منْ ثمره

فإنى وإن كنْتُ فى مقتبل السِّنِّ والعُمر ، قد حلبتُ شطْرَى الدهر(١٣) وركبتُ ظهرَى البرِّ والبحر(١٤) ، ولقيْتُ وَفدَى(١٥) الخيرِ والشرِّ ، وصافحتُ يدى النفعِ والضرّ ، وضربتُ إبطى العُسرِ واليُسرِ ، وبلوتُ

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصا (٢) أماكن الظل (٣) بليت وذابت (٤) انتهاء وتركا (٥) يدقه بيده ليفتح له (٦) يصعده ويعلوه (٧) بضم الخاء أو بكسرها ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره (٨) مراده التمسك بمودته مدة حياته (٩) مراده وان تكبر (١٠) طريقه (١١) بضم الخاء الطريقة ، مراده انه يتركه وان أخذ فى غير طريق طباعه (١٢) لا أطرد (١٣) مراده مربه من خيره وشره وجرب نفعه وضره (١٤) مراده أنه جرب الامور فى البر والبحر (١٥) الوفد الجماعة التى ترد على الامير أو غيره ، ومراده انه عرف الخير والشر .

طعمى الْحُلو وَالمر ، وَرَضعْت ضرعى العُرْف والنكر(١) ؛ فما تكاد الأَيام تريني من أَفعالها غريبًا وتسمِعنى من أَحوالها عجيبًا ، ولقيتُ الأَفراد ، وَطَرحت الآحاد(٢) ، فما رأَيت أَحدًا إلا ملأْت حافتىْ(٣) سمعه وبصره ، وشغلتُ حَيِّزَى(٤) فكره ونظره ، وأَثقلتُ كتفه فى الحزن وكفته فى الوزن ، ووددت لو بادر القرن(٥) صحيفتى(٦) أَو لقى صفحنى(٧) فمالىَ صغرت هذا الصغر فى عينه ، وما الذى أَزرى(٨) بى عنده حتى احتجب وقد قصدته ، ولزم أَرضه وقد حضرته .

وأَنا أحاشيه(٩) أَن يجهل قدر الفضل ، أَو يجحد فضل العلم ، أَو يمتطىَ(١٠) ظهر التيهِ(١١) على أَهْليهِ ، وأَسأَله أَن يختصّنى من بينهم بفضل إعظام ، إن زلت بى مرة قدم فى قصده . وكأَنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة(١٢) والرتبة المتحيفة(١٣) وهو فى جنب جفائه يسير ، فإن أَقلع(١٤) عن عادته ونزع عن شيمته(١٥) فى الجفاءِ ، فأَطال الله بقاءَ الأُستاذ الفاضل ، وأَدام عزه وتأييده .

وكتب أَبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ ﻫ :

والله يا قليب : لولا أَن كبدى فى هواك مقرُوحة(١٦) ، ورُوحى مجروحة لساجلتك(١٧) هذه القطيعة وما دَدْتك حبل المصارمة(١٨) وأَرجو أَن الله تعالى يديل(١٩) لصبرى من جفائك ، فيردك إلى مودتى وأَنف القلى(٢٠) راغم .

(١) المعروف والمنكر ضده (٢) هذا والذى قبله كله بمعنى أنه جرب الايام واختبرها من أول نشأته (٣) جانبى (٤) ناجيتى (٥) المقارن الكفء عند ملاقاة الابطال (٦) كتابى (٧) وجهى معناه تمنى لقائى (٨) حط من قدرى وشأنى (٩) أنزعه (١٠) يركب (١١) الكبر والعجب (١٢) من الاجحاف وهو الذهاب بالشىء (١٣) من التحيف وهو الظلم والجور (١٤) رجع (١٥) خلقه (١٦) مجروحة (١٧) معناه لقابلتك (١٨) المقاطعة (١٩) الغلبة والنصر (٢٠) أنفه صاحب البغض .

فتمد طال العهد بالاجتماع حتى كِدنا نتناكر عند اللقاء والسلام .

وكتب أَبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ إلى تلميذه :

كتابى ، وقد خرجت من البلاءِ خروج السَّيْف من الجلاءِ(١) ، وبروز البدر من الظلماءِ ، وقد فارقتنى المحنة(٢) ، وهى مُفارقٌ لا يشتاق إليه ، وودعتنى وهى مودع لايبكى عليه ، والحمد لله تعالى على مِحنة يجليها ، ونعمة ينيلها ويوليها ، كنت أَتوقع أَمس كتاب مولاى بالتسلية ، واليوم بالتهنية ، فلم يكاتبنى فى أَيام البرحاءِ(٣) بأَنها غَمّته ، ولا فى أَيام الرخاءِ بأَنها سرَّته ! وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبى فقلت : أَما إخلاله بالأُولى ، فلأَنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأَما تغافله عن الأُخرى فلأَنه أَحبّ أَن يوفِّرَ علىّ مرتبة السَّابق إلى الابتداءِ ، بنفسه على محل الاقتداءِ ، لتكون نعم الله سبحانه علىَّ موفورة من كل جهة ومحفوفة بى من كل رتبة ، فإن كنت أَحسنت الاعتذار عن سيدى ، فليعرف لى حق الإحسان ، وليكتب إلىَّ بالاستحسان ، وإن كنت أَسأْت ، فليخبرنى بعذره أَعرف منى بسره ، وليرض منى بأَن حاربت عنه قلبى ، واعتذرت عن ذنبه ، حتى كأَنه ذنبى ، وقلت يا نفسُ اعذرى أَخاكِ ، وكفاكِ منه ما أَعطاكِ ، فمع اليوم غد ــ والعود أَحمد .

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠ هـ :

أَما بعد : فقد عاقنى الشك فى أَمرك ، عن عزيمة الرأْى فيك . وذلك أَنك ابتدأْتنى بلطفك عن غير خبرة ، ثم أَعقبته جفاءً من غير ذنب ، فأَطمعنى أُولك

(١) صقله بازالة ما عليه حتى يرى له لمعان .
(٢) البلية .
(٣) شدة الأذى .

فى إخائك ، وأيأسنى آخرك من وفائك . فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة الشك فيه ، فاجتمعنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف . والسلام .

وكتب صديقى زعيم الوطنية المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :

سيدى : مالى أراك كمن نسىَ الخليط(١) وتجرد فى الصحبة عن المحيط والمخيط ؟ فإذا ماصادفتك(٢) صَدَفْتَ(٣) أو أنصفتك مانصفت(٤) ، أتظن أنى قعيدة بيتك(٥) أو رهين كيتك وذيتك(٦) فوحقك إذا آنست(٧) من يدى مالاً ، أو من قدمى كَلَلاً(٨) لنجزتها(٩) البتات(١٠) وكلت بنقضها الذات ، ولو أنى آنست من الزاد فترة(١١) أو من الشراب عُشْرة ، لطعمت الطوى(١٢) واستقيت الجوى(١٣) فكيف أداعب(١٤) وتصاعب ؟ وأُحالف وتخالف ؟ وأُواصل وتفاصل ؟ وأُجالب وتجانب ؟ لبئست مطيتك التى اقتدعت(١٥) وشرعتك(١٦) التى شرعت(١٧) . فوالله لولا أن الحب حادث لايتقى بالتروس ، ومعنى لايدب إلا فى النفوس ، وسهامٌ لاترمى إلا من قسى الحواجب ، ونحو أوله المعية وآخره الجوازم ، لما افترست الظباءُ الأُسود الصيد(١٨) ولا ملكت الأَحرار العبيد . ولولا أنى كَرَعْت(١٩) من صابه(٢٠) ، والتحفت ببردة أوصابه(٢١) لتعوذت منك بسورة الفلق ، ونبذتك(٢٢) نبذ الرداء الْخَلِق(٢٣) ، ولهان على أن أدعك أو أسمعك .

(١) الصاحب (٢) وجدتك (٣) أعرضت (٤) كلاهما بمعنى ساعدتك (٥) المرأة التى فى البيت (٦) كلاهما بمعنى كذا وكذا والمراد أنى لست رهين قولك : افعل كذا وكذا (٧) علمت (٨) اعياء وضعفا (٩) قضيتها (١٠) القطع المستأصل (١١) ضعفا وقلة (١٢) الجوع (١٣) الحرقة (١٤) أمازح (١٥) دفعت (١٦) مكان الماء (١٧) دخلت (١٨) المترفعة (١٩) بكسر الراء وفتحها شربت بفمى (٢٠) مائه المر وأصله عصارة شجر مر (٢١) أمراضه (٢٢) رميتك (٢٣) القديم البالى .

تمرّون على الديار ولن تعوجوا   كلامكم علىَّ إذًا حرامُ(١)

غير أن لى نفسًا شبَّت على الحب فلم أفطمها وتقادعت(٢) ناره فلم أعصمها ، حتى بلغ السيل الزبى (٣) وتبددت (٤) النفس أيدى سبا (٥) إلا حُشاشة غفل عنها الوجد ، وبقية رمق ألفيتها (٦) من بعد . وكلما رأيت منك الشطط (٧) واعتساف (٨) الخطط (٩) عمدت إلى أن أثنى (١٠) من رسنها (١١) وأذود (١٢) عن عطنها (١٣) وشخصت إلى المكافحة والمكافأة . وأن لا أكيلك إلا مثلا ، ولا أسقيك إلا وَشَلا (١٤) ولا أزيدك إلا فشلا :

ولست أجزيك الجزاء الذى   على وَفَاءِ الصنع لا بخسه

وَليس يبكى صاحبًا من إذا   أُهين لا يبكى عَلَى نفسه

عَلَى أنى بالرغم أصبح فى نهار أحلك (١٥) من ليل ، وَأمسى فى ليل أشق عَلَى النفس من وَيل :

وَليل كموج البحر أَرْخَى سُدُوله (١٦)   عَلَىَّ بأَنواع الهموم لِتَبْتَلى (١٧)

فإن تخلصت من لقائك فإلى الشقاء ، وَإذا لجأت من عسفك فإلى العناء ، وإذا استجرت بفراقك ، فقد استجرت من الرمضا (١٨) ، وكأنك لم تدر أن دولة الحسن سريعة التقويض (١٩) وأنه لابد من هبوط القمر إلى الحضيض ولسوف تبلى

---

(١) لن تقيموا (٢) تسابقت (٣) مثل يضرب لما جاوز الحد (٤) ذهبت (٥) هو مثل يقال ، وتبددوا أيدى سبا معناه ذهبوا متفرقين ، وأصله فى الذين ذهبت جناتهم وغرق مكانهم وقد ذكرهم الله فى القرآن قال « لقد كان لسبأ » الى آخر الآيات (٦) وجدتهم (٧) يجاوز الحد (٨) الميل عن الطريق المألوف (٩) الامور (١٠) أرد (١١) زمامها (١٢) أمنع (١٣) مكانها (١٤) الماء القليل فى هذا الموضع والماء الكثير فى غيره (١٥) أشد سوادا (١٦) أستاره (١٧) لتختبرنى (١٨) الارض الحارة (١٩) التفرق .

بعارض(١) بيد(٢) أنه غير ممطر ، وبساعة مقبالك فيها مدبر ، وَستصبح عما قريب قد عفت(٣) رسومك(٤) ، وَلم تجد فى سوق الصحبة من يسومك . وَالعاقل من لايختال بنفسه ، ولا يبنى على غير أُسِّه(٥) فإنك مانضت(٦) لؤلؤة مبسمك ، وَلا نضرت(٧) صورة معصمك(٨) ، وَلاشئت فخلقت كما تشاء ، وَلا اتخذت عندالله عهدًا وهذا الوفاء . ولكن مثالك من أفرغه الله فى القالب الذى اختار ، وجعله مرتع النفوس ومسرح الأَبصار ، وإنى أَيها العزيز قد تقدمت إليك :

ولى أَمل قطعتُ به الليالى أَرانى قد فنيت به وَداما

فلا تحرمنى من سائغ العفو وسابغه ، ولا تجعلنى كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه :

فأَشد ما لقيت من أَلم الجَوَى(٩) قرب الحبيب وما إليه وُصولُ
كالعيس(١٠) فى البيداء يقتلها الظما(١١) والماءُ فوق ظهورها محمولُ

فاعمل فى يومك لغدك ، واستجزْ غيرك ببسط يدك ، ولا تأخذنى بجرم الجانى المتلبس ، ولا تبتغ منى صحيفة المتلمس(١٢) بَيْدَ أَنى أنشدك الذى بلى العاشق بالمعشوق وكلفه فى الحب بيض الأَنوق(١٣) وسهد(١٤) طرفه بنواعس العيون ، وخَوَّلَ(١٥) للحسن إذا أَراد شيئًا أَن يقول له كن فيكون ، كما قرَنَ الهوَى بالنوى(١٦) ، والقلب بالجوى(١٧) وقضى على المحب ، ونشر العشق فلم يحتجب ، ما الذى أَغرى بك إلى الاعتساف وعدم الإنصاف ؟

---

(١) السحاب الذى يعترض فى الافق (٢) غير أنه (٣) درست وذهبت (٤) آثارك (٥) أساسه (٦) ما ظهرت (٧) ولا حسنت (٨) موضع السوار من اليد (٩) الحزن (١٠) الابل البيض يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية (١١) العطش (١٢) الطالب مرة بعد أخرى (١٣) الانوق العقاب ، ولفظ المثل : هو أعز من بيض الأنــوق . وهو مثل يضرب للمحال أو لما لا سبيل اليه (١٤) أسهره (١٥) ملكه (١٦) البعد (١٧) الحرقة .

أَلينُ الأَعطاف ؟ أَم فُتُور(١) الأَجفان ؟ أَم تكسُّر الكلام ؟ أَم هيف القوام ؟ لقد شددت أَزرك(٢) ـ والله ـ بضعاف ، واستسمنت تلك العجاف ، وهل حدا(٣) إلى قطيعتى بك أنى خشن الملمس ، رَثّ الملبس ؟ ولم أُمْنح(٤) كما مُنِحت نضرة ، ولم ألبس برقع البياض والحمرة ؟ ! فاعلم أنك إن بدرتنى بعين الرضا(٥) ، ورحمت فؤادًا يتقلب منك على جمر الغضا(٦) فستجدنى صديقك الذى لا يبطره الوفاءُ ، ولا يُثنيه الجفاءُ ، أَملكُ لك من لسان ، وأَطوع لأَمرك من بنان .

أَكتُبُ ، فأَين لعبد الحميد الكاتب قلمى ، وَأَشْعِرُ ، فأَين الشعراءُ إلا تحت علمى ؟ وأَبذُلُ ، فأَين حاتمُ(٧) من كرمى ؟ وأَحْلم ، فأَين الأَحنف ابن قيس(٨) من حلمى ؟

ومن يحتمل فى الحب ما فوق كاهلى فحسبُك حلمًا أَن يقيم على الهجرِ(٩)

فإن أَصَخْتَ (١٠) إلى الداعية (١١) وَوَعيتَ كلمات لا تسمع فيها لاغية (١٢) ، إليك الجزاء وعلىَّ الوفاء ، وإلا فالفرَار إلى الموت أَمْرٌ يسير والقبر للعشاق قليل مِنْ كثير .

وكتب مُعاوية إلى ابنه يزيد يؤنبه :

أَما بعد ، فقد أَدت أَلسنة التصريح إلى أُذن العناية بك ، مافَجع الأَمل فيك وباعد الرَّجاءَ منك ، إذ ملأت العيون بهجة والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمال

---

(١) ذبولها (٢) ظهرك (٣) ساق الى (٤) أعطى (٥) حسنا (٦) شجر خشبه فيه صلابة (٧) أبو عدى حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى وبه يضرب المثل فى الكرم من شعراء الجاهلية (٨) الاحنف بن قيس يضرب به المثل فى الحلم (٩) مابين الكتفين (١٠) استمعت (١١) مراده به الواشى العاذل (١٢) اللغو من الكلام .

الراغبين ، وهمم المنافسين . فسخت بك فتيان قريش ، وكهول أهلك . فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الْجِرَّة المهَوَّعة(١) والكظ الجشء(٢) . افتحمت البوائق(٣) وانقدت إلى المعاير ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر .

فليتك ـ يزيد ـ إذا كنت لم تكن ، سررت يافعًا ناشئًا وأثقلت كهلًا ضالعًا(٤) ، فوا حزناً عليك يزيد ! ويا حر صدر المثكل بك . ما أشمت فتيان بنى هاشم وأذل فتيان بنى عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟

هيهات ! خمشت(٥) الدربة(٦)وجه التصبر بك ، وأبت الجناية إلاتحدراً على الألسن ! وحلاوة على المناطق ، وما أربح فائدة نالوها وفرصة انتهزوها ! انتبه يزيد للعظة ، وشاور الفكرة ، ولاتكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك ، واعلم أن الذى وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان ، مما حسن قبحه واحلولى عندك مُرّه ، مُر شركك فيه السواد(٧) ونافسكه الأعبد ، فأضعت به من قدرك ، وأمكنت به من نفسك ... فمن لهذا كله ؟ !

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة ، بلغنى أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهى والمزامير كما قال تعالى «أتبنونَ بكل ريع آية تَعْبَثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون(٨) » ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً .

اعلم يا يزيد أن أول سَلَبَكه السكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه

---

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم . والمهوعة : من هوعه أى قيأه وهذا تمثل، أى أنهم يستقلون ذكرك (٢) الكظ : الامتلاء من الطعام ، والجشء : الكثير وهذا تمثيل أيضا (٣) البوائق : جمع بائقة وهى الداهية (٤) الضالع والضليع : القوى (٥) خمش : لطم (٦) الدربة : التجربة (٧) السواد : العامة (٨) تقدم شرح غريب الآية فى خطبة قطرى .

المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهى الجرحة العظمى والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات فى أوقاتها ، وهى من أعظم مايحدث من آفاتها ؛ ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب ، وإظهار العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سرك ، ولاتعقد(١) على فعالك ، فما خير لذة تعقب الندم ، وتعفى(٢) الكرم ، وقدتوقف أمير المومنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكُوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى . وليبلغ أمير المومنين ما يَرُدُّ شارداً من نومه ، فقد أصبح نصب(٣) الاعتزال من كل مُؤانس ودريئة(٤) الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن .

وكتب أعرابى لابنه وسمعه يكذب :

يابنى ، عجبت من الكَذاب المشيد بكَذبه ، وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه . فالآثام له عادة ، والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقًّا لم يُصَدَّق ، وإن أراد خيراً لم يُوَفق ؛ فهو الجانى على نفسه بفعالة ،] والدال على فضيحته بمقاله ، وما صح مِنْ صدقه نسب إلى غيره ، وما صح مِنْ كذب غيره نسب إليه . فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكَذُوب مِنَ المها نة بعض ما يُحْكى عليه

فإذا سمعت بِكذْبَةٍ من غيره نُسِبَتْ إليه

وكتب المرحوم حفنى بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكْرى :

كتابى إلى السيد السند ، ولا أُجَشِّمُهُ(٥) الجواب عنه ! فذلك ما لا أنتظرُهُ منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ، وله الرأْيُ بعد

---

(١) يقول : تفقد بالشراب الارادة والعزيمة (٢) تعفى : تذهب
(٣) النصب هنا : الغرض والهدف (٤) الدريئة : التى يتعلم الرامى الطعن والرمى عليها (٥) لا أكلفه .

ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ، ويحكم عليها أو لها :

قد تنفعُ الذكرى إذا كان هجرهم دلالاً فأمّا إن مَلالا فلا نفعا

زُرْتُ السيد ، ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلَفِى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بَعُدَ ـ والله ـ عهدُ هذا التلاق ، وطال أمدُ الفراق ، وتصَرَّمَ الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان . فسألت عنه ، فقيل لى : إنه خرج لتشييع(١) زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أَعُدُّ اللحظات وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صَحْنُ الدار ، وظهر الاستبشارُ فى وجوه الزُّوَّار ، وجاءَ السيد فى موكبه ، وجلالة محتده(٢) ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينمنا(٣) بكماله . فمرَّ يتعرَّف وُجُوه القوم حتى حازانى ، وكَبُرَ فى عينه أن يرانى ، فغادرنى(٤) ومَنْ على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجَرَّ السَّلام الكلام ، وتكَرَّر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى أنى فى دارى ، وأُظهرُ للناس أن شدة الأُلفة ، تُسْقِطُ الكلفَة . ومرَّ السيِّد بعد ذلك من أمامى ثلاث مرات ، ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات :

تمرون على الديار ولن تَعُوجُوا كلامكم علىَّ إذن حَرَامُ

وكُنت أَظُن أَنَّ مكانتى عند السَّيد لاتنكَر ، وأَنَّ عهدى لديه لايُخْفَرُ(٥) فإذا أنا لست فى العير(٦) ولا فى النفير(٧) ، وَغيرى عند السيد كثيرٌ ، وذهاب صَاحب أَوْ أكثر عليه يسير .

وَمَنْ مَدَّتِ العليَا إليه يمينَها فأكبر إنسَان لديه صغير

---

(١) لتوديع (٢) أصله من جهة النسب (٣) تكلمنا بصوت خفى
(٤) تركنى (٥) لا ينقض (٦) الجماعة (٧) الجماعة أيضا .

ولا أَدعى أَنى أَوازى السيد ـ صانه الله ـ فى علوّ حسبه ، أَو أُدانيه فى علمه وأَدبه ، أَو أُقاربه فى مناصبه ورتبه ، أَو أُكاثره فى فضته وذهبه ؛ وإنما أَقول : ينبغى للسيد أَن يميز بين من يزورُه ، لسماع الأَغانى والأَذكار ، وشهود الأَوانى على مائدة الإِفطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأْييد جامعة الإِسلام ، وأَن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد إِجابة لدعوة الإِخلاص ، وأَن لايشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص (١) الشوارد(٢) بنقباءِ الموالد ، وَرُوادِ الطرف(٣) ، بأَرباب الحرف :

فما كل من لقيتَ صاحبَ حاجة ولا كل من قابلت سائلك العُرْفَا(٤)

فإِن حَسُنَ عند السيد أَن يغضى عن بعض الأَجناس ، فلا يحسن أَن يغضىَ عن جميع الناس ، وإِلا فلماذا يطوف على الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ويتخطى(٥) الرقاب «لصَرُّوف»(٦) ، ويخترق لأَجله الصفوف؟ فإِن زعم السيد أَنه أَعلم بتصريف الأَقلام ، فليس بأَقدم هجرة فى الإِسلام ، وإِن رأَى أَنه أَقدر منى على إِطرائه(٧) ، فليس بممكن أَن يتخذه منْ أَوليائه !

ولا أَرُومُ بحمد الله منزلة غيرى أَحق بها منى إِذا راما

وإِنما أَصون نفسى عن المهانة والضعة ، وأَن أُعرضها للضيق وَفى الدنيا سعة :

وَأُكْرم نفسى إِننى إِن أَهنتها وَحَقك لا تكْرم علَى أَحد بعدى

فلا يُصَعِّر (٨) السيد من خده ، فقد رضيتُ بما أَلزمنى مِنْ بعده ، وَلا يَغُضُّ عنى عينه(٩) ، فهذا فراق بينى وَبينه ، وَليتخذنى صَاحبًا مِنْ بعيد ، وَلا يكلمنى إِلى يوم الوعيد .

(١) جمع قانص بفتح القاف : الصائد (٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم (٣) جمع طرفة : وهى ما ترى مليحة ، والمراد أهل المراتب العالية (٤) المعروف (٥) يتجاوز (٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى فى آخر يوليه سنة ١٩٢٧ م وهو احد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية (٧) الثناء عليه (٨) لا يميل خده كبرا وخيلاء (٩) لا يغمض .

كِلَانَا غنِيٌّ عنْ أَخيهِ حياته ونحنُ إذا متنا أَشَدُّ تَغَانِيَا

ومنّى على السيد السَّلَام على الدَّوَام ، ومُبارَكٌ إذا لَبِسَ جديدًا ، وكلُّ عام وهو بخير إذا استقبل عيدًا ، ومَرْحى(١) إذا أَصاب ، وشَيَّعته(٢) السلامة إذا غاب ، وقُدُوماً مباركاً إذا آب(٣) ، وبالرِّفَاءِ والبنين(٤) إذا أَعْرَس(٥) ، وبالطالع المسعود إذا أَنجب(٦) ، وَرَحِمَهُ اللّهُ إذا عطس ، ونوم العافية إذا نعَس ، وصَحّ نومه إذا استيقظ ، وهنيئًا إذا شرب ، وما شاءَ اللّه كان إذا رَكِبَ ، ونَعِمَ صباحه إذا انْفَجَرَ الفجر ، وسعد مَسَاؤه إذا أَذَّن العصر ، وبخٍ بخٍ (٧) إذا نثر ، ولا فُضّ(٨) فُوهُ إذا شعرَ(٩) ، وأَجاد وأَفاد إذا خطبَ ، وأَطربَ وأَغْرَبَ إذا كتب ، وإذا حج البيت فحجًّا مبرورًا ، وإذا شيع جنازتى فسعيًا مشكورًا ، والسلام .

وكتب القاضى الفاضل إلى أَخيه عبدالكريم يؤنِّبه على إيذائه علم الدين ابن النحاس :

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأَخ ــ أَصلحه اللّه ! ــ إعلامه ما صح عندى ن الأَحوال التى أَخفاها ، واللّه مبديها ، فى حق عَلَم الدين .

وباللّه أُقسمُ لئن لم تُدَاوِ ماجرحت ، وتستدرك مافعلت ، وتمحُ ما أَثبتَّ ، وتستأنف ضدّ القبيح الذى كتبت به وشافهت ، وتعتذر بالجميل فيما قاطعت اللّه به وبارزت ، ليكوننّ الحديث منّى بغير الكتاب ، ولأُزيلَنّ السبب الذى قدرت به على مضَرّة الأَصحاب ، وما أَشد معرفتى بأَن الطباع لا تتغَيّر ، وبأَنك ستحوجنى بعد هذا الكتاب إلى مالا يتأَخر ، وبالجملة فاستدرك بفعلك لابإيمائك لى وتنصلك إلىّ .

---

(١) كلمة تقال عند الاصابة فى الرمى مدحا للمصيب (٢) ودعته (٣) رجع (٤) كلمة تقال لمن تزوج ومعناه الدعاء بالالتئام وجمع الشمل (٥) تزوج (٦) ولد له (٧) كلمة تقال عند الرضا والاعجاب بالشىء أو عند الفخر والمدح وكررها للمبالغة (٨) لا كسرت أسنانه (٩) قال الشعر .

* فالدَّم فى النَّصْلِ شاهدٌ عجب *

وويل لمن كانت غنيمته من الأَيام عقد القلوب على البغضاء ، وإطلاق الأَلسنة بالمذام ، ولولا أَنى شريكك فى كل ما تستوجبه من الناس ، لأَلقيت حبلك على غاربك وتركتك وما اخترت لنفسك ، ولكن كيف بمن يرمى وليس برام ؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير منِّى ، فإذا أَنت لا تنفق إلا من كيسى ، فأَشفق على نفسك ، إن كنت تنظر فى غد ، وعلى بيتك إن كنت تنظر فى أَمس ، وعلى مكانك منِّى إن كنت لا ننظر إلا فى اليوم ، ولا تجاوبنى إلا بلسان الرجل شاكرًا لك ، فإنه وإن كان ــ والله ــ ما ذمك فقد ذممتك به عنه . وما أَظن أَنك تذكر أَنى كتبت إليك كتاباً ، ولا كُنت أُوثره ، ولولا حافظ غليظ ما كتبته ، ولولا علمى أَن الكثير مما قيل عنك فى أَمر الرجل هو القليل مما فعلته ، لأَضربت عن هذا كما أَضربتُ عن غيره ، وستعرفك الأَيام ما كُنت تجهل .

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف حليلتك عن مقلتك ، والسلام .

الفصل السادس : فى رسائل الشكوى

كتب الأَمير أَبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

إنما أَشكو إليك زماناً سلب ضِعْف ما وهب ، وفَجَّع بأَكثر مما مَتّع ، وأَوحش فوق ما آنس ، وعنف فى نزع ما أَلبس ؛ فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جَرَّعنا مرارة الفراق ، ولم يُمتعنا بأُنس الالتقاء ، حتى غادرنا(١) رهن التلف ، والاشتياق .

والحمد لله تعالى على كل حال يسوء ويسر ، ويحلو ويمر ، ولا أيأس من روح(٢)

(١) تركنا (٢) من رحمة الله .

الله فى إباحة صنع(١) يجعل ربعه(٢) مُناخى(٣) ، ويقصر مدة البعاد والتراخى ، فأُلاحظ الزمان بعين راض ، ويقبل إلىَّ حظى بعد إعراض ، وأستأنف(٤) بعزته عيشاً عذب الموارد(٥) والمناهل(٦) ، مأمون الآفات والغوائل(٧) .

وكتب عبد الحميد بن يحيى المقتول سنة ١٣٢ هـ إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان(٨) :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته(٩) بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها .

وقد كانت أذاقتنا أفاويق(١٠) استحليناها ، ثم جمحت(١١) بنا نافرة ، ورمحتنا(١٢) مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا من الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة(١٣) ، والطير بارحة(١٤) ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجدا ، فإن تتمّ البليَّة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفرٌ جارح مِن أَظفار من يليكم ، نرجع إليكم بِذل الإسار (١٥) ، والذلُّ شَرُّ جار .

(١) المعروف (٢) دار (٣) مكان النوم ومراده أنه لا ييأس من معروف يحظى به مدة حياته (٤) أجدد (٥) أمكنه اتيان الماء (٦) المواضع التى فيها والمراد أنه يجدد عيشا هنيئا لا حزن معه (٧) الدواهى (٨) هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبى العاص الاموى آخر ملوك بنى أمية المعروف بالجعدى قتل سنة ١٣٢ هـ (٩) كناية عن تسلطها عليه بنوائبها ومصائبها (١٠) ألبانها والمراد نعيمها وخيراتها (١١) اسرعت غالبة ايانا (١٢) طعنتنا برمحها والمراد مصائبها (١٣) بعيدة (١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين الى الشمال والعرب تتشاءم به ، وذلك أنه كان من عاداتهم اذا أرادوا أمرا عمدوا الى الطير فأطاروها فان طارت شمالا يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات وان طارت يمينا تفاءلوا باليمين ومضوا فى أمرهم وتسمى سانحات (١٥) الاسر هو القبض على الرجل وأخذه أسيرا .

نسأل الله الذى يُعز من يشاءُ ويذل من يشاءُ أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأَبدان ، والأَديان ، فإنه ربّ العالمين ، وأَرحم الرَّاحمين .

وكتب أُستاذنا الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وهو مسجون بسبب الحوادث العرابية :

تقلَّدَتنى اللَّيالى وهى مُدْبِرَةٌ   كأَننى صَارِمٌ فى كفِّ مُنْهَزِمِ

عزيزى (هذه حالتى) اشتدَّ ظلام الفتن حتىتجسَّم بل تحَجَّر ، فأَخذت صخوره من مركز(١) الأَرض إلىالمحيط.(٢) الأَعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت إلى القطبين(٣) ، فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها ، وامتدت على المواد الحيوانية أَو الإنسانية ، فأَصبحت قلوب الثقلين (٤) كالحجارة أَو أَشد قسوة ، فتبارك الله أَقدر الخالقين ، انتثرت نجوم الهدى وَتَدَهْوَرَتْ (٥) الشموس والأَقمار ، وتَغَيَّبت الثوابت النيرة ، وفرّ كل مضىءٍ منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأَفلاك دورة العكس ذاهبة بنيِّرَاتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ؛ فولى معهُ آلهة الخير أَجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشرّ فقلبوا الطباع ، وبَدّلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين .

رأَيت نفسى اليوم فى مَهْمَه (٦) لا يأتى البصر على أَطرافه . فى ليلة

(١) وسط دائرتها (٢) الدائرة المحيطةبالكرة الارضية (٣) الشمالى والجنوبى وهما طرفا محور الارض والمحور هو القطر الوهمى الذى تدور عليه الارض من المغرب الى المشرق أثناء حركتها .

(٤) الانس والجن (٥) أدبرت (٦) مفازة واسعة .

داجية (١) غُطِّىَ فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف(٢) رُكَامًا رُكَامًا (٣) لاأرى إنساناً ! ولاأسمع ناطقًا ! ولاأتوهم مجيبًا ! أَسمع ذئاباً تعوى ! وسباعاً تزأر !(٤) وكلاباً تنبح !(٥) كلها يطلب فريسة واحدة ، هى ذات الكاتب ، والتَفَّ على رجلى تِنِّينان(٦) عظيمان ، وقد خَوِيَتْ(٧) بطون الكلّ ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين .

تقَطَّع الأَمل ، وانفصمت(٨) عروة الرَّجَاءِ ، وانحلت الثقة بالأَولياء ، وضلَّ الاعتقاد بالأَصفياءُ ، وبطل القول بإجابة الدعاءِ ، وانفطر(٩) من صدمة الباطل كَبِدُ السماءِ ، وحقت على أَهل الأَرض لعنة الله والملائكة والأَنبياء وجميع العالمين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض(١٠) ماءُ الوفاءِ ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبُدِّلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم(١١) ، وخشونة تنفذ (تلك سنة القدر) واللهُ لا يهدى كيد الخائنين .

ذهب ذوُو السلطة فى بُحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أَصداف من الشُّبَهِ ، ومقذوفات مِن التهم ، وسواقط من اللمم(١٢) ليُمَوِّهُوها (١٣) بمياه السفسطة ويغشوها بأَغشية من معادن القوة ، ليبرزوها فى معرض السطوة ويغشوا بها أَعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أَو

(١) مظلمة (٢) كثر وتراكم (٣) السحاب المتراكم (٤) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٥) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٦) تثنية تنين وهو الحية العظيمة (٧) خلت (٨) انقطعت (٩) انشق (١٠) ذهب (١١) يتحرك ويشتد (١٢) المتقارب من الذنوب ، واللمم أيضا طرف من الجنون (١٣) من التمويه وهو التلبيس .

لمستور يكشفونه ، أو لحق خَفِىٍّ فيظهرُونه ، أو خَرْق بدا فيرقعونه ، أو نظام فاسد فيُصْلحونه ! كلّا ، بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوا غيرُ مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أعواناً من حلفاءِ الدناءَة ، وأعداءِ المروءَة ، وفاسدى الأَخلاق ، وخبثاءِ الأَعراق(١) ، رضوا لأَنفسهم قول الزور ، وافتراءِ البهتان ، واختلاق الإِفك(٢) ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوَّة من الأَباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين .

كل ذلك لم تأْخذنى فيه دهشة ، ولم تحل قلبى وحشة ، بل أَنا على أَتم أَوصافى التى تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أَو يبرمه القضاءُ ، عالماً بأَن كل ما يسوقه القدر ، وما ساقه من البلاءِ فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحقّ فيه ، لأَن الله تعالى يعلم كما أَنت تعلم أَننى برىءٌ من كل ما رمونى به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعبًا ، وكنت من الضاحكين .

نعم خنقنى الغم ، وأَحمى فؤادى الهم ، وفارقنى النوم ليلة كاملة عندما رأَيتُ اسمك الكريم ، واسم بقية الأَبناءِ والإِخوان ، تنسب إليهم أَعمال لم تكن ، وأَقوال لم تصدر عنهم ، لقصد زجِّهم فى المسجونين .

لكن اطمأَن قلبى ، وسكن جأْشى(٣) عندما رأَيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أَن الحكومة لم تُرِد أَن تفتح باباً لا يذر(٤) الأَحياءَ ولا المَيِّتين .

قدّم فلان وفلان تقريرين ، جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنق ولم يتركا شيئًا من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أَسماءَكم فى أُمور أَنتم جميعًا أَبعد الناس عنها ، لكن لاحرج عليهما ، فإِنى أَراهما من المجانين ، ولم أَتعجب من

(١) الاخلاق (٢) الكذب (٣) اضطرا بالقلب عند الفزع
(٤) لا يدع ولا يترك .

هذين الشيخين إذ يعملان مثل ذلك الذَّنب القبيح ، ويرتكبان هذا الْجُرْم الشنيع ! ولكن أَخذنى العجب ـ كلُّ العجب غاية العجبُ بالغ ما شئت فى عجبى ـ إذ أَخبرنى المدافع عنِّى بتقرير قدمه فلان ، الذى أَرسلت إليه السلام ، وأَبلغته سرورى عند ماسمعت باستخدامه ، وأَنا فى هذا الحبس رهينَ .

إلى هذا الوقت لم يصلنى التقرير ، ولكن سيصل إلَّ ، إنما فيما بلغنى أَنه شهادة بأَقبح شيءٍ ، لا يشهد به إلا عدوٌّ مبين .

هذا اللئيم الذى كُنْت أَظن أَنه يأْلم لأَلمى ، ويأْخذه الأَسف لحالى ، ويبذل وُسْعه إن أَمكنه فى المدافعة عنِّى ! فكم قدمتُ له نفعًا ، ورفعتُ له ذكرًا ، وجعلتُ له منزلة فى قلوب الحاكمين ! كم سمعنى أَقاوم هجاءَ الجرائد ؟ ! وأُوسع محرريها لوماً وتقريعًا ؟ وأَهزأُ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عَلَيَّ فى بعض أَفكارى هذه من اللائمين ! كان ينسبُ فلاناً لسوءِ القصد اتباعاً لرأْى فلان ، وأُعارضه أَشد المعارضة .

ثم لم أَنقض له عهدًا ، ولم أَبخس له وُدًّا ، وحقيقة كنت مسرورًا لوجوده موظفاً ، فما باله أَصبح من الناكثين ؟ !

آه ما أَطيب هذا القلب الذى يُملى هذه الأَحْرُف ! ما أَشدّ حفظه للولاءِ ، ما أَغْيَرُه على حقوق الأَولياءِ ! ما أَثبته على الوفاءِ ! ما أَرَقَّهُ على الضعفاءِ ! ما أَشد اهتمامه بشئون الأَصدقاءِ ! ما أَعظم أَسفه لمصائب مَنْ بينهم وبينه أَدنى مودَّة وإن كانوا فيها غير صادقين ! ما أَبعدهذا القلب من الإيذاءِ ولو للأَعداءِ ! ما أَشَدَّه محافظة على العهد ! ما أَعظم حذره مِنْ كل ما تُوبخ عليه الذمم الطاهرة ! ما أَقواه على العمل الحق ، والقول الحق لا يطلب عليه جزاءً ! وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين ؟ !

هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذى سرَّ قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم ، ولطَّف خواطرهم بحُسْن المُعَاملة ، وَشَرَحَ صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً خصوصاً هذا اللئيم !

أفنشرحُ الصدور وهم يُحْرِجُون ؟ ونشفى القلوب وهم يُؤلمون ؟ ونفرحها وهم يحزنون ؟ تالله قد أضلوا وما كانوا مُهْتدين . هذا القلب ذَابَ مُعْظَمُه من الأسف على ما يَلُمُّ بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأُ عنها من فساد الطباع الذى يجعل العموم فى قلق مستديم ، وما بَقِىَ من هذا القلب فهو فى خوف على من يعرفهم على عهد مودَّته ، فإن تسللوا جميعًا بمثل هذه الأعمال أصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يُعَرِّضُونه لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تَفْوِيقها إليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهما يصيبون به أغراضهم فينالون منها حظوظَهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين .

آه ! ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شؤون الأحبة وإن جاروا فى تصرفهم .

إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخزّ إذا اتصل بذى الوُدُّ وإن كان خشنًا ، فَصَعْبٌ أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب فى علاقة مع الأوداء كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيماوىّ يدقق ، لايجد للتحليل بينها سبيلاً . وأظنك فى العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

وكتب المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم (١) إلى الأُستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

كتابى إلى سيدى : وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل (٢) ، ومن

(١) يشكو اليه حاله وهو ضابط بالسودان .
(٢) عين فى الجنة وهو الشراب السهل فى الحلق .

تيهى(١) به ، فوق النَّثْرَة(٢) والإكليل(٣) وقد تعجلتُ السرور ، وتسلقتُ الْحُبُور(٤) ، وقطعتُ ما بينى وبين النوائب :

وَبَشَّرْتُ أَهلى بالذى قد سمعتُهُ فما محنَتى(٥) إلا ليال قلائل
وقلتُ لهم : للشيخ فينا مشيئة فليْسَ لنا من دهرنا ما نُنَازِل(٦)

وجمعت فيه بين ثقة الزُّبيدىِّ(٧) بالصَّمْصَامة(٨) والحارث بالنعامة(٩) ، فلم أَقل فيه ما قال الهذَلى (١٠) لصاحبه ، حين نسى وعدهُ(١١) وحجب رفدهُ(١٢) :

«يادارَ عاتكة التى أَتَغَزَّلُ» بل أُناديه نداءَ الأَخيذةِ(١٣) فى عَمُورِية(١٤) ، شجاع الدولة العباسية ، وَأَمُدُّ صوتى بذكر إحسانه ، مدَّ المؤذن صَوْتهُ فى أَذانه وأَعتمدُ عليه فى البُعد وَالقُرْب ، اعتماد الملَّاح(١٥) على نجمة القطب(١٦) :

وَقالَ : أُصيحابى هالنى النوى(١٧) وهالهم أَمْرِى متى أَنت قافل(١٨)
فقلتُ : إذَا شاءَ الإِمَامُ فأَوْبتى(١٩) قريبٌ وَرَبعى(٢٠) بالسعادة آهل

---

(١) عجبى (٢) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب (٣) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة (٤) الفرع ومعنى تسلق : تسور أى أتى الفرع من غير بابه ويروى تسلفت بالفاء (٥) محنتى : بليتى (٦) نضارب لان الشيخ كفانا صدمات الدهر (٧) أبو ربيعة عمرو بن معدى كرب ينتهى نسبه الى قحطان صحابى من شجعان الجاهلية والاسلام وزبيدى نسبة الى زبيد بضم الزاى قوم من اليمن (٨) اسم سيف عمرو (٩) اسم فرس للحارث بن عباد البكرى شيخ من العرب (١٠) نديم الخليفة أبى جعفر المنصورى العباسى كان لا يكلم الخليفة الا جوابا (١١) وعده ولم يوف ولما مرا على دار عاتكة بنت عوف قال الهذلى هذه دار عاتكة التى قال فيها الشاعر ـ يادار عاتكة الخ فعجب الخليفة كيف بدأه بالكلام على غير عادة ثم نظر الملك فى قصيدة الشاعر فوجد فيها «وأراك تفعل ما تقول» فتذكر الخليفة الوعد (١٢) عطاء (١٣) الاسيرة ويريد بها امرأة من بنى هاشم أسرها الروم فنادت وامعتصماه تعنى المعتصم من خلفاء بنى العباس فوصل الخبر الى المعتصم فقال: لبيك! لبيك ! وهم فحاربهم وخلصها (١٤) بلدة من بلاد الروم (١٥) صاحب السفينة (١٦) كوكب فى السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه ينظر اليه صاحب السفينة فيعرف الجهة التى هو قاصدها (١٧) العبد (١٨) راجع (١٩) رجعتى (٢٠) دارى ■

وها أَنا متماسكٌ حتى تنحسر(١) هذه الغمرَةُ(٢) ، وينطوى أَجلُ تلك الفترة(٣) ، وينظر إِلَىَّ سيِّدى نظرةً ترفعنى من ذات(٤) الصدع(٥) إلى ذات(٦) الرّجع(٧) ، وتردّنى إلى وكرى(٨) الذى فيه دَرَجْت(٩) ، ردَّ الشمس قطرة المزن(١٠) إلى أَصلها ، وردَّ الوفى الأَمانة إلى أَهلها :

فإن شاءَ فالقُرْبُ الذى قد رجوته ... وإن شاءَ فالعز الذى أَنا آمِلُ
وإلا فإنى قَافُ رُؤبة(١١) لم أَزل ... بقيد النَّوَى حتى تغول الغَوَائِلُ

فلقد حللْتُ السُّودان حلولَ الكليمِ (١٢) فى التابوت(١٣) ، والمغاضِب(١٤) فى جَوف الْحُوت ، بين الضِّيق والشدَّة والوحْشَةِ والوحدة ، لا بل حلول الوزير(١٥) فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب بين نارين : نار القيظ(١٦) ونار الغيظ

فناديتُ باسم الشيخ والقيظ جَمْرَةٌ ... تذيب دماغ الضب والعقلُ ذاهل
فَصِرْتُ كأَنى بين رَوْضٍ وَمَنْهَلٍ ... تَهُبُّ الصَّبا فيه وتشدو البلابل

واليوم أَكتب إليه وقد قعدت همة النجمين ، وقصرت يدا الجديدين(١٧) عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد ، فلقد نمى ضِبُّ(١٨) ضغنه(١٩) علىَّ ، وبدرت(٢٠) بوادر(٢١) السوءِ منه إلَىَّ ، فأَصبحتُ كما سرّ العدوّ وساءَ الحميم(٢٢) وآلامى كأَنها جلود أَهل الجحيم ، كلما نضجَ منها أَديمٌ تجددَ أَديم(٢٣) وأَمسيتُ وَمُلك آمالى إلى الزوال ، أَسرع مِنْ أَثر الشِّهَاب فى السماءِ ، ودولة صبرى إلى

---

(١) تنكشف (٢) الشدة (٣) يريد المدة بينهما (٤) الارض (٥) الشق (٦) السماء (٧) صوت الرعد (٨) يريد وطنه وأصله عش الطائر (٩) مشيت (١٠) المطر (١١) رجل من العرب كان أكثر روى أراجيزه على القاف الساكنة (١٢) سيدنا موسى عليه السلام (١٣) الذى وضعته أمه فيه وألقته فى البحر (١٤) سيدنا يونس بن متى عليه السلام (١٥) محمد الزيات وزير الخليفة مروان الحمار أدخله تنور العذاب الذى اصطنعه لتعذيب من يأمر بتعذيبه (١٦) شدة الحر (١٧) الليل والنهار (١٨) بكسر الضاد الفيظ (١٩) حقده (٢٠) أسرعت (٢١) جمع بادرة الحدة عند الغضب (٢٢) القريب الذى يهتم لامره (٢٣) الجلد .

الاضمحلال ، أَحثُّ(١) من حبابِ(٢) الماء ، فنظرتُ فى وجوه تلك العباد ، وإنى لفارسُ العين والفؤاد ، فلم تقف فِرَاسَتى على غير بابك .

وإنى أهديكَ سلاماً لو امتزج بالسَّحَاب ، واختلطَ منهُ باللعاب ، لأَصبحتْ تتهادى(٣) بقطره الأَكَاسِرَة(٤) ، وأَمستْ تدخر معهُ الرُّهْبان فى الأَديرَة ، ولأَغنى ذات الحجاب عن الغالية(٥) والملاب(٦) .

ولا بِدْع إذا جاد السيد بالردِّ ، فقد يُرى وجه المليك فى المرآة ، وخيال القمر فى الإِضاءَة ، وإن حال حائلٌ ، دون أُمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا ييأَسُ من غدك ، فأَنت خيْرُ ما تكون حين لا تظنُّ نفْسٌ بنفس خيراً ، والسلام .

الفصل السابع : فى رسائل العيادة

كتب ابن الرُّومى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم :

أَذِن الله فى شفائك ، وتلقى داءَك بدوائك ، ومسحَ بيد العافية عليك ، ووَجه وفد السلامة إليك ، وجعل عِلَّتك ماحيةً لذُنُوبك مضاعفة لِثَوَابك .

وكتب أَبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

وصل كتابك ياسيِّدى ، فسرنى نظرى إليه ، ثم غمَّنِى اطِّلاعى عليه ، لما تَضَمَّنَهُ مِنْ ذِكْر عِلَّتك ، جعلَ الله أَولها كفارةً ، وآخرها عافيةً ، ولا أَعدمك على الأُولى أَجراً ، وعلى الأُخرى شُكراً .

وبودى لو قَرُب عَلَيَّ متناولُ عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعضَ أَعباءِ(٧) علتك ، فلقد خَصَّنى من هذه العلة قسمٌ كَقسمك ، ومرض قلبى فيك لمرض جسمك ، وَأَظُنُّ أَنى لو لقيتك عليلاً لانصرفت عنك ، وأَنا أَعلُّ منك فإنى بحمد الله جلدٌ(٨) على أَوجاع أَعضائى ، غير جلد على أَوْجاع أَصدقائى ، شفاك الله وعافاك .

---

(١) أسرع (٢) ما يرى على وجه الماء من الفقاقيع (٣) تجعله هدية (٤) الملوك (٥) الطيب (٦) الزعفران (٧) جمع عبء (٨) شديد .

الفصل الثامن : فى رسائل التهانى

كتب فى التهنئة بميلاد الأولاد أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أهْلاً وسهلاً بعقيلة(١) النساءِ ، وأُم الأَبناءِ ، وجالبةِ الأَصهار ، والأَولاد الأَطهار :

ولو كان النِّسَاءُ كمثل هٰذى لفضلت النِّسَاءُ على الرجالِ
فما التأْنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فَخْرٌ للهلالِ

والله يُعَرِّفُكَ البركة فى مطلعها ، والسعادة بموْقِعها ، فالدنيا مؤنثة ، والناس يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والأَرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماءُ مونثة ، وقد زينت بالكواكب ، وَحُلِّيت بالنجوم الثواقب(٢) ، والنفس مؤنثة ، وهى قِوَام الأَبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأَجسام ، ولا تحرك الأَنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وُعِد المتّقون ، وفيها تنعم المرسلون فهنيئاً هنيئاً ما أُوليت وأَوزعكَ(٣) الله شكر ما أُعطيت ، وأَطال بقاءَك ما عُرِف النسل وبقى الأَبد .

وكَتب بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردى يهنئه بمولود :

حَقًّا لقد أَنجز الإِقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وإِن الشأْن لفيما بعده ، وحبذا الأَصلُ وفرعُه ، وبورك الغيثُ وصوبه(٤) ، وَأَيْنع الرَّوْض ونوره(٥) ، وحبذا سماءٌ أَطلعت فرقدًا ، وغابةٌ(٦) أَبرَزت أَسداً ، وظهرٌ وَافق سنداً ، وَذِكر يبقى أَبدًا ، ومجد يُسمى ولداً ، وَشَرَفٌ لحمة وسدى(٧) :

أَنجب(٨) كُلُّ من وَالديهِ به إِذا نجلاه فنعم ما نَجَلَا

فأَلفياه(٩) شِهَابَ ذكاء ، وَبَدْر علاء .

---

(١) كريمتهن (٢) المضيئات (٣) أقدرك (٤) مطره وهنا كناية عن الولد (٥) زهرة الشجرة وهو كناية عن الولد أيضا (٦) موضع الأسد الذى يألفه والمراد أصوله (٧) كلاهما من لحمة الثوب وسداه وهو كناية عن الصرف ظاهرا وباطنا (٨) ولداه كريما (٩) وجداه .

وَوَجداهُ ابن جلا(١) أَبْيَضَ(٢) يدعى الجفلى(٣)
لمثله أولى فلا إذا النَّدى(٤) احتفلا

وكتب فى التهنئة بالقدوم أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أهَنِّئُ سيِّدى ، وَنَفسى تطيب بما يَسَّرَ الله من قدومه سالماً ، وَأَشْكُرُ الله على ذلك شكرًا دائماً . جعلَ الله قدومك مَقْرُوناً بالخيرَة التامة العامة ، والكفاية الشاملة الكاملة .

غيبة المكارم مقرونةٌ بغيبتك ، وأوبة النعم موصولةٌ بأوبتك ، فوصل الله قدومَك من الكرامة ، بأضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة ، وَهَنَّأك بإيابك وبلَّغك غاية محابك ، مازلتُ بالنِّية معك مسافراً ، وباتصال الذِّكْر والفكر ملاقياً إلى أن جمع شمل سُرُورِى بأوبتك وسكن نافرُ قلبى بعودتك .

وكتب أيضاً فى التهنئة برمضان :

ساق الله إليك سعادة إهلاله ، وَعَرَّفك بركة كماله ، لقَّاك فيه ما ترجوه ورقاك إلى ما تحبُّ فيما يتلوه ، جعلَ الله ما يطول من هذا الصوم مقروناً بأفضل القَبول ، مؤذناً بدرك البغية ونجح المأْمول ، ولا أخلاك من بر مرفوع ، ودعاءٍ مسموع ، قابل الله بالقبول صيامك ، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك ، أعاد الله إلى مولاى أمثاله ، وتقبّلَ فيه أعماله ، وأصلح فى الدين وَالدُّنيا أحْوَالَه وبلغه منها آماله . أَسعد الله مولاى بهذا الشهر ، ووفاه فيه أَجْزَلَ المثُوبة والأَجر .

وكتب أبو الفرج الببغاءُ المتوفى سنة ٣٩٨ هـ تهنئته :

سيِّدى ــ أَيَّدَه الله ! ــ أرفعُ قدراً ، وأَنبهُ ذِكْراً ، وأَعظمُ نبلاً ، وأَشهرُ

---

(١) واضح الامر (٢) نقى العرض شريفا (٣) دعاهم بجماعتهم وعامتهم (٤) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع : أى ، لمثله نصوغ التهانى أولى فلا يحسن أن تصاغ لغيره :

بشرى فقد انجز الاقبال ما وعدا وكوكب المجد فى أفق العلا صعدا

فضلاً ، من أَن نهنئه بولاية ، وإن جَلَّ خطرها وعظم قدرها ، لأَن الواجب تهنئة الأَعمال بفائض عدله ، والرعيَّة بمحمود فعله ، والأَقاليم بآثار رياسته والولايات بسمات سياسته ، فعَرَّفهُ الله يُمن ما تولاه وَرَعَاه فى سائر ما اسْتَرْعَاهُ ، ولا أَخلاه من التوفيق فيما يعانيه ، والتسديد فيما يُبرمه ويمضيه .

وكتب أَستاذنا الشيخ حمزة فتح الله :

أَى جهابذة(١) الكنانة(٢) نُبَّال الجنابة(٣) مياه الإِجَّانة(٤) أَبناءَ تلك اللغى صناديد هذه الوغى ، إِليكم يُسَاقُ هذا الحديث ، فى القديم والحديث ، عن هذا النبأْ العظيم والمجد الصميم ، مالى أَرَى فى لغتنا الشريفة ــ ويعلم أَول النهى أَية من اللغات أَحَقُّ بهذا النبر(٥) أَن يُصْرَف إِليها عند الإِطلاق ــ هُبُوباً غِبَّ خمول ، وتَرَّة(٦) بعد نحول ، ونوراً عقيب أُفول ، ونَوْرا إِثر ذبول ، وَصَباً وراءَ قَبُول ، وعدلا ولا حَيْف(٧) وقوة ولا ضعف ، وما يشاءُ المُطْرى(٨) فى هذا القبيل من العطف ، آمنت بالقدر المقدور والبعث والنشور ، كذلك يحيي الله الموتى .

أَليس رجلٌ وَاحِدٌ أَسفرت(٩) عنه عناية التوفيق ، فأَلقت إِليه المقاليد(١٠) ، بلى(١١) ، ولكنه الواحد الذى يقول فى مثله صاحب بنى ميكال :

والناسُ أَلْفٌ منهُمُ كواحد ‌‌ وَوَاحد كالأَلف إِن أَمْرٌ عنى(١٢)

إِى(١٣) ورب تلك البَنِيّة(١٤) ، بارئْ(١٥) نسيم البرية ، إِنه لرجلُ البلاد ، رجل الحزم والسداد : أَلَمْ نر جَنَانه(١٦) ، وحنانه وبنانه(١٧) وبيانه ، عوامل لهذه اللغة : لغة الفُرْقان(١٨) ، لغة الأَوطان ! لا ــ بل أَمضى من العوامل حتى

---

(١) الحذاق ذوو النقد (٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل (٣) بضم الجيم الترس التى يتقى بها (٤) الاجابة بالكسر اناء تغلى فيه الثياب وما حول الفراس شبه الاحواض والجمع أجاجين (٥) اللقب الرفيع (٦) امتلاء الجسم بالسمن (٧) الظلم والجور (٨) المدح (٩) ظهرت (١٠) المفاتيح (١١) حرف جواب تثبت المنفى (١٢) أهم الناس وأقلهم (١٣) حرف جواب مثل نعم (١٤) بفتح الباء وزن غنية الكعبة (١٥ خالق (١٦) قلبه (١٧) أنامل أصابعه (١٨) لغة القرآن الكريم

ظلت (آدابها) فرائض ، وقد كانت وما بالعهد من قِدَم (نوافل) ومن حُلِيها أَجياد(١) اللهجات عواطل . اللهم إلا بقية تمد ، قد منيت(٢) صُحُفها الأَود(٣) ، ففقدتُ الْجِلْدَ وَالْجَلَدَ(٤) وبعد أن راج سوق الرطانة(٥) ونضب(٦) ماءُ الإِبانة وخبت(٧) أَنوارُ البلاغة ، وَذَوَت(٨) أَنوار(٩) النباغة وكسد البيانُ وقُوِّض(١٠) منه البنيان ، وأَصبحت العربية لُقًى(١١) وبضاعة مُزْجَاة(١٢) ، فأَيهذا اليراع(١٣) لا أَقل من نفثات فى صَوْغ كُلَيمات تقدر هذه النعمة قدرها ، وتمنحها(١٤) شكرها . . .

وَيْحَكَ !(١٥) هُبَّ(١٦)من سِنَتِك(١٧) فى حلية مِقَتِكَ(١٨) ، وانض(١٩) حسامك(٢٠) واشحذ كهامك(٢١) وانثل(٢٢) كِنَانتك(٢٣) واعمل بنانتك(٢٤) وصغ إن استطعت تهانئَ غُرًّا ، بل عقوداً دراً بل أَنجماً زُهْرا ، مُشْتَارا(٢٥) من خلايا ذلك الأَرى(٢٦) الشهى(٢٧) النَّدِى الزكى ، ما جَرَسَت(٢٨) نحلة الشيح(٢٩) والْخُزَامى(٣٠) وأَطايب الثمار ، وأَزاهى الأَزهار تهدين أَولئك المصانعُ(٣١) شكراناً لتلك النعم تجميعاً لشواردها وتقييدا لأَوَابدها(٣٢) .

---

(١) الاعناق (٢) اختبرت (٣) الاود الكد والتعب ومراده اعتنى الناس بها لا عن بذل جهد (٤) القوة (٥) كل لسان يخالف العربية (٦) غار وذهب (٧) خفيت (٨) ذبلت (٩) جمع نور بالفتح الزهر (١٠) نقض (١١) بالقصر مطروحة (١٢) قليلة (١٣) القلم (١٤) تعطيها (١٥) كلمة رحمة (١٦) استيقظ (١٧) نومك (١٨) محبتك (١٩) سله من غمده (٢٠) السيف القاطع (٢١) شحذه حده ، والكهام بفتح الكاف السيف الكليل (٢٢) استخرج ما فيها من النبال (٢٣) الجراب الذى توضع فيه النبال والسهام (٢٤) أصبعك (٢٥) كثير الشرى (٢٦) العسل (٢٧) ما يشتهى (٢٨) أكلت وأصله جرس الشيء جرسا لحسه بلسانه (٢٩) نبت طيب الرائحة (٣٠) بضم الخاء نبت زهره أطيب الازهار (٣١) جمع مصقع البليغ (٣٢) لغرائبها .

كما شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ، وإشفاقاً عليها من الجماح (١) ، بعد ذلك من الارتياح .

فإليكم بنى هذه اللغة (كتابى هذا) تهنئة بتلك النهضة العربية فى إبَّانٍ – كما تعلمون – وجهه مكفَهِرّ(٢) وبدنه مقشَعِرّ ، وثناء على العزمة (التوفيقية) والعناية (الرياضية) .

على أن لذلك الوزير سوى ذلك أيادِىَ(٣) مبرورة ، ومساعى مشكورة أكسبت الوطن وأهليه نهضات ، وأقالته كثيراً من العثرات .

لكننى آثرت(٤) تلكمُ النهضة العربية بتهنئتكم بها ، أى بنى جلدتى(٥) ، وإخوان حرفتى ، لكونها فيما أخال لا بل فيما أتيقَّنُ ويتيقن أولو الحِجَا(٦) أعظم النهضات وأيمن(٧) ما اجتازه(٨) الوطن من عقبات ، ولو كان فى نطاق الإمكان زيادة البيان فى هذا الشَّأْن ، لأسهبْتُ(٩) وأوسعتُ ، وأطربتُ(١٠) وأطنبت ، ولو لم يكن فى تلك النهضة إلا أن حياة الأُمَّة حياة لُغتها فحسب لكفاكَ وشفاكَ وأغنَاكَ ، وكانَ ذلك قُصَارَاك(١١) وَحُمَادَاك(١٢) .

وكتب المرحوم الأُستاذ محمود بك أبو النصر :

إنسان عين الفضائل ، عزيزى فلان المحترم : نور على نور ، وشفاءٌ لما فى الصدور شفاؤك أيها العزيز من ذلك الرمد . قد أنجز الإقبال ما وعد ، وابتهجت النفوس وتزينت الطروس ، واهتزت الأَقلام وأعلنت بالسلام .

وكيف لا ! وأنت واحد الكُتَّاب وإنسان عين الآداب ؟ ! رمدت فرمدت

---

(١) الذهاب بسرعة (٢) متعبس (٣) نعما من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (٤) اخترت (٥) بنى عشيرتى (٦) العقل (٧) أكثر بركة (٨) سلكه (٩) لاكثرت الكلام (١٠) مدحت (١١) مبلغ جهدك وغايتك (١٢) غاية ما تحمد عليه .

وشفيت فاهتزت وربت . وقد كان طرفها كليلا ، وفؤادُها عليلا . واليوم زال العناءُ ، وحق الهناءُ ووافى الشفاءُ ؛ فكان برداً وسلاماً على القلوب وقميص يوسف فى أجفان يعقوب :

فلك الهناءَ بصحة ميمونة أبداً على مرّ الدُّهور تدُومُ

وإن الله ما قضى بما قد مضى ، إلا ليُعَرِّف سيِّدى ما عانته من القلوب ومنزلته من الفضل . وهذه حال العافية قد خلعت عليك ، وثياب السلامة سبقت إليك فوافى السرور ، وعم الحُبور . واللهُ يبلغك بالصحة والأعمال .منتهى الآمال والسلام .

وكتب الوزير المرحوم عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ فى تهنئة العيد :

هذا يوم نشر البشر فيه أعلامه ، وأضاءت الدنيا وازدانت الآفاق ، ببهجة هذا العيد السعيد ، وأخذ الأَحبة يتهادَوْن رسائل البشائر فيما بينهم ، وكل حزب فرحون بما لديهم ، بما أودع فيهم من روابط المحبة وعوامل الاتحاد السارية فى النفوس ؛ أما أنا فعيدى ، وبهجة نفسى ، وسرور فؤادى دوام إقبال الزمان عليك بوجه النصر وعَوْدُ أعياد السرور على جنابك الرفيع فمثلك تشرق الدنيا بطلعته ، وتفرح الأَعياد برؤيته :

وأرَى الحياة لذيذةً بحياته وأرَى الوجود مشرقاً بوجودِهِ
لو أننى خُيِّرتُ من دهرى المنى لاخترتُ طول بقائه وخلودِهِ

أعاد الله عليك أيها الأَخ أمثاله وأمثال أمثاله فى صفاءٍ وهناءٍ .

الفصل التاسع : فى رسائل التعازى والتأبين

كتب أبو منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

خبر عز علىَّ مستَمعه ، وأثر فى قلبى موقعه . خبر تستاءُ(١) له المسامع وترتج منه الأَضالع ، خبر يهدُّ الرواسى(٢) ويفاق الحجر القاسى . كادت له القلوب تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح(٣) . خبر يشيب الوليد ، ويذيب

(١) تتألم وتتأثر من أجله (٢) الجبال (٣) تهلك .

الحديد ، قد كاد من الحزن أن تنقبض الألسن عن هذا النعى الفادح(١) وتخرس ، وتقصر الأيدى عن التعزية بهذا الرزء الفادح(٢) وتيبس .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس   مصائبه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا   سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن مافى الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى(٣) إذا ساءَ ، ويخص بالنعمة إذا شاءَ . فليكفر الشامت : فإن كان أفلت(٤) فله أن يشمت . ولينظر الإنسان فى الدهر وصروفه ، والموت وصفوفه ، من فاتحة أمرِهِ إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه أثراً فى نفسه ؟ أو لتدبيره عوْناً على تصويره ؟ أم لعمله تقديماً لأَمله ؟ أم لحيله تأخيراً لأَجله ؟ كلا . بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، خُلق مقهوراً ، فهو يحيا جبراً ، ويهلك صبراً ، وليتأمل المرءُ كيف كان قبلاً ؟ ! فإن كان العدم أَصلاً ، والوجود فضلاً ، فليعلم الموت عدلاً .

والموت ــ أطال الله بقاءَ مولاى ــ خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ولعل هذا السهم قد صار آخر ما فى كِنانتها(٥) وأزكى(٦) ما فى خزانتها ، ونحن معاشر التبع نعلم الأَدب من أقواله ، والجميل من أفعاله ، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأَجر ، فليرَ فيهما رأيه .

وكتب أيضاً :

ياسيدى : المصاب لعمر الله كبير ، وأَنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر . والعزاء على الأَعزة رشد كأنه الغىّ ، وقدمات الميت ، فليحى الحىّ .

---

(١) الذى يثقل الناس ويهمهم (٢) المصيبة (٣) يدعو الناس بعامتهم وجماعاتهم (٤) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر (٥) الجراب الذى توضع فيه السهام (٦) أطهر وأنفس لانه لايحرز الا ما كان نفيسا .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٩٠٦ م :

أَشباحٌ تروح وتجيءُ ، وآجال تمسى وتغتدى ، وأَنفاس تتقطع من دونها حزناً وأَسفاً ، وعبرات تتفطر وَجْدًا ولهفاً . وما عمدت الأَقدار إلى استنزاف مدمع ، ولا أَرادت الأَيام إيلام موجع . إنما هى سُنَّة الخلق : كون يليه زوال وعقد يسبقه انحلال . إن لكل شيء أَجلا موقوتاً . وإن لكل أَجل سبباً مقدورًا ، وإن الإِنسان فى كل ذلك شَاهِدٌ يسمع لاهياً ويبصر ساهياً . وليس فى يده أَن يسترد ماضياً ولا أَن يرد آتياً . لقد وَدَدْت أَن أُعزيك ، لولا مَا يُغالبنى على العزاءِ من كبد حرى ، وَمُقْلة شكرى ، وزفرة تترى . ثم وَدَدت أَن أَستبكيك ، لولا أَنى بكيت حتى لم أَدع فى البكاءِ من واد ، وَأَحييت ليالىَّ بالنوح حتى أَلمَّ بى مابالنجم من سهَاد ، ثم لم يزدنى البكاءُ على سقم جسدى ، ولم يزدنى النوح على صفر يدى إلا من كبدى . وإن الأَقدارسهام إذا انطلقت لم ترد ، وإن المتطلع إلى الفائت لطويل شقة الكمد ، وإن الخطوب لهِىَ هى وإنما تتفاوَتُ عند الجلد :

وإن الحَصى عند الْجَزُوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

والله المسئول فى إطالة بقائك قرة للعيون وجبرًا لخاطر المحزون بمنه وكرمه .

تأبين الأَحنف بن قيس(١) :

مات الأَحنفُ بن قيس بالكُوفة فمشى مصعب بن الزبير فى جنازته بغير رداءٍ(٢) . وقال قوم : مات سيد العرب . فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت :

---

(١) اسمه الضحاك وكان سيد تميم فى عهده معروفا بالعقل والدهاء والعلم والحلم الى ثبات جنان وحسن بيان ، وحياته مملوءة بجلائل الاعمال وكريم الفعال توفى سنة ٦٧ هـ (٢) كانت عاداتهم فى جنائز العظماء .

لله دَرّك (١) من مِجَنّ(٢) فى جنن ومُدْرَج فى كفن . فنسأل الذى فَجَعَنا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وأن يوسع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك . فوالله لقد كنت فى المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عطوفاً . ولقد كُنت فى الحىِّ مُسَوَّداً وإلى الخليفة موفداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين .

ثم أَقبلت على الناس فقالت : أَلا إن أَولياءَ الله فى بلاده شهود عبادِهِ وإنى لقائلة حقًّا مُثْنية صدقاً ، وهو أَهل لحسن الثَّنَاء وطيب البقاءِ . أَمَا والذى كنت من أَجله فى عدَّة ومن الحياة إلى مُدَّة ومن المقدار إلى غاية ومن الآثار إلى نهاية ، الذى رفع عملكَ لمَّا قضى أَجلَكَ ، لقد عشت حميداً مودوداً ، ومت سعيداً مفْقوداً(٣) . ثم انصرفت وهىَ تقول :

لله دَرَّك يا أَبا بحر ماذا تغيَّب منك فى القبر
لله درك ! أَىَّ حشو ثرى أَصبحت من عُرْف ومن نكر
إن كانَ دهر فيك جَدَّ لنَا حدثَانَهُ ووهت قوى الصبر(٤)
فلكم يد أَسديتهَا ويد كانت ترد جرائر الدهر

ثم انصرفت . فسئل عنها فإذا هىَ امرأَته وابنة عمه (٥) فقال الناس : ما سمعنا كلام امرأَة قط أَصدق ولا أَبلغ منه .

تأْبين الإسكندر :

لما جُعِل الإسكَندر فى تابوت من ذهب تقدم إليه أَحد الحكماء فقال :

---

(١) الدر : اللبن والعمل ، ولله درك : كلمة تعجب (٢) أجنه : ستره والجنن : القبر ومن بدائع العربية أن مادة (ج ن ن) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين (٣) يقولون مات فلان غير حميد ولا فقيد أى غير مكترث لفقدانه فقولها : مفقودا تريد يحزن الناس فقدك (٤) حدثان الدهر : نوائبه (٥) ذكر صاحب بليغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقروية .

كان الملك يخبأ الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه .

وتقدم إليه آخر والناس يبكون حوله فقال : حَرَّكنا بسكونه .

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملك يعظنا فى حياته وهو اليوم أَوعظ منه أَمس(١) . وتقدم إليه آخر قائلا : قد طوّف الأَرض وتملّكها ثم جُعِلَ منها فى أَربعة أَذرع . ووقف عليه آخر : انظر إلى حلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظل الغمام وقد انجلى . ووقف عليه آخر : مالك لا تُقِلُّ عضواً من أَعضائك وقد كنت تستقلُّ مُلْكَ العباد ؟ !

وقال آخر : مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان ، وقد كنت ترغب بها عن رَحْب البلاد ؟ !

الفصل العاشر : فى رسائل الأجوبة

كتب عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ :

سيِّدى سلَّمك الله وحيَّاك وأَسعدنى برؤية حُمَيَّاك ، وزاد عزَّك وعُلياك وحرس دينك ودنياك ، وجمعنى على بساط المَسَرَّة وإياك ، ولا حرمنى دوام لقياك ولا بَرح مبتسم الثغر بمحاسن معاليك ، مباهياً أَعصار الأَوائل بأَيامك ولياليك محلياً أَجياد المفاخر بزواهر لآليك . ورد علىَّ كتابُكَ الكريم مورد إعزاز وتكريم ، فبَلَّ بعض ما بالجوانح من الصدى ، وأَنعش ولا انتعاش الزهر بمباكرة الندى ، وجلا عَلَىَّ من البلاغة رَوْضاً غَضًّا ، وأَدار لدى صفواً من سُلاف المحبة محضاً ؛ وهزنى هزة النشوان شوقاً وطرباً ، واستفزنى بمعجز آياته الحسان عُجْباً ، وعَجَباً ونشر عَلَىَّ من محاسن لفظك الحر وكلماتِكَ الغرّ ، ما يخجل الدرارى ويفضح الدرّ .

---

(١) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكتب أيضاً وهو بالآستانة فى يوم برد كثير الأمطار :

كتبتُ إليك والأَمطارُ سَاجمة(١) بطَلِّهَا(٢) وَوَبلِهَا(٣) وعساكر البَرْدِ وَالبَرَد هاجمة بخيلهَا وَرَجْلهَا(٤) والسماءُ مُتلفعة بأَذيال السحَاب ، وكأَن الشمس خافت من الطلِّ فتوارت بالحجَاب ، والجو مسكىّ الرداء ، عنبرى الأَرجاءِ ، كأَنه وعليه ثوب الغيم مزرُورٌ ، قد وَجَل(٥) من صولة البرد فلبس فَرْوَةَ السَّموْر والغمام قد أَناخ على الأُفق بكلاكِلِه(٦) ، وهز من البرق بيض مناصله(٧) ، ونَشَرَ فى الجو طرائق مطارفه(٨) ، وجاد على الأَرض بتليده(٩) ، وطَارفه ، وثقلَ على كاهل الهواءِ كالطير بَلَّ جنَاحَهُ بالماءِ ، وَقَرُب حتى كاد يُمسكُ باليدين وَيُعتصر بالراحتين ، أَو كأَنه مرآة مُذَهَّبة تبدو وتخفى ، أَو جَذْوَة(١٠) ملتهبة توقدُ وتُطفى ، والرعد يُهَدِّدُ بزواجِرِ زماجره السحائب فَيُبْكيها ، والطير يتلوى سُطور الندى فى طُرُوس الثرى(١١) فيُمْليهَا ، وَيُطرب بأَفنان(١٢) الأَلحان أَفنَان(١٣) البانِ فَيُعليها ويثنيها ويقرأْ على رؤوس الأَغصَان أَورَادَه الحسان فيقريها ويُرْقيها ، وقوسُ السماءِ يرمى بسهام وَبْلِهِ(١٤) جنوب الشقائق(١٥) فَيُصْميها(١٦) ويُدْمِيها ، والريح تمسحُ أَخْلَافَ(١٧) الغمائم فتُمْريها(١٨) ، وترضعُ بِدَرِّهَا بنات النبات فى جُحُور أَراضيها فتُرْبيها وتَرْبيها ، وترصع بدُرِّها تيجان القضبان ، وتارة تجعله عقودًا فى تراقيها(١٩) ، أَو دموعًا فى مآقيها ، وكأن الحرَّ خاف من بنادق البرد ، ومدافع

---

(١) سائله (٢) الندى (٣) المطر الكثير (٤) المشاة على أرجلهم (٥) خف (٦) بجماعاته (٧) سيوفه (٨) ثياب من خز مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء (٩) المال القديم والطارف ضده والمراد كثر عطره (١٠) بتثليث الجيم الجمرة (١١) الارض (١٢) جمع فنن الغصن (١٣) الاغصان الناعمة (١٤) المطر الكثير (١٥) شقائق النعمان نبت أحمر (١٦) ليرميها ومراده أنه يرويها بالمطر حتى تزهو فتحمر (١٧) جمع خلف بالكسر الضرع (١٨) مرى الناقة يمريها اذا مسح ضرعها لتدر اللبن (١٩) أعناقها .

الرَّعد ، ففرَّ إلى مصر ونواحيها ، وأَصبح نزيل من فيها ، لكرم أَهليها ، وكأَن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفًا ، أَو غلط الناس فى حساب الفُصُول فظنوا شتاها صيفاً .

وكتب حفنى بك ناصف إلى الشيخ على الليثى :

وصل يا مولاى إلى هذا الطَّرَف ، ما خصصت به العبدَ من الطُّرَف « قفص » من عنب كاللؤلؤ فى الصدف ، تتألق عناقيده كأَنها من صناعة « النَّجف » ولعَمْر الحق إنها تحفة من أَحلى التُّحف لا يُعثر على مثلها إلا بطريق الصُّدَف فقابلناه لثماً بالأَفواه ورَشْفاً بالشفاه ، واحتفينا(١) بقدومه كل الاحتفاء ، ولم نفرِّط فى حبَّة عند اللقاء ، بل حللْنَا له الْحُبَى(٢) ، وقلنا أَهلاً وسهلاً ومرحبا ، وأَوسعناهُ عضًّا ولثماً ، وتناولناه تخميشاً(٣) وضمًّا ، وحفظنا فى صدور ناسره المكنون وطويناه فى غُضُون(٤) البطون ، فطربت من تعاطيه الأَرواح ، ولا غَرْو فهو أَصلُ الرَّاح(٥) ، وانتشينا(٦) ولم نحمل وزرًا ، وثملنا(٧) ولم نذق طعماً مُرًّا . فهو كبيان مُهْديه سِحْرٌ ولكنهُ حلال ، ولَعِبٌ إلا أَنه كمال . فإن أَكسبت الشمول شاربها قوة فى الجنَان . ونفحت(٨) ذائقها طلاقة فى اللسان ، فقد سَرَت فى أَجسامنا من حرارته شجاعة « ليثيَّة » ودبت فى كلامنا من مذاقته فصاحةٌ « علوية » وخلُصَت إلينا منه فوائد لا يحيط بها العلم ، ونجمت(٩) عنه منافع ليس يصحبُهَا إثم . فإن زعم الأَولون أَن فى الخمر معنى ليس فى العنب ، فقد تغير الحال فى هذه الهدية وانقلب ، وانكشف للمتأَخرين حقيقة الأَمر أَن فى العنب معنى ليس فى الخمر . وكان الأَحرى بهذا العنب أَن يُناط(١٠) بالنُّحور أَو تُزين به الصدور ، فما هو إلا اللؤلؤ لكنه سَلِم من سجن البحَار ، وما هو إلا الدُّرّ لكن ليس فيه صغار(١١) .

(١) بالغنا فى اكرامه وأظهرنا الفرح والسرور (٢) الحبال (٣) المغازلة والملاعبة (٤) طيات البطون (٥) الخمرة (٦) شكرنا (٧) سكرنا أيضا (٨) أعطت (٩) أظهرت (١٠) يعلق (١١) بضم الصاد الصغيرة .

وما ضره أن ضمَّه القفص حصَّةً من الحصص . فإن كريمَ الطير يودعُ فى الأقفاص ، والقلب ليس له من حنايا الضلوع خلاص . فلا بِدْع أن تُسْتقلّ فى حبَّاته حبَّات القلوب ، ويُسْتَمْلح فى جنب حلاوته رُضاب(١) المحبوب . وكأن الثريا لما أخذت شكلهُ فَغَرَ(٢) الهلالُ فاه لعنقودها يريد أكله فهو يطاردها فى السماء ويأْخذ عليها الطريق من الوراء ، وهى تجرى من الأَمام مخافة الالتهام ؛ هذا لمجرد تشابه فى الشكل ، فكيف بالثريا لو أشبهتهُ حلاوة ورِيًّا(٣) فلله تلك العناقيد وما أشدَّ تألُّقهَا ! وأصفى ماءها وأحسن رونقها ! من كل عنقود تخاله عمود الصبح أحاطت به الدَّرارى ، أو غصن البان تعلقت به القمارى .

فسقى الغيثُ أرضاً أنبتته ، ولا ثَلَّ(٤) الدهر عُرُوشاً حملته ، وأرضاً عرَّفتنا بأثمارها حلاوة الجنة ، وأبرزت لنا لمحةً من محاسنها المستكنَّة ، وأنسانا عنبها ذكرى دمشق(٥) وأزمير ، وأنبأنا غارسها أن مصر خيرُ مُسْتَقر ، ولا ينبئك مثل خبير ، وعووساً كالعروس : تتيه(٦) فى الحلى والملبُوس تحسدها المجرَّة(٧) فى السماء وتودُّ لها هذه البهجة والرُّواء(٨) . ولا زال مولاى يُهْدَىَ ويَهْدِى ، وصنائعه تعيد فى ثنائه وتُبدى .

فأجابه الشيخ على الليثى :

أما بعد . فقد وصل كتاب القاضى الفاضل ، فأَرج الأَرجاء بلطيف فواضله شريف الفضائل . ما كنت أظُنُّ أن يحصل من زبيبة خَمَّاره ، حتى رأيتُ القاضى الفاضل سبكه فى قوالب شتى وصاغه ، وأتى بما أدهش اللب من أساليب البلاغة . فتارة عقداً فى النحور ، وتارة فى ميادين الطلب تطاردُهُ البدور ،

---

(١) ريقه (٢) فتح (٣) منظرا حسنا (٤) لا هرم (٥) عاصمة الشام سميت باسم بانيها دمشاق بن دمشاق بن كنعان (٦) تتبختر (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وانما ينشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء (٨) بضم الراء حسن المنظر .

وآونة درًّا مكبرًا ، ومرّة خمرًا معتبرًا ، وساعة دوالى « نجفة » ، وساعة غصناً تعلق به الهزَار(١) وأَلِفه :

تكاثرَت الظِّباءُ على خَراشٍ فما يَدْرِى خراشُ ما يصيد

عجبًا لك أَيها الفاضل ! هذا مع اشتغال بالك ، وإقبالك على ما لديك من مراعاة عدلك واعتدالك ! فكيف لو تفرَّغْتَ لهذا الأَمر ! ؟ ولإِراحة النفس، اعتصرتَ من العُنقود قدحاً من خمر ، وامتطيْتَ(٢) طرَفَ اليراع منتهجاً مناهج الطّرْس ، وَدَبّجْتَ(٣) بياض صفحاته بمحاسن حلى النّفس(٤) فلله أَنت من بليغ بلغَ ما يريد ، وقلَّدَ فرائد آدابه كلّ جيد ! وأَفاد السِّحْر منثورًا فى فواصله ، وأَقام بعوامل أَقلامه تثقيفَ عوامله ! وأَوجب علينا الشهادة له بالسبق ، فأَذْعَنّا مسلِّمين والحقُّ أَحق ــ هذا ، ولولا أَن يقال فلان جفَا ، وما احتفل بكتاب أَخيه ولا احتفَى(٥) ، وإن كان شيبى يُلزِمُنى ذلك ، كما أَن شباب (البيك) يسلك به أَقوم المسالك ، لستَرْتُ عيِّى وما أَشَرْت ، ورأَيت طَيِّى خيرًا لى مما نشرت ، وجعلت كتاب سيِّدِى فى عنقى تميمَةً(٦) ورَوّحْتُ النّفس تيمنًا(٧) بمس آياته الكريمة ، وقلت : كفانى ما أَحاط بالعنق من قلائده ، حيث العبد لا يبلغ الفخامة كمال سيِّده .

وهبْنى قُلْت هذا الصبح ليلُ أَيعمى العالمون عن الضياء ؟

لا زالت بُردُ الترسُّل بيننا مُستمرّة ، ومدد التّوسل على جناح التقرب مستقرة ، ولابَرحَ الجناب فى كلِّ بداية ، يترقى كمايحب من غاية إلى غاية والسلام .

الفصل الحادى عشر : فى رسائل الوصايا والشفاعات

من وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أَبى وقاص فى غزوة الفرس :

إِن هذا الأَمر لم يكن نصره ولا خِذلانهِ بكثرَةٍ ولا قِلَّة ، وهو دين الله

(١) بفتح الهاء طائر يقال له العندليب (٢) علوت (٣) نقشت (٤) بكسر النون الحبر (٥) ولا سأل (٦) ما تكتب وتعلق فى عنق الصبيان للحرز (٧) تبركا

الذى أظهرَه وجُنْدُه الذى أعدّه وأمدّه ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طَلع ، ونحنُ على موعد من الله ، والله مُنجزٌ وَعْدَه ، وناصرٌ جُنْدَه ــ ومكان القَيِّم بالأَمر مكان النِّظام من الخرز يجمعه ويضُمه ، فإذا انقطع النِّظام تفرَّق الخرز وذهب ، ثُمَّ لم يجتمع بحذافيره أَبدًا .

والعَرَبُ اليَوْمَ ، وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قُطْبًا ، واسْتَدْرِ الرَّحى بالعرب ، وأَصلِهِمْ دونكَ نَارَ الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأَرض انْتَقَضَتْ عليك العرب من أَطرافها وأَقطارها ، حتى يكون ما تدعُ وَرَاءَك مِنَ العَوْرَات أَهم إليك مما بين يديك .

إن الأَعاجم إن يَنْظُروا إليك غدًا يقولوا هذا أَصل العَرَب ، فإذا قَطَعْتُمُوه اسْتَرَحْتُم ؛ فيكون ذلك أَشدَّ لكَلَبِهِمْ عليك وطمعهم فيك . فأَما ما ذكرت من مسير القوْم إلى قتال المسلمين ؛ فإن الله سُبْحَانه هو أَكْرَمْ لمَسِيرهم منك ، وهو أَقدر على تغيير مايَكْرَه . وأَما ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نَكُنْ نُقَاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنَّا نُقَاتل بالنَّصر والمَعُونة .

ومن وصية للنبى عليه الصلاة والسلام :

أَما بَعْدُ ؛ فقد جعل الله لى عليكم حَقًّا بولاية أَمركم ، ولكم علىَّ من الحق مثل الذى لى عليكم ، فالحقُّ أَوْسَعُ الأَشياءِ فى التواصفُ ، وأَضْيَقُهَا فى التناصُف لايجرى لأَحَدٍ إلَّا جرى عليه ، ولايجرى عليه إلاجَرَى لَهُ ، ولوكان لأَحد أَن يجرى له ولايجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانهُ دون خلقه ، لقدرته على عباد ، ولعدلهِ فى كل ماجَرَت عليه صُرُوف قضائه ، ولكنَّهُ جَعَل حَقَّه على العباد أَن يُطلعُوه ، وَجَعَلَ جزاءَهم عليه مُضَاعَفَةَ الثَّوَاب تفضلاً منه وتوسعًا بما هو من المزيد أَهلُه ، ثم جعلَ الله سُبْحَانه من حقوقه حُقُوقًا افترَضَها لبعض الناس على بعض ؛ فجعلها تتكافأُ فى وجوهها ، ويوجب بعضُها بعضًا ، ولا يُسْتَوْجب

بعضها إلا ببعض ، وأَعظمُ ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حقُّ الوالى على الرَّعِيَّة ، وحقُّ الرَّعِيَّة على الوالى ؛ فريضة فرضها سبحانه لكلٍّ على كلٍّ ، فجعلها جمعًا لأُلْفَتهم وعزًّا لدينهم ، فليست تصلح الرَّعية إلا بصلاح الوُلاة ، ولا تصلح الوُلاة إلا باستقامة الرَّعية . فإذا أَدَّت الرعيَّة إلى الوالى حقه ، وأَدَّى الوالى إليها حقها ، عزَّ الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعْتَدَلت معالم العَدْل وجَرَتْ على إذلالها السننُ ، فصلح بذلك الزمان ، وطُمِع فى بقاءِ الدولة ، ويئست مَطَامعُ الأَعداءِ ، وإذا غلبت الرَّعية وَاليها ، وأَجحف الوالى برعيته ، اَخْتَلَفَتْ هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الْجَوْر ، وكَثُرَ الإِدغال فى الدِّين ، وتُرِكَتْ محاجُّ السننِ ، فعمل بالهوى ، وعطِّلت الأَحكام ، وكثرَت علل النفوس ؛ فلا يستوحشُ لعظيم حق عُطِّل ولا لعظيم بَاطِلٍ فُعل ؛ فهنالك تذلُّ الأَبرار وتعزّ الأَشرار ، وتعظمُ تبعاتُ الله عند العباد . فعليكم بالتّناصُح فى ذلك وحُسْن التعاون عليه ، فليس أَحد وإن اشتدَّ على رضاء الله حِرْصُه ، وطال على العمل اجتهادُهُ ، ببالغٍ حقيقة ما اللهُ أَهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على عباده ، النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاوُن على إقامة الحق بينهم . وليس امروٌ وإن عظمت فى الحقّ منزلته ، وتقدَّمت فى الدين فضيلته ، بفَوْقَ أَن يُعَان على ما حمّلهُ الله من حقه ، ولا امروٌ وإن صغرَتْه النفوس ، واقْتَحَمَتْه العُيُون بدون أَن يعين على ذلك ، أَوْ يُعَان عليه .

فأَجابه عليه الصلاة والسلام رَجُل من أَصحابه بكلام طويل يُكْثِرُ فيه من الثناءِ عليه ويذكر سمعه وطاعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنَّ من حقِّ من عظُم جلالُ الله فى نفسه ، وجلَّ مُوْضعُه من قلبه ، أَن يصغُرَ عنده لعظم ذلك كلّ ما سواه ، وإن أَحقَّ من كان كذلك لَمَنْ عظُمت نِعْمَةُ الله عليه ولطفَ إحْسَانُه إليه ، فإنه لم تَعْظمْ نِعْمَةُ الله على أَحد إلا ازْدَادَ حقُّ الله عِظَمًا ، وإن مِنْ أَسْخَف حالات الوُلاة عند صالح الناس ، أَن يظنّ بهم حبُّ

الفخر ، ويُوضعَ أمرُهُم على الكِبَرِ ، وقد كرِهْتُ أن يكُون جَالَ فى ظنكم أنى أُحبُّ الإطرَاءَ واستماع الثَّنَاءِ ، ولستُ بحمد الله كذلك ، ولو كنت أُحِبُّ أن يُقال ذلك لتركته انحطاطاً للهِ سبحانه عن تنَاوُل ما هو أحق بهِ من العظمة والكبرياءِ ، وربَّما اسْتحلى النّاسُ الثناءَ بعد البلاءِ ، فلا تثنُوا عليَّ بجميل ثناءٍ لإخراجى نفسى إلى الله وإليكم من التُّقْيَةِ فى حقوقٍ لم أَفرُغْ من أدائها ، وفَرَائضَ لا بُدَّ من إمضائها ، فلا تكلمونى بما تكلم بهِ الجبابرَة ، ولا تتحفظوا منى بما يُتَحفّظ به عندَ أهل البادِرَة ، ولا تخالطونى بالمصانَعة ، ولا تظنُّوا بى استثقالاً فى حقٍّ قيل لى ، ولا التماس إعظام لنفسى ، فإنه من اسْتَثْقَل الحقّ أن يقالَ له ، أَو العدْلَ أن يُعْرَض عليه ، كان العمل بهما أثقلَ عليه ، فلا تكفوا عن مقالةٍ بحقٍّ ، أَوْ مشورَة بعدْل ، فإنى لسْتُ فى نفسى بفَوق أَنْ أُخطئْ ولا آمنُ ذلك من فعلى ، إلا أن يكفيَنى الله من نفْسى ما هو أَملك به منى ؛ فإنما أَنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لرَبٍّ لا رب غيره ، يملك منَّا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنَّا فيه إلى ما صلحنا عليه ، فأَبدلنا بعدَ الضَّلَالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام وصّى بها جيشًا بعثه إلى العدو :

فإذا نزلتُم بعدُوّ ، أَو نزلَ بكم ، فليكُن معسكرُكُم فى قبيل الأَشرَاف وسفاح الجبال ، أَو أَثناء الأَنهار . كيما يكون لكم رِدْءًا ، ودونكم مَرَدًّا ، ولتكن مقاتلكم من وجه واحد أَو اثنين ، واجعلوا لكم رُقباءَ فى صياصى الجبال ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافةٍ أَو أَمْن . واعلموا أَن مُقدّمة القوم عيونهم وعيون المقدِّمة طلائعهم . وإياكم والتفرقَ فإذا نزلتم فانزلوا جميعًا ، وإذا ارْتحلتم فارتحلوا جميعًا ، وإذا غَشِيكُمْ الليلُ فاجعلوا الرِّماح كفّة ، ولا تَذُوقوا النَّوْم إلا غرارًا أَو مضمضة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات :

انطلق على تقوى الله وحده لاشريك له ، ولا تُرَوِّعَنَّ مسلمًا ، ولا تجتازَنَّ عليه كارهًا ، ولا تأْخذنَّ منه أَكثر من حق الله فى ماله . فإذا قدِمْتَ على الحىّ فانزِل بمائهم من غير أَن تخالطَ أَبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخْدِج بالتَّحية لهم . ثم تقول : عبادَ اللّه ، أَرْسلنى إليكم ولىُّ الله وخليفتُه . لآخذَ منكم حقَّ الله فى أَموالكم ، فهل لله فى أَموالكم من حَقٍّ فَتُؤَدُّوه إلى وليِّه ؟ فإن قال قائلٌ منهم : لا ، فلا تراجعه . وإن أَنعَمَ لكَ مُنعمٌ ، فانطلق معه منْ غير أَن تُخِيفه أَو تُوعدَه ، أَو تعْسفه أَو ترهقه ؛ فخذْ ما أَعطاك من ذهب أَو فضة ، فإن كان له ماشية أَو إبل فلا تدْخلها إلا بإذنه ، فإنَّ أَكثرها له ، فإذا أَتيتها فلا تدخلْ عليها دُخولَ مُتَسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرَنَّ بَهيمة ، ولا تُفزِعنها ، ولا تَسُوءَنَّ صاحبها فيها ، واصدع المال صدْعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرَّضَنَّ لما اختاره ، ثم اصدع الباقى صدْعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرَّضنَّ لما اختاره ، فلاتزال بذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله فاقبض حقَّ الله منهُ ، فإن استقَالكَ فَأَقِلْهُ ، ثم اخلطها ثم اصنع مثل الذى صنعت أَوَّلاً حتى تأْخذ حق الله فى ماله ، ولا تأخذنَّ عودًا ولاهرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولاذاتَ عوَار ، ولا تأْمننَّ عليها إلا من تثِق بدينهِ رَافقًا بمال المسلمين حتى يوصِّله إلى وليهم فيقسمُه بينهم ، ولا تُوكل بها إلا ناصحاً شفيقًا وأَمينًا حفيظًا غير معنف ولا مُجحف ولا مُغلب ولا متعب ، ثم احدُر إلينا ما اجتمع عندك نُصَيِّرهُ حيثُ أَمر الله ، فإذا أَخذها أَمينُك ، فأَوعزْ إليه أَنْ لا يحُول بين ناقةٍ وبين فصيلها ، ولا يمْصُر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدَنَّها رُكوباً ، ولْيعدِلْ بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرَفِّهَ على اللاَّغب ، وليستأْن بالنَّقب والظالم وليوردها ما تمرُّ به من الغُدُرِ ، ولا يعدلْ بها نبت الأَرْض إلى جواد الطرُق ولْيُرَوحها فى

الساعات ، وليُمهلها عند النّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدْنا مُنقيات ، غير مُتعبات ولا مجهودات ، لنقْسمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وعلى آله) فإن ذلك أعظم لأَجْرِك ، وأَقرّ لرُشْدك إن شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام وقد سمع رجلاً يذم الدُّنيا :

أَيُّهَا الذَّامُّ للدنيا المغْتَرُّ بغرورها ، المخْدُوع بأَباطيلها ، أَتغترَّ بالدنيا ثم تَذُمها ؟ ! أَنت المتَجَرِّم عليها أَم هى المتجرّمة عليك ؟ ! متى استَهْوَتك ؟! أَم متى غرّتك ؟ ! أَبمصارع آبائك من البلى ؟ أَم بمضاجع أُمهاتك تَحتَ الثرَى ؟ ! كم عللْتَ بكفيك ؟ ! وكم مَرَّضتَ بيديْك؟ ! تبغى لهم الشفاء وتستوْصف لهم الأَطباء ، لم ينفع أَحَدَهُم إشفاقُك ، ولم تسْعفه بطلبتِكَ ولم تدفع عنه بقوَّتك ، وقد مثلت لك به الدنيا نفسَك وبمصرعه مصرعك .

إن الدنيا دارُ صدق لمن صَدَقها ، ودارُ عافية لمن فهم عنها ، ودارُ غِنًى لمن تزوَّدَ منها ، ودارُ موعظة لمن اتَّعظ بها . مسجدُ أَحبَّاءِ الله ، ومُصلى ملائكة الله ، ومَهْبط وحى الله ، ومَتجَر أَولياءِ الله ، اكتسبوا فيها الرَّحمة ورَبحوا فيها الجنة ، فَمَنْ ذا يذُمَّها وقد آذَنت ببينِها ، ونادَت بفرَاقها ، ونَعتْ نفسها وأَهلَها ، فمثلت لهم ببلائها البلاءَ ، وشوَّقتهم بسرورها إلى السُّرُورِ ، راحتْ بعافية ، وابتكرت بفجيعة ، ترغيبًا وترهيبًا ، وتخويفًا وتحذيرًا ، فذَمَّها رجالُ غَدَاة الندَامة ، وحمدها آخرون يوم القيامة ، ذكرتهم الدنيا فتذكَّرُوا ، وحدَّثتهم فصدقوا ، ووعظتْهُمْ فاتَّعظوا .

عهد الإمام على المتوفى سنة ٤٠هـ لمالك بن الحارث الأَشتر النخعى ، حين ولاه مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أَهلها وعمارة بلادها :

اعلم يامالكُ أَنى قَدْ وجَّهْتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليها دُولٌ قبلك من عدْلٍ وجور ، وأَنَّ النَّاس ينظرُون من أُمورك فى مِثل ماكنت تنظر فيه من أُمور الوُلاة قبلك ، ويقولُون فيك كما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدلُّ على الصالحين

بما يجرى اللهُ لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحبَّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملْك هواك ، وشح بنفسك عما لايحل لك ، فإنّ الشحَّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبَّتْ أو كرهت .

وأشعِر قلبَك الرحمة للرَّعِيَّة ، والمحبة لهم واللُّطف بهم ، ولاتكونن عليهم سبعًا ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إمَّا أخ لك فى الدين ، وإمّا نظيرٌ لك فى الخلق ، يفرُط منهم الزَّلَل ، وتعرض لهم العلل ويُوتى على أيديهم فى العَمْد والخطإ ، فأَعطهم من عفوك وصفْحِك ، مثل الذى تُحبُّ وترضى أن يُعطيك الله من عفْوه وصفحه ، فإنك فوقَهمْ ، ووَالى الأَمر عليك فوقك ، والله فَوْقَ من ولَّاك ، وقد استكفاك أمرَهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله ، فإنه لا قِبَلَ لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولاتَندَمَنَّ على عفوٍ ، ولا تبجحنَّ بعقوبة . ولا تُسْرِعَنَّ إلى بادرة وَجدْتَ عنها مندوحة ، ولا تقولن إنى مُومّرٌ آمرُ فأُطاع ، فإن ذلك إدغالٌ فى القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير . وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبهةً أو مخيلة ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرَتِه منك على ما لاتقدر عليه من نفسك فإن ذلك يُطَامن إليك من طماحك ، ويكُف عنك منْ غربك ، ويفيءُ إليك بما عَزُب عنك من عقلك . وإياك ومُساماة الله فى عظمته ، والتَّشبه به فى جبروته فإن الله يُذِل كلَّ جبَّار ، ويهين كل مختال . أَنصِف الله وأَنصف الناس من نفسك ومن خَاصّة أَهلك ومن لك فيه هوى من رَعيّتك ؛ فإنك إن لم تفعل تَظلم . ومن ظَلَم عباد الله كان الله خَصمه دون عباده ، ومن خاصمهُ الله أَدْحَض حُجَّته ، وكان الله حرباً عليه حتى يَنْزع ويتوب . وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله سميعٌ دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أَحب الأُمور إليك أَوسطها فى الحق وأَعمها فى العدل وأَجمعها لرضاءِ الرَّعية فإن سخط العامة يجحف برضاءِ الخاصة وإنّ

سخط الخاصة يُغتَفَر مع رضاء العامّة ، وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالى مؤونة فى الرَّخاءِ وأقل معونةً فى البلاءِ ، وَأَكْرَه للإنصاف ، وأسأَل بالإلحاف ، وأقل شكرًا عند الإعطاءِ وأبطأَ عُذْرًا عند المنع ، وأخفّ صبرًا عندَ ملمّات الدَّهْر ، من أهل الخاصة . وإنما عماد الدِّين ، وجماع المسلمين ، وَالعُدَّة للأعداءِ ، العامةُ من الأُمة ؛ فليكُنْ صغْوُك لهم وميلكَ معهم ، وليكُنْ أبعد رعيتك منك وأشنأُهُم عندك ؛ أطلبهم لمعايب الناس فإن فى الناس عُيُوباً ، الوالى أحق مَنْ سترَها ، فلا تكشفنَّ عمّا غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهير ما ظَهَرَ لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاسْتُر العَوْرَة ما استطعت يستر الله منك ماتحب سَتْرَهُ من عورتك .

أطلق عن النّاس عقدة كلّ حقد ، واقطع عنك سبب كلّ وَتْر ، وتغَابَ عن كلّ ما لَا يصح لك ، ولا تعجلَنَّ إلى تصديق ساع ، فإن السَّاعى غاشٌ بالنّاصحين ، ولاتدخلنّ فى مَشُورتك بخيلاً يَعدل بك عن الفضل وَيَعِدُكَ الفقر ، ولاجباناً يُضعفك عن الأُمور ، ولا حريصًا يُزَيِّن لك الشرّ بالجور ، فإن البُخْل والجُبن والحرص غرائز شتى ، يجمعها سُوءُ الظنّ . إنّ شَر وُزَرَائك مَنْ كان قبلك للأَشرار وزيرًا وَمَنْ شركهم فى الآثام ، فلا يكُونَنَّ لك بطانة ، فإنهم أَعوان الأَثمة ، وإخوان الظَّلَمة ، وأَنت واجدٌ منهم خيْرَ الخلَف ممن هُوَ مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عَليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لا يُعَاوِن ظالماً على ظُلمه أَو آثماً على إثمه ، أُولئك أخفّ عليك مؤونة وأَحسن لك معونة ، وأَحنى عليك عطفًا ، وأقل لغيرك إلفًا ، فاتخذ أُولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكُنْ آثَرهُم عنْدَكَ أَقولُهم لك بمُرِّ الحق ، وأقلهم مُسَاعدةً فيما يكون منك مما كَرِهَ الله لأَوليائه ، واقعًا ذلك هواه حيثُ وقعَ ، وألصقْ بأَهل الوَرَع والصِّدق . ثم رُضهم على أَن لا يُطْرُوك ، ولا يُبَجِّحُوك بباطل لم تفعله ؛ فإن كثرة الإطْرَاءِ تُحْدِث الزَّهْو ، وَتُدْنى من العزة ، ولا يكُونَنَّ المحسن والمسىء

عندك بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة . وألزم كلاًّ منهم ما ألزمَ نَفْسَهُ . واعلم أنه ليس شىءٌ بأدعى إلى حُسْن ظنٍّ والٍ برعيَّته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترْك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم ؛ فليكُنْ منك فى ذلك أمْرٌ يجمع لك حُسْن الظن برعيَّتك ، فإن حُسن الظن يقطعُ عنك نصباً طويلاً ، وإن أحق مَنْ حَسُنَ ظنّكَ به . لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق مَنْ ساءَ ظنُّكَ به ، لمن ساء بلاؤك عنده ، ولا تنقض سنَّة صالحة عمل بها صُدُور هذه الأُمة ، واجتمعتْ بها الألفة ، وَصَلحتْ عليها الرعية ، ولا تُحْدِثَنَّ سنَّة تَضُرُّ بشىءٍ مما مضى من تلك السُّنن فيكون الأُجر لمن سنها ، وَالوزْرُ عليك بما نقضت منها . وأكثر مُدَارَسَة العلماء ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صَلَح عليه أمْرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غِنَى لبعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كُتَّاب العامة والخاصة ، ومنها قُضَاة العدل ، ومنها عُمال الإنصاف والرِّفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذّمة وَمُسلمة الناس ، ومنها التُّجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السُّفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ؛ وكلاًّ قد سَمَّى الله سهمه ، ووضع على حدِّه فريضةً فى كتابه ، أو سُنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم عهداً منه عندنا محفوظاً . فالجنود بإذن الله حُصُون الرعية ، وزينُ الولاةِ ، وعز الدين وسُبُل الأَمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قَوَام للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخرَاج الذى يَقْوُون به فى جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم . ثم لا قوَام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتَّاب ، لما يحكمون من المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأُمور وَعَوَامها . ولا قِوَامَ لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما

يجتمعون عليه من مرافقِهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأَيديهم ، مالا يبلغ رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أَهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رِفْدهم ومعونتهم ، وفى الله لكلٍّ سعةٌ ، ولكلٍّ على الوالى حق بقدر مايصلحه . وليس يخرج الوالى من حقيقة ما أَلزمَهُ الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين نفسه على لزومه الحق والصبر عليه فيما خفَّ عليه أَوثَقُلَ . فَوَلِّ من جنودك أَنصحهم فى نفسكَ لله ولرسوله ولإمامك ، وأَطهرهم جَيْبًا وأَفضاهم حلمًا ممن يُبطى عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاءِ وينبو على الأَقوياءِ ، ممن لايثيره العنف ، ولا يَقعد به الضعف ، ثم الصق بِذَوى المروآت والأَحساب ، وأَهل البُيُوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أَهل النجدة والشجاعة والسخاءِ والسماحة ، فإنهم جُمَاعٌ من الكرم ، وَشُعَب من العُرْف ، ثم تفقّد مِنْ أُمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمنَّ فى نفسك شىءٌ قويتهم به ، ولاتحقِرَن لطفًا تتعاهدهم به وإن قَلَّ ، فإنه داعيةٌ إلى بذل النصيحة لك وحُسْن الظن بك ، ولا تَدَع تفقد لطيف أُمورهم اتِّكَالًا على جسيمها ، فإن لليسير من لُطْفِك موضعًا ينتفعون به وللجسيم مَوْقعًا لا يستغنون عنه . ولْيكُنْ آثر رُؤوس جُنْدك عندك من واساهم فى معونته ، وأَفضلَ عليهم مِنْ جدته بما يسعهم ويسع من وراءَهم من خُلوف أَهلهم حتى يكون هَمهم هَمًّا واحدًا فى جهاد العدو ، فإن عَطفك عليهم يُعطِّف قلوبهم عليك ، وإن أَفْضَل قُرَّة عين الولاة استقامة العَدْل فى البلاد ، وظهور مَوَدَّة الرعيَّة ، وإنه لاتظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولاتصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أُمورهم ، وقلَّة استثقال دُولهم ، وترْك استبطاءِ انقطاع مدتهم . فأَفسح فى آمالهم ، وواصل فى حُسْن الثناءِ عليهم ، وتعديد ما أَبلى ذوو البلاءِ منهم ؛ فإن كثرة الذِّكْر لِحُسْنِ فعالهم تهز الشجاع وتحَرِّض الناكل إن شاءَ الله تعالى . ثم اعرف لكلِّ امرئٍ منهم ما أَبلى ، ولا تضيفن بلاءَ امرئٍ إلى غيره ، ولا تُقَصِّرَنَّ دُون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرى إلى أَن تعظم من بلائه ماكان صغيرًا

ولا ضعةُ امرى أن تستصغَر من بلائهِ ما كان عظيما ، واردُدْ إلى الله ورسُوله مايُضلعك من الخطوب ويشتبه عليكَ من الأُمور ؛ فقد قال سبحانه لقوْم أَحَبَّ إرشادهم «يا أَيها الذين آمَنُوا أَطيعُوا اللهَ وأَطيعُوا الرسولَ وأُولى الأَمرِ منكُمْ ، فإن تنَازعْتُمْ فى شيءٍ فرُدُّوه إلى اللهِ والرَّسُول » فالرّد إلى الله الأَخذ بمُحكم كتابه ، والردّ إلى الرسول الأَخذ بسنته الجامعة غير المفرِّقة . ثم اختر للحكم بين الناس أَفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيقُ به الأُمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر عن الفَىْء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأَدنى فهْمٍ دون أَقصاه ؛ أَوقفهم فى الشبهاتِ ، وآخذهم بالحُجج ، وأَقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأَصبرَهم على تكشيف الأُمور ، وأَصْرَمهم عند اتضاح الحكم ، مِمَّن لا يَزْدَهيه إطراءٌ ، ولا يستَميله إغرَاءٌ ، وأَولئك قليل . ثم أَكثر تَعَاهُد قَضَائه ، وأَفسح فى البذْل مايزيح علَّته وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأَعطهِ من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيرُه من خاصتك ، لتأْمن بذلك اغتياب الرِّجال له عندك . فانظر فى ذلك نظرًا بليغًا ، فإن هذا الدين قد كان أَسيرًا فى أَيدى الأَشرار ، يُعملُ فيه بالهوَى وتطلب به الدنيا . ثمّ انظر فى أُمور عمالك ، فاستعملهم اختبارًا ، ولا تُوَلهم محَاباةً وأَثرة ، فإن ذلك جماعٌ من شعبِ الجوْر والخيانة ، وتوخَّ منهم أَهل التجربة والحياء من أَهل البيوتات الصالحة والقِدَم فى الإسلام ، فإنهم أَكرَمُ أَخلاقًا وأَصح أَعرَاضاً ، وأَقل فى المطامع إشرافًا ، وأَبلغ فى عواقب الأُمور نَظرًا ، ثم أَسبغْ عليهم الأَرزاق ، فإن ذلك قوَّة لهم على استصلاح أَنفسهم ، وغنًى لهم عن تناوُلِ ماتحت أَيديهم ، وحُجّة عليهم إن خالفوا أَمرَك أَو خانوا أَمانتَك . ثم تَفَقَّدْ أَعمالهم وابعث العُيُون من أَهل الصِّدق والوفاءِ عليهم ، فإن تَعَاهُدَك فى السرِّ لأُمورهم حدوة لهم على استعمال الأَمانة والرفق بالرعية . وتحفظ من الأَعوان فإنْ أَحدٌ منهم بسط يدَهُ إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أَخبار عُيونك ، اكتفَيت

بذلك شاهدًا ، فبسطْتَ عليه العقوبة فى بدنه وأَخَذْتَهُ بما أَصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلَّة ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التُّهمة .

وتفَقد أَمر الخراج بما يُصلح أَهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سِواهم ، ولا صلاح لمن سِواهم إلا بهم لأَن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأَهله ، وليكن نظرُك فى عمارة الأَرض ، أَبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأَن ذلك لا يُدْرَك إلَّا بالعمارة ؛ ومَن طلب الخراج بغير عمارة أَخرَب البلاد ، وأَهلك العباد ، ولم يستقم أَمرُه إلا قليلاً . فإن شَكَوْا ثقلًا أَو علة أَو انقطاعَ شِرْب أَو بالةً أَو حالة أَرض اغْتَمرها غرقٌ ، أَو أَجحَف بها عطش ، خَفَّفتَ عنهم بما ترجُو أَن يصلحَ به أَمرُهم ، ولا يثقلنّ عليك شيءٌ خفَفت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلدِك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجُّحك باستفاضة العدل فيهم مُعتمدًا على فضل قوَّتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ، فربَّما حدَثَ من الأُمور ما إذا عُوِّلَ فيه عليهم من بعدُ احتملُوه طيِّبةً أَنفسُهم به ، فإنَّ العُمرَانَ يحتمل ما حمَّلته ، وإنما يأْتى خرَاب الأَرض من إعْوَاز أَهلها ، وإنما يعوز أَهلها لإشراف أَنفُس الوُلاة على الجمع وسوءِ ظنهم بالبقاءِ ، وقلة انتفاعهم بالعِبر .

ثم انظر فى حال كُتَّابك فوَلّ على أُمورِك خيرهم ، واخصص رسائلك التى تُدْخل فيها مكائدك وأَسرارك بأَجمعهم لوُجود صالح الأَخلاق ممّن لا تُبْطره الكرامة فيجترى بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملإٍ ، ولا تُقصِّر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمَّالك عليك ، وإصدار جواباتها الصَّوَاب عنك فيما يأْخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعِف عقدًا اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأُمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أَجهل ، ثم لا يكن اختيارُك إياهم على فراستك واستنامتك وحُسْن الظن منك ، فإن الرِّجال يَتَعَرَّفُون لِفراساتِ الوُلاة بتَصنُّعهم وحسن

خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحةِ والأَمانة شىءٌ ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، واعمد لأَحسنهم فى العامة أَثرًا وأَعرَفهم بالأَمانة وجهًا ، فإِنّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وُليت أَمره ، وَاجعل لرأس كلٍّ من أُمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ، ولا يتسلطُ عليه صغيرُها ، ومهما كان فى كتّابك من عَيب تَغَابَيْتَ عنه أُلزمته .

ثم استَوْصِ بالتجار وذوِى الصناعات وَأَوص بهم خيرًا ، المقيم منهم والمضطرب بمالهِ والمُترفق ببدنه ، فإِنهم مواد المنافع ، وأَسباب المَرافق وجُلّابها من المباعد والمطارح ، فى برِّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضِعها ، ولا يجترئون عليها ، فإِنهم سِلْمٌ لا تُخاف بائقته ، وصُلحٌ لا تخشى غائلته . وتفقدْ أُمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك ، واعلم مع ذلك أَن فى كثير منهم ضيقًا فاحشًا وشُحًّا قبيحًا ، واحتكارًا للمنافع ، وتحكمًا فى البياعات ، وذلك بابُ مضرّة للعامة ، وعيب على الوُلاة ، فامنع من الاحتكار ، فإِن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعَ منهُ ، وليكن البيع بيعًا سمحًا ، بموازين عدل ، وأَسعار لا تُجحف بالفريقين من البائع والمُبتاع ، فمن قارف حكرَةً بعد نهيك إِياه فنكِّلْ به وعاقب فى غير إِسراف .

ثم الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين ، والمحتاجين ، وأَهل البُؤسى وَالزَّمنى ، فإِن فى هذه الطبقة قانعاً ومُعترًا . واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك ، وقسمًا من غلات صوافى الإِسلام فى كل بلد ، فإِن للأَقصى منهم مثل الذى للأَدنى وكلٌّ قد استُرعيت حقّه ، فلا يَشْغَلَنَّكَ عنهم بطر ، فإِنك لا تُعْذَرُ بتضييعك التافه لإِحكامك الكثير المُهم ، فلا تُشْخص همك عنهم ، ولا تُصَعِّر خدكَ لهم ، وتفقد أُمور مَن لا يصلُ إِليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحتقرهُ الرجال ؛ ففرِّغ لأُولئك ثِقتك من أَهلِ الخشية والتواضع فليرفع إِليك أُمورهم .

ثم اعمل فيها بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فإنَّ هؤلاءِ من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصافِ من غيرهم ، وكلٌّ فاعذرْ إلى الله تأدية حقه إليه ، وتَعهد أهل اليُتم وذوى الرقة فى السنِّ ممَّنْ لا حيلة له ، ولا ينصبُ للمسألة نفسه ، وذلك على الوُلاة ثقيل ، والحق كله ثَقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبَّرُوا أنفسهم وَوَثِقوا بصدق موعود الله لهم .

واجعل لذوى الحاجات منك قسما تُفرِّغُ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلسًا عامًّا فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير مُتعتع ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى غير مَوْطنٍ : « لن تقدس أُمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير مُتَعْتَع » .

ثم احتمل الخرق منهم والعيَّ ونَحِّ عنهم الضِيق والأنف ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويُوجب لك ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئًا ، وامنع فى إجمال وإعذار .

ثم أُمورٌ من أُمورك لابُدَّ لك من مباشرتها ، منها إجابة عُمالك بما يَعْيا عنه كتَّابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم وُرُودها عليك مما تحرج به صدُور أعوانك ، وَأَمْضِ لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت ، وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلُّها لله إذا صلحت النِّية وسلمت منها الرعية ، وليكن فى خاصة ما تُخْلِصُ لله به دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فأعط الله من بدنك ، فى ليلك ونهارك ، ووفِّ ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملًا غير مثلوم ولا منقوص بالغًا من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن مُنفردًا ولا مضيعًا ، فإن فى الناس مَنْ به العلة وله الحاجَة .

وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهنى إلى اليمن : كيف أصلى بهم ؟ فقال : « صَلِّ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيما » .

أما بعدُ ، فلا تُطَوِّلن احتجابك عن رَعِيتك ، فإن احتجابَ الولاة عن الرعية شُعبة من الضيق وقلة علم بالأُمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغُر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، وَيقبح الحسن ، ويحسنُ القبيحُ ، ويُشَاب الحق بالباطل ، وإنما الوَالى بشر لايعرف مانَوَارَى عنه الناس به من الأُمور ، وليست على الحق سِماتٌ تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أَحد رجلين : إما امرؤ سخَتْ نفسك بالبذل فى الحق ، ففيم احتجابك من واجب حق تُعطيه ؟ أَو فعل كريم تسديه ؟ أَو مبتَلى بالمنع فما أَسرع كفّ الناس عن مسأَلتك إذا أَيسوا منك ، مع أَن أَكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤنة فيه عليك ، من شكاة مَظْلمة ، أَو طلب إنصاف فى معاملة ؟

ثم إن للوَالى خاصة بطانة فيهم استئثار وَتطاوُلٌ ، وقلة إنصاف فى مُعَاملة ، فاحسم مادة أُولئك بقطع أَسباب تلك الأَحوال ، وَلا تُقْطِعَنَّ لأَحد من حاشيتك وَخاصتك قطيعة ، وَلا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أَو عمل مشترك ، يحملون مؤونتَه على غيرهم ، فيكون مهنأُ ذلك لهم دونَك وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة ، وأَلزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن فى ذلك صابرًا محتسبًا ، واقعًا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة . وإن ظنت الرعية بك حيفًا فأَصحر لهم بعذرك ، وأَعدل عنك ظنونهم بإصحارك ، فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقًا برعيتك ، وإعذارًا تبلغ به حاجتك من تقويم على الحق ، ولا تدفعن صلحًا دعا إليه عدوك ، ولله فيه رضا ؛ فإن فى الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك ، وأَمنًا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل ،

فخذ بالحزم ، واتهم فى ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذِمة ، فحُطْ عهدك بالوفاءِ ، وارع ذِمتك بالأمانه ، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت ؛ فإنه ليس من فرائض الله شىءٌ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاءِ بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استَوْبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمّتك ، ولا تَخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فإنه لايجترئُ على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أَمنًا أَفضاه بين العبادِ برحمته وحصنًا يسكُنون إلى مَنعتِهِ ، ويستفيضون إلى جواره ؛ فلا إدغالَ ولامدالسة ولاخِداع فيه ، ولاتعقد عقدًا يجوز فيه العلل ،ولاتعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أَمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضلَ عاقبته ، خيرٌ من غَدْر تخاف تَبعته ، وأَن تحيط بك فيه من الله طلبةٌ ، فلا تستقيمُ فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء ، وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شىءٌ أدعى لِنقْمة ، ولا أَعظم لتبعة ، ولا أَحْرَى بزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سَفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى يتولى الحكم بين العباد فيما تَسافكُوا من الدماءِ يوم القيامة ، فلا تُقَوِّين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله ويثقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد ، لأَن فيه قود البدن ، وإن ابتُليت بخطإٍ وأَفرط عليك سوطك ، أَو سيفك ، أَو يدك ، بعقوبة ، فإن فى الوكزة فما فوقها مقتلةً ، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك ، عن أَن لا تؤدى إلى أَولياءِ المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحُب الاطراءِ ، فإن ذلك من أَوثق فُرَص الشيطان فى نفسه ، ليمْحَقَ مايكون من إحسان المحسنين ـ

وإياك والمن على رَعيّتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تَعِدَهم فتتبع موعدك بخُلفك ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقتَ عند الله والناس ، قال الله سبحانه وتعالى : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .

وإيَّاكَ والعَجَلة بالأُمُور قبل أوانها ، أو التَّسقُّط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكَّرَت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه . وإياك والاستئثار بما الناس فيه أُسوَةٌ ، والتّغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطيةُ الأُمور ، ويُنتصف منك للمظلوم ، واملك حميّة أنفك ، وسورة حدك وسطْوَة يدك ، حتى يسكن لسانك ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر هُمُومك بذكر المعاد إلى ربك . والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى دليلك لكيلا يكون ذلك علة عندَ تسرّع نفسك إلى هواها ، وأنا أسأل الله تعالى بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه ، وإلى خلقه من حسن الثناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد ، تمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة . إنا إلى الله راغبون ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وكتب أبو بكر الصديق المتوفى فى ٧ جمادى الثانية ١٣ ﻫ إلى بعض قواده :
إذا سِرْت فلا تُعَنِّف أصحابك فى السير ولا تغضبهم ، وشاور ذوى الآراء

منهم واستعمل العدل ، وباعد عنك الْجَوْر ، فإنهُ ما أفلحَ قومٌ ظَلَمُوا ولا نُصِرُوا على عدوهم (وَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا (١) فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (٢) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا (٣) لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحَيِّزًا (٤) إِلَى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ) ، وإذا نصرتم عليهم فلا تقتلوا شيخًا ، ولا امرأة ، ولا طفلا ، ولا تحرقوا زرعًا ، ولا تقطعوا شجرًا ، ولا تذبحوا بهيمةً ، إلا مايلزمكم للأكل ، ولاتغدروا إذا هادنتم (٥) ولا تنقضوا إذا صالحتم ، وستَمُرُّون على أقوام فى الصوامع ، ورهبان ترهَّبوا الله ، فدعوهم وما انفردوا إليه وما ارتضَوْه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم ـ والسلام .

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٢ هـ إلى بعض قواده :

أما بعد : فإنى أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذُنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة « وإلا ننصر عليهم بطاعتنا ، لم نغلبهم بقوتنا » واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تَفعلون ، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم .

وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحةٌ يُحْيُون فيها أنفسهم ، ويرمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به . وليكن منك عند

---

(١) مجتمعين لكثرتهم يزحفون . (٢) الانهزام . (٣) متعطفا .
(٤) منضما الى جماعة يستنجد بها . (٥) صالحتم .

دنوك أَرض العدو أَن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، ثمّ أَذْكِ أَحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البياتات جهدك . والله ولىّ أَمرك ومن معك ، وولىٌّ النصر لكم على عدوكم .

وكتب أَبو الفضل بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ ه إلى ابن أُخته :

أَنت وَلَدِى ما دُمْت : والعلم شأْنك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتر أَليفك ، فإن قصرت ولا إخالك ، فغيرى خالك ، والسلام .

ومن وصية ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٩٦٧ ه لابنه ، وقد أَراد السفر :

أُودعك الرحْمٰن فى غُرْبتك ... مرتقباً رُحماه فى أَوبتك
فلا تُطِلْ حبلَ النَّوَى إننى ... والله أَشتاق إلى طَلْعَتك
واختصر التوديع أَخذًا فما ... لى نَاظِرٌ يقوى على فرقتك
واجعل وصاتى نُصْبَ عين ولا ... تبرح مدى الأَيام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنَّكت ... فى ساعة زفت إلى فطنتك
فللتجاريب أُمُورٌ إذا ... طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وَعْيِها ساعة ... فإنها عوْنٌ إلى يقظتك
وكل ما كابدته فى النَّوَى ... إياك أَن يكسِرَ من همتك
فليس يُدْرَى أَصل ذى غربة ... وإنما تعرفُ من شيمتك
وَٱمْشِ الْهُوَيْنَا مظهرًا عفة ... وَٱبْغِ رضا الأَعين عن هيبتك
وانطق بحيث العىُّ مُسْتَقْبَح ... واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولجْ على رِزْقك من بابه ... واقصد له ما عِشْت فى بكرتك
وَوفّ كلاًّ حقه وَلْتكن ... تكْسِر عند الفخر من حدتك
وحيثما خَيَّمت فاقصد إلى ... صحبة من تَرْجُوه فى نصرتك
وللرزايا وثبةٌ ما لها ... إلا الذى تذخر من عدّتك

ولا تَقُلْ أَسْلَمُ لى وحدتى ... فقد تقاسي الذلَّ فى وحدتك
ولْتَجْعَل العَقْلَ مِحَكًّا وخذ ... كُلاًّ بما يظهر فى نقدتك
واعتبر الناس بألفاظهم ... واصحب أخاً يرغب فى صحبتك
كم من صديق مُظْهِرٍ نُصْحه ... وفِكْرُه وَقْفٌ على عثرتك
إياك أن تَقْرَبَهُ إنَّهُ ... عَوْنٌ مع الدَّهْرِ على كربتك
وَٱنْمُ نُمُوَّ النَّبت قد زاره ... غِبٌّ النَدَى واسمُ إلى قدرتك
ولا تُضَيِّع زمنًا مُمكنًا ... تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشرُّ مهما اسطعت لا تأْتِهِ ... فإنه جَوْرٌ على مهجتك

يابُنى ، الذى لا ناصح له مثلى ، ولا منصوح لى مثله – قد قدَّمت لك فى هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك فى كلِّ أوان رَجوت لك حسن العاقبة – إن شاء الله تعالى – وإن أخفّ منه للحفظ ، وأعلق بالفكر ، وأَحَقّ بالتقدم قولُ الأَول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغْتَرَب ... ثلاثٌ فمنهنّ حسن الأَدب
وثانية حُسن أَخلاقه ... وثالثةٌ اجتنابُ الريب

واصغ يابُنَىّ إلى البيت الذى هو يتيمة الدهر ، وسُلَّمُ الكرم والصبر :

ولو أَنَّ أَوطانَ الدِّيارِ نَبَتْ بكم ... لكنتم الأَخلاق والآدابا

إذ حُسن الْخُلُق أَكْرَمُ نزيل ، والأَدبُ أَرحبُ منزل ، ولتكن كما قال بعضهم فى أَديبٍ مُتَغَرِّبٍ : وكان كلما طَرَأَ على ملك فكأَنَّهُ معه ولد ، وإليه قصد ، غير مُسْتريب بدهره ، ولا منكر شيئًا من أَمره .

وإذا دعاك قلبُك إلى صحبة من أُخِذ بمجامع هَوَاه ، فاجعل التَّكلف له سُلَّمًا ، وهبَّ فى روض أَخلاقه هُبُوب النسيم ، وحل بطرفه حلول الوسَنَ ، وانزل بقلبه نُزُولَ المسرَّة ، حتى يتمكن لك ودَادُه ، ويخلص فيك اعتقاده

وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا تُرخص فى جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعة ، أوحسود له يَغَار لتجمُّله بصحبتك ، ومع هذا ، فلا تغتر بطول صحبته ، ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد يُنَبِّهه الزمان ، ويتغَيَّر منه القلب واللسان ، وإنما العاقل من جعل عقله معيارًا ، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله ؛ وفى الأَمثال العامة : «من سبقك بيوم سبقك بعقل» فاحتذ بأَمثلة من جرب ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأَقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ، وزُبدة تجاربهم ، ولا تتكل على عقلك ، فإن النظر فيما تعبَ فيه الناس طول أَعمارهم ، وابْتَاعوه غالياً بتجاربهم ، يُرْبحك ويقع عليك رخيصاً ، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة ، فاستفدمنه ولا تُضَيِّع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ، وحَثاً لك واهتداء .

وليس كل ماتسمع من أَقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه ، حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعملك ، مصلحًا لحالك ، فراع ذلك عندك ، وإلا فانبذه نبذ النواة فليس لكلِّ أَحد يُتبسَّم ، ولا كل شخص يُكلم ، ولا الجود مما يعُم به ، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يُعَامل به كلُّ أَحد ، ولله درُّ القائل :

ومالِيَ لا أَوفِى البرية قِسْطَهَا   على قَدْرِ ما يعطى وعقلى ميزانُ

وإياك أَن تعطى من نفسك إلَّا بقدر ، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكفء ، ولا الكفء بمعاملة الأَعلى ، ولا تُضيِّع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ، ويُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، ولاتجف الناس بالجملة ، ولكن يكون ذلك بحيث لايلحق منه ملل ، ولا ضجر ، ولاجفاء ، فمتى فارقت أَحدًا ، فعلى حسنى فى القول والفعل ، فإنك لاتدرى هل أَنت راجعٌ إليه ؟ ! فلذلك قال الأَوّل :

* ولما مضى سلمٌ بكيتُ على سلمٍ *

وإياك والبيت السائر :

وكنتَ إذا حللْت بدار قَوْم   رحلْتَ بخزية وترَكْتَ عَارَا

واحرص على ما جَمَع قَوْل القائل : «ثلاثة تُبْقى لك الوُدّ فى صدر أَخيك أَن تَبْدَأَهُ بالسَّلام ، وتُوسّعَ له المجلس ، وتَدْعُوهُ بأَحَبّ الأَسماءِ إليه» ، واحذَر كل ما بَيَّنه لك القائل : «كل ما تغرسه تجنيه ، إلَّا ابن آدم ؛ فإذا غَرَسْتَهُ يقلعك» . وقول الآخر : «إن ابن آدم ذئب مع الضَّعف ، أَسدٌ مع القوَّة» وإيَّاك أَن تثبت على صحبة أَحد قبل أَن تُطيل اختباره ، ويحكى أَن ابن المُقفع خطب من الخليل صُحْبته ؛ فجاوبهُ : «إن الصُّحبة رِقّ ، ولا أَضع رِقّى فى يديك حتى أَعرف كيف ملكتك» واستمل من عين مَنْ تُعَاشره ، وتَفَقَّد فى فلتات الأَلسن ، وصفحات الأَوْجه ، ولا يحملك الحياءُ على السُّكُوتِ عَما يَضرُّك أَن لا تُبَيِّنَه ؛ فإنَّ الكلام سلاح السِّلم ، وبالأَنين يُعْرَف أَلم الجرح ، واجعل لكل أَمْرٍ أَخَذت فيه غاية ، وتجعلها نهاية لك :

وخذ من الدَّهرِ ما أَتاك به   من قر عيْنًا بعيشه نَفعه

إذ الأَفكار تجلب الهموم ، وتُضَاعفُ الغُموم ، وملازمة القطوب ، عنوان المصائب والْخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدُوّ والمُجانب ، ولا تضرّ بالوَساوس إلَّا نفسك ، لأَنَّك تنصر بها الدَّهر عليك ـ ولله درُّ القائل :

إذا ما كنت لِلاحزان عوناً   عليك مع الزمان فمن تلوم ؟!

مع أَنه لايردّ عليك الغائب الْحُزْن ، ولا يَرْعَوَن بطول عتبك الزّمَن .

ولقد شاهَدْت (بِغرناطة) شخصًا قد أَلفته الهُموم ، وعشقَتهُ الغُموم ، ومن صغَره إلى كبَرِه لا تراهُ أَبدًا خليًا من فِكْرَة ، حتى لُقِّب «بصدر الهمِّ» .

ومن أَعجب ما رأَيتُه منهُ أَنهُ يتنكَّدُ فى الشِّدة ، ولا يتعلَّل بأَن يكون بَعدَها فَرَج ، ويتنكَّد فى الرَّخاءِ خوفاً من أَن لايدوم ، وينشد :

* توقَّعْ زوَالا إذا قِيلَ تَمْ *

وينشد : * وعِندَ التَّناهِى يَقْصُرُ المتطاوِلُ *

وله من الحكايات فى هذا الشأْن عجائب ، ومثل هذا عمره محسور يمر ضياعاً

ومتى رفعَك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحْسِنه حسدًا لك وقصداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهيدا لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد فى علمك وتركن إلى العلم الذى مدحوه ؛ فتكون مثل الغُرَاب الذى أَعجبه مشى الحَجَلة فرام أَن يَتَعَلَّمهُ فصعُبَ عليه ، ثم أَراد أَن يرجع إلى مشيه فنَسِيه فبقى مُخَبَّل المشى كما قيل :

إن الغراب وكان يمشى مِشْية فيما مضى من سالف الأَجْيَالِ
حسَدَ القطا وأَراد يمشى مشيها فأَصابه ضَرْبٌ من العُقَّالِ
فأَضلَّ مِشْيَته وأَخطأَ مشيها فلذاك كنَّوْه (أَبا مِرْقال)

ولا يُفسد خاطرك من جعل يذُم الزمان وأَهله ، ويقول : ما بقى فى الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه ؛ فإن الذين تراهم على هذه الصفة أَكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان ، واستحقت طلعتهم للهوان ، وأَبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وَعَجَزوا عن طلب الأُمور من وجوهها ؛ فاستراحوا إلى الوقوع فى الناس ، وأَقاموا الأَعذار لأَنفسهم بقطع أَسبابهم ، ولا تُزِلْ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إذا ما نلْت عزًّا فأَخو العزِّ يلين
فإذا نَابك دهرٌ فكما كنت تكون

والأَمثال تُضْرَب لذى اللُّبِّ الحكيم ، وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفتى عليك لارب سواه .

وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأَمين :

ياأَحمر ـ إن أَمير المومنين قد دفع إليك مُهجة نفسه ، وثمرة قلبه ؛ فصيَّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ؛ فكُنْ له بحيث وضعك أَمير المؤمنين .

أَقرئه القرآن ، وعرفه الأَخبار ، وروِّه الأَشعار ، وعلمه السنن ، وبصره

بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخُذْه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إيّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفهُ ، وقَوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ؛ فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

وصية بعض نساءِ العرب إلى ابنها وقد أراد السفر :

قال أبان بن تغلب ، وكان عابدًا من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية وهى توصى ولدًا لها يريد سفرًا ، وهى تقول له :

أى بُنَىَّ : إجلس أمنحك وصيتى وبالله توفيقُك ؛ فإن الوصية أجدى(١) عليك من كثير عقلك ، قال أبان : فوقفت مستمعًا لكلامها ، مستحسنًا لوصيتها فإذا هى تقول : أى بُنى إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ، وإياك والتَّعرض للعيوب فتتخذ غرضًا(٢) وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعتورت(٣) السهام غرضاً إلا كلمته(٤) حتى يهى(٥) ما اشتد من قوته .

وإياك والْجُود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك ، فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرءَ لا يرى عيب نفسه .

ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها ، والعذر ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاءَ ، فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

---

(١) انفع . (٢) هدفا . (٣) تداولت . (٤) جرحته (٥) يضعف .

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك :

خرج الزُّهرى يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : مارأيت كاليوم ، ولاسمعت كأَربع كلمات تكلم بهن رجل عندهشام ، دخل عليه فقال : ياأمير المؤمنين احفظ عنى أَربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال : ماهُنَّ ؟ قال : لاتعد عِدة ولا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغُرَّنك المُرْتقى ، وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعرًا ، واعلم أن للأَعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأُمور بغتات(١) ، فكن على حذر . قال عيسى بن دأَب : فحدثتُ بهذا الحديث (المهدى) وفى يده لقمة قد رَفَعَهَا إلى فيه فأَمسكها وقال : ويحك ! أَعد علىَّ ، فقلت : يا أَمير المؤمنين : أَسِغ(٢) لقمتك ، فقال : حديثك أَعجب إلى .

نصيحة أَعرابى لسليمان بن عبد الملك :

قال أَعرابى لسليمان بن عبد الملك : إنى أُكلِّمك يا أَمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه ، قال : هاته ياأَعرابى ، فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأْمن غَيْبَتَهُ ، ولا نرجو نصيحته ، وأَنت المأْمون غيبًا الناصح جيبًا(٣) ، قال : فإنى سأُطلق لسانى بما خرست عنه الأَلسن تأْدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أَساءُوا الاختيار لأَنفسهم ، وابتاعوا(٤) دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا فلا تأْمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يأْلوا(٥) الأَمانة تضييعًا ، والأُمة كسفًا وخسفًا ، وأَنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك ، فإن أَعظم الناس عند الله

---

(١) البغتات : جمع بغتة وهى الفجاة . (٢) أساغ اللقمة : ابتلعها .
(٣) فلان ناصح الجيب : يراد به قلبه وصدره أى أمين ، قال الشاعر : ❋ وحصنت صدرا جيبه لك ناصح ❋ . (٤) ابتاع : اشترى . (٥) الا يألوا ألوا : قصر . يقال انى لا آلوك نصحالا أقصره وقال تعالى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون فى خبالكم وفسادكم .

غَبْنًا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سَلَلْت لسانك وهو سيفك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ! لك لا عليك .

نصيحة فتاة لأَبيها :

قالت أعرابية ـ تنصح أباها بمجانبة السرف ـ حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه فى السوال ، فقد قل النوال ، وكثر النّجال(١) ، وقد أتلفت الطارف والتلاد (٢) وبقيت تطلب مافى أيدى العباد ، ومن لم يحفظ ماينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمذانى لوارث مال :

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزيه وينصح له :

وصلت رقعتك (ياسيدى) والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاءُ عن الأَحبة رشد كأَنه الغَىّ ، قد مات الميت فليحى الحى ، فاشدد عَلَى مالك بالخمس(٣) ، فأَنت اليوم غيرك بالأَمس . قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد مولك(٤) مما ألف بين سراه (٥) وسيره ، وخلفك فقيرًا إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم(٦) الشيطان عودك ، فإن استلانك رماك بقوم يقولون : خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب ، وتنفقه بين الحباب(٧)والأَحباب ، والعيش بين القداح والأَقداح (٨) ، ولولا الاستعمال لما أُريد المال ، فإن أَطعتهم فاليوم فى الشراب وغدًا فى الخراب ، واليوم واطرباً للكاس ، وغدًا واحَرَباً(٩)

---

(١) النجال : جمع نجل وهو الولد . (٢) الطارف : المستحدث من المال وغيره ، والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف . (٣) يريد بالخمس الأصابع وهى مؤنثة فى الأكثر . (٤) موله: اتخذ لهمالا . (٥) السرى : سير الليل . (٦) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته . (٧) حباب الماء والشراب : فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير . (٨) القداح: سهام الميسر، واحدها قدح كقرد . والأقداح : جمع قدح ، كجبل وهو وعاء الشراب . (٩) الحرب : أن يسلب الرجل ماله ، وقد حرب ماله أى سلب ومن هذا قولهم : واحربا .

من الإفلاس . يامولاى : ذلك الخارج من العُود يسميه الجاهل نَقرًا ، والعاقل فقرًا ، وذلك المسموع من النَّاى(١) هو فى الآذان زَمْر ، وفى الأبواب سَمْر ، وإن لم يجد الشيطان مَغْمزًا فى عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يُمثلون الفقر حذاءَ عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرْسك(٢) ، وتمنع نفسك وتبوء فى دُنياك بوِزْرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ــ ولكن قصدًا بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين لامنع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضَيْر عاجل ، وإنما يبخل المرءُ خيفة ماهو فيه .

ومن يُنْفِق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

فليكن لله فى مالك قسم ، وللمُرُوءَة قسم ، فَصِلِ الرحم ما استطعت وقدر(٣) إذا قطعت ، فلأَن تكون فى جانب التقدير ، خير من أَن تكون فى جانب التبذير .

وصية الرياحى لقومه

قال الرياحى فى خطبته بالمربد(٤) :

يا بنى رياح ــ لاتُحَقِّرُوا صغيرًا تأْخذون عنه ، فإنى أَخذت من الليث بَسَالته ومن الحمار صبره ، ومن الخِنْزير حرصه ، ومن الغُرَاب بُكورَه ، ومن الثعلب روغانه (٥) ، ومن السّنور ضَرَعه(٦) ، ومن القرد حكايته ، ومن الكلب نُصرته ، ومن ابن آوى حذره ؛ ولقد تعلمت من القمر سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين .

(١) الناى : آلة للزمر ، فارسى معرب ، وقد تهمز ياؤه ،وقد جمعوه على نايات .

(٢) العرس : الزوجة . (٣) التقدير : التروية والتفكير فى تسوية أمر .

(٤) المربد : الجرين ، ثم صار علما على موضع بالبصرة .

(٥) الروغان : الميل عن الشىء لتجنب الضرر . (٦) الضرع : الخضوع

وصية ذى الاصبع لابنه

لمَّا احْتُضَرَ ذُو الأَصبع العُدْوانى(١) دعا ابنه (أسيدًا) فقال له :

يابُنى : إن أَباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته ، أَلن جانبك لقومك يحبُّوك وتواضع لهم يرفعوك ، وابسُط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأْثر عليهم بشىءٍ يُسَوِّدوك ، وأَكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويكبَرُ على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واعزز جارك(٢) وأَعن من استعان بك ، وأَكرم ضيفك ، وأَسرع النهضة فى الصريخ(٣) فإن لك أَجلا لايعدوك وصن وجهك عن مسأَلة أَحد شيئًا ، فبذلك يتم سُؤدَدُك .

وصية عبد الله بن شداد لابنه

قال الكلبى : لما حضرت عبد الله بن شداد(٤) الوفاة دعا ابنًا له يقال له (محمد) فقال : يابنى ، إنى أَرى داعى الموت لايُقلع ، وأَرى من مضى لايرجع ، ومن بقى فإليه ينزع(٥) ، وإنى موصيك بوصية فاحفظها .

عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أَولى الأُمور بك شكر الله ، وحسن النِّية فى السر والعلانية ، فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد ، وكن كما قال الحطيئة :

ولست أَرى السعادة جمع مال ولكن التَّقِىَّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا وعند الله للأَتقى مزيد
وما لا بُدَّ أَن يأْتى قريب ولكن الذى يمضى بعيدُ

---

(١) هو حرثان بن الحارث ، خطيب حكيم ، شاعر فارس ، وهو أحد المعمرين فى الجاهلية (٢) الجار : المجاور والذى أجرته من أن يظلم .
(٣) الصريخ : صوت المستغيث وهو أيضا المغيث واحدا أو أكثر . ــ(٤)هو عبدالله بن شداد بن الهادى الليثى كان من رجالات العراق ومن ذوى المكانة عند الحجاج ، ثم خرج عليه مع ابن الأشعث ، ويقال انه قتل سنة ٨٣ هـ .
(٥) نزع اليه كجلس : اشتاق .

أَى بُنَىَّ : لا تزْهَدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، والأَيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه ، وطالب أَصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أَن الزَّمَان ذو أَلوان ، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان ، وكُنْ أَى (بُنَىَّ) كما قال أَبو الأَسود الدولى :

وعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة — عليك إذا ماجاءَللعُرْف(١) طالبُ
وإن امرأً لا يُرْتَجَى الخير عنده — يكن هيِّنًا ثقيلاً على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاءَ طالبًا — فإنك لا تدرى متى أَنت راغب
رأَيت الْتِوَا(٢) هذا الزمان بأَهله — وبينهم فيه تكون النوائب

أَى بُنَىَّ : كُن جوادًا بالمال فى موضع الحق ، بخيلا بالأَسرار عن جميع الخلق فإنَ أَحمد جود المرءَ الإنفاق فى وجه البِرّ ، وإن أَحمد بخل الحر الضن بمكتوم السِّرّ ، وكُن كما قال قيس بن الخطيم(٣) الأَنصارى :

أَجُود بمكنون التِّلَاد وإننى — بسِرِّك عَمَّن سالنِى لضنين(٤)
إذا جاوز الاثنين سر فإنه — ينثٌّ وتكثير الحديث قمين(٥)
وعندى له يوماً إذا ائتمنتنى — مكان بِسَوْدَاءِ الفؤاد مكين (٦)

أَى بُنىَّ : وإن غُلِبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإنْ الكريم يحتال ، والدنِىَّ عيال ، وكُنْ أَحسن ماتكون فى الظاهر حالاً ، وأَقَلَّ ما تكون فى الباطن مالاً ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاد(٧) نعمته ، وكُنْ كما قال ابن حذاق(٨) العَبْدِى :

---

(١) العرف : المعروف . (٢) التوامصدر التــوى وقصره للضرورة . والتوى به الزمان : اعوج . وألوى به : أهلكه . (٣) شــاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة . (٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن (٥) قطع همزة اثنين للضرورة ونثالحديث : أفشاه . (٦) سوداءالفؤاد أو القلب وسويداؤه وأسوده : حبته . (٧) الانفاد : الفقر . (٨) اسمه يزيد وهو شاعر قديم .

وجدتُ أَبِي قد اُورَثه أَبوه ... خلالاً قد تُعَد من المعالى(١)

فأَكْرم ما تكُون عَلَيَّ نفسى ... إذا ما قَلَّ فى الأَزمات مالى

فتحْسُن سيرتى وأَصُون عِرْضِى ... ويجمل عند أَهل الرأْى حالى

وإن نلتُ الغنى لم أَغلُ فيه ... ولم أَخْصُص بجفْوَتِى الموالى(٢)

أَى بُنَىَّ : وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأَنك لست بالشاهد ، فإنك إن أَمضيتها حيالها (٣) رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأَريب العاقل هو الفطن المتغافل(٤) ، وكُنْ كما قال حاتم الطائى :

وما من شِيمَتى شتْم ابن عمى ... وما أَنا مُخْلِف من يرتجينى

وكلمةِ حاسد فى غير جُرْم ... سمعت فقلت : مُرِّى فانفذِينى(٥)

فعابوها عَلَيَّ ولم تسؤنى ... ولم يَعرق لها يوماً جبينى

وذو اللونين يلقانى طليقًا ... وليس إذا تغيب يأْتلينى(٦)

سمعت بعيبه فصفحت عنه ... محافظة على حَسبى وَدِينى

أَى بُنَىَّ : لا تواخ امرءًا حتى تعاشره ، وتَتَفقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخِبْرَة(٧) ، فواجه على إقالة العثرَة ، والمُوَاساة فى العُسرة ، وكُنْ كما قال المُقَنَّع الكندى(٨) :

اَبْلُ الرِّجَالَ إذا أَردت إخاءَهم ... وتَوَسَّمْن فِعَالهم وتَفَقَّد

---

(١) نقلت حركة الهمزة من أورث الى الواو وحذفت هى للوزن والخلال : جمع خلة وهى الخصلة . (٢) غلا فى الأمر غلو : جاوز الحد والموالى : الأقارب . يقول : ان كثر مالى لم أجف أقاربى . (٣) خيال ظرف فى معنى ازاء أى تركتها تذهب فى طريقها الخ . (٤) فى معنى هذا قول الشاعر :

ليس الغنى بسـيد فى قوم ... لكن سـيد قوم المتغـابى

(٥) نفذه : جازه . (٦) ائتلى كألا اى قصر : يقول اذا غاب عنى فلن يقصر فى نكايتى (٧) الخبرة ، وبغيرهاء ، العلم بالشىء كالاختبار (٨) هو محمد ابن عمرة والمقنع لقب شاعر رصين المبانى حكيم المعانى من شعراء الدولة الاموية .

فإذا ظفرت بذى اللبابة والتقى ... فبه اليَدَين قَرِينَ عين فاشدد(١)
وإذا رأيت ولا محالة زلة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

أى بنى : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط.(٢) ، فإنه قد كان يقال أحبب حبيبك هَوْنًا مّا(٣) عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هَوْنا مّا عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وكُن كما قال هُدْبة (٤) بن الخشرم العذرى :

وَكُن مَعْقلاً للحلم واصفح عن الخنا ... فإنك راء ما حييت وسامع
واحبب إذا أحببت حبا مقارباً ... فإنك لا تدرى متى أنت نازع (٥)
وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً ... فإنك لا تدرى متى أنت راجع

الفصل الثانى عشر : فى رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أبو الحسن على بن الرومى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ إلى القاسم بن عبيدالله :

ترفع عن ظلمى إن كنت بريئًا ، وتفضل بالعفو إن كنت مُسِيئًا ، فوالله لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطوُّلاً ، وأزداد تذللا ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من وَاشٍ يكيدها ، وأحرسها بوفائك ممن يحاول إفسادها .

وأسأل الله أن يجعل حظى منك بقدر وُدِّى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك ، والسلام .

---

(١) اللبابة مصدر لب أى صار ذالب وهو العقل ، وكل ماقيل «فاشدد» من الشطر الثانى معمول له وتكررت الفاء للربط وكذا فى البيت التالى
(٢) شط وأشط : جاوز الحد. (٣) الهون : الرفق ، وما : اما زائدة ، واما صفة لهونا مثلها فى قوله تعالى : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما » .
(٤) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة وهو القائل :

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ... ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ... ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٥) نزع عن الأمر نزوعا : انصرف وانتهى عنه .

وكتب أبو الوليد أحمد بن زيدون الأندلسى ، المتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ :

يامولاى(١) وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى(٢) به ، وامتدادى(٣) منه ، ومن أبقاه الله ماضى(٤) حد العَزم(٥) ، وارى(٦) زند(٧) الأمل(٨) ، ثابت(٩) عهد(١٠) النِّعْمَة ، إن سلبتنى(١١) أعزك(١٢) الله لباس(١٣) نعمائك ، وعطلتنى(١٤) من حلى(١٥) إيناسك(١٦) ، وأظمأتنى(١٧) إلى بُرُود(١٨) إسعافك(١٩) ، ونفَضْت(٢٠) بى كفّ حياطتك(٢١) وغَضَضْتَ(٢٢) عَنِّى طرف(٢٣) حمايتك ، بَعْد أن نظر الأعمى إلى تأْميلى(٢٤) لك ، وسمع الأَصَمُّ ثنائى(٢٥) عليك وأحس الجماد باسْتِحْمَادِى(٢٦) إليك .

---

(١) المولى له معان كثيرة والأليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد أيضا قال أبو تمام :

مولاك يا مولاى صاحب لوعة ... فى يومه وصبابة فى أمسه
دنف يجود بنفسه حتى لقد ... أمسى ضعيفا أن يجود بنفسه

(٢) عدتى ليوم حاجتى . (٣) مزيد خيرى . (٤) قاطع . (٥) قوة الارادة لا يعزم على أمر الا أمضاه . (٦) الورى : خروج النار من الزند وقت الاقتداح . (٧) مقدحة . (٨) الرجا . (٩) متمكن وموثق . ــ (١٠) ميثاق أى أن نعمته ثابتة ومحفوظة عليه أبدا وأن محبته مقصورة عليه وأنه يطلب من الله أن يبقيه ، وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره غيث متتابع وأنه لحسن افتتاح وبراعة استهلال . (١١) انتزعت منى . (١٢) أعزك الله ، جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء لسيده بالعزة والاشارة الى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبيها له على ذلك . (١٣) ما يوارى الجسم أى جردتنى من نعمتك المحيطة بى . (١٤) العطل فى الأصل خلو جيد المرأة من القلائد . (١٥) مايتحلى به . (١٦) انسك، أى حرمتنى من لذيذ أنسك . (١٧) أعطشتنى . (١٨) بارد . (١٩) انجادك . (٢٠) طرحت . (٢١) احاطتك أى طرحتنى من كف حوزك لى . (٢٢) خفضت (٢٣) نظر ، أى خفضت طرف وقايتك عنى فتركتنى عرضا لصائبات الحوادث . (٢٤) التأميل أمر معنوى لا يشاهد وانما ذلك مبالغة فى شدة التلبس والاتصاف به . (٢٥) مدحى ، مبالغة فى انتشار مدحه . (٢٦) استحمادى مبالغة فى تأثير حمده يشير الى تعداد ما حل به من المصائب واحدق به من كل جانب الا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به أحاطة الثياب وحرمانه من الأنس بذلك الجناب واعطاشه الى سريع اغاثته =

فلا غَرْوَ(١) قد يغصُّ(٢) بالماءِ شاربُه ، ويقتلُ الدواءُ المستشفى به ، ويؤتى الحذِرُ(٣) من مأمنِهِ(٤) ، وتكونُ مَنيةُ(٥) المُتمنى فى أُمنيته(٦) ، والحين(٧) قد يسبقُ جهد(٨) الحريص :

كلُّ المصائِبِ قد تمرُّ على الفتى   وتهون غيرَ شماتة(٩) الحُسَّاد

وإنى لأَتجلَّد(١٠) وأُرى للشامتين «أنى لرَيْبِ(١١) الدهر لا أتضعضع »(١٢)

فأقول : هل أنا إلا يَدٌ أَدماها(١٣) سِوَارُها(١٤) ، وجبينٌ عضَّ به إكليله(١٥)

= واخراجه من محيط دائرته وصرفه عنه نظر ملاحظته خصـــوصا بعد أن صبر تأميله فيه جسما مخترعا ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب اليــه الآذان فدخلها بدون اســـتئذان ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده فى حمده حتى كان مؤتمرا فى كل الكائنات ولذا أدركه الجماد وفيه من المبالغة ما فى قول المتنبى :

أنا الذى نظـر الأعمى الى أدبى   وأســمعت كلماتى من به صمم

وانما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجعـــه وتألمه ، وأسرع لتلبية ندائه وأمكن لجلب الصفاء وازالة الجفاء (١) فلا عجب : الغــاء واقعـــة فى جواب أن من قـــوله ان أسليتنى (٢) غصصت بالماء أغص غصا اذا شرقت به وأغصصته أنا . (٣) المتيقظ (٤) من حيث لا يتوقــع الضرر (٥) موت (٦) ما يتمنــاه (٧) الهلاك (٨) طاقة (٩) الفرح فى مصائب الغير ، يقول : ان انتزعت منى ما أعطيت ، وأحلت بى من المصائب ما حللت : بعد غلوى فى الثناء عليك . والتجائى فى كل الامور اليك ، فليس ذلك بالأمر العجيب ولا بالنادر بل كثير النظائر والأمثال فالماء الذى به زوال الغصص قد يكون هو الغاص وأن الأمنية قد تكون فيها المنية وأنه يشير فى عبارته لقول بعضهم :

قد كنت عدتى التى أســطو بها   ويدى ، اذا اشتد الزمان وساعدى

فرميت منك بغيــر ما أملتــه ،   والمــرء يشرق بالزلال البـــارد

ولقول آخر :

تجرى الأمور على وفق القضاء ، وفى   طى الحوادث محبوب ومكروه !

فربما سرنى ما بت أحـــذره ،   وربما ساءنى ما بت أرجـــوه !

والبيت الذى ذكره لابن عيينة . (١٠) أتكلف الصبر والقوة (١١) ريب الدهر : نوائبه (١٢) أتزلزل : هــذا حل بيت لأبى ذؤيب الهذلى وهو :

وتجـلدى للشـــامتين أريهم   أنى لريب الدهـــر لا أتضعضع

(١٣) أسال دمها (١٤) نوع من الحلى يلبس فى الساعد (١٥) تاجه .

ومشرَفىٌّ(١) أَلصقهُ بالأَرض صاقُلُه(٢) ، وسمهرىٌّ(٣)عرضه على النار مُثقِفه(٤) ، وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا(٥) ومن يَكُ حازماً فليقسُ أَحياناً على من يرحم

هذا العتبُ(٦) محمود عواقبه ، وهذه النبوة(٧)غمرةٌ(٨) ثم تنجلى(٩) ،وهذه النكبة(١٠) سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشعُ(١١) ، ولن يريبنى(١٢) من سيدى إن أَبطأَ سيبه(١٣) أَو تـأَخر ، غير(١٤) ضنين غناؤه(١٥) ، فأَبطأُ الدلاء فيضاً(١٦) أَملؤها وأَثقل السحائب مشياً أَحفلها(١٧) وأَنفع الحيا(١٨) ماصادف جدباً(١٩) وأَلذ الشراب ما أَصاب غليلا(٢٠) ، ومع اليوم غدٌ ولكل أَجَلٍ كتابٌ .

---

(١) سيف (٢) جاليه (٣) رمح (٤) مقومه (٥) يمتنعوا : يخاطب نفسه ويسليها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه ، ويجنبها ما تعاديه من مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته حيث لم يستهجن فعاله وعمله معه فقد أنزل نفسه منزلة الحسناء التى أجرى دمها السوار ، والجبين الذىأثر فيه تاج الافتخار ، والسيف الذى وضعه على التراب صاقله لصقاله لا لهوانه ، والرمح الذى وضعه على النار مثقفه لتقويمه لا لاحراقه ، والعبد الذى قسى عليه سيده رحمة به واحسانا لا استخفافا به وهوانا ، والبيت لأبى تمام . (٦) اللوم (٧) الجفوة (٨) شدة (٩) تنكشف (١٠) المصيبة (١١) تقاع ، يقول : أرجو أن يكون هذا اللوم ختام الجفا ، ومبدأ الألفة والصفاء وأنهذه الجفوة شدة وتحول وسحابة لا تلبث أن تزول، يشير الى قول المتنبى :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

والى المثلين العربيين « غمرات ثم تنجلى » و« سحابة صيف عن قليل تقشع » والأول يضرب فى حصول اليسر بعد العسر والثانى فى سرعة التغير . (١٢) يجعلنى شاكا (١٣) عطاؤه (١٤)غير ضنين : احتراس يريد به حمل سيده على العطف ودفع ما يتوهم من أن التأخير للايقاع به (١٥) نفعه . (١٦) الفيض : صعود الماء على الضفة ، والمراد هنا مجرد الصعود ، أى أن أبطأ الدلاء صعودا أكثرها امتلاء (١٧) املؤها (١٨) المطر (١٩) الارض التى لا نبات بها (٢٠) العطش بحرارة ، لما ذكر أن هذا العتب محمود العاقبة وأن ما حل به عن قريب يزول ، ورأى تأخير الرحمة به وعدم انقاذه من ورطته ربما يوهم الريبة فى محمدة العاقبة ، دفع ذلكمعتذرا عن سيده فى هذا التأخير معللا بقوله فأبطأ الدلاءفيضااملؤها وأثقل السحاب مشيا أحفلهاوغير ذلك ممايدل على أن فى التأخير مايفعم البال ويقر الاعين =

لهُ الحمدُ على اهتبا له(١) ، ولا عتب عليه فى اغتفاله(٢) :

فإن يكن الفعلُ الذى ساءَ واحداً فأَفعالُه اللائى سَرَرْن أُلوف

وأعود فأَقول : ما هذا الذنبُ الذى لم يسعهُ عفوُك ، والجهلُ الذى لم يأْت من ورائه حلمك ، والتطاول(٣) الذى لم يستغرقه تطولك(٤) ، والتحامل(٥) الذى لم يَفِ به احتمالك(٦) ؟! ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأَين عدلك ؟ أَو مسيئاً ، فأَين فضلك ؟

إلا يكن ذنبٌ فعدلك وَاسِعٌ أَو كان لى ذنبٌ ففضلك أَوسعُ

فهبنى مسيئاً كالذى قلت طالباً قصاصاً(٧) فأَين الأَخذياعز(٨) بالفضل

حنانيك (٩) ، قد بلغ السيل الزُّبى(١٠) ، ونالنى ما حَسْبى به وكفى .

وما أرانى إلا ألو مرت بالسجود لآدم فأَبَيت (١١) واستكبرت ! !

= ثم ختم عبارته بما هو أمثل فى التسلية وأدعى للتصبر من حيث يقول:
ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب

(١) اغتنامه (٢) تغافله : وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر من سيده بما اعتذر وأخذ يمدحه على ايقاعه به وتغافله منه على أن يرأف به ويعطف عليه والبيت المتنبى (٣) الكبـــر (٤) فضلك (٥) التكليف بما لا يطاق (٦) الاحتمال كالحمل الا أنه فى الأمور العظيمة ، قال النابغة الديبـــانى * فحملت برا واحتملت فجـــارا * (٧) عقابا (٨) اسم امرأة ، رجع بعد أن عود نفسه فى مخاطبة الأمير الصبر والانتظار التفت منه الى مافى ضميره من بقايا العتاب فقال يستفهم مريدا بذلك الزامه بالصفح عنه بتصـــغير ذنبه وتكبير عفو سيده فكأنه يقول : ما هذه الحركة التى زلزلت طــودك ، وما هذه الجيفة التى عكرت بحرك ، ولم لا يشملنى كرمك وجودك مع أن فضلك وعدلك أكبر شفيع العاصي والمطيع ، وذكر البيتين تأييدا لما قاله فى نثره ، والاول للبحترى والثانى مأخوذ من قول الحماسى :

هبينى ظلومـــا نلتـــه بمساءة قصاصا فأين الأخذيا عز بالفضل

(٩) تثنية حنان ، وهو الرحمة (١٠) جمع زبية ، وهى حفرة تحفر لصيد الأسد فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء فاذا وصل اليه السيل كان مجحفا : يريد بذلك مزيد استرحام سيده من حيث يقول له : حنـــانيك ، أى رحمـــة أثر رحمة أطلبها منك فان الذل والهوان قد وصلا النهاية ، والصغار والاحتقار قد بلغا الغاية : وقوله بلغ السيل الزبى مثل عـــربى يضرب فى بلوغ الشيء غايته (١١) أمتنعت : ولقد أحسن كل الاحسان وتلطف ماشاء فى عطف =

وقال لى نوحٌ : اركب معنا . فقلت : ساوى(١) إلى جبل يَعْصِمنى(٢) من الماءِ ، وأَمَرْت ببناءِ صرح(٣) لعلى أَطَّلع إلِه موسى وعكَفت(٤) على العجل ، واعتديت(٥) فى السَّبت ، وتعاطبت(٦) فعقرْت(٧) ، وشربت من النهر الذى

= قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق اشــارة مبدعا فى وصف ما لاقاه من العقاب والنكال ، وانه لو قسم على ذوى الذنوب من الأولين والاخرين لكان كافيا لتكفير تلك الذنوب جزاء وفاقا ، ملمحا الى ذوى الذنوب المشهورة ووقائع الآثام المأثورة . فقال : وما ارانى .. الخ . يشير الى ذنب ابليس وهو امتناعه واستكباره عن السجـود لآدم من حيث أمره الله بذلك « فأبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال أنا خير منــه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(١) سألجأ (٢) يحفظنى ، يشير الى ذنب ابن نوح ، وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه : يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فخالف أباه وقال سآوى .. الــخ . (٣) قصر ، يشير الى ذنب فرعون ، وهو انكاره الاله وادعاؤه أنه هو الالــه الحقيقى ، وذلك حينما أتاه موسى عليه الســلام بالايمان بالله ، فقال فرعون « يأيها الملأ ما علمت لــكم من اله غيرى ، فأوقد لى ياهامان عــلى الطـين فاجعــل لى صرحا » : الآية . (٤) واظبت ، يشير الى ذنب بنى اسرائيل وهو عبــادة العجل ، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صائغ من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر ، قال لبنى اسرائيل ان الحــلى الذى استعرتموه من المصريين وبقى معكــم بعد غرقهم لا يحل لــكم فادفنوه حتى يأتى موسى ويرى رأيه فيه ، ففعلوا ، فأخذه وصاغه عجلا ووضع فيــــه القبضة التى أخذها من أثر حافر فرس الحياة فرس جبريل عليه الســلام ، فصار العجل يمشى ويخور ، فقال لبنى اسرائيل هذا الهكم واله موسى نسـيه وذهب لطلبه ، فافتتن به كثير منهــم واتبعوه (٥) جاوزت ، يشير الى ذنب بنى اسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيــــه وكانت الحيتان تأتى فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تغطى الماء ولا تأتى فى غيره فتحيلوا بعمل حيضان متصــلة بالبحر فاذا جاءت عشية الجمعة فتحوا الاتصال فتدخل الحيتان فى الحيضان فيأخذونها يوم الأحد ، ولما أمهــل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحاق بهم العذاب .

(٦) تعاطى : قام على أطراف أصابع رجليه . ثم رفع يديه وضرب .

(٧) عقر البعير بالسيف فانعقر ، أى ضرب به قوائمه . يشير الى ذنب قدار وهو قتل ناقة صالح عليه السلام ، وذلك أن امرأة يقال لها عنبرة لها مال وبنات حسان ، وأخرى يقال لها صدوق بنت المحيا صاحب أوثانهم ، كان =

ابتلى الله(١) به جيش طالوت ، وقُدْت الفيل لأَبرهة(٢) ، وعاهدت(٣) قريشاً على ما فى الصحيفة ، وتأَوَّلت(٤) فى بيعة العقبة(٥) ، واستنفرت إلى العير(٦)

= زوجهاأسلم وأنفق ماله على صالحوأتباعه ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، فدعت صدوق مصدقا لنفسها على قتل الناقة ، ودعت عنبرة قدارا على ذلك ايضا فذهب شقيا ثمود وكمن كل منهما فى أصل صخرة ، ولما مرت الناقة رماها مصدق بسهم فأصاب ساقها ، وشد عليها قدار بسيفه فأبان عروقها ، ثم نحروها .

(١) اختبر ، وهو يشير الى ذنب معظم جيش طالوت عليه السلام وهو محالفتهم له حينما اشتكوا له قلة الماء ، وهم ذاهبون للقتال ، فقال لهم : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده » فخالفوا وشربوا الا قايلا منهم .

(٢) كان عامل اليمن من قبل النجاشي ، يشير الى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة ، وسبب ذلك أنه بنى كنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن الكعبة فأتى رجل كنانى ولوثها بالعذرة ، وأتى أقوام من تجار قريش وأضرموا نارا بجانبها فهبت الريح فأحرقتها ، فغضب النجاشى لذلك ، وقام أبرهة وأخذ الفيلة وفى مقدمتها فيل النجاشى المسمى محمودا ليهدم الكعبة ارضاء له ، ولما وصل اليها وجه الفيل نحوها فأبى ، فوجهه الى اليمن فقام مهرولا ، وبعد ذلك أرسل الله عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

(٣) أعطيتهم عهدا وميثاقا ، يشير الى ذنب قريش ، وهو اتحادهم على عدم نصرة الدين ، وذلك انهم لما رأوا ان الدين أخذ فى النمو وأن حمزة وعمر أسلما تعاهدوا على مهاجرة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلى قطع العلائق بينهم تماما وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة عهدا لذلك . (٤) خالفت .

(٥) طريق وعر فى الجبل . يشير الى ذنب من نقض بيعة العقبة ، وبيعات العقبة ثلاث ، ولم يتأول فيها أحد ، فذكره لها على سبيل الفرض ، اى هب أنى خالفت الاجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعله أحد .

(٦) العير ــ بالكسر ــ الابل التى تحمل الميرة ، وهو يشير الى ذنب ضمضم الغفارى وهو استنهاض قريش لأبى سفيان ، وذلك أن أباسفيان ابن حرب كان آتيا الشام فى عير ، فذهب رسول الله لقتاله ، فشعر بذلك =

ببدر ، وانخذلت(١) بثُلث الناس يوم أُحُد(٢) ، وتخلفت(٣) عن صلاة العصر فى بنى قريظة(٤) ، وجئت بالإفك(٥) على عائشة الصِّديقية ، وأَنِفتُ(٦)

= أبو سفيان ، فاستأجر ضمضما المذكور ليخبر قريشا . فذهب وصرخ ببطن الوادى واقفا على جمل قد جدعه ، وحول رحله وشق قميصه : يامعشـــر قريش اللطيمة أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى ان تدركوها، الغوث الغوث ، فتجهـــزوا جميعـــا وذهبوا اليــــه ، وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى، وفيها انتصر النبى عليه الصلاة والسلام انتصارا باهر .

(١) خذله : ترك عونه ونصرته (٢) أحد : جبل بالمدينة . يشير الى ذنب ابن سلول رأس المنافقين ، وهو رجوعه من الجيش هـــو ومن معـــه من المنافقين ، وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام لما خرج الى أحد ومعه ألف من أصحابه لقتال أعدائه ، وكان من رأى ابن سلول أن يمـكث النبى فى المدينة ، فأبى عليه الصلاة والســـلام قبول رأيه موافقا لمعظم الصحابة، فرجع هو ومن معه من المنافقين، وقال أطاعهم وعصانى (٣) تأخرت (٤) طائفة من اليهود يشير الى حادثة بنى قريظة ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال : من كان سميعا مطيعا ، فليصل العصر فى بنى قريظة، فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس، والبعض الاخر رأى ان المقصود الاسراع فصلى فى الطريق ، ولمـــــا اختلف الفريقان فى تعيين المصيب ، ترافعا الى الرسول فحكم باصابتهما واذا تكـون عبارته كناية فداحة التخلف عن الذهاب (٥) الكـــذب ، يشير الى ذنب مسطح وحسان ومن معهما فى مجاهر تهم بالسوء لزوجـــة عليه الصــلاة والسلام : وذلك انه لما ذهب عليــــه الصلاة والسلام الى غزوة بنى المصطلق كانت معه السيدة عائشة ، حيث كانت قرعتها ففى العــودة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها ففاتها الركب ولم ينظر فى هودجها فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما ، فأركبها بعيره وقاده فأشاع هـؤلاء ما أشاعوا فبرأها الله تعـــالى بالآيات البينات (٦) استكبرت ، يشير الى بعض الصحابة ، من حيث استكبروا على أسامة وذلك أن النبى عليه الصلاة والسلام جهز جيشـــا ليذهب به الى الشام وقال له سر الى مقتل أبيك فتكلم قوم قالوا : أيؤمر هذا الغلام على المهاجـــرين الأولين فغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك وخرج فى مرضه عاصبا وصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال ما معناه : ولئن طعنتم فى اسامة فقد طعنتم فى أبيه من قبل وانه لأهل لها فاستوصوا به خيرا .

عن إمارة أسامة ، وزعمتُ أَن خلافة أَبى بكر كانت فلْتة(١) ، ورويّتُ رمحى من كتيبة(٢) خالد ، ومزقت(٣) الأَديم(٤) الذى باركتْ يَدُ الله عليه ، وَضَحَّيْتُ بأَشمط.(٥) عنوان السجود به ، وبذلتُ لقطام(٦) ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ(٧) ، وَضَرْبُ علىٍّ بالحسام المصمم .

---

(١) أى من غير احكام ولا رويــة يشير الى ذنب الشيعة وهو اعتقادهم أن عليا هو الأحق بالخلافة ، ومن سواه غاصب ويقولون ما تقــدم . وفى حديث عمر : « ان بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها » فقيل : المــراد بالفلتة الخلسة أى الامامة يوم السقيفة مالت الأنفس الى توليها وكثر فيهــا التشاجر فانتزعهــا واختلسها أبو بكر اختلاسا ، ومثل هذه البيعة مهيجة للشر والفتنة فعصم الله تعالى من ذلك ووقى (٢) جيش ، يشــير الى ذنب أبو شجرة السلمى وهو فتكه بجيش خالد فى حرب الردة ويشير الى قــوله فى ذلك :

ورويت رمحى من كتيبة خــالد وانى لارجــو بعــدها أن اعمرا

(٣) قطعت (٤) الجلد ، يشير الى ذنب أبى لؤلؤة وهو قتل عمر عليــــه الرضوان وذلك أن أبا لؤلؤ طلب منه أن يخفف عنه جعل سيده فقــال له : انه ليس بكثير وانك لصانع مجيد ، وأريد أن تصنع لى رحى. فقال: سأصنع لك رحى يسمع دويهــا أهل المشرق والمغرب وكمن له حتى طعنه فى صلاة الصبح ومات بسبب ذلك ويشير الى ذلك ما قاله بعضهم فى رثائه :

جزى الله خيرا من امام وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممــــزق

(٥) مختلط شعر الرأس : يشير الى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليــــه الرضوان وذلك أنه وفد عليه وفود كثيرة من الجهات يشـــــكون عماله فأرضاهم وأرسل محمد بن أبى بكر ليكون واليا على مصر فبينما هو ذاهب اذ رأى عبدا على هجين يســتحثه فأحضره وفتشه فوجد معـــه كتابا من الخليفة الى عامل مصر يقول : اذا أتاك محمد ومن معه فتحيل فى قتلهم ، فرجع محمد وأعطى الجواب لعثمان فأقر بانه خط كاتبــه وهــذا ختمه وعبده وهجينه وأنه لم يرســـله ، فطلب منه احد أمرين : الاعتــزال أو اعطاءه كاتبه الحكم فأبى فحصـــلت الفتنة وحاصروه الى أن قتل ويشــير الى ما قاله بعض نعاته :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تســـبيحا وقرآنا

(٦) اسم امرأة (٧) جارية : يشير بذلك الى ذنب ابن ملجم وهو قتل عــلى كرم الله وجهه وذلك أن هذه المــرأة أعجبته لنضــارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما فى البيت فقال لها : لك ما طلبت وقال البيت وبعده : =

وكتبت إلى عمر بن سعد : أن جَعْجع(١) بالحسين ، وتمثَّلت عندما بلغنى من وقعة الحرة(٢) :

ليت أَشْيَاخِى ببدر شهدوا جَزَعَ الخزرج من وَقْع الأَسل

ورجمت(٣) الكعبة ،وصلبت العائذ(٤) على الثنية(٥) ، لكان فيما جرى عَلَىَّ(٦) ما يحتمل أن يكون نكالا(٧) ، ويدعى لو على المجاز عقاباً :

وحسبك من حادثات بامرئٍ ترى حاسديه له رَاحِمِينا

= فلا مهر أغلى من على وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

(١) ضيق : يشير الى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين ، وذلك أنه أبى مبايعة يزيد وأراد الذهاب الى الكوفة من حيث أنهم طلبوا مبايعته فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله بن زياد بذلك فأرسل لقتاله عمر بن سعد ولما أبطأ جهز له « شمرا » وكتب عبيد الله له ما تقدم فانتشبت الحرب بينهما وانتهت باستشهاده رضى الله عنه .

(٢) أرض بظاهر المدينة كانت بها الوقعة بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة يشير الى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة وذلك أنه أرسل عقبة بن مسلم الى محاربة أهل المدينة واباحتها ثلاثة أيام فقتل وأسرف وأباح . فلما بلغ يزيد ذلك قال بيت ابن الزبعرى المذكور مظهرا لما فى الضمير المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين .

(٣) رميت بالحجارة (٤) المتاجىء (٥) طريق العقبة : يشير الى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبدالله بن الزبير وذلك أنه لما حاربه التجأ عبد الله وأصحابه الى الكعبة فنصب الحجاج المنجنيق عليها ورجمها وبعدما انتصر عليه صلبه منكسا وآلى أن لا ينزله الا اذا شفعت أمه فيه فبعد سنة مرت عليه أمه وقالت أما آن لهذاالفارس أن يترجل فاعتبر قولها شفاعة وأنزله ومن قولها لابنها يوم مقتله : يابنى لا تقبلن منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربة بالسيف فى عز ، خير من ضربة بالسوط فى مذلة . فقال لها : انما أخاف المثلة . قالت : يا بنى ان الشاة لايضرها سلخها بعد ذبحها (٦) حصل لى (٧) عذابا يريد أنى لو أتيت بهذه الذنوب كلها لكان ما حصل لى من التعذيب والاهانة والذل والاستكانة كافيا لتمحيص هذه الذنوب . كيف لا وقد صرت الى حالة يرثى لها العدو والحبيب والبعيد والقريب ،وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم فى الاستعطاف والبيت الذى ذكره للعتبى .

فكيف ولا ذنب إلا نميمةٌ (١) أهداها كاشحٌ (٢) ! ونبأ (٣) جاءَ به فاسق وهم الهمازون (٤) المشاوون (٥) بنميم ، والواشون (٦) الذين لايلبثون (٧) أن يصدعوا (٨) العصا ، والغُواةُ (٩) الذين لايتركون أديماً (١٠) صحيحاً ، والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال : « ما ظنك بقوم الصِّدق محمودٌ إلا منهم !؟ » .

حلفت فلم أترك لنفسك رِيبةً (١١) وليس وراءَ الله للمرءِ مطلب

والله ما غَشَشْتُك بعدَ النصيحة ولا انحرفت (١٢) عنك بعد الصاغية (١٣) إليك ولا نَصَبْتُ (١٤) الك بعد التشيع فيك ولا أزمعت (١٥) يأساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حُسنُ الظن عليك ، ففيم عَبِثَ (١٦) الجفاءُ بأذمَّتى (١٧)

(١) نقل الكلام للافساد (٢) مضمر العداوة « أهداها كاشح » كناية عن حسن سبك هذه النميمة وأنه معتنى بها كمايعتنى بالهدية للامير (٣) خبر (٤) المغتابون (٥) النمامون (٦) الذين يزينون الحديث للافساد (٧) لبث بالمكان : أقام به (٨) يشقوا (٩) المضلون (١٠) الأديم : الجلد ، يريد سعى النمام وخبر الفاسق وتزيين الغواة والذين يشقون عصا الألفة ويمزقون أعراض الناس ويلمح فى عبارته الى قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الآية ، والى قول كثير عزة :

ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا اذا هى لم يصاب على البرى عودها

(١١) شبهة : يريد حلفت فلم أترك شبهة فى نفسك من براءتى وليس بعد الله يصدق القسم به حتى أقسم به وأذهب اليه . والبيت للنابغة الذبيانى من اعتذارياته النعمان .

(١٢) ملت (١٣) الاصغاء (١٤) الناصبى فى العرف من كان عدوا لعلى كرم الله وجهه وهو ضد الشيعى (١٥) خفت ، يقول أقسم بالله أنى مقيم على النصح لك ثابت على الميل اليك ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهبا ولم يستفزنى اليأس منك وتلعب بى أيدى الأهواء فان ثقتى بك وحسن ظنى فيك قد ضمنا لى أن أطرد اليأس بالرجاء فى عفوك ، وهذا الكلام من الاستقصاء البديعى بمكان فانه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول (لو) ولا (ليت) استجلابا للرحمة وطلبا للعفو . (١٦) لعب وهزل . (١٧) حرماتى .

وعاث(١) العقُوق(٢) فى مواتى(٣) ، وتمكن الضياع(٤) من وسائلى(٥) ؟ ولم ضاقت مذاهبى(٦) ، وأَكْدَتْ(٧) مطالبى ؟ وعلام رضيت من المركب(٨) بالتعليق(٩) ؟ بل من الغنيمة بالإِياب(١٠) ؟ وأنى غلبنى الغلب(١١) ، وفجر(١٢) على العاجز الضعيف ولطمتنى(١٣) غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس ؟ وتدركنى ولما أمزَّق(١٤) ؟ ! أم كيف لا تضطَرِمُ(١٥) جوانح(١٦) الأَكفاء(١٧) حسدا لى على الخصوص لك ؟ وتنقطع أَنفس(١٨) النُّظراء(١٩) منافسة(٢٠) لى على الكرامة فيك

---

(١) أفسد . (٢) ضد البر . (٣) وسائلى . (٤) الهلاك . (٥) ما أتقرب به . (٦) طرقى . (٧) ردت . (٨) الركوب . (٩) المراد تعليق الأمتعة . (١٠) الاياب : الرجوع . (١١) الغلب : المغلوب مرارا (١٢) فجر : اجترأ . (١٣) ضربتنى على وجهى براحتها (١٤) اقطع ، يستفهم عن سبب افساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل الرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحتى رضى من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالما واجترأ عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلابا وظلمه من لم يكن له كفؤا . وقد ضمن عبارته من الامثال ما هو كالسحر الحلال (أولها) ارض من المركب بالتعليق يضرب فى القناعة بادراك بعض الحاجة (وثانيها) رضيت من الغنيمة بالاياب يضرب فى القناعة بالسلامة وهو مأخوذ من قول امرىء القيس :

لقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله :

فانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن وخامسها (لو ذات سوار لطمتنى) قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة ــ والثلاثة تضرب عند العجز والذلة ــ ويشير الى قوله المنقب العبدى :

فان كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق

وفى هذا الاستفهام تحضيض له على انجاده وسرعة انقاذه .

(١٥) تتقد . (١٦) أضلاع . (١٧) الأمثال .

(١٨) جمع نفس . (١٩) جمع نظير . (٢٠) رغبة شديدة .

وقد زانني اسم خدمتك ، وزهاني(١) وسم(٢) نعتك ، وأبليت(٣) البلاء الجميل فى سماطك(٤) ، وقمت المقام المحمود على بساطك ؟ !

ألست الموالى(٥) فيك غُرَّ قصائد هى الأَنجُمُ اقتادت مع الليل أنجما(٨)

ثناءٌ يظل الروضُ منه منوَّراً ضُحى ويخال الوشى(٦) فيه منمنما(٧)

وهل لبِس الصباحُ إلا بُرداً(٨) طرَّزته(٩) بفضائلك ، وتقلدت(١٠) الجوزاءُ(١١) إلا عقداً فصَّلتهُ(١٢) بمآثرك ، واستملى(١٣) الربيعُ إلا ثناءً أمليته فى محاسنك ، وبثَّ(١٤) المسْك إلا حديثاً أذعته(١٥) فى محامدك ؟ (ما يوم حليمة بسرٍّ) وإن كنت لم أكسك سليباً(١٦) ! ولا حليتك عُطلا ! ولا وسمتك غفلاً(١٧) بل وجدت آجُرًّا(١٨) وجصًّا(١٩) فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت :

---

(١) الزهو : الكبر (٢) علامة (٣) جربت
(٤) السمط : الصف من الناس (٥) المتابع
(٦) ضرب من الحرير ذو ألوان (٧) ثوب موشى بألوان فيها البياض ـ لقد أتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ ـ وذلك من الاعتراف لسيده بأنه قد أوقد النار فى قلوب الحساد والنظراء بتعهده له بالانعام بالصلاة حتى انطلق لسانه فيه بالمدائح التى طلعت من الليل أنجما والثناء الذى زهرت به الرياض ووشيت به حلل الفضل والبيتان من قصيدة البحترى يعاتب بها الفتح بن خاقان (٨) رداء (٩) علمته (١٠) لبست (١١) برج (١٢) تفصيل العقد : جعل خرزة بين كل لؤلؤتين (١٣) طلب الاملاء (١٤) نشر (١٥) أشعته : والمعنى أن فضائلك التى نشرتها فى مدائحك ظهرت للعين ظهور الصباح حتى انه لا يضىء الا بسببها : وأن عقد الجوزاء لم ينشرها فيه الا لكونه استملى من الثناء المملوء بمحاسنك . ثم أثبت أن ما تقدم حقائق ثابتة بقوله «مايوم حليمة بسر» وهو مثل عربى يضرب فى فشو الأمر وانتشاره (١٦) مساويا (١٧) عادم العلامة (١٨) الطين المحرق (١٩) الجير : أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه باذاعة المحاسن ونشر المدائح وانه اخترع له هذه السجايا والخلال حيث يقول له : انى لم أمدحك الا بما هو فيك من خصائص الخصال وجميل الخلال وانما أنا صغتها فى القالب الذى يلفت الأنظار ويجلى صدأ الأفكار .

حاشا(١) لك أن أُعدَّ من العامِلة الناصبة(٢) ، وأكون كالذبالة(٣) المنصوبة ، تضيءُ للناس وهى تحترقُ ، فلك المثل الأَعلى(٤) ، وهو بك وبى فيك أولى ، ولعمرك(٥) ما جهلت أن (صريح الرأى(٦) أن أتحول إذا بلغتنى الشمس و (نَبَا بى المنزل (٧)) وأصفح (٨) عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال فلا (أستوطئُ العَجْز(٩)) ولا أطمئن (١٠) إلى الغُرُور (١١) ، ومِنَ الأَمثال المضروبة : خامرى(١٢) أُم عامر(١٣) .

---

(١) تنزيها لك (٢) من النصب : وهو التعب (٣) الفتيلة (٤) الصفة العليا ـ بعد أن عمل جهد المستطيع فى الثناء عليه أراد ان يستميله بلطف ليجعل لعمله فائدة ونتيجة فنزهه عن ان يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث عملوا وتعنوا فى الدنيا فيما لم يعد عليهم منه فائدة فى الأخرى ، ويشير الى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية) الآية والى قول العباس بن الأحنف :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق

وبالغ فى التلطف بقوله : فلك المثل الأعلى والصفة العليا من التجاوز والصفح وأنت أولى من صفح عن زلة المسيء ، وأنا اولى من ادخرت مودته بالصفح عنه وما أحسن قوله وهو بك الخ . كأنه يقول هو بك أولى وهو بى كذلك اذا كان فيك فكلا الحالين مخصوص بك وما ألطف ما ينسب الى الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الامام أحمد بن حنبل :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
أن زرته فلفضله أو زارنى فلفضله فالفضل فى الحالين له

(٥) حياتك (٦) شديدة (٧) نبابى المنزل : لم يوافقنى (٨) أعرض (٩) استوطىء العجز : أجده لينا سهلا (١٠) أميل (١١) ما يغتر به من متاع الدنيا (١٢) اشترى (١٣) كنية الضبع ، يقسم بحياة سيده أنه جهل أن سديد الرأى وجوب التحول عن مقام الاهانة متى شعر بلحاقها به كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة الخذلان ومقطع اعناق الرجال وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستسهل العجز ولا يميل الى الغرور ولكن خابت آماله وانعكست أحواله فكان الغرور نصيبه والأمل قائده فاغتر كما اغتر الضبع بقول القائل خامرى أم عامر . يشير الى قول أبى تمام : =

وإنى مع المعرفة أن الجلاءَ(١) سباءٌ(٢) والنقلة(٣) مثلةٌ (٤) :

ومن يغتربْ عن قومه لم يَزل يَرى مصارعَ مظلوم مجراً ومحسبا
وتُدفن منه الصالحاتُ وإن يسئْ يكن ما أَساء النار فى رأْس كبكبا(٥)

عارفٌ أَن الأَدب الوطنُ لا يُخشى فراقه ، والخليط(٦) لا يتوقع زياله(٧) والنسيب(٨) لا يخفى ، والجمان لا يُجفى(٩) .

ثم ما قران(١٠)السعد بالكواكب أَبهى أَثرًا ، ولا أَثنى خطرا(١١)من اقتران غِنى النفس به ، وانتظامها نسقاً(١٢) معه ، فإن الحائز(١٣) لهما الضارب بَسهم فيهما ــ وقليلٌ ماهم(١٩) ــ أَينما توجَّه ، وردَ منهل (١٥) بر ، وحط فى جناب(١٦) قبول ، وضوحك قبل إنزال رَحله ، وأعطى حكم الصبى على أَهله

= وان صريح الرأى والحزم بامرىء اذا بلغتــــه الشمس أن يتحــولا
والى المثل العربى « العجز وطىء » يضرب لمن استلان فراش العجــز وقعد عن طلب المكاسب وقوله خامرى الخ مثـــل يضرب لمن عــرف الدنيا وتقلباتها ثم يميل اليها ويغتر بها .

(١) الخروج عن الوطن (٢) أسر (٣) الانتقال (٤) تنكيل (٥) جبل
(٦) المخالط (٧) مفارقته (٨) ذو النسب (٩) لا يهجر : بعد أن بين
لسيده انه لا يجهل أن الصواب التحول أراد أن يبين له انه يعرف أيضــا ان
الانتقال فيه التمثيــل والنــكال وأن الغربة كربة والنوى توى وأن حسنات
الغريب مهجورة وسيئاته منشوره فقال انى مع معرفتى بأن خـــروجى من
وطنى قسر لى ودفن لمحاسنى وانتقالى منه الى غيره مع عدم معرفة أهــل
هذه الجهات بما أنا متحل به من العلوم والاداب والكمالات تنكيل بمحاسنى
وتضييع لبهجة كمالاتى فيجهل قدرى وتهضم حقوقى وتدفن منى الصالحات
وتشاع على قلتها السيئات غير انى لا أعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقى بل
وطنى الذى أعول عليه انما هو ملازم لى اينما حللت وارتحلت لا اخشى فراقه
وهو سميرى الملازم لى فلا أتــوقع غيابه وان النسيب اينما حل فهو معروف
وأينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك فلا يخشى من الانتقال بأسا ولا من
التحول ضيما ــ والبيتــان للاعشى ،والنقلة مثـلة ــ مثـــــل مــــولد
(١٠) مصاحبة (١١)قدرا (١٢) النسق من الكلام وغيره ماجاء على نظام واحد
(١٣) الجامع (١٤) قليل ماهم . يريد بذلك التعريض لســــيده بأنه لا
نظير له فى أخلاقه وآدابه (١٥)عين (١٦) ناحية . بعد أن بين أن الأدب
كبير النفع عظيم الفائدة حتى جعله وطنا فى الغربة وفرجة عند الكربة بين =

وقيلَ له أَهلاً وسهلاً ومَرحَباً فهذا مَبيتٌ صالح ومقيل

غير أَن الوطنَ محبوبٌ ، والمنشأَ مأْلوفٌ ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه ، حنين النجيب(١) إلى عَطَنِهِ(٢) . والكريمُ لا يجفو أَرضاً بها قوابله(٣) ، ولا ينسى بلدًا فيها مراضعُه ـ قال الأَول :

أَحبُّ بلاد الله ما بين مَنْعَجٍ(٤) إلَيَّ وسلمى أَن يصوبَ سحابها

بلاد بها حل الشباب تمائمى(٥) وأَول أَرض مسَّ جلدى ترابُها

= أنه يكون أكبر نفعا وأعظم جدى اذا صاحبه غنى النفس فان المتحلى بحلاهما القابض على زمامهما أينما يمم فالسعد قرينه والناس أهله يقبلون عليه من كل جانب ويعظمونه كل التعظيم لاول وهلة أين جرى نظره يعطونه حكم الصبى على أهله يفعل ما يريد كالسيد بالعبيد ويقولون له لقيت أهلا ونزلت مكانا سهلا واسعا رحبا فأنس ولا تستوحش وكن كما تحب وتختار فأنت رب الدار . وقوله ماقران السعد الخ أخذه من قول البستى :

وأتم الاشياء نورا وحسنا بكر شكر زفت الى صهرير

ماقران السعد بالحوت أبهى منظرا من قران بر وشكر

وقوله أعطى حكم الصبى الخ : عبارة كانت تقولها العرب فى مدح من نزلوا عنده وأكرمهم وأصل البيت المذكور : فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا البيت صالح وصديق .

(١) النجيب من الابل الفحل الكريم (٢) مبرك الابل حول الماء (٣) جمع قابلة وهى من تتلقى المولود عند خروجه (٤) اسم مكان (٥) تميمة وهو ما يعلق للطفل حفظا له ، بعد أن بين له أن سديد الرأى الانتقال وانه لايخاف عاقبة ذلك لأدبه وغنى نفسه أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث فقال ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف

ما من غريب وان أبدى تجلده الا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو فهو أول أرض وجد بها وأول تربة تضمخ به جسده وأول بقعة نما فيها فكره وأول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع اخوان وأحباب وخلان وأتراب ـ فاذا تذكر هذه الجهات تخيل له رغد العيش وحسن الحال ورأى أغصان شبابه تميد على تلك الاوطان وتتمايل مع النسيم تمايل البان فيحن اليها حنين الغريب الى وطنه . وانه ليس من كرم الاصل وشرف =

هذا إلى مُغالاتى(١) بعقد جوَارك ، ومُنافستى(٢) بلحظةٍ من قرْبك واعتقادى الطمع فى غيرك طبع(٣) والغنى ممن سواك عناء ، والبدل منك أَعور ، والعوض لغاء(٤) ، وكل الصيد فى جوْفِ الفرا(٥) .

وإذا نظرتُ إلى أَميرى زادَنى ضنا به نظرى إلى الأَمراءِ

وفى كلِّ شجر نار ، واستحمد (المرح والعقار)(٦) ، فما هذه البراءَةُ ممن

= المحتد أن يهجر الانسان قوابله ومراضعه لما لهن عليه من الخــير العميم والفضل الجسيم فى أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن فى ابان الكبر حتى يجنين ثمرات أتعابهن ويسررن بحسن معاملته لهن والبيتان لبعض الاعراب.

(١) مجاوزتى الحد (٢) رغبتى فيك على وجه المبــادرة (٣) دنس (٤) خسيس (٥) حمار الوحش (٦) نوعان من الشجر سريعا الورى .

واستحمد : استفضل وقيل اقتدح على الهوينا ــ بعد أن بين محبــة الوطن وألفة المنشأ ، وسبب ذلك الطبيعى :أراد أن يبين للامير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد الحامل على المكث بل انضم اليه ما هو أشد منه تأثيرا وأعظم خطرا ألا وهو شدة محبنى لجوارك وحظوتى بقربك ، وأنت أكرم من حفظ للجوار حرمته ، وأوضح محجتــه • واعتقادى بأن الطمأنينة الى غيرك غرور والثقة بخلافك خذلان وعدم رضــائى بسواك بدلا ولا بغيرك عوضا وكيــف استبدل السمين بالغث والراحة بالتعب أم كيف أنظر الى غيرك من الأمراء ، وغيرك فيك :

وليس على الله بمســـتنكر أن يجمع العــالم فى واحـــد

نعم وان اشتركوا معك فى اللقب الا أنهم لم يشتركوا معك فى كمال الأدب وفى كل شجر نار واستحمد المــرح والعقار وفى ذلك من استمالة القلب مــا يدهش الاب وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يذرى باللآل ــ فأولها « رب طبع يجر الى طمع » وثالثها «كل الصيد فى جوب الفرا » وهو يضرب لمن يفضل نفسه على أقرانه وثانيها « البدل منك أعور » يضرب لكل ما لا يرتضى به ، وأصله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلى وكان شحيحا أعور قال النــاس هذا بدل أعور ــ ورابعهــا « رضى من الوفاء باللقاء » يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير ــ خامسها « وفى كل شجر نار واستحمد المرح والعقار » يضرب فى تفضــيل بعض المشتركين فى صفة على بعض .

يتولاك(١) ؟ والمَيلُ عمن لا يميلُ عنك ؟ ! ــ وهلَّا(٢) كان هواك(٣) فيمن هواه فيك ؟ ورضاك فيمن رضاه لك ؟ !

يامن يعز علينا أَن نُفارقهم   وجْدانُنا كلَّ شيءٍ بعدكم عدمُ

أُعيذك ونفسى من أَن أَشيمَ(٤) خلّبا(٥) ، وأَستمطرَ جَهَامًا(٦) ، وأَكدِم(٧) فى غير مكدَم ، وأَشكو شَكْوَى الجريح إلى الغربان والرَّخم(٨) فما أَبْسَسْتُ(٩) لك إلا لِتَدُرَّ ، ولا حركت لك الحُوار(١٠) إلا لتحن ، ولا نبهتك إلا لأَنام ولا سَرَيتُ إلا لأَحْمَدَ السُّرَى(١١) لديك .

---

(١) مضارع تولاه صار وليه (٢) كلمة تحضيض (٣) ميل النفس : بعد أن بين له أنه لا يرضى سواه وأنه يفضل جواره على ماعداه وهو مع ذلك يعرض عنه ولا يميل اليه رجع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كما هو الأدب من حيث يقول كيف تتبرأ منى وأنا أواليك وتميل عنى وتهجرنى وأنا لا أميل الا اليك وهلا هويت من يهواك ورضيت من يرضاك والبيت للمتنبى (٤) شام البرق : نظر الى سحابته أين تمطر (٥) البرق الذى لا يعقبه مطر . (٦) السحاب الذى لا ماء فيه . (٧) أعض (٨) طائر ضعيف (٩) الابساس : الرفق (١٠) ولد الناقة (١١) السير ليلا ــ يطلب منه ان يجعل لأعماله نتيجة يجنى ثمرتها وأن يكون سيده غارس دوحتها وأن لا يجعله كالمسيح الماء من الصخر ، والمستجير عند كربته بعمرو والمستمطر الجهام والناظر الى البرق الخلب بل يرسل عليه عطفه مدرارا ، وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة ويقر عينا أضرها سهاد الجفوة وأن يحمد اليه سراه ويحسن عقباه ، ولقد رصع عبارته بجواهر الامثال وصاغها فى قالب غريب المثال ، يشير فيها الى قولة معد يكرب :

لا تهنى عادة اكرامك لى   فشديد عادة منتزعه
لا يكن برقك برقا خابا   ان خير البرق ما الغيث معه

والى المثل العربى « كدمت فى غير مكدم » يضرب لمن يطلب شيئا من غير أهله ، والى قول المتنبى :

ولا تشكو الى خلق فتشمتهم   شكوى الجريح الى العقبان والرخم

والى الامثال العربية : « الابساس قبل الايناس » وهو يضرب فى الرفق =

وإنك إن سَنيت(١) عقد امرى تيسّر ، ومتى أعذرت(٢) فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النّعمة ، والشّفاعة زكاة المروءة . وفَضلَ الجاه(٣) يعوذ به صدقه .

وإذا امرؤٌ أهدى إليك صنيعةً من جاهه فكأنها من ماله

لعلى أُلقى العصا بذاك(٤) وتستقرُّ بىَ النوى(٥) فى ظلّك ، وأستأنف(٦) التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أُوجِدُ للحاسد مجال(٧) لحظه(٨) ولا أدعُ للقادح(٩) مسَاغَ(١٠) لفظه .

= «حرك لها حوارها تحن» وهو يضرب فى استنهاض الهمة ، و« لها عمرا ثم نم » يضرب فيمن يعتمد على غيره ،و « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو يضرب عند حمد العاقبة .

(١) سهلت . (٢) بالغت فى طلب العذر (٣) المنزلة – يقول لسيده : انى ما كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال ولا بعد نجوم السماء ولا رمال الدهناء ، وانما هو أمر يكبر فى عين سائله ويصغر عند باذله وهو فى يدك وقبضتك وأنت قادر عليه وان سهلت عسيره سهل وان التمست المعذرة انتقت الصعوبة ، وأنت تعلم – زادك الله علما – أن النعمة شجرة ثمرها المعروف وان المروءة مال زكاتها الشفاعة وشفاعة الانسان أفضل زكاة الانسان وبذل الجاه رفد المستعين – وأيد ذلك بالبيت بعده وقوله أن سنيت مأخوذ من قول بشار :

فبالله ثق ان عز ما تبتغى وقل اذا الله سنى عقد أمر تيسرا

(٤) كل ما استترت به . (٥) ماينويه المسافر من قرب أو بعد

(٦) ابتدى . (٧) جال : طاف . (٨) نظره . (٩) الطاعن .

(١٠) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق – يقول أرجو من سيدى أن يعفو عن ذنبى وتقصيرى ويلبى ندائى ، هذا كى أسكن فى ظلك وكنفك ولا أذهب الى غيرك وتكون غاية آمالى ومنتهى أسفارى وأتوب عما كنت مرتكبه ومتمسكا به مما لا يرضيك وأتخلق بأخلاقك وأتمسك بطريقتك وأحذو حذوك وتتبع مذهبك وبذلك لايجد عدوى فى مدار لحظه ولا الطاعن ما يسوغ من لفظه . وقوله لعلى ألقى الخ حل بيت المعز بن أوس وهو :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

والله مُيسِّرك من إطلاقي(١) بهذه الطِّلبة(٢) وإشكائي(٣) من هذه الشكوى ؛ بصنيعة تُصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مُستودع حسبما أنت خليق(٤) له ، وأنا منك حريٌّ(٥) به ، وذلك بيده وهيِّن عليه .

مكاتبات متفرقة

كتب رئيس الجمهورية التركية إلى إحدى الدول الأُوربية :

أيها الوزير الأفخم – إن لفظة تقسيم (تركيا) إفكٌ لا يفوه به عاقل ؛ ولا يتصوره إنسان ، تكاد تنفطر له السماءُ دهشة ، وترتج له الأرض وحشة ، بل تخِرُّ دونه الجبال ، وتنفك عنده الآمال ، كأن أوربا تستطيعه ، ولكنها لم تفعله ولن تفعله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، فـ «قل اللهُمَّ مالك الملك ، تُؤْتى الملك من تشاءُ ، وتنزع الملك ممن تشاءُ ، وتعزُّ مَن تشاءُ ، وتذلُّ من تشاءُ ، بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير » .

تقسيم تركيا : كلمة ليست أكبر من أوربا فقط ، بل هى أكبر من منظومة هذا العالم الشمسى ، الذى تراه ، أو تسمع به ، إن كنت لا تراه ؛ فلا يليقُ أن يفوه به إلا فم القدرة الإلٰهية « القائم ع كل نفس بما كسبت والله غالبٌ على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

تقسيم تركيا : رُبما يكون ، ولكن متى يكون ؟ حينما يتحلى وجه البسيطة بدمائنا الطاهرة الزكية ، يوم ترى الأرض لابسة تلك الحلة الأرجوانية الثمينة حيث تتمشى الدماء على فيروزج الفضاء ، محاطة كواكب الوجود بكتائب جنود

(١) اسعافى (٢) ما أطلبه (٣) ازاء ما أشكوه . (٤) جـــدير .
(٥) حقيق : يقول لسيده والحمد لله الذى سهل لك مطلبى واسعافى وازالة ما أشكوه من آلام السجن بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفتك وأنا أحق الناس به لمودتى لك واخلاصى فى ولائك وما ذلك عليك بعزيز :

أن الصـــنيعة لا تكون صـــنيعة حتى تصـــيب بهـــا مكان المصنع

العدم المطلق : لا أَرض لمن تُقِلّ ، ولا سماء لمن تُظل ، ولا قائم موجود ، ولا دائم مقصود ــ هنالك تتحدث شياطين الخيال فى أَندية المحال بحديث ذلك التقسيم المشئوم ، ولا من سميع ، ولا من مجيب ؛ فالويل ثم الويل يوم ذلك التقسيم الموهوم ، والثّبور إذا تنزلت السماءُ بقضاءِ ذلك الهول المقسوم «إن فى ذلك لبلاغاً لقومٍ يتفكّرون» .

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ ﻫ فى شكر صديق له على مراسلته إياه :

وصل ما وصلتَنى به(١) ــ جعلنى الله فداك(٢) ــ من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنتك العامة(٣) فقرت عينى بوروده(٤) ، وشفيت نفسى بوُفُوده(٥) ، ونشرته فحكى نسيم الرياض غِبّ المطر(٦) ، وتنفس الأَنوار فى السَّحر(٧) ، وتأملتُ مفتَتحه وما اشتمل عليه من لطائف كلمك ، وبدائع حكمك(٨) ؛ فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك(٩) ، وضرُوب الفضل منك(١٠) جدًّا وهَزلا(١١) ماملأَ عينى ، وغمر قلبى(١٢) ، وغلب فكرى ، وبهر لُبِّى(١٣) ، فبقيت لا أدرى ! أَسُمُوط دُرٍّ خصصتنى بها(١٤) ؟ أَم عقود جوهر منحتنيها(١٥) ؟ ولا أَدرى : أَجدك أَبلغ وأَلطف ؟ أَم هزلك أَرفع وأَظرف ؟ وأَنا أَوكّل بتتبع ما انطوى عليه نفساً لا ترى

---

(١) ورد الى كتابك الذى ربطتنى به معك (٢) فداك : أى وضعنى الله مكانك فى كل مكروه حتى تخلص منه (٣) أى الذى ورد الى هو خطابك الذى أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل . (٤) فاطمأن قلبى بوصوله الى (٥) وطابت نفسى بمجيئه الى (٦) ونشرته أى فتحته فحكى نسيم الرياض غب بالمطر ، أى يشبه الريح التى تهب من البساتين بعد ما نزل المطر عليها . (٧) وأشبه تفتح الأزهار فى أواخر الليل . (٨) أى وتدبرت فى صدره رقى الكلمات الطيفة التى أودعتها فيه والحكم البديعة التى نثرتها فيه . (٩ و١٠) أى شاهدت منه أنواعا من الاكرام أثبتها فيه ، وأصنافا من الأفضال دونتها فيه . (١١) من الأمور الهامة الجديدة والامور المفرحة المازحة . (١٢) ملأ عينى : يعنى صرفها عن النظر الى غير احسانك ــ وغمر قلبى أى : لم يدع له منصرفا الى غير أفضالك . (١٣) وغلب فى فكرى أى : استحوذ على عقلى ، وبهرنى أى راع عقلى وسباه (١٤) أى عقود در قصرتها على (١٥) ومنحتنيها أى أعطيتنيها .

إلا ما اقتنيته منه(١) ، ولا تعدّ الفضل إلا فيما أَخذته عنه ، وأمتّع بتأمله عيناً لا تقر إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويرد من عندك ، وأُعطيه نظرًا لا يمله ، وطرفاً لا يطرف دونه(٢) ، وأَجعله مثالا أَرتسمه وأَحتذيه(٣) ، وأُمتع خلقى برونقه ، وأُغذى نفسى ببهجته ، وأَمزج قريحتى برقته ، وأَشرح صدرى بقراءته ، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً ، وفى تعديد ما ذكرته متخلفاً ، لقد عرفت أَنه ما سمعت به من السِّحر الحلال .

ومن كتاب للمرحوم السيد توفيق البكرى فى سفرته إلى الآستانة العلية :

كتابى إلى السيد الأَجل ، وأَنا أَحمدالله إليه ، وأَدعوه أَن يديم النعمةوالسلامة عليه . وبعد : فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام ، إلى قبَّة السلام ، ودار خلافة الإسلام ، وفارقت مصر ، وساكنها ، وأَرباضها(٤) ، ومواطنها ، ركبت سفينة عَدْوَليَّة(٥) إلى الثغور الفرنجية ؛ فجرت فى خضم(٦) عجاج ، ملتطم الأَمواج ، له دَوِىٌّ من جرجرة(٧) الآذى(٨) أَخضر الجلد ، كأَنه إفرند(٩) تصخب(١٠) فيه النينان(١١) ، وتجرى فى جوفه الدعاميص(١٢) والحيتان ، إذا مازجه الأَصيل(١٣)بالعشى خِلته كُسِّرت(١٤)عليه الْحُلى ، أَومُزج بالرحيق(١٥) القُطْرُبلِّى(١٦) ، وإنلاحت به نجوم السماء ، خلته صفائح من فضة بيضاء سمرت بمسامير صغار نُضار(١٧) . وأَخذت السفينة تشق عُبَابه(١٨) ، وتفلق حبَابه(١٩) بين ريح رُخاء(٢٠) ، أَوزعزع(٢١) هوجاء (٢٢) ، فهى تارة فى طريق مُعبد(٢٣) ،

---

(١) اكتسبه . (٢) الطرف العين ، يطرف : يطبق جفنا على الآخر . (٣) أرسمه فى فكرى وأقتدى به . (٤) مساكنها . (٥) نسبة الى قرية عدولى بالبحرين أو نسبة الى صانعها ، والمقصود أنها أضخم سفينة (٦) البحر (٧) الصوت (٨) الموج (٩) جوهر السيف (١٠) تختلط أصواتها (١١) جمع نون وهو الحوت (١٢) جمع دعموص دودة لها رأسان ترى فى الماء اذا قل (١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس (١٤) رددت ووضعت (١٥) الخمر (١٦) بضم القاف وسكون الطاء وضم الراءوتشديد اللامالخمر المنسوب الى قطربل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالخمر الجيدة (١٧) الذهب (١٨) الموج (١٩) بفتح الحاء ما يعلو (٢٠) بضم الراء الريحاللينة (٢١) بفتح الزاءين الريح الشديدة (٢٢) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت (٢٣) مذللومسهل

ورميثٍ(١) مُسَرَّد(٢) ، وطوراً فوق حَزْن(٣) وقرْدَد(٤) ، أو على صرحٍ(٥) مُمَرَّد(٦) ، وكان معنا فى الفُلك ، رهط من العرب والترك ، فكنا نتواردَ معهم فى جوائب(٧) الأَخبار ، وطُرف (٨) الأَحاديث والأَسمار(٩) ، ما يُزْرى(١٠) بالمنهل العَذْب ، واللؤلؤ الرطب ، إلى أن يميلَ ميزان النهار ، وتغرُق ذُكاءُ(١١)فى البحار ، ويُمسى الكون من السواد فى لَبُوس حديد(١٢)أَو لِباس حداد ، وتبرُق نجومُ السماءِ فى أَكناف الظُّلماءِ ، كأَنها سِكاك(١٣) دِلاص(١٤) ، أَو فلق رَصاص ، أَوعيون جراد ، أَو جمرٌ فى خلال رماد ، أَو دُرٌّ فى بحر أَو ثُقْبٌ فى قُبَّة الدَّيْجُور(١٥) ، يلوحُ منها النور ، ويبدو الهلال كأَنه خنجرٌ من ضياء ، يَشُقُّ طيالس الظلماء ، أَو قلادة أَو دِمْلُج(١٦) غادة (١٧) ، أَو سِنان(١٨) لواه الضراب ، أَو الليل فيل وهو ناب ، فنأْخذ مجلسًا نَسَمه(١٩) الكافور ، وأَرضُه عنبر مذرُور(٢٠) رُقِمَتْ فيه زرابى مبثوثات(٢١) ، ومنابذ(٢٢) ، وحُسْبانات(٢٣) ، وأَنماطٌ(٢٤) مفروشة ، وبُسط منقوشة :

بُسط أَجادَ الرسمَ صانِعُها … وزها عليه النقْشُ والشكْلُ

فيكاد يُقطَفُ من أَزهارها … ويكاد يسقط فوقها النحل

وحولهُ شموع تزهو ، وأَضواءٌ تبهر(٢٥) ، وقد دارت عليه سُقاةٌ(٢٦) ،

---

(١) الارض السهلة . (٢) منتظم لا صعوبة فيه . (٣) الارض الصعبة . (٤) الارض المرتفعة الغليظة . (٥) القصر . (٦) مرد البناء : ملسه حتى صار ناعما . (٧) الأخبار الطارئة (٨) المحاسن . (٩) الأحاديث وأصله لأحاديث الليل (١٠) يعيب ويحقر (١١) بضم الذال ممنوعة من الصرف اسم الشمس (١٢) بفتح اللام الدرع (١٣) جمع سك المسمار (١٤) بكسر الدال الذى يبرق ويلمع (١٥) الظلام (١٦) بكسر الدال وزن درهم أو بضمهامع ضم اللام : حلى للنساء يلبسنه فى أيديهن (١٧) المرأة الناعمة لينة الأعطاف (١٨) حديدة الرمح (١٩)نسيمه (٢٠) منشور (٢١) منشورات (٢٢) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التى يتكأ أو ينام عليها (٢٣)جمع حسبانة الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها أيضا (٢٤) جمع نمط ، ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون من الألوان . (٢٥) تزهر وتبهر كلاهما بمعنى تضىء وبابهما منع . (٢٦) جمع ساق .

كجُمَّاع(١) الثريا(٢) ، بأَقداح الْحُمَيَّا(٣) ، وأكواب(٤) الفانيذ(٥) ، المرَوَّق ، وقوارير(٦) الجلاب(٧) المُصَفّق(٨) ، ثم تجىءُ قَينةٌ(٩) فى يدها ناى ، كأَنه صور إسرافيل ، يُحيي الرفات(١٠) ، ويَنْشُرُ(١١) الأَموات ، حتى إذا بدا الضِّياءُ ، كابتسام الشِّفة اللمياء ، دخلنا المضجَع لهجع ، وهَلُمَّ جرًّا (١٢) ، فى أَيامنا الأُخرى .

وكتبت السيدة وردة اليازجية إلى السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣٠٠ هـ :

سيدتى ومولاتى – أَعرض أَننى بينما أَنا أَلهج بذكر أَلطافكم السنية ، وأَتنَسَّم شذا أَنفاسكم العبقرية ، وأَترقب لقاءَ أَثر من لدنكم يتعلل به الخاطر ، ويكتحل بإثْمِدِ مداده الناظر .

وصَلَتْنى مكاتبتكم ، فَجَلَتْ عن العين أَقذاءَها ، وردت إلى النفس صفاءَها ، فتناولتها بالقلب لابالبنان وتصفحْت ما فى طيها من السحر البيَان ، فقلت :

هذا الكتاب الذى هامَ الفؤاد به يا ليتنى قَلَمٌ فى كف كاتبه

ولعمرى إنه كتاب حَوَى بدائع المنثور والمنظوم ، وتحلَّى من درر الفصاحة فأُخجلت لديه درارى النجوم ، وقد تطفلت على مقامكم العالى بهذا الجواب ناطقًا بتقصيرى ، وضمَّنتُه من مدح سجاياكم الغرَّاء ، ما يشفع لدى مكارمكم فى قبول معاذيرى ، لازلتم للفضل معدناً وذخرًا ، وللأَدب كنزًا وفخرًا .

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣١٣ هـ :

أَستهلُّ براعة سلام حَمَل الشوق رسالتَه ، وتقلدَ الشفق ما نشقَتْ ناشقة عَرْف الوداد كفالته ، ولو رضيت المجال ، فى صدق المقال ، لنطق بخالص الوفاءِ

(١) بالضم ما جمع وانضم بعضه الى بعض ومراده الغلمان (٢) سبعة كواكب منضمة بعضها الى بعض . (٣) الخمر والمراد الشراب (٤) جمع كوب الكوز المستدير الرأس لا عروة له أو لا خرطوم (٥) نوع من الحلوى فارسى معرب بانيذ . (٦) جمع قارورة : ما يوضع فيها الشراب من الزجاج (٧) ماء الورد فارسى معرب (٨) المروق الصافى (٩) المغنية (١٠) الحطام البالى ، والمراد الأموات (١١) يحييها (١٢) معناه اتصال الأمر واستدامته

مداد حروفه ، وأقام بأداءِ التحية العاطرة قبل فض ختام مظروفه ، ولعَمرى قد تَوَّجَته أَزهار الثناء بلآلئ غَرَّاء ، وكللته زواهر الوفاء ، من خالص الوداد إلى من لاتزال تَسْتَرْوح الأَسماع بنسيم أَنبائها صباح مساء ، وتتشوق الأَرواح إلى استطلاع بدرِ إنسانها الكامل أطرافا وآناء ، ومما زادنى شوقاً إلى شوق ، حتى لقد شَبَّ فيه طفل الشفق عن الطوق ، اجتلائى حديقة الورد القدسية ونافجة الأَدب المسكيَّة ؛ فيالها من حديقة رمتها أحداق الأَذهان ، فاقتبست نَوَرًا ونُورًا وانتشقَتْها مسامُّ الآذان ، فتملت طرباً وسروراً ، ومنذ سَرَّحتُ فى أَرجاءِ تلك اليانعة إنسان العيون ، وشرحت بأَفكار البصيرة أَسرار ذلك الدُّرّ المصون ، لم أَزل بين طَرَب أَتَوَشح بوشاحه ، وأَتعجَّبُ من حسن اختتامه وافتتاحه ، وجعلت أَغازل من نرجس تلك الروضة عيوناً ملكت منى الحواس وهَصَرَتْ من غصون أَلفافها كل ممشوق أَهيف مَيَّاس ، وأَتأَدب فى حضرة وردها خوفاً من شوكة سلطانها ، وأَن حياتى بجميل الالتفات ضاحكةٌ عن نفيس جُمَانه ، وإذا بالياسمين الغضِّ قد أَلقى نفسه على الثرى ونادى بلسان الإِفصاح : هل لهذه النضرة نظيرة ياتُرَى ؟! فأَشار المنثور بكفّه الخضيب أَن لا نظير لتلك الغادة ، ونطق الزنبق بلسان البيان : لاتكتموا الشهادة ، فعند ذلك صَفَّقَ الطير بأَكفِّ الأَجنحة وبَشّر ، وجرى الماءُ لإِذاعة نبإِ السرور فعثر بذيل النسيم وتكسَّرَ ، وتمايَلَتْ أَغصانها المُورِقة لسماع هذا الحديث ، وأَخذت نسماتها العاطرة فى السير الحثيث ، إذاعة لتلك البشائر فى العشائر ، ونشرًا لهذه الفضائل التى سارت مسير المَثل السائر ، فقلت بلسان الصادق الأَمين ، بعد تحقيق هذا النبإِ اليقين : هكذا تكون الحدائق وإلَّا وكذلك لتكتب الفضائل وتملى :

وحَدّثتنى ياسعد عنهم فزدتنى ... غراماً فزدنى من حديثك ياسعد

فتحمَّل عنى أَيها الصديق تحيةً إلى ربّة هاتيك الحديقة ، واشرح لديها شَغَفى بفضلها الباهر على الحقيقة ، واعتذر عن كتابى هذا فقد جاءَ يمشى

على استحياء ، وكلما حركه الشَّوْقُ يُبْطئه الحياء . وكيف وقد حلَّ فى منبع الفضائل والمقام لم يدع مقالا لقائل ، فكأنى أهدى التمر إلى هجر ، وأمنَحُ البحرَ الْخِضَمَّ بالمطر ؛ أدام الله معالى تلك الحضرة ، وزادها فى كل بهجة ونُضْرَة ، ما لاح جبينُ الهلال ، وبلغ غاية الكمال .

وكتب المرحوم السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ ه :

أُستاذى وقُدْوَتى ، وملاذى وعُمْدتى — رَبَّيْتَ فأَحسنتَ ، وغَذَّيت فأَسمنْتَ ، مُؤدِّياً ليثًا ، ولِنْتَ فسَوَّدْتَ ، وَجُدْتَ فعوَّدْتَ ، مُهَذِّباً غيثًا ، وعَلَّمت فأَفهمت ، وأَشرت فأَلهمت غَرَض سَهمك ، وقد نلتَ ما أَمَّلت ، فيمن عليه عَوَّلْتَ بحسن فَهمك :

غلامُك الشهيرُ بالنديم من صار فى البَيَان كالنسيم

وكيف لايكون لسانى قوس البديع ، وكلامى السهم السريع ، وأَنت باريه ورامیه ! أَم كيفلايكون مقامى الحِصْن المنيع ، وقَدْرِى العزيز الرفيع ، وأَنت مُعْليه وبانيه ! فوجْهُ جمالِ العلم أَنت غُرَّته ، وإنسانُ عين العلم أَنت قُرَّته ، وحاليه وجاليه ! وجبينُ العقل أَنت طُرَّتُه ، وكتاب الفضل أَنت صُورته ، وطاليه وتاليه :

على بابك العالى من الفضل رايةٌ على رأْس أَرباب المعارف تخفق
فعلمك جَنَّاتٌ وَحلمك جُنَّةٌ وكلك خيراتٌ وغَيْثُكَ مُغْدِق
أَرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه من الفضل عُرْياناً وغصنك مورق
إذا رُمْتَ إنشاء فعن صدق قريحةٍ تهادى بكارٍ ، وغيرك يسرق

وكتب أَيضاً فى التَّوَدُّد :

بينما أَنا راكب لجة بحر الفكر ، مُجِدٌّ فى طلب فريدةٍ بكْر ، تارة أَغوص ومرة أَسبحُ ، وآونة أَقفُ وطوراً أَصفح ، لايقرُّ لى قرار ولا يمكننى الفرار ولا يقصر عن طَرْح شباكى ذراع ، ولايُطوَى لسفينتى شراع ، كلما أَدركنى الملل

هاجت عَلَىَّ رياحُ الأَمَل حتى دخلتُ فى بحر عجّاج مُتَلاطِم الأَمواج ، فاقتحمت هذا المركب الصعب ، وتهتُ بين الجزائر والشّعب ، فتعلقت أَفكارى بالصَّوَارِى والحبال ، وبتُّ بليلة نجومها كواحل ، لايُرَى فيها برّ ولا ساحل ، وقلتُ : اشتداد الأَمر يستدعى ضده ، ولا يأْتى الفرج إلا بعد الشِّدَّة ؛ وعينيك ما سل سيفها عَلَى مَفْرِق مساها ، حتى سمعتُ باسم الله مجريها ومُرْساها ، فكان من تمام حظى وسُعُودى أن تركَتْ لُجَّة اليمِّ واستوت على الجودى ، وانصرف خوفى وارتباكى ، وبادرت بطرح شِبَاكِى ، فإذا هى قد مُلِئت بأَصداف الجوهر وعلقت بها شجرة العنبر ، فتفتح الصدف عن درّ يستخدم الأَقمار ، وفاح العنبر بما أَذهب شَذَى الأَزهار .

وصرت ما بينهما كسرى الزمان له شمس تُنَادِمُهُ فى مجلس عطر
ونلتُ أَقصى أَمان كنت آملُها الأُنس فى خَلَدِى والنُّور فى نظرى

ولما جلوت الظُّرْف ، بما فيها من الظُّرْف ، ووقعت عندى الموقع الحسن ، أَردت أَن أَسومها بثمن ، فإذا هى دُرَّة يتيمة ، لايقدر لها أَحدُ عَلَى قيمة ، فاستهديتها من ربها ، لشغفى بحبها ، وجعلت القلب لها كنزاً ، والفؤاد لها حِرْزاً أَلا وهى محبة العزيز الحافظ ، أَبدع مرثى وأَبلغ لافظ .

وكتب إبراهيم بك المويلحى يعزى محمود باشا سامى البارودى :

أَنت فوق أَن تُعَزّى عن الأَحبا ب وفوق الذى يعزِّيك عقلا
وبأَلفاظك اهتدى فإذا عَزَّا ك قال الذى قلت قبلا
وقتلت الزمان علماً فما يغر ب قَوْلا ولا يُجَدِّد فعلا

نعم ؛ إنك يا « محمود » الخصال و « سامى » الفعال . لأَنت الشهم المُجَرِّب لصُرُوف الحدَثان ، والعالم الخبير بأَحوال الزمان . قد أَعْدَدْتَ لنوازل المقْدُور نُزُلاً من الصبر المأْجور ، وصرفت ضيف الشُّجون والهموم ، إنى قرى الفضائل

والعلوم ، وأَخذت بِسُنَّة السلف الصالح فى مقابلة الخطوب الفوادح ، وأَنت لاشك عندنا آخذ فيما دهمك اليوم من المصاب العظيم ، بسيرة ذلك الفيلسوف الحكيم بينما هو جالس يوماً فى الدرس بين تلاميذه ، إذ جاءه من أَخبره بأَن ابنه الوحيد مات وهو رطب الشباب غض العمر ، فلم يتولَّه الفزع ، ولم يظهر عليه الاضطرابُ ، ولم يَبْدُ على وجهه الكدر ، وما زاد على أَن استرجَعَ ، واستمر فى قراءة درسه ، فلما انتهى بادره أَحد الحاضرين من أَصحابه ممن حَيَّرتهم الدهشة فى أَمره يسأَله : كيف لم يسلبه الحزن ثوب الثبات برهةً عند مفاجأَته بالخبر ؟ فقال له « لو فاجأَتنى النازلة على غِرَّة منى لجزعتُ وحزنت ولكنى مازلت أُقَدِّرُ لابنى منذ يوم ولادته ، حُلول أَجله فى كل يوم من أَيام حياته ، ولمثل هذا اليوم كنت أَعدّه من زمان طويلٍ ، وكان كلما مضى عام من أَعوامه اعتبرتُهُ خُلسة اختلستها من الدهر ، حتى مضى على هذه العارية عِشرون عاماً ، فشكرى لله اليوم على أَن أَبقاها فى يدى طول هذه المدة ، يقوم مقام الحزن عند غيرى لدى استردادها » وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أَقبضْتُم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أَقبضتم ثمرة قلبه ؟ فيقولون : نعم . فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع فيقول: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة ، وسموه بيت الحمد » وأَنت يامحمود ، صلوات الله عليك ورحمته لقوله تعالى : (ولنبلونكم بشىءٍ من الخوف والجوع ونقْصٍ من الأَموالِ والأَنفس والثمرات ، وبَشِّرِ الصابرين ، الذين إذا أَصَابَتْهُمْ مُصيبة قالوا إنَّا للهِ وإنا إليه راجعون ، أُولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ، وأُولئك هم المُهْتَدُون) أَول من يمتثل لحكم القضاءِ ، ويسترجع عند نزول البلاءِ ، ويعمل بأَدب الدين فى التجلد والتصبر ، ويأْخذ بسيرة الحكماءِ فى التدبر والتصبر :

ومن كان ذا نفس كنفسك حُرَّة ففيه لها مُغْن ، وفيهَا له مُسل

وكتب سهل[(١)] بن هرون المتوفى سنة ٢٤٩ فى البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أَصلح الله أَمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أَهله . قال الأَحنف بن قيس :معشر بنى تميم لاتُسرعوا إلى الفتنة ، فإن أَسرع الناس إلى القتال ، أَقلهم حياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : إذا أَردت أَن ترى العيوب جَمّة ، فتأَمل عياباً ، فإنه يَعيب الناس بفضل مافيه من العيب . ومن أَعْيب العيب أَن تَعيب ماليس بعيب ، وقبيح أَن تنهى مُرْشِداً ، وأَن تُغْرَى بمُشْفق ، وما أَرَدْنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويم فاسدكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم ، وما أَخطأْنا سبيل حُسن النِّية فيما بيننا وبينكم ، وقد تعلمون أَنَّا ما أَوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأَنفسنا قبلكم ، وشُهرْنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول فى ذلك ماقال العبد الصالح لقومه «وما أُريد أَن أُخالفكم إلى ما أَنهاكم عنه ، إن أُريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلْتُ وإليه أُنيب » فما كان أَحقنا منكم فى حُرمتنا بكم ، أَن ترعوْا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العُذْر المبسوط بَلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر ، لرأَينا فى أَنفسنا عن ذلك شُغْلا .

عبتمونى بقولى لخادمى : أَجيدى العجين فهو أَطيب لطعمه ، وأَزيدُ فى ريعه[(٢)] ، وقد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : «املكوا[(٣)] العجين ، فإنه أَحد الريْعين » .

وعبتُمونى حين ختمتُ على مافيه شىء ثمين من فاكهة رطبة نقِيَّة ، ومن

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون وقد وضع كتابا حاكى به كتاب « كليلة ودمنة » وسماه « ثعلة وعفرة » وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون .

(٢) الريع النماء والزيادة . (٣) املاك العجين : انعام عجينة .

رُطبة غريبة، على عبدٍ نهِم، وصبى جَشِع، وأمة لكْعاء(١)، وزوجةٍ مُضيعة.

وعبتمونى بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مِزود سويق(٢) وعلى كِيس فارغ. وقال: «طينه من طيِّه»(٣) فأمسكتم عمن ختم على لاشىء، وعبتُم من ختم على شىء.

وعبتُمونى أن قلت للغلام: «إذا زدتَ فى المرق فزدْ فى الإنضاج، ليجتمع مع التأدم باللحم طيب المرق».

وعبتُمونى بخَصْف(٤) النعل، وبتصدير(٥) القميص، وحين زعمت أن المَخْصُوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشد، وإن الترقيع من الحزم، والتفريط من التَّضْييع، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقِّع ثوبه، ويقول: «لو أُهدى إلىّ ذِرَاع لقبلت، ولو دعيت إلى كُراع لأَجبت».

وقالت الحكماءُ: لاجديد لمن لم يَلبس الْخلِق، وبعث زياد رجلاً يرتاد لهُ مُحَدِّثًا واشترط عليه أن يكون عاقلاً، فأتاه به موافقًا، فقال له: أَكُنت به ذا معرفة؟ قال: لا. ولكنِّى رأيته فى يوم قائظ، يَلبس خلقًا ويَلبس الناس جديدًا. فَتَفَرست فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الْخَلِق فى موضعه، مثل الجديد فى موضعه، وقد جعل الله لكل شىءٍ قدرًا، وسما به موضعاً، كما جعل لكل زمان رجالاً، ولكل مقام مقالاً. وقد أحيا الله بالسم، وأمات بالدواءِ، وأغص بالماءِ. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة، ولبس سالم بن عبد الله جلد أُضحية. وقال رجل لبعضِ الحكماءِ: أُريد أن أُهدى إليك دجاجَة، فقال: إن كان لابد فاجعلها بيوضاً.

(١) اللكعاء: الحمقاء (٢) المزود: وعاء الزاد والسويق: شراب يتخذ من الحنطة أو الشعير (٣) طينه من طان الشىء أى ختمه بالطين «طيه» من الطوى وهو الجوع. (٤) خصف النعل: خرزها (٥) تصدير القميص: أن يجعل لصدره بطانة.

وعِبْتمونى حين قلت : من لم يَعرف مواضع السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضعَ الاقتصاد فى الممتنع الغالى . ولقد أُتيت بماءٍ للوضوءِ على مبلغ الكفاية وأشدّ من الكفاية ، فلما صِرْت إلى تفريق أجزائه على الأَعضاءِ ، وإلى التَّوْفير عليها من وَضِيعة (١) الماءِ ، وجَدْت فى الأَعضاء فضلا عن الماءِ ، فعلمت أَنْ لوْ كنت سَلكت الاقتصادَ فى أَوائله لَخَرج آخره على كِفاية أَوّله ، ولكان نصيب الأَوّل كنصيب الآخر . فعبتمونى بذلك وشَنَّعتم علىّ ، وقد قال الحسن ، وذكر السرف : « أَمَا إِنه ليكونُ فى الماءِ ، والكلأْ » فلم يرْض بذكر الماء حتى أَردفَه الكلأَ .

وعبتمونى أَن قلت : لا يَغترّنّ أَحدكم بطول عمره ، وتَقْويس ظهره ، ورقّة عظمه ، ووهْن قوّته . وأَن يرَى نحوه أَكثر ذرِّيّته ! فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السَّرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمّرًا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السن وهو لايشعُر . ولعله أَن يُرْزق الولدَ على اليأْس ، وَيَحْدُث عليه من آفات الدهر مالا يخطُر على بال ولا يُدْركه عقل ، فيستردّه ممن لا يرده ، ويَظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أَصْعبَ ما كان عليه الطَّرب ، وأَقبَح ما كان به أَن يُطلب ؛ فعِبتُمونى بذلك . وقد قال الأَول : « اعمل لدنياك كأَنك تعيش أَبدًا ، واعمل لآخرتك كأَنك تموت غدًا » .

وعبتمونى بأَن قلت : بأَن السّرَف والتبذير إلى مال المواريث ، وأَموال الملوك ، وإلى مالا يُعَرّض فيه بذهاب الدين ، واهتِضام العِرْض ، ونَصْب البَدن واهتضام القلب أَسرع ، وأَن الحفظ للمال المكتسب ، والغنى المحتَلب أَقرب ، ومن لم يَحْسِب نفقته لم يحْسِب دخله ، ومن لم يحْسِب الدخل ، فقد

(١) الوضيعة هنا : النقص .

أَضاع الأَصل ومن لم يعرف للغنى قدره ، فقد أُوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذلّ .

وعبْتُمونى بأَن قلت : إنّ كَسْب الحلال يضمَن الإنفاق فى الحلال ، وإن الخَبيثَ يَنزِع الخبيث ، وإن الطيّب يدعو إلى الطيّب ، وإن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الهُدى ، فعِبتم عَلَىّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أَرَ تبذيرًا قط إلا وإلى جَنبِهِ تَضييع ، وقد قال الحسن : إن أَردتم أَن تَعرفوا من أَين أَصَابَ الرجل ماله ، فانظروا فيماذا يُنْفِقه ، فإن الخبيثَ إنما يُنفَق فى السرف ، وقلت لكم بالشَّفقة عليكم ، وحُسن النظر منّى لكم ، وأَنتم فى دار الآفات ، والْحَوائج غير مأْمونات فإن أَحاطت بمال أَحدكم آفة لم يَرْجع إلا إلى نفسه ، فاحذروا النِّقم باختلاف الأَمكنة فإن البنية لاتجرى فى الجميع إلا بموت الجميع ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى العبد والأَمَة والشَّاة والبعير : فرّقوا بين المنايا . وقد قال ابن سِيرين لبعض البَحْريين : كيف تَصْنَعون بأَموالكم ؟ قالوا : نُفَرقها فى السفن ، فإن عَطِب بَعض سلم بَعض ، ولولا أَن السلامة أَكثر ما حَمَلنا أَموالنا فى البحر ، قال ابن سيرين « تحْسبها خرْقاءَ وهى صَناع »(١)

وعبتمونى بأَن قلتْ لكم عند إشفَاقى عليكم : إن للغنى لسُكْرًا ، وللمال لنَزوْة(٢) ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره ، فقد أَضاعه ، ومن لم يرْبِط المالَ بخوف الفقر فقد أَهمَله .

فعبتمونى بذلك ، وقد قال زيد بن جَبلة : ليس أَحد أَقصر عقلاً من غنىٍّ أَمِنَ الفقر ، وسُكر الغنى أَكثر من سُكر الخمْر ؛ وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برْمَك :

وَهوبٌ تِلادَ المال فيما يَنوبه مَنوعٌ إذا ما منعه كان أَحزما

وعبتمونى حين زعمتم أَنى أَقدم المال على العلم ، لأَن المال به يفاد العلم ،

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقظ .
(٢) النزوة الثورة أو الوثبة .

وبه تقَوم النفس ، قبل أَن تعرف فضل العلم ، فهو أَصل ، والأَصل أَحقّ بالتفضيل من الفرع ، فقلتم : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأَغنياء أَفضَل أَم العلماءُ ؟ قال : العلماءُ . قيل له : فما بال العلماء يَأْتُون أَبواب الأَغنياء أَكثر مما يأْتى الأَغنياءُ أَبواب العلماءِ ؟ قال : ذلك لِمَعْرِفَة العلماءِ بفضل المال ، وجهل الأَغنياءِ بحق العلم . فقلت : حالهما هى القاضية بينهما ، وكيف يَسْتَوِى شىء حاجةُ العامة اليه ، وشىء يَغْنى فيه بعضهم عن بعض ؟ ؟

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأْمُر الأَغنياء باتخاذ الغَنَم ، والفقراء باتخاذ الدّجاج . وقال أَبو بكر رضى الله عنه : إنى لأَبغض أَهل بيت يُنْفِقُون نفقة الأَيام فى اليوم الواحد . وكان أَبو الأَسود الدُّؤلى يقول لولده : إذا بسط الله لك الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض .

وعبتمونى حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون فى البيت إذا احْتِيج إليها اسْتُعْمِلت ، وإن اسْتُغنى عنها كانت عُدَّةً . وقد قال الحُصَيْنِ بن المُنْذِر : وَدِدْت أَنّ لى مثل أُحُدٍ ذهبًا لا أَنتفع منه بشىءٍ . قيل له : فما كنت تصنع به؟ قال : لكثرة من كان يخدمنى عليه ، لأَن المَال مخدوم . وقد قال بعض الحكماءِ : عليك بطلب الغِنَى ؛ فلو لم يكن فيه إلا أَنه عِز فى قلبك وذلّ فى قلب عَدُوّك ، لكان الحظُّ فيه جسيما والنَّفع فيه عظيما .

ولسنا ندع سيرة الأَنبياء ، وتعليم الخلفاءِ ، وتأْديب الحكماءِ ، لأَصحاب اللهو ، ولستم عَلَىّ تردّون ولا رأْيى تفنِّدون ، فَقَدّموا النظر قبل العَزْم ، وأَدْرِكُوا مالكم قبل أَن تُدْرِكُوا مآلكم ، والسلام عليكم .

الكلام على الرسائل العلمية

الرِّسالات العلمية ، هى : مقالاتٌ فى المطالب العلمية أَو المسائل الأَدبية ، وإنما سُمِّيت بالرسالات ، لأَن أَصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم ، ويسلك فيها

صاحبها مناهج الاسترسال ، والمخاطبات البليغة . وقد أفردنا لها كتابنا «أسلوب الحكيم ، فى منهج الإنشاء القويم» فارجع إليه إن شئت .

الفن الثانى فى المناظرات

للمناظرة ثلاثة شروط : (الأول) : أن يُجمع بين خصمين متضادين ، أو متباينين فى صفاتهما ، بحيث تظهر خواصُّها كالربيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاء . (الثانى) : أن يأْتى كلٌّ من الخصمين فى نصرته لنفسه ، وتفنيد مزاعم قِرْنه ، بأَدلة من شأْنها أن ترْفَع قدره ، وتحُطَّ من مقام الخصم ، بحيث يميل بالسَّامع عنه إليه . (الثالث) : أن تُصَاغ المعانى والمراجعات صوغاً حسناً ، وتُرَتب على سِياق مُحكم ليزيد بذلك نشاط السَّامع ، وتنمى فيه الرّغبة فى حلّ المشكل .

ولنذكر لك عليها شذرات من أقوال الكتَّاب فنقول :

مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنو شروان فى شأْن العرب

رَوى ابن القُطامى عن الكلْبى قال : قدِمَ النعمان بن المنذر على كِسرى ، وعنده وفُود الرُّوم ، والهند ، والصين ؛ فذكروا من ملوكهم وبلادهم ؛ فافتخر النعمان بالعَرَب وفَضَّلهم على جميع الأُمم ، لايَسْتثْنى فارس ولا غيرها ، فقال كِسرى ، وأَخَذَتْهُ عزَّة المُلك : يانعمان ، لقد فكَّرْتُ فى أَمر العرب وغيرهم من الأُمم ، ونظرت فى حالة من يُقْدِم علَىَّ من وفُود الأُمم . فوجدت للرُّوم حَظًّا فى اجتماع أُلفتها ، وعظم سُلطانها ، وكثرة مدائنها وَوَثِيق بُنيانها ، وأَن لها دِيناً يُبَيِّن حلالها وحرامها ، ويرد سفيهها ويقيم جاهلها . ورأَيت الهند نحواً من ذلك فى حِكْمَتها وطِبِّها ، مع كثرة أَنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أَشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها . وكذلك الصِّين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أَيديها وَفُرُوسيتها ، وهِمَّتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأَن لهاملكاً

يَجْمعُهَا ــ والترك والخزَرُ على ما بهم من سوء الحال فى المَعَاشِ ، وقلة الرِّيف والثِّمار والحُصُونِ ، وما هو رأْس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لَهم ملوك تَضم قَواصِيهَمُ ، وتُدَبِّر أَمرهم ؛ ولم أَرَ للعرب شَيئاً من خصال الخير فى أَمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ، ولا قوة ، ومع أَن مما يَدُلّ على مهانتها وذلها ، صِغَر هِمَّتها ، محِلتهم التى هم بها مع الوحوش النَّافرة والطيور الحائرة ، يقتلون أَولادهم من الفاقة ويأْكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعِم الدُّنيا وملابسها ومَشَارِبها ولَهْوِها ولذَّاتها ، فأَفضل طعام ظَفر به ناعمهم لُحوم الإِبل التى يَعافها كثير من السّباع لِثِقلها ، وسوءِ طعمها ، وخوف دائها ، وإِن قرى أَحدُهم ضعيفاً عَدَّها مكرُمَة ، وإِن أُطعم أَكلة عدَّها غنيمة ، تنطق بذلك أَشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه التَّنُوخية التى أَسَّس جَدِّى اجتماعَها وشدّ مملكتها ، ومنَعها من عدُوّها ، فجرى لها ذلك إِلى يومنا هذا ، وإِن مع ذلك آثارًا ولبُوساً ، وقرًى وحصُوناً ، وأُمورًا تشبه بعض أُمور الناس (يعنى اليمن) .

ثم لا أَراكم تَستكينون على ما بكم من المذَلة ، والقلَّة ، والفاقة ، والبُؤْس ، حتى تفتخروا ، وتريدوا أَن تنزلوا فوْق مراتب الناس .

قال النعمان : أَصلح الله الملك . حَقٌّ لأُمةٍ الملك مِنها أَن يَسمُو فضلها ، ويَعظُمَ خطبها ، وتعلو درجتها . إِلا أَنَّ عندى جَواباً فى كل ما نطق به المَلك فى غير ردٍّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإِن أَمَّنى من غضبه نطقْتُ به . قال كسرى : قل فأَنتْ آمن . قال النعمان : أَما أُمتك أَيها الملك : فليست تنازِعُ فى الفضل لموضعها الذى هِيَ به من عقولها وأَحلامها وبَسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما أَكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأَمَّا الأُمم التى ذكرْت فأَية أُمَّة تقرنها بالعَرَب إِلا فضلتها . قال كسرى : بمَاذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحُسن وُجوهها وبأْسها وسخائها وحكمة أَلسنتها ، وشدة عقولها وأَنفتها ووفائها .

فأَمَّا عزُّها ومنعتها ، فإِنها لم تزَل مُجَاورَة لآبائك الذين دوَّخوا البلاد

ووطَّدُوا المُلك ، وقادوا الجنْد ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم يَنلْهم نائل ، حُصونُهم ظُهور خيلهم ومِهَادُهم الأَرض ، وسقوفُهم السماء ، وجُنَّتهم السُّيوف ، وعُدّتهم الصَّبر – إذْ غَيْرها من الأُمم ، إنما عزُّها الحجارة والطين ، وجزائر البُحُور .

وأَما حُسن وُجُوهها وأَلوانها : فقد يُعْرَف فَضْلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنْحَرفين ، والصِّين المُنْحَفة ، والترْك المَشوَّهَة ، والرُّوم المُقَشَّرَة .

وأَما أَنْسَابُهَا وأَحسابُها : فليست أُمّة من الأُمم إلا وقد جَهِلت آباءها وأُصولها وكثيراً من أَولها ، حتى إن أَحدَهم لَيُسْئل عَمَّن وراءَ أَبيه دنيا فلا يَنْبُهُ ولا يعرفه ، وليس أَحد من العَرَب إلا يُسَمِّى آباءه أَباً فأَباً ، حَاطوا بذلك أَحسابهم ، وحَفِظوا به أَنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا يَنْتسب إلى غير نسبه ، ولا يُدعى إلى غير أَبيه .

وأَما سخاؤُها : فإن أَدْنَاهم رَجلاً الذى تكون عنده البَكْرَة والنَّاب ، عليها بَلاغه فى حموله ، وشَعبه ورِيه ، فيطرِقه الطارِق الذى يكتفى بالفلذة ، ويجتزِى بالشربة فَيعقرها له ، ويَرْضى أَن يخرج عن دنياه كلّها . فيما يكسبه حُسْن الأحدوثة ، وطَيِّب الذِّكر .

أَما حِكْمة أَلسنَتهم : فإن الله تعالى أَعطاهم فى أَشعارهم ، وَرَوْنق كلَامهم وحسنه ووَزْنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأَشياءِ وضَرْبهم للأَمثال وإبلاغهم فى الصِّفات ، ما ليس لشىءٍ من أَلسنة الأَجناس . ثم خيلهم أَفضل الخيل ، ونِسَاؤهم أَعفُّ النسَاء ولبَاسُهم أَفضل اللباس ، ومَعَادِنَهُم الذَّهب والفضة ، وحجارة جبالهم الْجَزْع ومطاياهم التى لا يُبلغ على مِثْلِهَا سَفَرٌ ، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قَفْرٌ .

وأَما دِينها وشَرِيعتها : فإنهم مُتَمسكون به حتى يبلغ أَحدُهم من نسكهِ بدينه أَن لهم أَشْهُراً حرُماً محرَّماً ، وبَيْتاً محْجوجاً ، ينسكُونَ فيه مَنَاسكَهم ، ويذْبحون فيه ذَبائحهم ، فَيَلْقى الرجل قاتلَ أَبيه أَو أَخيه ، وهو قادر على أَخذ ثأْره وإدْراك رَغمه منهُ ، فيَحْجزه كرَمه ويمنعُه دينه عن تَنَاوله بِأَذى .

وأَمَّا وَفاؤها : فإنَّ أَحدَهم يلحظ اللحظةَ ، ويُومِئُ الإِيماءَة ، فهى وَلْتٌ (أَى عهدٌ) وعُقْدَةٌ لا يحلها إلا خُرُوج نفسه ، وإنَّ أَحدهم يرفعُ عُودًا من الأَرض فيكون رَهناً بدينْه ، فلا يَغلق رهْنُه ، ولا تخفر ذِمَّته . وإنَّ أَحدَهم ليَبْلُغه أنَّ رجلاً استَجَارَ به ، وعسى أَن يكون نائياً عن داره فيُصاب فلا يرضى حتى يُفنِى تلك القبيلة التى أَصابته ، أَوْ تَفنَى قبيلته لما أُخفر من جوَاره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أَنفُسهم دُون نفسه ، وأَموالهم دُون مالِهِ .

وأَمَّا قولك أَيها الملك يَئِدُون أَوْلادهم فإنما يفْعله من يفعله منهم بالإِناث أَنفةً منَ العار ، وغَيرَة من الأَزواج .

وأَما قولُك إن أَفضل طعامهم لُحوم الإِبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دُونها إلا احتقارًا له ، فعَمدُوا إلى أَجلِّهَا وأَفضلها ، فكانت مراكيهم وطعامهم مع أَنها أَكثرُ البهائم شُحُوماً ، وأَطيَبُهَا لُحوماً ، وأَرقها أَلباناً ، وأَقلها غائلة ، وأَحلاهامُضغة ، وأَنه لا شيءَ من اللحمان يُعالج به لُحمها إلا استبان فَضلهاعليه .

وأَما تحارُبُهُمْ وأَكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرَجل يسوسهم ويَجْمَعُهُم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأُمم إذا أَنِست من نفسها ضعفاً ، وتخوَّفت نُهوض عدُوِّها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أَهلُ بَيت وَاحِدٍ يُعرَف فضلُهم على سائر غيرهم ، فَيلقُون إليهم أُمورهم ، وَيَنقادُون لهم بأَزِمَّتهم .

وأَما العرب فإنَّ ذلك كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاوَلوا أَن يكُونوا مُلوكا أَجمعين مع أَنفتهم من أَداءِ الْخَرَاج والوطث (أَى الضرْب الشَّديد بالرِّجل على الأَرض) بالعَسف .

وأَما اليمن التى وَصفها الملك ، فانما أَتى جَدّ الملك إليها الذى أَتاه عند غلبة الجيش له على مُلك مُتَّسق ، وأَمر مُجْتمع ، فأَتاه مسلوباً طريدًا مُستَصرِخاً ، ولوْلا

ما وُتِر به مَنْ يليه من العرَبِ لمال إلى مجَال ، ولَوَجَدَ مَنْ يُجيد الطِّعان ، ويَغْضب للأَحرَار ، من غَلبة العبيد الأَشرار .

قال : فعجب كسرَى لما أَجابه النعمان به ، وقال : إنك لأَهلٌ لمَوْضعك من الرِّياسة فى أَهل إقليمك ، ثم كسَاه من كسوته وسرَّحه إلى موْضعه من الْحِيرة .

فلمَّا قدِم النعمان الحيرة وفى نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تَنقُّص العرب وتهجين أَمرِهم ، بعثَ إلى أَكثم بن صَيفى ، وحاجب بن زُرارة التميمِيين وإلى الحارث بن ظالم ، وقَيس بن مسعُود البَكرِييْنِ ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلْقمة بن علَاثة ، وعامر بن الطفيل العامرِيين ، وإلى عَمرو بن الشَّرِيد السُّلمى وعمرو بن معْدِيكرِبَ الزُّبيدى ، والحارث بن ظالم المُرِّىّ ــ فلما قدِمُوا عليه فى الْخَوَرْنَق قال لهم قد عرفتم هذه الأَعاجم ، وقُرْب جوَار العَرب منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالات ، تَخوَّفت أَن يكُون لها غوْرٌ ، أَو يكون إنما أَظهرها لأَمر أَراد أَنْ يتخذ به العَرب خَوَلاً كبعض طماطمَتِه فى تأْديتهم الخرَاج إليه ، كما يفعل بملوك الأُمم الذينَ حوْلهُ ــ فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى ، وما رَدَّ به عليه . فقالوا : أَيُّهَا الملك وفقك الله ، وما أَحسن ما رَدَدْتَ ، وأَبلغ ما حَججْتَه ، فمرْنا بأَمرك ، وادْعُنا إلى ما شئت .

قال : إنما أَنا رَجلٌ منكم ، وإنما ملكتُ وعزَزْتُ بمكانكم ومَا يتخوَّف من ناحيتكم ، وليس شىء أَحب إلىّ مما سدَّد الله أَمركم وأَصلح به شأْنكم وأَدام به عِزْكم ، والرَّأْى أَن تسيرُوا بجماعتكم أَيُّهَا الرَّهط ، وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم نَطق كلُّ رجل منكم بما حضره ليعلم أَن العرَب على غير ما ظنَّ ، أَو حدَّثته نفسه ، وَلَا ينطق رَجل منكم بما يُغضبُه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأَعوان مُتْرَف مُعجبٌ بنفسه ، ولا تَنْخذلوا له انخذال الخاضع الذَّليل ، ولْيكن أَمرٌ بين ذلك ، تظهر به دمائةُ حُلومكم ، وفضل منزلتكم ، وعظيم أَخطاركم ، وليكن

أول من يَبْدأ منكم بالكلام (أكثم بن صيفي) ثم تَتَابعوا على الأَمر من منازلكم التي وضعتكم بها فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدُّم قبل صاحبه ، فلا يكونَنَّ ذلك منكم فيجد في آدابكم مَطْعناً ، فإنه ملك مُترَف ، وقادر مُسلَّط . ، ثم دعا لهم بما في خزانته من طرائف حُلَل الملوك وأَعطى كل رجل منهم حُلَّة ، وعمّمه عمامة ، وختّمه بياقوته ، وأَمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرِية ، وفَرَسٍ نجيبةٍ ؛ وكتب معهم كتاباً :

أَما بعد : فإن الملك أَلقى إلىَّ من أَمر العرب ما قد علم ، وأَجبته بما قد فهم مما أَحبَبْت أَن يكون منه على علْم ، وَلَا يَتَلَجْلَج في نفسه أَن أَمة من الأُمم التي احتجزت دونه بمملكتها ، وحمت ما يليها بفضل قُوَّتها ، تبلُغُهَا من الأُمور التي يَتَعَزَّزُ بها ذَوُو الحزم والقوة والتَّدْبير والمكيدة . وقد أَوفدتُ أيها الملك رهطاً من العرب ، لهم فضل في أَحسابهم وأَنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، ولْيُغمض عن جفاء إن ظهر من منطقِهم ، وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سرَاحهم .

وقد نَسَبتهم في أَسفل كتابي هذا إلى عشائرهم .

فخرج القوم في أُهْبَتهم ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فَقَرَأَه وأمر بإنزالهم إلى أَن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ؛ فلما أَن كان بعد ذلك بأَيام ، أَمر مرازبتَه ، وَوجوه أَهل مملكته فحضَرُوا وجلسُوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاءِ والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأَقام التُّرْجمان ليُؤدِّى إليه كلامهم ، ثم أَذن لهم في الكلام .

فقام أَكْثم بن صيفي فقال : إن أَفضل الأَشياء أَعاليها ، وأَعلى الرجال ملوكُها وأَفضل الملوك أَعمها نَفْعاً ، وخيرُ الأَزمنة أَخْصَبُها ، وأَفضل الخطباء أَصدقها . الصدق منجَاة ، والكذبَ مَهوَاة ، والشَّر لجاجَة ، والحزم مَركب صعب

والعَجْز مركب وطيء ــ آفَةُ الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأُمور الصبر ، وحسن الظنِّ ورطة ، وسوء الظن عصمة ، وإصلاح فساد الرّعية خير من إصلاح فساد الراعى ، ومن فسدت بطانَتُه كان كالغاصِّ بالماءِ .

شرُّ البلاد لا أَمير بها ، وشَرُّ الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجز لا المحالة ، أَفضل الأَولاد البررَة ، خير الأَعوان من لم يُراء بالنصيحة ، أَحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حَسْبُك من شر سماعُه ، الصَّمتُ حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإِيجاز ، من شدد نفرَ ، ومن تراخى تأَلف .

فتعجب كسرى من أَكْثم ؛ ثم قال : ويحك يا أَكْثم ما أَحكمك وأَوثق كلامك ! لولا وضعُك كلامك فى غير موضعه ، قال أَكْثم : الصِّدْقُ ينبئُ عنك لا الوعيد ، قال كِسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ، قال أَكْثم : رُبَّ قول أَنفذُ من صول .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى وقال : ورى زَنْدُك ، وعلتْ يَدُك ، وَهِيبَ سلطانُكَ ــ إن العرب أُمة قد غلُظت أَكبادُها ، واسْتَحْصدت مِرَّتُها ، ومُنِعت درَّتها ، وهى لك وامقةٌ ما تألفتها ، مسترسلة مالاينتها ، سامعة إن سامحتها ، وهى العلقم مرارة ، وهى الصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزّلال سَلاسَة .

نحنُ وفودُها إليك ، وأَلسنتها لديك ، ذِمَّتُنَا محفوظة ، وأَحسابُنَا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ، إن نثوب لك حامِدِين خيرًا ، فلك بذلك عموم محْمدتنا وإن نذمَّ لم نُخَصّ بالذم دونها ؛ قال كِسرى : ياحاجب ، ما أَشبه حجر التلال بأَلوان صخرها ، قال حاجب : بل زَئير الأَسد بصولتها ، قال كِسرى : كَفى ذلك ، ثم قام الحارث البكْرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظِّها ، وعلوِّ سنائها ، من طال رشاؤُهُ كثر متحه(١) ، ومن ذهب ماله قل منحُهُ ، تناقُل الأَقاويل يُعَرِّف اللب ، وهذا مقام سيُوجِف(٢) بما تنطِق به الرَّكْب ، وتعرف به كنْه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانُك الأَدنون ، وأَعْوانُك المعينون ، خيولنا

---

(١) المنح : الاستقاء (٢) أوجفته : أى أجريته

جمة وجيوشنا فخمة ، إن استنجدتنا فغير رُبُض ، وإن استطرقتنا فغير جُهُض ، وإن طلبتنا فغير غُمُض . لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر، رماحنا طوال وأعمارنا قصار . قال كسرى : أنفس عزيزة وأمة ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك ، وأنى يكون لضعيف عزة أو لصغير مِرَّة ؟ (١) قال كسرى : لو قصر عُمرك لم تستول على لسانك نفسك . قال الحارث : أيها الملك ، إن الفارس إذا حمل بنفسه على الكتيبة مُغَرِّرًا بنفسه على الموت ؛ فهى منيَّة استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُماً ، وأحبسها وهى تصرّف بها (٢) حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلتُ مقادها رمحى ، وبَرْقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض خضخاضها ، حتى أنغمس فى غمرات لُجَجِها وأكون فُلْكاً لفرسانى إلى بحبوحة كَبشها ، فأستمطرها هادماً ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم .

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق من لسانه ، قال : مارأيت كاليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوْفَد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال : أيها الملك ، نعِمَ بالُك ، ودام فى السرور حالك ، إن عاقبة الكلام مُتَدبرة ، وأشكال الأمور مُعتبرة ، وفى كَثير ثقلة ، وفى قليل بُلغة ، وفى الملوك سورة العزِّ ، وهذا منطق له ما بعده : شَرُف فيه من شَرُف ، وخَمُل فيه من خمل ، لم نأْت لضيْمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لِرِفدِك ، إن فى أموالنا مُنتفداً ، وعلى عزنا معتمداً ، وإن أوْرَينا ناراً أثْقَبْنا ، وإن أوِدَ دهر بنا اعتدلنا ، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رَامَكَ كافِحُون حتى يُحْمَد الصدر ، ويُستطاب الخبر . قال كِسرى : ما يقوم قصدُ منطقك بإفراطك ولا مدحك بِذَمِّك . قال عمرو : كفى بقليل قصدى هاديًا ، وبأيسر

---

(١) مرة : قوة

(٢) بها : أى بالعرب

إفراطى مخبراً ولم يُلَم من غربت عما يعلم ، ورضى من المقصد بما بلغ ، قال كسرى : ماكل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابى فقال : أَحضر الله الملك إسعاداً ، وأَرشده إرشاداً ؛ إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غُصَّة ، وعىٌّ المنطق أَشدُّ من عى السكوت ، وعثار القول أَنكأُ من عثار الوعث ، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة ، وتركى ما أَعلم من نفسى ويعلم من سمعى أَننى له مطيق ، أَحبّ إِلىَّ من تكلفى ما أَتخوف ويُتخوف منّى ؛ وقد أَوفدنا إِليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأَعوان ، ونعم حامل المعروف والإِحسان ، أَنفسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة لك خاضعة ، وأَيدينا لك بالوفاءِ رهينة . قال كِسرى : نطقت بعقل وسموت بفضل وعلوت بنبل .

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامرى فقال : نهجت لك سُبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ؛ إن للأَقاويل مناهج ، وللآراءِ موالج ، وللعويص مخارج ، وخير القول أَصدقه ، وأَفضل الطلب أَنجحه . إنا وإن كانت المحبة أَحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأَفضل ممن عَزُب عنك ، بل لو قِسْت كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دنيا أَنداداً وأَكفاء ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأْى الفاضل والأَدب النافذ معروف ، يحمى حماه ، ويروى ندماه ، ويذود أَعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يحترزُ منه جاره . أَيها الملك ، من يَبْلُ العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإِنها الجبال الرواسى عزًّا والبحور الزواخر طميًّا والنجوم الزواهر شُرُفاً والحصى عددًا ؛ فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ،وإن تستصرخهم لا يخذلوك . قال كِسرى ، وخشى أَن يأْتىَ منه كلام يحمله على السخط عليه : حسبُك ، أَبلغت وأَحسنت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيبانى فقال : أَطاب الله بك المراشد ، وجنَّبك

المصائب . ووقاك مكروه الشدائد . ما أَحقنا إِذ أَتيناك بإِسماعك مالا يُحْنِقُ صدرك ولا يزرع لنا حقدًا فى قلبك ، لم نَقْدِمْ أَيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أَنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأُمم ، أَنا فى المنطق غيرُ محجمين ، وفى الناس غير مقصرين ، إن جُورِينا فغير مسبوقين ، وإن سُومِينا فغير مغلوبين . فقال كسرى : غير أَنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين – وهو يعرض به فى تركه الوفاء بضمانه السَّوَاد – قال قيس : أَيها المَلك ، ما كُنت فى ذلك إلا كَوافٍ غُدِرَ به ، أَو كخافر أُخْفِرَ بذمته . قال كِسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خِفارة . قال قيس : أَيها الملك ما أَنا فيما أُخْفِر من ذمتى أَحقُّ بإِلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتُهِك من حُرْمتك . قال الملك : ذلك لأَن من ائتمن الخونة واستنجد الأَثمة ، ناله من الخطأ ما نالنى ، وليس كل الناس سواء . كيف رأَيت حاجب بن زُرَارة لم يحكم قُوَاه فيبرم ويعهد فَيُوفى . ويعدُ فَيُنْجِز ؟ قال : وما أَحقه بذلك وما رأَيتُه إلا لى ؛ قال : القوم بزل (١) فأَفضلها أَشدُّها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامرى فقال : كَثر فنون المنطق . ولَبْس القول أَعمى من حِنْدس الظلماء ، وإنما الفخر فى الفِعَالِ والعجز فى النجدة والسؤدد مطاوَعة القدرة ، وما أَعلمك بقدرنا وأَبصرك بفضلنا ، والحرى إن دالت الأَيام وثَابَتِ الأَحلام ، أَن تُحْدِث لنا أَموراً لها أَعلام . قال كِسرى : وما تلك الأَعلام ؟ قال : مجتمع الأَحياءِ من ربيعة ومُضَر على أَمر يُذكَرْ . قال : وما الأَمر الذى يُذكَر ؟ قال : مالى علم بأَكْثر مما خَبَّرَنى به مخبِّر . قال : متى تكاهَنْتَ يا ابن الطفيل ! قال : لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن . قال : فإِن أَتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ، ما أَنت صانع ؟ قال : ما هَيْبتى فى قفاى بدون هيبتى فى وجهى ، وما أَذهب عينى عبثٌ ، ولكن مطاوعة العبث .

---

(١) جمع بازل : وهو البعير سن ست سنوات .

ثم قام عمرو بن معديكرب فقال : إنما المرءُ بأَصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجْتَبِذْ طاعتنا بلفظك واكْتَظِم بادرتنا بحلمك وأَلِنْ لنا كَنَفك يَسْلس لك قيادنا ، فإنا أناس لم يُوَقِّس صفاتنا قِرَاعُ مناقير من أَراد لنا قضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المُرِّى فقال : إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأَخلاق المَلق ، ومن خَطل الرأى خفة الملك المسلط ، فإن أَعلمناك أَن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف ، فما أَنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاءَ بالعهود وإحكام وَلْت العقود . والأَمرُ بيننا وبينك معتدل . ما لم يأْت من قِبَلك مَيْل أَو زلل . قال كِسرى : من أَنت؟ قال : الحارث بن ظالم . قال : إن فى أَسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك وأَن تكون أَولى بالغدر وأَقرب من الوزر . قال الحارث : إن فى الحق مغضبة والسر فى التغافل ولن يستوجب أَحد الحلم إلا مع القدرة . فلتشبه أَفعالك مجلسك . قال كِسرى : هذا فتى القوم .

ثم قال : قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا علمى أَن الأَدب لم يُثقف أَودكم ولم يحكم أَمركم . وأَنه ليس لكم ملك يجمعكم . فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة . فنطقتم بما استولى على أَلسنتكم وغلب على طباعكم . لم أُجز لكم كثيراً مما تكلمتم به . وإنى لأَكْره أَن أَجبه وفودى أَو أَحنق صدورهم والذى أُحب من إصلاح مدبركم وتأَلف شواذكم ؛ والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب وصفحت عما فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأَحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته . وارعوا سفهاءَكم . وأَقيموا أَودهم . وأَحسنوا أَدبهم . فإن فى ذلك صلاح العامة .

رُوى عن الكلبى أنه قال : كان كسرى يَحفِل بالعرب ، ويستأْنس بمشاهدتهم ويرغب فى سماع محادثاتهم ، ومفاخراتهم ومنافراتهم ، ولم يَدّخر وسعاً إلا بذله للحصول على ذلك (ومما اتفق له) أَن النعمان بن المنذر ، كان بمجلسه يوماً ، فقال له : هل فى العرب من قبيلة تشرفُ على قبيلة ؟ قال : نعم ، قال : فبأَى شىء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية روساءُ ، واتصل ذلك بمزية رابعة ، فبيته أَشرف بيت ، وإليه تنسب القبيلة ، وبه تعلو على غيرها ، قال : أَحضر من هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يُصبهم إلا فى آل حذيفة بن بدر ، وآل ذى الجدّين ، وآل الأَشعث بن قيس بن كِنْدة ؛ فأَحضرهم فى جملة من عشائرهم ؛ فعَقد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكّام والعدول والأَعيان ، ثم قال : ليتكلم كل منكم بمآثر قومه وليصدُق .

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكان أَلسن القوم فقال : قد علمت العرب أَن فينا الشرف الأَقدم والفخر الأَعظم ، فقيل له : لِمَ ذاك يا أَخا فزارة ؟ قال : أَلسنا الدعائم(١) التى لا ترام ؟ ! والعز الذى لا يضام ؟ فقيل له : صدقْت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فزارةُ بيت العز والعز فيهمُ ... فزارةُ بدرٍ حسْبُ بدر نضالها(٢)
لها العزة القعساء(٣) والحسب الذى ... بناه لبدرٍ فى القديم رجالها
فهيهات قد أَعيا القرون التى مضت ... مآثر بدرٍ مجدُها وفِعالها
وهل أَحدٌ إن مدّ يوماً بكفِّه ... إلى الشمس فى مجرى النجوم ينالها ؟
فإن يصلُحوا يصلُح لذاك جميعُنا ... وإن يَفسدوا يفْسَدْ على الناس حالها

ثم قام الأَشعث بن قيس فقال : لقد علمت العرب أَنا نقاتل عديدها الأَكثر ونقهر جمْعها الأَكبرَ وأَنّا غِياثُ اللزبات(٤) وبناة المكرمات ، فقيل له لِمَ يا أَخا

---

(١) الأركان (٢) محادتها ودفاعها (٣) الرفيعة (٤) بتسكين الزاى : الشدائد .

كِنْدَة ؟ قال : لأنّا ورثنا ملك كِندة فاستظللنا بأَفيائِه وتقلدنا منكبه الأَعظم ؛ وتوسَّطنا يُحبوحه(١) الأَكرم ، ثم قام شاعرهم فقال :

إذا قِست أَبيات الرجال ببيتنا وجَدْت له فضلاً على من يفاخرُ
فمن قال : كلَّا أَو أَتانا بخُطَّة يُنافرنا يوماً فنحن نخاطرُ
تعالوْا قِفوا كى يعلم الناس أَيُّنا له الفضل فيما أَورثْته الأَكابر

ثم قام بسطام بن قيس ؛ فقال : قد علمتْ العرب أَنَّا بُناة بيتها الذى لا يزول ومغرَسُ عزها الذى لا يحول ؛ فقيل له : ولِمَ يا أَخا شيبان ؟ قال : لأَنّا أَدركهم للثار وأَضربُهم للملك الجبار ، وأَقولهم للحق ، وأَلدُّهم للخصم .

ثم قام شاعرهم فقال :

لعمرىَ بسطامٌ أَحقُّ بفضلها وأَول بيت العز عز القبائلِ
فسائل أَبَيْت اللعن عن عز قومها إذا جَدَّ يوم الفخر كل مناضل(٢)
فيخبرك الأَقوام عنها فإنها وقائع جدٍّ لا ملاعبُ هازل
أَلسنا أَعزَّ الناس قوماً وأُسرةً وأَضربهم للكبش يوم التخاذل
وقائع عزٍّ كلها رَبعيَّةٌ (٣) تذلُّ لهم فيها رقابُ المحافل
إذا ذُكرتْ لم يُنكر الناس فضلها وعاذ بها ، من شرها ، كل قائل
وأَنّا ملوك الناس فى كل بلدةٍ إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى ، فقال : قد علمت العرب أَنَّا فرعُ دعاتها وقادة زحوفها ؛ فقيل له : لِمَ ذلك يا أَخا بنى تميم ؟ قال : لأَنَّا أَكثر الناس عديداً وأَنجبُهم طُرًّا وليداً ، وأَعطاهم للجزيل ، وأَحملُهم للثقيل .

ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمتْ أَبناءُ خندف أَنَّا لنا العز قِدماً فى الخطوب الأَوائل
وأَنَّا كِرَامٌ أَهلُ مجدٍ وثروة وعزٍّ قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهم من سيِّد وابن سيِّد أَغر نجيب ذى فعال ونائل

(١) وسطه (٢) المجادل (٣) نسبة الى قبيلة ربيعة

فسائل أبيتَ اللعن(١) عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل

ثم قام قيس بن عاصم السَّعدى فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم فى المكرمات وأَثبتهم فى النائبات ، فقيل له : لِمَ ذاك يا أخا بنى سعد؟ قال : لأَنَّا أَدركهم للثار وأَمنعهم للجار ، لا ننتكل إذا حملنا ، ولا نُرام إذا حللنا ، ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وخندِفُ أَننا وجُلُّ تميم والجموع التى ترى
بأَنَّا لُيوثُ البأْس فى كل مأْزِق إذا جزّ بالبيض الجماجم والطلى
وأَنا إذا داعٍ دعانا لنجدة أَجبنا سِرَاعاً فى العلائم من دعا
فهيهات قد أَعيا الجميع فِعَالُهم وقاموا بيوم الفخر مَسْعاة من سعى

فقال كِسرى حينئذ : ليس منها إلا سيد يصلح لموضعه ، ثم أَعظَم صلاتهم أَجمعين ، وردَّهم إلى أَقوامهم مُعظمين .

مناظرات المهدى ومشاورته لأهل بيته فى حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدى ووزراؤه ، ومادار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خراسان ، أَيام تحاملت عليهم العمال وأَعنفت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أَن نكثوا بيْعتهم ونقضوا موثقهم وطردوا العمال ، والتووا بما عليهم من الخراج ، وحَمَل المهدى مايُحب من مصلحتهم ويكره من عنتهم ، على أَن قال عثْرتهم واغتفر زلتَهم واحتمل دالتهم تطولاً بالفضل واتساعاً بالعفو وأَخذًا بالحجة ورِفقًا بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذ حَمَّله الله أَعباءَ الخلافة وقلده أُمور الرعية رفيقًا بمدار سلطانه ، بصيرًا بأَهل زمانه ، باسطاً للمعْدَلة فى رعيته تسكن إلى كَنفه وتأْنس بعفوِه ، وتَثِق بحلمه ، فإذا وقعت الأَقضية اللازمة والحقوق الواجبة ، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنة ، أَثْرة للحق ، وقياماً بالعدل ، وأَخذًا بالحزم فدعا أَهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه ، أَن كَسروا الخراج وطردوا العمال

(١) أبيت اللعن : بغضته ومنعته أى انك لاتفعل ما يوجب لعنك بل تفعل ما تحمد وتمدح به .

وسأَلوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وَتَنصُّلاً باعتلال . فلما انتهى ذلك إلى المهدى خرج إلى مجلس خَلائه ، وَبَعث إلى نفَر من لُحمته ووزرائه ، فأَعلمهم الحال واستفهمهم للرَّعِية ، ثم أَمر الموالى بالابتداءِ وقال للعباس بن محمد : « أَىعمّ » تعقب قَوْلنا وَكُنْ حكماً بيننا . وَأَرْسَلَ إلى ولديه (موسى وهارون) فأَحضرهما الأَمر وشاركهما فى الرأْى ، وأَمر محمد بن الليث بحفظ مُرَاجَعتهم وإِثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سَلَام صاحب المظالِم :

أَيها المهدى ، إن فى كل أَمر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفرَغَتْ رأْيَهم ، واستغرقتْ أَشغالهم ، واستنفدتْ أَعمارَهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وَعُرِفوا بها وَعُرِفتْ بهم ، ولهذه الأُمور التى جعلَتنا فيها غاية ، وطلَبَتْ معونتنا عليها أَقوام من أَبناءِ الحرب ، وساسة الأُمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب وأَبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سِجَالُها ، وفيأَتهم ظلالُها ، وعضتهم شِدائِدُها وَقَرَمَتهم نواجِذُها ، فلو عَجَمْتَ ماقِبَلَهم وَكَشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أَمرَك ، وتجارب توافق نظرَك وأَحاديث تقَوِّى قلبك ، فأَما نحن معاشرَ عُمَّالك وأَصحاب دواوينك فَحَسَنٌ بنا ، وكثيرٌ منا أَن نقوم بثقل ماحَمّلتنا من عملك واستودعتنا من أَمانتك وشغلتنا من إمضاءِ عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك .

فأَجابه المهدى : إن فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال تدبيرًا يُبطل الآخرُ الأَولَ ، ونحن على علم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم أَيها المهدى أَنت متَّبع الرأْى ، وثيق العُقْدَة ، قوى المنة ، بليغ الفِطْنة ، معصوم النِّية ، محضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفَّق العزيمة ، مُعَان بالظفر ، مهدى إلى الخير ، إنْ هممْتَ ففى عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدَع فعلك مُلتبسَ الشك ، فاعزم يهدِ اللهُ إلى الصواب قلبك ، وَقُلْ يُنطق الله بالحق لسانَك ، فإن جنودك جَمة وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأَمرك نافذ .

فأَجابه المهدى : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يهلك عليهما رأىٌ ولا يتغيل معهماحزم ،فأَشيروا برأْيكم وقولوا بما يحضُرُكُم ، فإنى من ورائكم ، وتوفيق الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أَيها المهدى ، إن تصاريف وُجُوه الرأْى كثيرة ،وإن الإشارة ببعض معاريض القَوْل يسيرة ، ولكن خُرَاسان أَرض بعيدة المسافة ، متراخية الشُّقَّة متفاوتة السبيل ، فإذا ارتأَيتَ من مُحكم التدبير ومبرَم التقدير وَلُبَاب الصواب رأْياً ، قد أَحكمه نظرك ، وقلَّبه تدبيرك ؛ فليس وراءه مذهب طاعن ، ولا دونه مَغْلقٌ لخصومة عائب ، ثم خَبَّت البُرد به ،وانطوت الرُّسُل عليه كان بالحِرِى أَن لايصل مُحكمه ، إلاوقد حَدَث منهم ما يَنْقُضه ، فما أَيْسَرَ أَن ترجع إليك الرُّسل ، وَتَرِدَ عليك الكتب بحقائق أَخبارهم وشوارد آثارهم ومصادر أُمورهم فَتُحْدث رأْياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحلت العُقد ، واسترخى الحقاب ، وامتد الزمان ثم لَعِلْمك موقع الآخرة كمصدر الأُولى ولكن الرأْى أَيها المهدى ، وفقك الله ، أَن تصرف إجالة النظر وتقليب الفِكَر فيما جمعتنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم وَالحيَل فى أَمرهم إلى الطلب لرجل ذى دِين فاضل وعقل كامل ووَرَع واسع ليس موصوفاً بهوى فى سواك ، ولا متهماً فى أَثَرَةٍ عليك ، ولاظنينًا على دُخْلة مكروهة ولامنسوباً إلى بدعة محذورة ، فيقدح فى ملكك وَيُرَيض الأُمور لغيرك ، ثم تُسْنِد إليه أُمورَهم وَتُفَوّض إليه حربهم وتأْمُره فى عهدك ، وصيّتك إياه بلزوم أَمرك ما لزمه الحزم ، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأْى عند استحالة الأُمور واشتداد الأَحوال التى ينقُضُ(١) أَمر الغائب عنها ، ويثبتُ رأْى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ؛ فواثَبَ

(١) ينقض : ينهدم .

أَمْرَهم من قريب ، وسقط عنه ما يأْتى من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المَكيدة ، ونفذ العمل وَأُحِد النظر إن شاءَ الله تعالى .

قال الفضل بن عباس :

أَيها المهدى ، إن ولىَّ الأُمور وسائس الْحُرُوب ربما نَحَّى جنوده وَفَرَّق أَمواله فى غير ماضيق أَمرٍ حزبه ، ولا ضغطة حالٍ اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماًمنها فاقداً لها ، لايثق بقُوَّة ولايصول بعُدَّة ، ولايفرغ إلى ثقة ؛ فالرأى لك أَيها المهدى وَفَّقك الله أَن تعْفى خزائنك من الإِنفاق للأَموال وَجُنودك من مُكَابدة الأَسفار وَمُقَارعة الأَخطار وتغرير القتال ، وَتُسْرع للقوم فى الإجابة إلى مايطلبون ، والعطاءِ لما يسأَلون ، فيفْسُدُ عليك أَدبهم وتُجَرِّئَ من رَعِيَّتك غيرهم ، ولكن اغْزُهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعْهم باللين وخاتلهم بالرِّفق وأَبرق لهم بالقول وأَرْعد نحوهم بالفعل وابعث البُعُوث وجنِّدَ الجنود وكتِّبْ الكتائب واعقد الأَلْوِية وانصب الرَّايات وأَظهر أَنك مُوَجِّهٌ إليهم الجيوش مع أَحنق قُوَّادك عليهم وأَسوئهم أَثرًا فيهم ، ثم أدسس الرسل ، وَابْثثْ الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضا على خوف من وَعِيدك ، وأَوقد بذلك وأَشباهه نيران التحاسُد فيهم واغرس أَشجار التنافس بينهم ، حتى تملأَ القلوب من الوحشة ، وتنطوِى الصُّدور على البغضة ، ويدخل كلا من كل الحَذَر والهيبة . فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة وَالمُناصبة بالكتب ، وَالمُكَايدة بالرسل ، وَالمُقَارعة بالكلام اللطيف المُدخل فى القلوب ، القوى الموقع من النفوس ، المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبنى على اللين الذى يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأَهواءَ ، ويستدعى المُوَاتَاة ؛ أَنفذ من القتال بظُبَات السُّيوف وَأَسِنَّة الرِّمَاح ، كما أَن الْوَالِىَ الذى يستنزل طاعة رَعِيَّته بالحيل ، وَيُفَرِّق كلمة عَدوه بالمكايدة أَحكم عملاً وأَلطفُ منظرًا وأَحسن سياسة ، من الذى لاينال ذلك إلا بالقتال ، والإِتلاف للأَموال والتغرير ، وَالْخِطَارِ .

وليعلم المهدى، أنه إن وَجَّهَ لقتالهم رجلاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتُقدِم على أسفار ضيِّقة وأموال مُتفرقة وقُوَّاد غششة إن ائتمنَهُمْ استنفدوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له. قال المهدى: هذا رأى قد أسفر نُورُهُ، وأبرق ضوءُهُ، وتمثل صوابه للعيون ومجد حقه فى القلوب، ولكن فوق كل ذِى عِلم عليم، ثم نظر إلى ابنه على فقال: ما تقول؟

قال على: أيها المهدى إن أهل خراسان لم يخلعُوا عن طاعتك ولم ينصبُوا من دونك أحدًا يقدح فِى تغيير مُلكك ويريض الأُمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأْن أصغر والحالُ أَذلّ، لأَنَّ الله مع حقه الذى لايخذله وعند موعده الذى لايُخْلِفه، ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً، طلبُوا حقًا وسأَلوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفَّست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدُث من عندهم فتق، أطعت أمر الرَّبّ وأطفأْت ثائرة الحرب، ووفرت خزائن المال وطرحت تغرير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجيَّة حلمك وأسجاع خليقتك، ومعدلة نظرك، فأَمنت أن تنسب إلى ضعف، أن يكون ذلك فيما بقى دُرْبَة، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سأَلوا اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم فى ميدان الخطاب - فما أرب المهدى أن يَعْدُ إلى طائفة من رعيته مُقرِّين بمملكته مُذعنين بطاعته لايخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته فيُملِّكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم ويقف على الحيل معهم، ثم يجازيهم السوء فى حدِّ المنازعة ومضمار المخاطرة - أيريد المهدى وفقه الله الأَموال؟ فلعمرى لاينالها، ولايظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يطلب منهم، وأضعاف ما يدّعى قبلهم، ولو نالها فحُملت إليه أو وضعت بخرائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها وطال عليهم بها،

لكان مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذى طبعه الله عليه وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه ، فإن قال المهدى هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الخراج الذين شكوا ظلم عُمالنا ، وتحامُل وُلاتنا ؛ فأَما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود وأَنطقوا لسان الإِرجاف ، وفتحوا باب المعصية وكسَرُوا قيد الفتنة ، فقد ينبغى لهم أَن أَجعلهم نكالاً لغيرهم وعظة لسواهم ، فيعلم المهدى أَنه لو أَتى بهم مغلولين فى الحديد ، مُقرّنين فى الأَصفاد ، ثم اتسع لحقْنِ دمائهم عفوُهُ ، ولإِقالة عثرتهم صفحه ، واستبقاهم لما فيه من حزبه ، أَو لمن بإِزائهم من عدوِّه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكرًا من نظره .

لقد علمت العرب أَنه أَعظم الخلفاءِ والملوك عفوًا وأَشدُّها وقعًا وأَصدقها صوْلةً وأَنه لايتعاظمُه عفو ، ولايتكاءَدُهُ صفح ، وإِن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأى للمهدى وفقه الله تعالى أَن يحل عقدة الغيظ بالرجاءِ لحسن ثواب الله فى العفو عنهم وأَن يذكر أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم برًّا بهم ، وتوسعًا لهم فإِنهم إِخوان دولته وأَركان دعوته ، وأَساس حقه الذين بعزَّتهم يصول ، وبحجَّتهم يقول ، وإِنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرَّضُوا له من معاصيه وانطووا فيه عن إِجابته ، ومثله فى قلة ماغيَّرَ من رأيه فيهم أَو نُقِلَ من حاله لهم أَو تغيَّرَ من نعمته بهم ، كمثل رجلين أَخوين مُتناصرين متوازرين أَصاب أَحدهما خَبَلٌ عارض ولهو حادث فنهض إِلى أَخيه بالأَذى وتحامل عليه بالمكروه ، فلم يزدد أَخوه إِلا رقةً له ولطفًا به واحتيالا لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبَرًّا به ومرحمة .

فقال المهدى : أَما على فقد نوى سمتَ اللِّيان وفض القلوب من أَهل خراسان ولكل نبأ مستقر . ثم قال : ماذا ترى ياأَبا محمد (يعنى موسى ابنه)

فقال موسى :

أَيها المهدى ، لا تسكُن إِلى حلاوة ما يجرى من القول على أَلسنتهم وأَنت ترى الدماءَ تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضمرة شر وخفيَّة

حقد قد جعلوا المعاذير عليها سترا واتخذوا العلل من دونها حجاباً ، رجاءَ أَن يدافعوا الأَيام بالتأْخير ، والأُمور بالتطويل ، فيكسِرُوا حيل المهدى فيهم ويفنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أَمرهم ، وتتلاحق مادَّتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأُمور بهم ؛ والمهدى من قولهم فى حال غِرَّة ولباس أَمَنَة ، قد فتر لها وأَنس بها وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال ، والإضمار للقراع عن داعية ضلال أَو شيطان فساد لَرَهِبوا عواقب أَخبار الوُلاة ، وغِبَّ سكون الأُمور فَلْيَشْدد المهدى — وفقه الله — أَزره لهم ويُكَتِّب كتائبه نحوهم ، وليضع الأَمر على أَشد مايحضُرُه فيهم ، ولْيُوقن أَنه لا يعطيهم خُطَّة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُرْبة إلى فسادهم وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود ، الذين إن أَقَرَّهم وتلك العادة وأَجراهم على ذلك الأَرب ، ولم يبرح فى فتق حادث وخلاف حاضر ، لايصلح عليه دين ، ولاتستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّرْبة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة والمؤونة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أَن لا يُقيل عثرتهم ، ولايقبل معذرتهم حتى تطأَهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحر بهم القتل ويحدق بهم البلاءُ ويُطبق عليهم الذل ، فإن فعل المهدى ذلك كان مقطعةً لكل عادة سوء فيهم ؛ وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدى فى مئونة غزوتهم هذه تضع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

فقال المهدى : قد قال القوم ، فاحكم يا أَبا الفضل !

فقال العباس بن محمد :

أَيها المهدى : أَما (الموالى) فأَخذوا بفُرُوع الرأى وسلكوا جنبات الصواب وتعدوا أُموراً قصَّرَ بنظرهم عنها أَنه لم تأت تجاربهم عليها . وأَما (الفضل) فأَشار بالأَموال أَن لاتنفق ، والجنود أَن لاتفرق ، وبأَن لايُعطى القوم ما

ما طلبوا ، ولا يبذل لهم ما سألوا ، وجاءَ بأَمرٍ بين ذلك استصغارًا لأَمرهم ، واستهانة بحربهم ، وإنما يهيج جسيات الأُمور صغارُها .

وأما (على) فأَشار باللين وإفراط الرفق ، وإذا جَرّد الوالى لمن غَمِط أَمره وسفه حقه اللين بحتًا ، والخير محضاً ، لم يخلطها بشِدَّة تعطف القلوب عن لينه ، ولابشر يحبسهم إلى خيره ، فقد ملكهم الخلع لعذرهم ، وَوَسَّع لهم الفرجة لثنى أَعناقهم ، فإن أَجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة ، فنزوة فى رءُوسهم يستدعون بها إلى أَنفسهم ، ويستصرخون بها رأى المَهدى فيهم ، وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصُّرَاح ، فذلك ماعليه الظن بهم ، والرأى فيهم ، وما قد يشبه أَن يكون من مثلهم ، لأَن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم ، والمُلك الكبير مالايخطرُ على قلب بشر ولا تُدْرِكْه الفكر ، ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها ، فلولا أَنه خلق نارًا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أَجابوا ولا قبلوا .

وأَما (موسى) فأَشار بأَن يُعْصَبوا بشدة لالين فيها ، وأَن يُرْمَوْا بشر لاخير معه ، وإذا أَضمر الوالى لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفردًا ، والشرَّ مجردًا ليس معهما طمع ولا لين يثنهم اشتدت الأُمور بهم ، وانقطعت الحال منهم إلى أَحد أَمرين إما أَن تدخلهم الحمية من الشدة ، والأَنفة من الذلة ، والامتعاض من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى التمادى فى الخلاف والاستبسال فى القتال والاستسلام للموت ، وإما أَن ينقادوا بالكُرْه ويذعِنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق ، فإذا أَمكنتهم فرصة أَو ثابت لهم قدوة أَو قويت لهم حال ، عاد أَمرهم إلى أَصعب وأَغلظ وأَشد مما كان .

وقال فى قول الفضل : أَيها المهدى أَكفى دليل ، وأَوضح برهان ، وأَبين خبر بأَن قد أَجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثه الجيوش إليهم ، وتوجيه

البعوث نحوهم مع إعطائهم ماسألوا من الحق ، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل .

قال المهدى : ذلك رأىٌ .

قال هارون : ما خُلطت الشدة باللين ، فصارت الشدة أَمَرَّ فطام لما تكره ، وعاد اللين أَهدى قائد إلى ماتحب ، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدى : لقد قلت قولاً بديعًا ، وخالفت فيه أهل بيتك جميعًا ، والمرءُ مؤتمن بما قال وظنين بما ادعى ، حتى يأتى ببينة عادلة وحجة ظاهرة ، فاخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهدى : إن الحرب خُدْعة ، والأَعاجم قوم مكرة ، وربما اعتدلت الحال بهم ، واتفقت الأَهواءُ منهم فكان باطن مايُسِرُّون على ظاهر ما يُعْلنون ، وربما افترق الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلب على محجوبة تبطن واستسر بمدخولة لاتُعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأَمره ، العالم بمقدم يده وموضع ميسمه ، لايتعجل بالدواءِ حتى يقع على معرفة الداءِ ، فالرأى للمهدى وفقه الله أن يَفِرّ باطن أَمزهم فَر المُسِنَّة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعةِ الكتب ومظاهرَة الرُّسل ، وموالاة العُيُون ، حتى تُهْتِكَ حُجُب عيونهم ، وتكشف أَغطية أُمورهم ، فإن انفرجت الحال ، وأَفضت الأُمور إلى تغيير حال ، أَوداعية ضلال اشتملت الأَهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه وامتدت الأَعناق نحوه بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه ، عَصَبهم بشدة لالين فيها ، ورماهم بعقوبة لاعفو معها ، وإن انفرجت العيون واهْتُصِرت الستور وَرُفِعَتِ الحجُب ، والحالُ فيها مريعة والأُمور بهم معتدلة فى أَرزاق يطلبونها وأَعمال ينكرونها وظلامات يدعونها ، وحقوق يسأَلونها ، بماتَّةِ سابقتهم ودالة مناصحتهم ، فالرأى للمهدى وفقه الله أَن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويَشْعَبَ من أَمرهم ما صدعوا ، ويَرْتَقَ من فتقِهم ما قطعوا ، ويولى عليهم من أَحبُّوا ويُدَاوى بذلك مَرَض

قلوبهم وفساد أُمورهم ، فإنما المهدى من أُمَّته وسواد أَهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعى المُجَرِّب الذى يحتال لمرابض غنمه ، وضوالِّ رعيَّتِه حتى يُبرئَ المريضة من داءِ علتها ويردُّ الصحيحة إلى أُنس جماعتها ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة ، وماتة مقبولة ، ووسيلة معرُوفة ، وحقوق واجبة ؛ لأَنهم أَيدى دولته وسيوف دعوته وأَنصار حقه وأَعوان عدله ،فليس من شأْن المهدى الاضطغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ، ولا التَّوَعُّر بهم ولا المكافأَة بإساءَتهم ؛ لأَن مبادرة حسم الأُمور ضعيفة قبل أَن تقوى ، ومحاولة قطع الأُصول ضئيلة قبل أَن تغلظ. أَحزَمُ فى الرأى وأَصح فى التدبير من التأْخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أَطرافها إلى جُمْهورها .

قال المهدى : مازال هارون يَقَعُ وَقْعَ الحيا حتى خرج خُرُوج القدح من الماءِ وانْسَل انسلال السيف فيما ادَّعى ، فَدَعُوا ما سبق موسى فيه فإنه هو الرأى وثنى بعده هارون ؛ ولكن من لأَعِنَّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أَمعن بهم اللجاج وأَفرطت بهم الدّالة ؟ !

قال صالح بن على : لسنا نبلغ أَيها المهدى بدوام البحث وطول الفكر أَدنى فِرَاسة رأيك وبعض لحظات نظرك ، وليس يَنْفَضُّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأى كامل وتدبير قوى تقلده حَرْبك وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأَمانة العظيمة ويضطلع بالأَعباءِ الثقيلة ، وأَنت ، بحمد الله ، ميمون النقيبة مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم فليس يقع اختيارُك ولايقفُ نظرك على أَحد توليه أَمرك وتسند إليه ثغرك إِلّا أَراك الله ما تحب وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدى : إنى لأَرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ولكنى أحب الموافقة على الرأى والاعتبار للمشاورة فى الأَمر المهم .

قال محمد بن الليث : أَهل خُراسان قَوْمٌ ذووُ عزَّة ومَنَعة وشياطين خدَعة ، زُروع الحمِيَّة فيهم نابتة ، وملابس الأَنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعَجلة عنهم حاضرَة ، تسبق سيولهم مطرَهم وسيُوفُهم عذلهم ، لأَنهم بين سفْلة لا يعْدُو مبلغ عقولهم منظر عُيونهم ، وبين رُؤساء لا يُلْجمون إِلَّا بشدّة ، ولا يَفطنون إِلَّا بالمرِّ ، وإِن وَلَّى المهدى عليهم وضيعًا لم تنتقد لهُ العظماء ، إِن ولى أَمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، وإِن أَخر المهدى أَمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه أَو بنى عمه أَو بنى أَبيه ، ناصحاً يتفق عليه أَمرهم وثقة تجتمع له أَملاؤهم بلا أَنفة تلزمهم ولا حَمِيَّة تدخلهم ولا مصيبة تنفِّرهم ، تَنفَّست الأَيام بهم وتراخت الحال بأَمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم مالايتلافاهُ صاحب هذه الصفة وإِن جدَّ ، ولا يستصلحه وإِن جهد ، إِلا بعد دهر طويل ، وشر كبير ، وليس المهدى — وفقه الله — فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صفاتهم بمثل أَحد رجلين لاثالث لهما ولاعدل فى ذلك بهما : أَحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويَدٌ ممثلة لعينك وصخرةٌ لا تُزَعزع وبهمة لاتثنى ، وبازل لايفزعه صوت الجلجل ، نقى العِرْض نزيه النفس جليل الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض الأَقصى لعينه نصبا ، والغرض الأَدنى لقدمه موْطئًا ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدّى أَملاً وهو رأْس مواليك وأَنصح بنى أَبيك ، رجل قد غُذِّى بلطيف كرامتك ونبت فى ظل دولتك ونشأ على قوائم أَدبك فإِن قلدته أَمرهم وحملته ثقلهم وأَسندت إِليه ثغرهم ، كان قفلا فتحه أَمرك وباباً أَغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أَميرًا والإِنصاف بينه وبينهم حاكمًا . وإِذا حكم المنصفة وسلك المعدلة فأَعطاهم مالهم وأَخذ منهم ماعليهم ، غَرَس لك فى الذى بين صدورهم ، وأَسكن لك السُّويداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة فى حواشى عوامهم . متمكِّنة من قلوب خواصهم ،

فلا يبقى ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌ إلا أدُّوه ، وهذا أحدَهما . والآخر عُودٌ من غيضتك ، أَو نَبعةٌ من أَرُومَتِك ، فتىُّ السن كهلُ الحلمِ راجح العقل محمود الصَّرَامة مأمُون الخلاف يُجرِّد فيهم سيفهُ ويبسط. عليهم خيرَه بقدر مايستحقون وعلى حسب مايستوجبون وهو « فُلان » أَيُّهَا المهدى ـ فسلطه أَعزَّك اللهُ عليهم ، ووجِّههُ بالجيوش إليهم ولا تمنعك ضَرَاعة سِنِّه وحداثة مولده فإن الْحِلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشكِّ والجَهل مع الكُهُولة ، وإنما أَحداثُكم أَهلَ البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختَصَّكم به من مكارم الأَخلاق ومحامد الفِعال ومحاسن الأُمور وصواب التَّدْبير وصرَامة الأَنفس كفراخِ عِتاق الطير(١) المُحكمة لأَخذ الصَّيد بلا تَدْريب ، والعارفة لوُجُوه النفع بلا تأْديب ، فالحلم ، والعلم ، والعزم ، والحزم ، والتُّؤَدة ، والرِّفق ، ثابت فى صُدُوركم مزروع فِى قُلوبكم ، مُستحكم لكم متكامل عندكم ، بطبائع لازمة ، وغَرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

أَفتاءُ(٢) أَهل بيتك أَيها المهدى فى الحلم على ماذُكر ، وأَهل خُراسان فى حال عز على ماوُصِف ؛ ولكن إن ولى المهدى عليهم رجلاً ليس بقدر الذِّكرُ فى الجنود ولا بنبيه الصوت فى الحروب ولابطويل التَّجْرِبة للأُمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأَعداءِ ، دخل ذلك أَمران عظيمان ، وخطران مهولان أَحدهما : أَن الأَعداءَ يَغْتَمِزونها منه ويحتقرونها فيه ويجترِئون بها عليه فى النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأَمره ، والتكشفِ لحاله والعلم بطباعه . والأَمر الآخر : أَن الجنود التى يقود ، والجيوش التى يسوس إذا لم يختبروا منه البأْس والنَّجْدة ، ولم يعرفوه بالصِّيت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستأْخرت طاعتهم ، إلى حين اختْبارهم

(١) عتاق الطير : الجوارح منها.
(٢) أفتاء : اصحاب الفتوة من الشبان ، جمع فتى ، كيتيم وأيتام .

ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار ، وبباب المهدى – وفقه الله – رجل مهيب نَبيه حَنِيك صيِّتٌ له نسب زاك وصوْت عَالٍ قد قاد الجيوش وساد الحروب وتـألف أَهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالمِقَة(١) ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولاه المهدى أَمْرَهمُ لكفاه الله شَرهم .

قال المهدى : جانبت قصد الرميّة وأَبيْتَ إلا عصبية ، إذ رأْىُ الحدث من أَهل بيتنا كرأْى عشرة حُلَمَاء من غيرنا ؛ ولكن أَين تركتم وَلِىَ العهد ؟

قالوا : لم يَمْنعْنَا من ذكره إلاكونُه شبيه جده ونسيج وحده ، ومن الدِّين وأَهله ، بحيث يقصُر القول عن أَدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عزّ وجل حجب عن خلقه وسترَ دون عباده علم ماتختلف به الأَيام ، ومعرفة ماتجْرى عليه المقادير من حوادِث الأُمور ، وريَب المَنون المختَرِمة لخوالى القُرون ، ومواضى المُلوك ، فكرهنا شُسُوعَه عن محلة المُلك ودار السلطان ، ومقرِّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومستقرّ الجنود ومعدن الجود ، ومجمع الأَموال التى جعلها الله قُطْبًا لدار الملك ، ومَصْيدة لقلوب الناس ، ومثابة لإخوان الطمع وثُوّار الفِتن ، ودواعى البدع ، وفرسان الضَّلال ، وأَبناءِ الموت ؛ وقلنا : إن وَجّه المهدى ولى عَهْده فحدث فى جيوشه وجنوده ما قد يحدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدىّ أَن يُعْقبهم بغيره إلا أَن ينهضَ إليهم بنفسه ، وهذا خَطر عظيم وهَوْل شديد ، إن تنفستِ الأَيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عِوض لا يُسْتغنى عنه ، أَو يحدث أَمر لا بد منه صار ما بعده مما هو أَعظم هولاً ، وأَجل خطرًا له تبعًا وبه متصلاً .

قال المهدى : الْخطب أَيْسَر مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأَمر عليه . نحن أَهل البيت نجرى من أَسباب القضايا ومواقع الأُمور على سابق من العلم ،

(١) المقة : المحبة .

ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ونبّأت عليه الرسُل ، وقد تناهى ذلك بأجْمَعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا ، فيهندبّر وعلى الله نتوكل . إنه لا بُدَّ لِوَلِيِّ عهدى وولى عهد عَقِبِى بعدى ، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتجه نحوها بالجنود ؛ أمَّا الأوّل فإنه يقدم إليهم رسله ويُعمل فيهم حيَله ثم يخرج نشيطاً إليهم حَنِقاً عليهم ، يريد أن لا يَدَع أحداً من إخوان الفِتن ودواعى البدع ، وفُرْسَان الضلال إلا توطأه بحرّ القتل وألبسه قِنَاع القهر ، وقلده طوقَ الذلّ ؛ ولا أحداً من الذين عمِلوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدْعة وَنُصْرَة وُلاة الحقّ إلا أجْرى عليهم دِيمَ فضله وجَدَاول نهاله ، فإذا خرج مُزْمِعاً به مجمعاً عليه لم يسِرْ إلا قليلاً حتى تَأتِيه أن قد عملت حيلُه ، وكدحتْ كُتُبه ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائرة الأهواء واجْتَمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبَرًّا بهم وتعطفاً عليهم إلى عَدَوّ قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حُجَّاجُهم بيتَ الله الحرام ، وسلب تجارَهم رزْق الله الحلال . وَأَمَّا الآخر ، فإنه يُوَجه إليهم ، ثم تُعقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون ، فإذا سَمعت الفرَق بقَرابَاتها له وجنح أهل النَّواحى بأَعْناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوُفودُ قصدَ الأول ناحية بجعت بطاعتها وألقت بأزمَّتها ، فألبَسها جنَاحَ نعمته وَأنزلها ظلّ كرَامته وَخصها بعظِيم حَبائه ، ثمَّ عمَّ الجماعة بالمعدلة وَتعطفَ عليهم بالرّحمة فلا تبقى فيهم ناحية ذاتية وَمالا فرْقة قاصية إلا دخلت عليها برَكَته ووَصلتْ إليها منفعته فأَغْنى فقيرَها وَجبر كَسيرها وَرفع وَضيعها وَزاد رفيعها ، ما خلا ناحيتيْن : ناحية يَغلب عليها الشقاءُ وتستميلهم الأهواءُ ، فتستخف بِدعوته ، وتُبطئ عن إجابته وتتثاقل عن حقه ، فتكون آخر مَنْ يَبْعث وأبطأ مَنْ يوجه ، فيصطلى عليها مَوجدة ويبتغى لها علة ، لا يلبَث أن يجدَّ بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتأْكلهم السيوف ويستحرُّ بهم القتل ويُحيط بهم الأسر ويُفْنيهم التَّتبع حتى يُخَرّب

البلاد وييتّمَ الأولاد . وناحيةٍ لايبسُط لهم أماناً ولا يقبلُ لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة لأنهم أولُ من فتح باب الفرْقة وتدرّع جلْباب الفتنة ورَبض فى شق العصا ولكنه يَقْتُل أعلامهم ويأْسِر قوّادهم ويطلب هُرّابهم فى لُجَج البوار وقُلل الجبال وحميل الأَوْدية وبطون الأرض تقتيلاً وتنكيلاً حتى يدع الدِّيار خراباً والنساء أيامى . وهذا أمرٌ لا نعرف له فى كتبنا وقتاً ولا نصحِّح منه غير ما قلنا تفسيرا — وأما (موسى ولىّ عهدى) فهذا أوانُ توجُّهه إلى خراسان وحلوله بُجرْجان وما قضى الله له من الشُّخوص إليها والمقام فيها خيرٌ للمسلمين مغبة وله بإذن الله عاقبة بحيث يغمر لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذاءب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدى — إن ولىّ عهدك أصبح لأُمتك وأهل ملتك عَلماً قد تثنتْ نحوه أعناقها ومدت سَمْتَه أبصارُها ، وقد كان لقُرْب داره منك ومحلِّ جواره لك عطل الحال غُفل الأمر واسعُ العُذر ، فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره ، فإن من شأْن العامة أن تتفقد مخارج رأْيه . وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادِث أحواله فى بره ومرحمته ومعدلته ، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ما سبقَ إليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأُمور بهم وألزمها لقلوبهم وأشدَّها استمالة لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهمْ ، فلا يفتأ المهدى وفقه الله ناظراً له فيما يُقوِّى عمدَ مملكته ، ويسدِّد أركان ولايته ، ويستجمع رضاء أُمته بأمر هو أزْين لحاله ، وأظهر لجماله ، وأفضل مغبة لأمره ، وأجلّ موقعاً فى قلوب رعيته ، وأحمد حالا فى نفوس أهل ملَّته ، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له ، وأبلغ فى استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ، ومحبةٍ لِلخير وأهله — وأن يختار المهدى وفَّقه الله من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كلّ مصر ، أقواماً

تسكن العامة إليهم إذا ذكروا ، وتأنس الرّعية إذا وُصفوا ، ثم تسهل لهم عمارة سُبل الإحسان ، وفتح باب المعروف ؛ كما قد كان فتح له وسُهِّل عليه .

قال المهدى : صدقت ونصحت ؛ ثم بعث فى طلب ابنه موسى ، فقال له :

أى بُنى – إنك قد أصبحت لِسَمت وجوه العامة نُصْباً ، ولمثنى أعطاف الرَّعيَّة غايةً ، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية ، وأمرُك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سُخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارُك رضاه ، وليس بكافيك من يُسْخطه عليك إيثارُك رضا من سواه – ثم اعلم أن لله تعالى فى كل زمان فترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدِّد حبل الإسلام بدعواهم ويشيِّد أركان الدين بنُصرتهم ويتخذ لأَولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً ، يَسُدون الخلل ويُقيمون المَيْل ، ويدفعون عن الأَرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدى دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونستصرف نزول العظائم بمناصحتهم ، وندافع ريب الزمان بعزائمهم ، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم فهم عماد الأَرض إذا أرجف كنفُها وخوْف الأَعداء إذا برزت صفحتها ، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات أخمدت نيران الفتن ، وقسمت داعى البدَع ، وأذلّت رِقاب الجبّارين ، ولم ينفكوا كذلك ما جَرَوا مع ريح دولتنا ، وأقامُوا فى ظلِّ دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التى أعز الله بها ذاتهم ورفع بها ضِمَتَهم ، وجعلهم بها أرباباً فى أقطار الأَرض ومُلوكا على رقاب العالمين ، بعد لباس الذُّل وقِنَاع الخوف ، وإطباق البلاء ومُحالفة الأَسَى وجهد البأْس والضر فظاهر عليهم لِبَاس كرامتك ، وأَنزِلْهُم فى حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دوالّتهم وماتة سابقتهم ، وحرمة مُناصحتهم بالإحسان إليهم والتوسعة عليهم ، والإثابة لمحسنهم والإقالة لمسيئهم .

أَى بُنَىَّ ، ثم عليك العامّة فاستدع رضاها بالعَدْل عليها ، واستجلِبْ مودَّتها بالانصاف لها ، وتحسن بذلك لربك ، وَتَوثقْ به فى عين رعيتك ، واجعل عُمَّال العذر ووُلَاة الْحُجج مُقدمة بين يدى عملك وَنَصْفَةً منك لرَعِيَّتك ، وذلك أَن تأمر قَاضِىَ كل بلد ،وخيار أَهل كل مصر أَن يختاروا لأَنفسهم رجلا تُوَلِّيه أَمرهم وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم فإِن أَحسنَ حُمِدْتَ ، وإِن أَسَاءَ عُذِرْتَ ،هؤلاءِ عُمَّال العُذْر ووُلَاة الْحُجج ، فلا يسقطنَّ عليك ما فى ذلك ، إِذا انتشر فى الآفاق وسبق إِلى الأَسماع من انعقاد أَلسنة المُرْجفين وَكَبْتِ قلوب الحاسدين وإِطْفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأَمور ، ولا ينفكنَّ فى ظل كَرَامتك نازلاً ، وَبِعُرَا حَبْلِكَ متعلقاً رَجُلَان : أَحدهما كريمة من كَرَائم رجالات العرب وأَعلام بُيُوتَات الشَّرَف ، له أَدب فاضل وَحُلم راجح وَدِين صحيح والآخر له دِين غيرُ مَغْمُوز ، وموضع غير مدخول ، بصيرٌ بتَقليب الكلام ، وتصريف الرأى ، وأَنحاء العرب ووَضْع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الْخُطوب ، يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية من مَحَاسنك وتحسين أَمرك وتحلية ذِكْرك فَتَسْتَشِيرُهُ فى حَرْبك وتدخله فى أَمرك ، فرجُلٌ أَصبته كذلك فهو يأْوى إِلى محلَّتى وَيَرْعَى فى خُضرة جِنَانى ، ولا تدع أَن يختار لك من فقهاءِ البُلْدَان وخيار الأَمصار أَقواماً يكونون جِيرانك وَسُمَّارك ، وأَهل مُشَاورتِكَ فيما تُورِد ، وأَصحاب مُناظرتك فيما تُصْدر ، فَسِرْ على بركة الله ، أَصْحَبَكَ الله من عَوْنه وتوفيقه دليلاً يهدى إِلى الصواب قلبَك ، وهادياً يُنْطِق بالخير لِسَانَك .

وفود بكارة الهلالية على معاوية

استأْذنت بَكَّارَة الهلالية على معاوية بن أَبى سفيان فَأَذِنَ لها ، وهوَ يومئذ بالمدينة فدخلت عليه ، وكانت امرأَة قد أَسَنَّت وعشِىَ بصرُها وَضَعُفَت قوتها ، ترْعَش بين خادمين لها ؛ فَسَلَّمت وجلست ، فَرَدَّ عليها مُعَاوية السلام ، وقال :

كيف أَنْتِ يا خالةُ ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غَيَّرَكِ الدهر ، قالت : كذلك هو ذو غِيَرٍ ، من عاش كبرَ ، ومن مات قُبِرَ . فقال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أَمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حُسَاماً فى التراب دفينا
قد كُنْتُ أَذْخُرُه ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : وهى والله القائلة يا أَمير المؤمنين :

أَترى ابن هِنْدٍ للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أَراد بعيدُ
مَنَّتك نفسك فى الخلاءِ ضلالَةً أَغْرَاك عمرو للشقَا وسعيدُ

وقال سعيد بن العاص : هى والله القائلة :

قد كُنت أَطمع أَن أَموت ولا أَرى فوق المنابر من أُمَيَّة خاطبا
فالله أَخَّرَ مُدَّتِى فتطاولت حتى رأَيتُ مِنَ الزَّمَان عجائبا
فى كلِّ يوم لا يزال خطيبُهم بَيْنَ الجميع لآل أَحمد عائبا

ثم سكتوا ، فقالت : يا معاوية ، كلامهم أَعشى بصرى ، وَقَصَّرَ حُجَّتِى ، أَنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفى عليك مِنِّى أَكثر ، فضحك معاوية وقال : ليس يَمْنَعُنَا ذلك من بِرِّك ، اذْكُرِى حاجتك ، قالت : أَما الآن فلا .

مناظرة السيف والقلم

لزين الدين عمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

لمَّا كان السيفُ والقلَمُ عُدَّتى العمل وَالقَوْل ، وَعُمْدتى الدُّوَل ، فإن عَدِمَتهما دولةٌ فلا حَوْل ، وَرُكْنَىْ إسناد الْمُلْك المعربيْن عن المخفوض والمرفوع ، وَمُقَدِّمَتى نتيجة الجدل الصادر عنهما المحمولُ والموضوع فكَّرْتُ أَيهما أَعظم فخراً وأَعلى قدراً فجلستُ لهما مجلِس الحكْم والفتوى ، ومثلتُهما فى الفكر حَاضِرَيْنِ للدعوى وسويتُ بين الخصمين فى الإِكْرَام ، واستنطقتُ لسان حالِهِمَا للكلام . **فقال**

القلم : بسم الله مجريها ومُرْساها ، والنهار إذا جَلَّاهَا والليل إذا يغشاها ، أما بعد حمد الله خالق القلم ، ومشرفه بالقسَم ، وجاعله أول ماخلق ، جَمّل الورق بغصنه كماجَمّل الغصن الورق ، والصلاة على القائل : جفت الأقلامُ ، فإن للقلم قصَبَ السباق ، والكاتِبُ بسبعة أقلام من طبقات الكتاب فى السبع الطباق ، جَرَى بالقضاءِ والقدر ، ونَابَ عن اللِّسان فيما نهى وأَمَرَ ، وطالما أَربى عَلى البيض والسُّمْر فى ضرابها وطعانها ، وقاتل فى البعد والصوارم فى القُرْبِ ملء أجفانها ، وماذا يُشْبِه القلم فى طاعة ناسه؟ ومشيه لهم على أُمِّ راسه؟ قال السيف : بسم الله الخافض الرافع ، وأَنزلْنَا الحديد فيه بأْس شديد ومنافع ، أما بعد حمد الله الذى أنزل آية السيف فعظم بها حرمه الْجَرْح وآمن خيفَةَ الخيف ، والصلاة على الذى نفذ بالسيف سطور الطروس ، وخدمته الأقلام ماشية على الرءُوس ، وعلى آله وصحبه الذين أُرْهِفَتْ سيوفهم ، وبنيت بها على كسر الأَعداءِ حروفهم ، فإن السيف عظيم الدولة شديد الصَّوْلة ، محا أسطار البلاغة ، وأَساغ ممنوع الإساغة ، من اعتمد على غيره فى قهر الأَعداءِ تعب ، وكيف لا وفى حَدِّه الْحَدُّ بين الجدِّ واللعِبِ؟! فإن كان القلمُ شاهدًا ، فالسيف قاض ، وإن اقتربت مجادلته بـأَمر مستقبل قطعَهُ السيف بفعل ماض ، به ظهرَ الدينُ ، وهو العُدّة لقمع المعتدين ، حَمَلَته دون القلم يد نبيِّنَا ، فَشَرُف بذلك فى الأُمم شرفاً بينًا ، الجنة تحت ظلاله ، ولاسيما حين يُسَلّ فترى وَدْقَ الدم يخرج من خلاله ، زينت بزينة الكواكب سماء غمده ، وصدَقَ من قال « السيف أَصْدَقُ إنْبَاءً من ضده » لايعبث به الحاملُ ، ولا يتناوله كالقلم بأَطراف الأَنامل ، ما هو كالقلم المُشَبَّه بقوم عُرُّوا عن لبوسهم ، ثم نكسوا كما قيل على رُءُوسهم ، فكأَن السيف خُلِق من ماءٍ دافق ، أَو كوكب راشق مقدرًا فى السرْد ، فهو الجوهر الفَرْد ، لا يشترى كالقلم بثمن بخس ، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس ، كم لقائمه المنتظر ، من أَثر فى عين أَو عين فى أَثر ، فهو فى جراب القوم قوامُ الحرب ، ولهذا جاءَ مطبوع الشكل داخل الضرب ، قال

القلم : أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحلية وهو فى الخصام غيرُ مُبين ، يُفاخرُ وهو القائمُ عن الشمال ، وأنا الجالس على اليمين ؟ ! أنا المخصوص بالرأى وأنت المخصوص بالصَّدَى ، أنا آلة الحياة وأنت آلة الردى ، ما لِنْتَ إلابعد دخول السعير ، وما حُدِّدت إلا عن ذنب كبير ، أنت تنفع فى العمر ساعة ، وأنا أفنى العُمْرَ فى الطاعة ، أنت للرَّهَب ، وأنا للرغب ؛ وإذا كان بَصَرُك حديدًا فبصرى ماءُ ذهب ، أين تقليدُكَ من اجتهادى ، وأين نجاسة دمك من تطهير مدادى ؟

قال السيف : أَمثلك يُعَيِّرُ مثلى بالدماء ؟ ! فطالما أمرتُ بعض فراخى – وهى السكين – فأصبحت من النفَّاثات فى العقد يامسكين ، فأَخلت من الحياة جُثمانك ، وشقّت أنفك وقطعت لسانك .

ويلك ! إن كنت للديوان فحاسِبٌ مهموم ، أو للانشاء فخادمٌ لمخدوم ، أو للتبليغ فساحر مذموم ، أو للفقيه فناقص فى المعلوم ، أو للشاعر فسائل محروم ، أو للشاهد فخائف مسموم ، أو للمعلم فللحىّ القيُّوم . أما أنا فلى الوجه الأَزهر والحلية والجوهر والهيبةُ إذ أُشْهَر ، والصعود على المنبر . ثم إنى مملوك كمالك ، فاتك كناسك ، أسلك الطريق ، وأقطع العلائق .

قال القلم : أما أنا فابن ماء السماء ، وأليف الغدير وحليف الهواء ، أما أنت فابن النار والدخان وناثرُ الأعمار وخَوَّان الإخوان تفصلُ ما لايفصلُ وتقطعُ ما أمر الله به أن يُوصَل ، لاجرم أن صَعَّرَ السيف خده وصقل قفاه ، وسُقِى ماء حميا فَقَطَّعَ مِعَاه ، ياغُرَاب البين ، وياعُدَّة الحيْنِ ، ويا مُعْتَلّ العين ، وياذا الوجهين ، كم أفنيت وأعدمت ؟ وأرملْتَ وأيْتَمْتُ ؟

قال السيف : يا ابن الطين ! ألست ضامرًا وأنت بطين !؟ كم جَرَيت بعكس وتصرفت فى مكس ، وَزَوَّرْت وحرفت ، ونكرت وعرفت ، وسَطَّرت هجوًا وشتما ، وخلدت عارًا وذمًّا ، أبشر بفرط رَوْعتك ، وشدة خيفتك ، إذاقِسْتَ بَيَاض صحيفتى بسواد صحيفتك ، فأَلِنْ خطابك فأنت قصير المدة ، وأحسن

جوابك فعندى حده ، وأقلل من غلظتك ، وجبهك ، واشتغل عن دم فى وجهى بقَيح فى وجهك ، وإلا فأدنى ضربةٍ منى تروم أرومتك ، فتستأْصلكَ وتجتثُّ جرثومتَك ، فسقيًا لمن غاب لك عن غابك ، ورعيًا لمن لو أهاب بك لسلخ إهابك .

فلما رأى القلم السيفَ قد احتد ، ألان له من خطابهِ ما اشتد ، وقال : أما الأَدب فيؤخذ عنِّى ، وأما اللطف فيكتسب منِّى ، فإن لِنْتَ لنتُ ، وإن أحسنت أَحسنت ، نحن أهل السمع والطاعة ، ولهذا نجمع فى الدواةِ الواحدةِ منا جماعة ، وأما أنتم فأَهل الحِدة والخلافِ ، ولهذا لايجمعون بين سيفين فى غلاف . قال السيف : أمكرًا ودعوى عفةٍ ؟ لأَمر ماجدع قصير أنفه ! لو كنت كما زعمت ذا أدب ، لما قابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب ، أنا ذو الصِّيت والصوت ، وغِرارى لسان مشرَفى يرتجل غرائب الموت ، أنا مِن مارجٍ من نار ، والقلم من صلصالٍ كالفخار ، وإذا زعم القلم أَنه مثلى ، أمرت من يدق رأسه بنعلى . قال القلم : صَهْ فصاحب السيف بلاسعادة ، كأعزل . قال السيفُ : مهْ فقلم البليغ بغيرحظ مغزل ، قال القلم : أنا أزكى وأطهر ، قال السيف : أَنا أبهى وأَبهر ؛ فتلا ذو القلم لقلمه إنَّا أَعْطيناكَ الكوْثَرَ ، وتَلَا صاحب السيف لسيفه : فصلِّ لربِّكَ وانْحَرْ . فتلا ذو القلم لقلمه : إن شانِئَكَ هُوَ الأَبتر ، قال : أَما وكتابى المسطور ، وبيتى المعمور ، والتوراة والإنجيل ، والقرآن ذى التبجيل ، إن لم تكف عنِّى غرْبك ، وتُبعد منى قُرْبك ، لأَكْتبنك من الصُّم البُكم ، ولأُسطرنْ عليك بِقلمى سجلاً بهذا الحكم . قال السيف : أَما ومَتْنِى المتين ، وفتحى الْمُبين ، ولسانىّ الرطبين ، ووجهى الصلبين ، إنْ لم تغب عن بياضى بسوادك ، لأَمَسّنّ وجهك بمدادك ، ولقد كسبت من الأُسد فى الغابة ، توقيع العين والصلابة ، مع أنى ما أَلوتُكَ نصحاً أَننضرب عنكم الذكر صفحاً ؟ قال القلم : سَلَم إن كنت أَعلى فأَنا أَعلم ، وإن كنت أَحلى فأنا أَحلم ، وإن كنت أَقوى فأَنا أَقوم ، أَو كنت أَلوى فأَنا أَلوم ،

أَوكنت أَطرى فأَنا أَطربُ ، أَو كنت أَغلى فأَنا أَغلب ، أَو كنت أَعتى فأَنا أَعتبُ ، أَو كنت أَقضى فأَنا أَقضب . قال السَّيف : كيف لا أَفضُلك ، والمقرُّ الفلانىُّ شادٌّ أَزرى . قال القلم : كيف لاأفضلك وهو (عزَّ نصرهُ) ولى أمرى ؟ !

قال الحكمُ بين السيف والقلم : فلما رأيتُ الحجَّتيْن ناهضتين ، والبيِّنتيْن بينتيْن مُتعارضتين ، وعلمتُ أنَّ لكلٍّ واحدٍ منها نسْبةً صحيحة ، إلى هذا المقرّ الكريم ، ورواية مُسْندةً عن حديثه القديم ، لطفتُ الوسيلة ، ودقَّقت الحيلة حتى رددْتُ القلمَ إلى كنِّه ، وأغمدتُ السَّيف فنام ملءَ جفنه ، وأخرْت بينهما الترجيح ، وسكت عمّا هو عندى الصَّحيح ، إلى أن يحكَم المقرُّ بينهما بعلمه ، ويسكِّن سورة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط حلمه .

مناظرة للآمدى بين صاحب أبى تمام ـ وصاحب البحترى

صاحب أَبى تمام : كيف يجوز لقائل أن يقول : إن البُحترى أَشعرُ من أَبى تمام ، ومن أَبى تمام أَخذ ، وعلى حذْوه احتذى ، ومن معانيه استقى ! حتى قيل الطائى الأَكبر ، والطائى الأَصغر !

صاحب البحترى : أَما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أَحد عنه ولا نقله ، ولا رأَى قط أنه محتاج إليه ، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أَبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى) وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أَولها * أَفاقَ صبٌّ من هَوَى فأُفيقا * وأَبو تمَّام حاضر فلما أَنشدها علق أَبو تمام منها أَبياتاً كثيرة ، فلما فرغ من الإنشاد أَقبل أَبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أَيها الأَمير ، ما ظننت أن أحدًا يُقْدِم على أَن يسرق شعرى وينشده بحضرتى حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظه ، حتى أَتى على أَبيات كثيرة من القصيدة . فبهت البحترى ، ورأَى أَبو تمام الإنكار فى وجه أَبى سعيد . فحينئذ قال له أَبو تمام : أَيها الأَمير والله ما الشعر إلا له ؛ وإنه أَحسن فيه

الإحسان كله ، وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعَف له الجائزة .

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أن أبا تمام جديرٌ به أنْ يستغنى عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراءِ ، على أننى لا أُنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام ، لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البُحترى من شعره ، وليس ذلك بمقتضٍ أن يكون أبو تمام أُستاذ البحترى ، ولا بمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام . فهذا « كُثَيِّر » قد أخذ من « جميل » واستقى من معانيه ، فما رأينا أن أحدًا قال إن « جميلا » أشعرُ منهُ بل هو عند أهل العِلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام : إن البُحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعرُ منه ، فقد سُئل عنه وعن أبى تمام فقال : إن جيِّده خيرٌ من جيدِى ، وجيدُ أبى تمام كثيرٌ .

صاحب البحترى : إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحترى لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء ، والمُسْتوى الشعر أولى بالتَّقدُمة من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً ، وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يُسِفُّ أَفضلُ ممن يسقط ويسف .

صاحب أبى تمام : إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً ، وإماما متبوعاً ، وشُهر له حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام ، وسلكَ الناس نهجه ، واقتفوا أثره ، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحترى .

صاحب البحترى : ليس الأمر على ماوصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ، ولا بأوّل فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد

واحتذى حذْوَهُ ، وأفرط فى ذلك وأسرف ، حتى زال عن النَّهج المعروف ، والسنن المألوف .

بل إن مُسلماً غير مبتدع ، ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسمُ البديع متفرّقة فى أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثر فى شعره منها ، ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ، ولم يَسْلم مع ذلك من الطعن عليه ، حتى قيل إنه أول من أفسد الشعر . فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأحبَّ أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فَسَلك طريقاً وعرًا واستكْرَه الألفاظ والمعانى استكراهاً ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونَشِف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبى تمام لهذا المذهب وسبقه إليه ، وكلٌّ ما فى المسألة أنه استكثر منهُ وأفرط فكان إفراطه من أعظم ذُنُوبه ، وأكبر عيوبه .

أما البحترى فإنه فارق عمود الشعر ، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمُطابقة ، فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبُعد عن التكلف والتَّعمل سبباً فى إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله ، ونَفَاقُ شعر الشاعر دليلٌ عَلَى علوِّ مكانته ، واضطلاعه بما يلائم الأذْوَاق ، ويُلامس القلوب ، من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبى تمام : إنما أَعْرَض عن شعر أبى تمام مَنْ لم يفهمه لدِقَّة معانيه وقُصُور فهمه عنه ، أما النُّقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضرُّه طعنُ من طعنَ بعدها عليه *

صاحب البُحترى : لا يستطيع أَحدٌ أن يُنْكر منزلة ابن الأعرابى ، وأحمد بن يحيى الشيبانى ودُعبل الخزاعى من الشعر ، ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم فى أبى تمام وازدراءهم بشعره ، حتى قال دُعبل : إن ثلثَ شعره محال(١)

---

(١) المحال : الفاسد .

وثُلثه مسروق وثلثه صالح ، وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء ، بل شعره بالْخُطب والكلام المنثور أشبه بالشعر . وقال ابن الأعرابى فى شعر أبى تمام : إنْ كان هذا شعرًا فكلام العرب باطلٌ . وهذا محمد بن يزيد الْمُبَرد يقول : ما علمناه دُوِّنَ له كبير شىء .

صاحب أبى تمام : إن دُعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهورٌ فلا يقبل قول شاعر فى شاعر . وأما ابن الأعرابى فكان شد يد التَّعَصُّب عليه لغرابة مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سُئل عن شىءٍ منها يأنف أن يقُول لا أدرى فيعدِل إلى الطعن عليه .

ولا مانع أن يكون جميع من تذْكرونه على هذا القياس .

صاحب البُحترى : لا عَيبَ على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المُخرجة للكلام إلى الخطأ والإحاطة ، والعيبُ فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام : إن العلم فى شعر أبى تمام ، أظهرُ منه فى شعر البحترى والشاعر العالم ، أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى : كان الخليل بن أحمد عالماً شاعرًا ، وكان الأصمعى شاعرًا عالماً ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حبان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان زمانهم من الشعراءِ غير العلماء ، والتَّجْويد فى الشعر ليست علته العلم ، والشائع المشهور أن شعر العلماءِ دُون شعر الشعراء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب . أما البُحترى فلم يقصد هذا ولا اعْتَمَده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علماً ، بل كان يرى أنه شاعر ، لا بُد له أن يقرِّب شعره من فهم سامعه ، فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه ، عَلَى أن هذا

العلم الذى تؤثرُون به أَبا تمام لم ينفعه ، فقد كان يلحن فى شعره لحناً يضيقُ العذر فيه ، ولا يجد المتأَوِّل له مخرجاً منه ، إلا بالحيلة والتحمُّل الشديد .

صاحب أَبى تمام : لسنا نُنكر أَن يكون صاحِبُنا قد وهم فى بعض شعره ، وعدَل عن الوجه الأَوضح فى كثير من معانيه ، وغير غريب عَلَى فكرٍ نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد ، أَن يلحقه الكلال فى الأَوقات ، والزلل فى الأَحيان ، بل من الواجب لمن أَحسن إحسانهُ أَن يُسَامح فى سهوه ، ويتجاوز له عن أَخطائه ، وما رأَينا أَحدًا من شعراءِ الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أَخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أَخذته الرّواة عن المحدثين المتأَخرين من الغلط والخطأ ، واللحن أَشهرُ من أَن يحتاج إلى أَن نُبرهنَه أَو ندل عليه ، وما كان أَحد من أُولئك وهؤلاءِ مجهول الحق ولا مجحود الفضل ، بل عفا إحسانهم عَلَى إساءتهم وتجويدهم عن تقصيرهم .

صاحب البُحترى : أَما أَخذُ السهو والغلط عَلَى من أُخِذَ عليهم من المتقدمين والمتأَخرين فنى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أَما أَبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عِدَّة أَبيات ، يكون فيها مفسدًا أَو مُحيلاً أَو عادلاً عن السنن أَو مستعيرًا استعارةً قبيحةً ، أَو مخطئاً للمعنى بطاب الطباق والتجنيس، أَومبهماً بسوءِ العبارة والتعقيد ، حتى لا يُفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أَبى تمام : تُنكرُون على أَبى تمام من الفضل ما يعترف به البُحترى نفسه ، فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراءِ عصره .

صاحب البُحترى : لم لا يفعل البحترى ذلك ؟ ؟ وقد كان هو وأَبو تمام صديقين متحابين ، وأَخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمُنكر ولا غريب أَن يشهد أَحدهما لصاحبه بالفضل ، ويصفه بأَحسن ما فيهِ وينحله ماليس فيه ، على أَن الميت خاصة يُعطى فى تأْبينه من التقريظ. والوصف وجميل الذكر أَضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام : كيفما كان الأمر لاتستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماءُ ، أن جيِّد أبي تمام لايتعلق به جيِّد أمثاله ؛ وإذا كان جيده بهذه المكانة ، وكان من الممكن إغفال رديئه واطِّراحه كأنه لم يَقُلْهُ فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره ، والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى : إنما صار جيِّد أبى تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدْرَته ووقوعه فى تضاعيف الردىء ، فيكون له رونق وماءٌ عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيد البحترى كجيد أبى تمام ، إلا أنه فى جيد مثله أو متوسط ، فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

مناظرة بين الليل والنهار

لمحمد أفندى المبارك الجزائرى

لما أسفر النهار عن بياض الغُرَّة قابله الليل بسواد الطُّرَّة ثم صار الهزل جَدًّا ، واشتد النزاع بينهما جِدًّا ، فاستنجد كلٌّ منهما أميره ، وأفشى له سره وضميره ، وإذا بالليل حمل على النهار ، فصبغ حُمْرة وردته بِصُفْرة البهار ، وخطر يَجُرُّ ذيول تيهه وعجبه ، مُرَصِّعًا تيجان مفاخره بدرر شبهه ، ثم قال : « والليل إذا يَغْشَى » «إنَّ فى ذلك لعبرة لمن يَخْشَى » ففتح باب المناقشة فى هذا الفصل ، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل « فإن الحرب أولها كلام » ثم تَنْجَلى عن قتيل ، أو أسير بكلام .

ولما بلغ الليل غايته بزغ الفَجْرُ ورفع رايته ، وقال إذ جال فى مُعْترك المنايا «أنا ابن جَلَا وطَلَّاع الثنايا » ، فتقدم فى ذلك المكان وجلى ، تالياً قوله تعالى « والنَّهَارِ إذا تجلَّى » ثم استوى على عرش السنا والسناء ، وأطلع شموس طلعته فى الأرض والسماء ، فأَعْرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق ، وأغرب فى نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق ، وماانحدر من منبره حتى أيد دعوى خبره بشاهد

مخبره ، فانتدب إليه « الليل » ومال عليه كل الميل ، وقال : أحمد من جعلني خلوة للأحباب ، وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب ، وخلقني مثوى لراحة العباد ، ومَأْوَى لخاصة النسَّاك والعبَّاد ، ولله درٌّ من قال فأجاد :

أيها الليل طُل بغير جُنَاح ليس للعين راحةٌ فى الصباح
كيف لا أبغض الصَّبَاح وفيه بانَ عنى نور الوُجُوه الصِّبَاح

أتردَّد على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب ، وأتودَّدُ إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب ، تدور فى ساحتهم بدورُ الحسن والبهاء ، وتدارُ من راحتهم كووس الأُنس والهناء فتُحَيِّيهم نغمات السمر ، وتُحْيِيهم نسمات السحر ، فأحيان وَصْلِي بالتهانى مُقْمرة ، وأفنان فضلى بالأمانى مُثمرة ، وحسبى كرامةً أنى للناس خير لباس أقيهم بلطف الإيناس من كل باس ، وَمَنْ وَاصل الإدلاج وَهجَرَ طيب الكرى قيل له (عند الصَّبَاح يحمد القومُ السُّرَى) .

وَمَا الليلُ إلا للمُجدِّ مَطِيَّةٌ وَميدان سبق فاستبق تبلغ المُنى

ففتن بمعانى بيانه البديع ، وَتفنن فى أفانين التصريع وَالترصيع ثم أتم خطبته بالتماس المغفرة وَالعفو ، واستعاذ بالله من دَوَاهى الغفلة وَدَوَاعى اللهو . فوثب إليه (النهار) وَصال عليه صولة ملك قهار ، وصعد على منبره ثانياً ، وقد أضحى التيه لعطفه ثانياً ، فأثنى على من جلا ظلمة الحجاب ، وتجلى له باسمه النور وتوجّه بسورة من الكتاب وزانه بأبهى سراج وَهَّاج ، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج ثم صاح : أيها الليل ، هَلَّا قصرت من إعجابك الذيل؟ ! ولئن دارت رحى الحرب واستعرت نار الطعن والضرب ، فَلَأَسْبِيَنّ مُخَدَّرَاتك ، وهى عن الوجوه حاسِرَة ، وَأنت تتلو يومئذ « تلكَ إذًا كَرَّة خاسرة » . فما دعاك إلى حلبة المفاضلة ؟ وَما دهاك حتى عرضت بنفسك للمُنَاضلة ؟ ! وَهل دأبك إلا الخداع والمكر ؟ ! وترقب الفرصة وَأنت داخل الوكر ؟ ! أما حَضّ القرآن

على التعوُّذ بربِّ الفلق وندب « مِنْ شرِّ ما خلقَ ومن شرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ » فبرِبي يُسْتَعَاذ من شَرِّك ويستعان على صنوف صروف غدرك ، وهَبْ أنك تجمع المحب بالحبيب ، إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب ، فكم يُقاسى منك فى هاجرة ، ويئن أنين الثكلى حتى مطلع الفجر ؟ ! .

يبيتُ كما بات السليمُ مُسَهَّدًا وفى قلبه نارٌ يَشُبُّ لها وَقْدُ

فيُسَاهر النجوم ، ويُسَاور الوجوم ، وقد هاجت لَوَاعج غرامه ، وتحركت سواكن وجده وهُيَامه ؛ فأنشد وزفيره يتصعد :

أقضى نهارى بالحديث وبالمُنى ويجمعنى والهمّ بالليل جامعُ
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لِيَ الليلُ هَزَّتنى إليك المضاجعُ

على أن العاشقَ الوَله ، يشكو منك فى جميع أحواله ، فكمْ قطع آناءك بمواصلة أنينه متململاً من فرط شوقه وحنينه ، فلما أن حُظِيَ بالوصال تمثل بقول من قال :

الليلُ إن وَاصَلَتْ كالليل إن هجرَتْ أشكو من الطُّولِ ما أشكو من القِصَر

ولئن افتخرت ببدرك الباهر الباهى ، فإنما تُبَارَى ببعض أنوارى وتُبَاهى ، وهل للبدر عند إشراق الشمس من نور ؟ أو لطلعة حسنه من خُدُور البطون ظهور ! ومن ادَّعى أنك تساوينى فى الفضل والقدر ! أو زعم أن الشمس تقتبس من مشكاة البدر ! ومتى استمدت الأُصول من الفروع « وما أغنى الشموس عن الشموع » فبى تَنْجَلى محاسن المظاهر الكونية وتتحلى بجواهر الأَعراض اللونية ، أوَ يخفى حسنى وجمالى على مشاهد ؟ أو يفتقر فضلى وكمالى إلى شاهد ! وعِرْضِى عَار من العار ، وجميع الحسن من ضيائى مُسْتعار !

وليس يصحُّ فى الأَذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

أما كفاك بيِّنَة ، وزادك ذكرى أو تبصرة ، قوله تعالى : « فَمَحَوْنَا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبْصِرة » و « هل يَسْتوِى الأَعمى والبصيرُ ،

أم تستوى الظلمات والنور» وأين منزل أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور! وإن كنت مغنى الأنس والأفراح ، تفعل بعقول الناس فعل الرَّاح ، فهل حسبت أن السكوت خير من الحركة ، وقد أجمع العالم على أن الحركة بركة ، فإن لى بكل خطوة حَظْوة وليس لجوادى كَبْوَة ، ولا لِصَارمى نَبْوَة ، وإن صَرَّحْتَ للذينَ يبيتُونَ لِرَبِّهم سجدا وقياماً ، معرضاً بكل غافل لاه ، فى كل مجال رجال لاتلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله ، وأين من احتجب بظلماتٍ بعضها فوق بعض ، ممن أضحى ينظر بعين الاعتبار فى ملكوت السموات والأرض! وقد أتحفنى الله بالصلاة الوسطى فأُوترُ بها صلواتى ، وشرع فيها الإسرار لأسرار اختصت بها أهل جلواتى ، وكفانى شرفاً « شهْرُ رمضان الذى أُنزل فيه القرآن » ، فمآثرى مأثورة فى القديم والحديث ، ومفاخرى منثورة فى الكتاب والحديث ، ومحاسِنى واضحةٌ لأُولى الأَبصار ، وهل تخفى الشمس فى رابعة النهار ! فاكفف عن الجدال وَأَمْسِك ، ولا تجعل يومك مثل أمسك ، وسالم من ليس لك عليه قُدْرَة ، فقد قيل : «ما هلكَ امرؤٌ عَرَفَ قَدْرَه » ، أقول قولى هذا وأستغفر الله من آفة العُجْب والكبرياء . ولما انهار ركن النهار ، إنْهَارَّ (الليل) وتبرقع بالاكْفِهْرَار ، فسدَّ ما بين الخافقين بسواده ، وطَفِقَ يَرْمى بسهام جَدَله فى جلاده ، وقدم بين نجواه سورة القدر ، آية على ما حازه من كمال الرفعة والقدر ، وثنى بقوله تعالى : « سبحانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا » فأشار إلى الحبيب حين تجلت له قوة عينه ليلا ، ثم قال : « سُحْقًا لك أيها النهار ، فقد أسَّسْت بنيانك على شفا جُرْف هَارٍ ، ومنى كان انسلاخُكَ وظهورك ، وتفاضلنى وبى أُرِّخَت أعوامك وَشهورك ـ ألم يأْن لك أن تخشع للذكر(١) ! فتعترف برتبة التقديم فى الذكر(٢) ، وكيف تُعَيِّرُنى بلون السَّواد ! وهل يقبح السواد

(١) الذكر : القرآن . (٢) الذكر هنا : الشرف .

إلا فى الفؤاد؟! أوكيف تَعيبُنى بالخداع (وَالحَرْبُ خُدْعة) وليس الشئُ فى موطنه بغريب ولا بِدْعة؟! أَما تشهد العوالم من هَيْبَتِى حَيَارى ؟ «وترى الناس سكارى وماهم بِسُكَارى» فكم أَرّقتُ(١) ملوكاً أكاسرةً؟ وأَرَقت (٢) دماءَ أُسودٍ كَاسرة، وكم أَوْرَيتُ نار الوغى تحت العجاج؟ وقد ازْوَرَّت اللحاظ واغْبَرَّت الفجاج، فأَنا البطل الذى لا يُصْطلى بناره، ولا يأْخذ منه الموتُور بثاره، وَافتِخَارُكَ علىّ بالصلاة الوسطى، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً، وهب أَنك انفردت بتلك الصلاة الجليلة، فأَين أَنت مما أُوتيتهُ من الصلات الجزيلة، أَما كان افتراض الصلاة فى ليلة العروج؟! فما بالُكَ تدعى الارتقاء إلى هذه البُرُوج؟!

وما أَعجَبَتْنى قَطُّ دعوى عريضة ولو قام فى تصديقها أَلف شاهد

وأَمّا افتخارُكَ عَلَيَّ بفضل شهر رمضان، وما نزل فيه من السبع المثانى والقرآن، فهل صحّ لك صيامه إلا بى بَدْءًا وختاماً؟! وقد تميّزْتُ عليك بفضيلة إحيائه تَهَجُّدًا وقياماً، على أَنى محل النيَّة «ونية المرء خير من عمله» لأَنها بمثابة الروح له، وبها يحظى الراجى ببلوغ أَمله، هذا: وإنى أَتكَفَّل للصائم بمديد الراحة ووافر الأَجر حتى يتبينّ له الخيط الأَبيض من الأَسود من الفجر، وكيف تفتخر بالكتاب المنزه فى مزاياه عن المشاركة؟ والله تعالى يقول فيه: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» وهل فى مطالع سعودك أشرقت بدور العيدين؟! أَم على جناح جُنْحك أُسْرِى بنور طلعة الكونين؟! عُرِجَ به عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوسين، وهل فى تجليات أَسحارك يقول الرب: هل من سائل؟ فيُنَاجيه العبد متضرعاً إليه بقلب خاشع ودمع سائل.

ومما اختصصت به من الفضائل والمفاخر، أنه فى دولتى وُلد سيد الأَوائل والأَواخر، ونَاهِيك بليالى شهر الله رجب، وكيف لا وفى طالعها السعيد حملت آمنة بسيِّد العَجم والعرب.

(١) ارقت: اسهرت. (٢) أرقت: أسلت.

فطلع (النهار) طلوع الأَسد من غابه ، وكسر جُيوش الدجى حين كَشَّرَ عن نابه ، وَشَمَّر للحرب العَوَان غيرَ نَاكِلٍ ولا وَانٍ ، ناشرًا فى الأُفق رايته البيضاء ، وأَسِنَّتُه لامعة بين الخضراءِ والغبراءِ ، وقال : والذى كسانى حُلل الملاحة ، وأَطلق لسانى بالبلاغة والفصاحة ، لأَمحونَّ سطور الدجى من طُرُوس الوجود ، ولأُثبتن حسن أَحوالى فى مقامات أَهل الشهود : فإِنى معروف بالوفاءِ وصدق الخبر ، موصوف بالصفاء الذى لايشوب صفوه كَدَر ، كيف يُبَاهينى (الليل) بمكارم الأَخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، وأَنا أَتحدث بنعم الله وهو موسوم بكُفْرَان النِّعَم ؟ أَلست مظهرَ الهداية والدلالة ، وهو مظهر الغَوَاية والضلالة ؟ ! فكم أَرشدت مَنْ أَضله ، وأَعززت من أَهانه وأَذله ، وكم أَظهرت منه عيبًا كان غيبًا ، فابيضت عينُه حُزْناً «واشتعل الرأْس شيبًا» :

ومن جَهِلَتْ نفسه قدره رأَى غيره منه مالا يرى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق أَنه لسَيِّده فى حَلبة الشرف سابق ، وقد قال الواحد القهار : «ولا اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ» إن هو وأَيم الله كافر ، وبشموس أَنوار الشهادة غير ظافر ، لوكان من السُّعداءِ لفاز بدار النعيم ، ولولا شقاؤه لما شابه سواد طبقات الجحيم ، وماذا يُؤمِّله من الجزاءِ ويرجوه «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوه» أَما درى أَن صحيفته سوداءُ مظلمة ، وصحيفتى تفصح عن نفْسٍ مؤْمنة بالله مسلمة ! وأَنى يرقى كتابه إلى عليِّين ، وهو من ظلمات الحجاب فى سِجِّين ! .

ثم أَقبل عليه ، وأَنشد مشيرًا إليه :

يا مُشبهًا فى فِعْلِهِ لَوْنَه لم تَعْدُ ما أَوجبت القِسْمَه

خُلُقك من خلقك مستخرجٌ والظلم مُشْتَق من الظلمه

وقال : كيف تدعى فوق حالك ، وأَى فضل لمن منظره أَسود حَالِك !

أَما علمت أَن الظاهر للباطن عنوان ، كما أَن اللسان عن الجنان ترجمان ، قال أَفضل الخلق عليه الصلاة والسلام : «ابتغوا الخير عند حِسان الوجوه» وقال الشاعر :

لا تسأل المرءَ عن خلائقه   في وجهه شاهدٌ من الخبر

فأنا مفْتاح خزائن الأرزاق ، وبى يستفتح باب الكريم الرزاق ، وكفانى دليلاً على الفضل والكمال « إن الله تعالى جميل يُحب الجمال » لقد سمعتُ أقاويلك التى قدمتها بين يديك ، وزعمتَ أنها حُجَّة عليك(١) ، ولا جَرَمَ أن لسان الجاهل مفتاح حَتْفه ، وكم من باغ قُتل بصارم بغيه وحَيفه . أما انسلاخى منك فمن أَمْلَح الملح لى وَالغُرَر ، وهل يحق لأَصناف الأَصداف أن تُنَافس نفائس الدُّرَر ؟ أليست « تَلِدُ الأَمَة ربتها حُرَّة نجيبة » وقد قالوا : « إن الليالى حَبَالى يَلِدْن كل عجيبة » ، وأَما تَقَدُّمك عَلَيَّ فمن العادة تقدم الخدم بين يدى السادة :

أَو ما يُرى أَن النبيَّ محمدًا   فَاقَ البَرِيّة وهو آخر مُرْسَل

على أَنه « أَولُ ما خلق الله النُّورَ » كما ورد عن جابر فى الخبر المأْثور . وأَما تحلّى صفوتك بتجلّى الحق تعالى فى السَّحَر ، فليس إلا لمن أَحيا أَحيانك بالمجاهدة والسهر ، وأَما زَهْوُك بقصة ظهور سيد ولد آدم الذى هو نتيجة مُقَدمات الكون وَزُبدة العالَم ، فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك ؟ وَأَنّى لك هذا ، وَصُبْح طاعته تمحو سوادك الحالك ، وأَما خبَرُ الإِسراءِ فعنّى رَوَته الأُمّة(٢) ثم بلَّغه الشاهد الغائب بعد أُمة(٣) ؛ فما لاحت أَسراره إلا بمطالعى ، ولا راحت أَستاره إلا بطوالعى ، وما أَشَرْتُ إليه من بقية معانيك التى أَضاءَت بها فى الخافقين نجومُ معاليك ، فأَين أَنت من يوم عَرَفَة ، الذى عرفه بأَبهى الخصائص مَنْ عرفه ، وأَين أَنت من يوم عاشوراء ، الذى يَعظم فيه الشكر والصبر على السراءِ والضراءِ ! وناهيك بسُمُوّ شأْن العيدين ، فما أَجلَّهما من موسمين سعيدين ، وكيف تُفَاخرنى بساعة تبدو منك مرة فى كل عام ، ولى كل أَسبوع أَمدٌ تمتد فيه موائد الْجوُد والإِنعام

(١) هكذا بالاصل والاصح أن يقال : « وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك » .

(٢) الأمة : أهل الدين (٣) الأمة: الحين من الدهر ، أى مدة ، أو وقت .

فأَخبارُ أَخبارى سارت بها الركْبَان ، وماسَت بنسيم رِقَّتها معاطف البيان ، وقدرى فوق ماتصفه الأَلْسُن ، وعندى « ما تشتهيه الأَنْفُس وتلذ الأَعْيُنِ » فدع عنك قول الزُّور وَالْمَيْنِ « فقد بين الصبح لذى عينين » .

ولمَّا أَفاض (النهار) فى حديث يفضح الأَزهار ، أَبدع فى كنايته وتلويحه وأَغْرَب فى تعريضه وتصريحه . ابتدر إليه (الليل) وأَجلب عليه بالرَّجل والخيل وامتطى جواده الأَدهم ، واعتَم بعمامة سوداء وتلثَّم ، فأَنسى بفتكاته عنترة بنى عبس ، حين أَمسى يتوعَّد عمارة بالقتل والرَّمس ، ثم نشر فى الأُفق ذوائبه السود ، وعبس وبَسر فأَسَر بسطوته الأَسود ، وقال : « فلا أُقسمُ بالشفق ، والليل وما وَسَق ، والقَمَرِ إذا اتَّسَق » لأَسبينَّ رُوميَّ النهار ، ولأَجعلنه عبرة لذوِى الاعتبار ؛ فلقد تَزَيَّى المملوكُ بِزِيِّ الملوك ، وَادَّعى مقام الوصول إلى صاحب السير والسلوك ، أَما كفاه ازدرائى وتحقيرى ؟ ! حتى حكم بتضليلى وتكفيرى ! كم أَسبَلت عَلَى عَوْرَاته ذيلَ سترى ، وهو لا يُبَالى بهتك أَستارى ؟ وكم أَوْدَعتُ مكنون سرِّه فى خزانة سرِّى ، وهو يبوح بمصون أَسرارى ! أُفٍّ له من فاضح ، أَما يكفيه ما فيه من المفاضح ؟ !

أَنَمَّ بما اسْتَوْدَعْتُهُ من زجاجةٍ يُرى الشيء فيها ظاهرًا وهو باطن

كيف احتج لتقدمه بحديث جابر ، مع أَن ماروٰه لِكَسْرى أَعظمُ جابر ، فإنه برهنَ على تقدمى عليه لو أَدرك سر ما أَومأَ إليه ، وعلَام جعل السوادَ على النقص علامة ، وهو مُشتقٌّ من السُّوْدَد لدى كل علَّامة ؟ أَما درى أَنى حُزْتُ من الكمال الحظ الأَوْفَر ، حتى تحلى ببديع وصفى العنبرُ والمسكُ الأَذفر !

إن كُنتُ عبدًا فنفسى حُرَّة كرماً أَو أَسْوَدُ الْخَلق إنى أَبيض الْخُلْق

وهل يُزرى بالخال سواده البارع ، أَو يُغْرِى بالبرص بياضه الناصع ، وفى بياض المشيب عِبْرَة وأَى عبْرَة ، فكم أَجرى من الآماق أَعظم عَبْرَة .

له منظر فى العين أَبيضُ ناصع ولكنه فى القلب أَسود أَسفَعُ

ومن عاب نعت الشباب ، وفضل وصف الشيب ، فقد غاب عن شهود العيب وعالم الغيب «فما كلُّ بيضاءَ شَحْمَة ولا كلُّ حمراءَ لحمة » ؛ ولمَّا أَنهى مقاله ، ومل مقامه شَمَّرَ للرحلة أَذياله ، وقَوّض خيامه . فتهلل وجه الصباح ، وهلل بذكر فالق الإِصباح وازدهاه السرور والابتهاج ، كأَنه ربُّ السرير والتاج :

فكأَن الصبح لمَّا لاح من تحت الثُّرَيَّا
ملكٌ أَقبل فى التا ج يُفَدَّى ويحيَّا

برز إلى المبارزة من بابها ، إذ كان فى فرسانها وأَربابها ، فسلب (الليل) لباسه وأَذاقه شدته وباسه ، وقال له : أَيها المَعجبُ بنفسه ، المغرب فى نفشه صحيفة زوره بنقشه(١) « ما كل سَوْدَاءَ تمرة ، ولا كل صَهْباء خمرة » أَلم تعلم أَيُّنَا أَبهى محيًا ، وشتان ما بين الثرى والثريّا ، أَين سوادك من بياضى ؟ ! وما زهر نجمك إن تلألأَ من زهر رياضى ! وكم أَطلعت بُدورًا فى مواكب السيارة ، فأَضحت تزهو بجماله على الكواكب السيارة ، وهل لك مثل الغزالة ؟ التى انفردت فى الملاحة لامحالة ! فأَنا الذى ضاءَ صباح الصبَّاحة من محياه ، وضاع عَبير العنبر من نشر أَنفاسه وطيب رياه ، ولولاى ما عُرِف الحسن والجمال ، ولا سعى على وجه الأَرض بدر الكمال . فوجم (الليل) لبراعة تلك العبارة ، وبلاغ ما لاح له من الرمز والإِشارة ثم وثب للمقال كأَنما أَنشط من عِقال ، وقال : « رُبَّ ملوم لاذنب له » ، ومظلوم خيب الدهر أَمله ، فإلى متى يسوءُنى النهار ؟ وحتَّامَ يسومنى عذاب النار ؟ طالما أَعرتُهُ أَذناً صماء ، وعيناً عمياءَ ، وهو لا ينثنى عن المقابلة ، ولا يرعوى عن المحاربة والمقاتلة . أَما تعلم أَيها المغتر ببياضك أَن السواد حِلية أَهل الزهد والصلاح ، وهل يسترقُّ الأَسود إلا سود أَحداق

(١) النقش : ما يكتب به من مادة، يريد سواده .

المِلَاح ! بيد أَن الحر لا يُبَالى بالجمال الظاهر ، وإنما يُبَاهى بالفعل الجميل ، والقلب الطاهر ، فإن تفاوُت المراتب ، بحسب تفاوت المناقب .

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له إذا لم يكن فى فعله والخلائق

وكم أَعددت للأُنس مقاعد ، وفى الأَمثال : « رُبَّ ساع لقاعد » فإن ظِلِّى ظليل ونسيمى عليل بليل ، تهدأ بى الأَنفاس وتسكُن الأَعضاء والحواس . فقام (النهار) يعثر بذيله ، وقد كفكَف وَاكِف سيله ، فما لبث أَن تنفَّس الصباح ، وأَظهر من سناه ما أَخفى ضوء المصباح ، ورفرف بجناحه الأَبيض على الدُّجى ، فاقتنصه من وكره بعد ما سكن وسَجَا :

فكأَن الصباح فى الأُفْق باز والدُّجَى بين مِخْلَبَيْهِ غُرَاب

وقال : تَبًّا لك أَيها (الليل) فلقد أُوتيت من المينِ أَوفر نيل ، أَى حديث لك صحيح وَضعتَه ، وأَى حق لك صريح أَضَعْتَهُ ؟ !

عليك بالصدق ولو أَنه أَحرقكَ الصدق بنار الوعيد

ٱبْغَ رضا الله فأَغبى الوَرَى من أَسخط المَوْلى وأَرضى العبيد

نعم لك فى السمر خبر مرفوع ، بيد أَنه مكروه فى السُّنة موضوع ، قد اشتهرت لكن بأَقبح الأَوصاف ، وعدلتَ لكن عن سبيل العدل والإِنصاف ، تكتم عن المرءِ ما يُرْدِيه « وتخفى فى نفسك ما الله مُبْديه » وفى المثل : « الليل أَخفى للويل » فما أَصعب مراسك قبل افترار سُهيل ، وهل يترنم بذكرك إلا غافل ؟ وأَنى يغتر بك عاقل ، ونجمك آفل ؟ وكيف تفتخر علىَّ ، وأَنت تفتقر إلىَّ ؟

ولما سلب النهار بأَساليب بَيَانه العقول ، وسكت الليل مَلِيًّا أَنشأَ يقول :

فعين الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ كما أَن عين السُّخط تبدى المساويا

كيف أَتصَدّى للكذب ، وأَتردّى باللهو واللعب ! ! وأَنا المنعوت باللطف والظرف والموسوم بالصمت وغضّ الطرف ، كيف أورث الغرور ، وأُوثر الغفلة على الحضور ، وأَنا الداعى لذكر الله وحده ، والساعى فى رَدّ الكثرة الوهمية إلى عين

الوَحْدَة وأنا الموصوف بالسِّتْرِ الجميل ، والمعروف بشكر المعروف والجميل ، وهل أَحْجبُ البصر عن شهود عالم الكثافة ، إلا لأَكشف لعين البصيرة عن عالم اللطافة ، وبذلك يتحقق العبد بفنائه عن وُجُوده ، فيمده الرب تعالى بسر بقائه من خزائن جُودِهِ . ثم قال (النهار لليل) وقد هجم عليه هُجُوم السيل : أَيها المدعى مقام الدعوة إلى الله ، وهو فى حال الغفلة عن مولاه لاه ، كيف تَسَنَّمْتَ ذَرْوَة هذا المِنْبر ؟ كأَنك تكْتُبُ بالمِسْك وتختم بالعنبر ! لقد أَطلت فيما « لا طائل تحته » ولا معنى ، فكم ذا « أَسْمَعُ جَعْجَعَةً ولا أَرى طَحناً » فلو كنت ممن انتخب غُرر الشِّيم وانتقى ، لاتَّعظت بقوله تعالى : « فلا تزكوا أَنفسكم هو أَعلم بمن أتَّقى » . فتنبه من غفلتك أَيها « الليل » قبل أَن تدعو بالثُّبور والويل ، وإلا فَرَّقْتُ طلائع سَوَادِك أَى تفريق ، ومزقت سوابغ ظلامِك أَى تمزيق « فما كلُّ مَرَّة تَسْلَم الجَرَّة » . فاسودَّ وجه الليل ، وانقلب « بحَشف وسُوء كيل » وندم على مناضلة النهار ، نَدَامة الفرزدق حين فارق النَّوَّار(١) ولما سُقِط فى يَدِه ، ورُزِئ فى عدده وعُدَده ، تردى بالسواد ، ولبِسَ ثياب الحداد ، ثم لاح هلاله للعين ، كمِنْجَل صيغ من لُجين :

انْظُر إلى حُسْنِ هلالٍ بدا يَجْلو سنا طَلْعته الحنْدِسا
كمِنْجَل قد صيغ من فِضَّةٍ يَحْصُدُ من زهر الدجى نرجسا

---

(١) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها فى مجلس عبد الملك بن مروان . وذلك أن الفرزدق قال فى المجلس — وفيه جرير — النوار طالق ثلاثا أن لم أقل بيتا لايستطيع جرير أن ينقضه أبدا فقال عبد الملك : ماهو ؟ فقال :

فانى انا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف انت مزاوله

فقال جرير : أم حرزة طالق منى ثلاثا ان لم أكن نقضته وزدت عليه . فقال عبد الملك هات فأنشد :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئتنى بمثل الدهر شيئا يطاوله

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس وطاق عليك .

وقال : من يُنْصفنى من هذا الجائر ؟ وينْصِتُ لى فأَبثه شكوى الواله الحائر ، فحتام أُعانى حَدَّ الظبا ، وقد بَلَغ السيل الزُّبى .

وكنت كالْمُتمنى أن يرى فلقاً من الصباح فلما أن رآه عمى

فانتبه طرف (النهار) وازدهر سراحه أى ازدهار ، وشرع يتلو سورة النور بكمال الابتهاج ، والشمس ترقمُ آية جماله بالذهب الوهاج .

وقابل الصُّبْح جُنْح الليل فارتَسَمَت سُطورُه البيضُ فى ألواحه السود

ثم قال : أيها « الليل » البهيم « تالله إنَّك لفى ضَلاَلِك القديم » كيف تدعى أنك مظلوم ، وتشتكى من جورى وأنت الظلوم ؛ وهب أنى قاتَلْتُكَ ظلماً فأنت البادى ، وهل قابلتك إلا بما واجهتنى به فى المبادى ، وها أنا بَرْهَنت على فضلى بشهود عُدول ، ليس للمنصف على تزكية شهادتهم عدول ، فاستقلْ من دعوى المجد والفخر ، « فقد حَصْحص الحق » ووضح الفجر ، وإن أبيت سلوك محجتى ولم تتضح لك أدلة حُجَّتى ، فهلم إلى « حضرة الأَمير » ولا ينبئك مثل خبير . فأنكر الليل زعمه التفرد بالفضل وادعاءه ، وأجاب فى عرض أمرهما على (الأَمير) دعاءه ، وقال : على الخبير ، سقطت ، وعند ابن بجدتها حططت .

وكتب أيضا فى مناظرة بين الارض والسماء

جالت السماءُ فى ذلك المضمار وصالت ، ونَوَّهت برفيع قدرها وقالت : تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً ، ومنح أشرف الخلق إلىَّ عُرُوجا ، وقدمنى فى الذكر فى محكم الذكر ، وشرفنى بحسن القسم ، وأتحفنى بأَوفر القسم ، وقدسنى من النقائص والعيُوب ، وأَطلعنى على الغوامض والغيوب ، وقد ورد أَن الرَّب ينزل إلى كل ليلة ، فيولى من تعرض لنفحاته بره ونيله ، فيالها من تحفة جليلة ومنحة جزيلة يحقُّ لى أن أجر بها ذُيول العزة والافتخار ، وكيف لا والوجود بأَسره باسطٌ إلىَّ أَيدى الذلة والافتقار ، فلى العز الباذخ ، والمجد الأَثيل الشامخ ، لتفردى بالرفعة والسمو وعُلُوّ المنزلة دون غلُوّ . فقالت لها « الأَرض » ويحك لقد

أَكثرت نزراً وارتكبتِ بما فُهْتِ به وزراً ، أَما إنه لا يُعْجَبُ بنفسه عاقل ، ولا يأْمن مكر رَبه إلا غافل ، ومن ادّعى ماليس له بقوله أَو فعله ، فهلاكه أَقربُ إليه من شراك نَعله ، وقد قيل : « من سعادة جدِّك ، وقوفك عند حدِّك » ومن فعلَ ما شاءَ لقِيَ ما ساءَ ، أَوما كفاك أَنْ خَطرت فى ميادين التيه والإِعجابِ ! حتى عرضت لشتمى « إنَّ هذا لشيءُ عُجَاب » ! وهل اختصك الله بالذكر ؟ أَو أَقسَم بك دونى فى الذكر ؟ أَو آثرك بالتقديم ، فى جميع كلامه القديم ، حتى ترديتِ بالكبرياء وتعَديت طَوْرَ الحياء !

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستَحِ فاصنَع ما تشاءُ
فلا وأَبيك ما فى العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

وكيف تزدرِين أَهلى بالذُّنوب والمعاصى ! وأَنت تعلمين أَن الله هو الآخذ بالنواصى ؟ فقابلتها « السماءُ » بوجه قدقطبتُه ، ومِجَنٍّ قدقلبته ، وقالت لها فى الحال أَيتها القانعةُ بالمحال ، ما كنتُ أَحسبُ أَنك تجترئين على مُبارزة مثلى ، وتنكرين علىَّ ما ترنمتُ به من شواهد مجدى وفضلى ، وهَلْ خِلتِ أَن التحدث بالنعم مما يلام عليه ؟ مع أَنه أَمرٌ مندوبٌ إليه ؟ ومن أَمثال ذوى الفطنة والعقل « ليس من العدل سرعة العذل » وكيف جَحَدْت ظهور شمس كمالى ؟ وهل لك من الفضائل والفواضل كما لى ! ولكن لك عند عُذراً جلياًّ ، وإن كنت « لقد جئت شيئاً فَرِياًّ » .

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس مِنْ رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَم طعم الماءِ من سَقمِ

ولو رأَيت ما فيك من المساوى عيانا ، لما ثنيت إلى حَلبة المفاخرة عِناناً . فأَنَّى تفوزين بأَشرف الأَقدار ، وأَنت موضع الفضلات والأَقذار ؟ وما هذا التطاولُ والإِقدام ، ووجهك موطئُ النعال والأَقدام ، إن هذا إلا فعل مكابر ، دَعوى عريضة وعجز ظاهر ، وهل يحق للكثيف أَن يتغالى على اللطيف ، أَم ينبغى للوضيع

أن يتعالى على الرفيع ؟ فقالت لها « الأرض » أيتها المُغْترة بطوالع أقمارها والْمُعْتَزَّة بلوامع أنوارها « ما كلّ بَيضاءَ شَحْمة، ولا كل حمراءَ لحمة » فبمَ تزْعمين أنك أتقى منّى وأنقَى ، وما عند الله خيرٌ وَأَبْقى ، وأنت واقفةٌ لى على أقدام الخدْمة جارية فى قضاءِ مآربى بحسب الْحِكمة ، قد كفَّلك الحق بحل مُؤونتى ، وكلَّفك بمساعدتى ومعونتى ، ووكلك بإيقاد سراجى وَمِصباحى ، ووكلك إلى القِيام بشئونى فى ليلى وصباحى ، وليس عُلوُّكِ شاهداً لك بالرتبة العَليَّة ، فضلا عن أن يُوجبَ لك مقام الأفضلية — فما كل مُرْتفع نجد ، ولا كلّ مُتعاظم ذُو شَرف ومجد .

وإن علانِى مَن دونى فلا عَجبٌ لى أُسوة بانحطاطِ الشَّمس عنْ زُحل

فمن أَعظمِ ما فقتُ به حسناً وجمالا ، وكدْتُ بإِخمصى أطأُ الثريا فضلاً وكمالا تكوينُ الله منّى وجُود سيِّد الوُجود ، فأَفرغَ عَلَيَّ به خلع المكارم فهو بدر الكمال وشمسُ الجمال :

وأَجملُ منك لم تر قط عينٌ وأَكملُ منك لم تلد النِّساءُ
خُلقت مبرءًا من كل عيْب كأَنك قد خلقت كما تشاءُ

فأَكرم به من نبى أَسَرَنى به وأَرضى ، كيف لا ولولاه ما خلق سماءً ولا أَرضا ، وجعلنى له مسجداً وطهورا ، وأَقرّ به عيْنى بطوناً وظهورا .

فأَبْرَقت « السَّماءُ » وأَرعدَتْ ، وأَرغتْ وأَزبدَتْ ، وقالت : إن لم تَتخطّى خطَّة المكابرة وتتخلّى عن هذه المثابرة ، لأَغرقنَّك فى بحر طوفانى ، أو أَحرقنَّكِ بصواعق نيرانى ، وَهل امتطيت السماكيْن ، أَوَ انتعلت الفرْقدَيْن ، حتى تفتخرى علىّ ، وَتشيرى بالذم إلىّ ، وَتلك شهادة لى بالكمال ، وَلقد صدق من قال :

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِى من ناقص فهى الشهادة لى بأَنّى كامل

أَم حسبت أَن لك فى ذلك حجة ، فخاطرت بنفسك فى ركوب هذه اللُّجّة وَكنت كالباحث عن حتفه بظلفه ، وَالجادع مارِنَ أنفه بِكَفِّه :

لكل داء دَوَاء يُستطَبٌّ به إِلَّا الحماقةَ أَعْيتْ مَنْ يُدَاويها

أمَّا دعواكِ أَنى واقفةٌ لك على أَقدام الخِدْمة ، فهى مما يُوجِبُ عليك شكر الفضْل والنعمة ، فلو تفكَّرتِ أَنَّ خادم القوم هو السيد والموْلى ، وعرفت الفاضل من المفضول ، أَو تَدَبَّرْتِ أَنَّ «اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى» لاسْتَقلت من هذا الفضول ، فإنَّ قيامى بشئونك أَوْضحَ أَمارة . وأَمَّا قولك منِّى سيد الوُجود ومن اصطفاهم لحضرته الملكُ الوَدُودُ ، فإن كنت تفتخرين بأَشباحهم الظاهرة ، فأَنا أَفتخرُ بأَرواحهم الطاهرَة ، أَمَّا علمتِ أَنها فى ملكوتى تغدُو وتروحُ ، وبوارِدَىْ(١) بَسْطى وقبضى تَشْدُو وَتنُوح ، فأَنا أَوْلى بهم ، وأَحرَى بالافتخار بحزبهم .

فلما سمعت الأَرض من السماءِ مقالة تقطرُ من خلالها الدِّماءُ ، أَطرقت لمحة بارقٍ خاطف ، أَو نُغبةَ(٢) طائر خائف ، ثم قنّعتْ رَأْسها ، وصعَّدت أَنفاسها وقالت : لقد أَكثرتِ ياهذه اللغط ، وما آثرتِ الصوَاب على الغَلط ، فعلامَ تهزئين بى وتستخفينَ بحسبى ونسبى ؟ وإلامَ تنقُضين عُرى أَدِلتى ، ولاتُعَامِليننى باللَّتى ؟ وحتَّام تُقابلينَنى بأَنواع التأْنيب ، ولِمَ لا تقفى على حقيقتى بالبَحْث والتنقِيب ؟ أَحسبتِ أَن الجسم ماخُلق إلا عبثاً ، ولا كان للنفس النفيسة إلاجَدَثاً ؟ وفى ميدانه تتسابق الفُهوم ، وَتُدْرك عوارف المعارف والعلوم ، وبه تترقى الأَرواح فى مراقى الفلاح ! وكيف لا يكُون مقدساً من كلِّ غى وميْن ؟ وهو لا يَفْتُرُ عن تسبيح بارئِه طرفة عيْن ! وإلى متى أَنتِ علىّ مُتحاملة ؟ وعن آية العدْل والإحسان مُتَاحلة ؟ وأَنا لك أَسمُع من خادم ، وأَطوَع من خاتم ؛ على أَن لى من الفضائل ما ثبت بأَصحِّ البراهين والدلائل ، أَما فىّ بقعةٌ من أَشرف البقاع عن الإطلاق ، لضمِّها أَعضاء مَن تممَ اللهُ به مكارم الأَخلاق ! وفىّ روضةٌ من رياض الجنَّة ، كما أَفصحتْ عن ذلك أَلسنةُ السُّنة ، ومنِّى الكعبة والمشعرُ الحرام والحجر وَزمزَم والركنُ والمقام ، وَعَلَىَّ بُيوتُ الله تشد إليها الرِّحال ، ويسبِّح

(١) وارد : طريق .
(٢) النغبة : الجرعة .

فيها بالغُدُوِّ والآصال رجال ، وأخرج منى طيِّبات الرزق فأكرم بها عبادَهُ ، وَأتمَّ نِعمتُه عليهم فجعل الشكر عليها عِبادة ؛ وناهيك بما اشتملت عليه من الرِّياض والغياض ، ذات الأنهار والحياض ، التى تُشفى بنسيمها العليل ، وتنفى بِبرْد زُلالها حَرَّ الغَليل :

لِمَ لا أهيمُ على الرِّياضِ وطيبها وأَظلُّ منها تحت ظِلٍ ضَافِ
والزهرُ يَضحكُ لى بثغرٍ باسمٍ والنَّهْرُ يلقانى بقلبٍ صافى

فأسفرتْ عن بدر طلعتها « السماء » وهى تزْهُو فى بُرُود السَّنا والسناء ، وقالت تناجى نفسها عند مارق السَّمر ، حتَّام أُريها السهى وتُرينى القَمر ؟ ثم عطفت عليها تقول ، وهى تسطو وَتصول : أيتها المتعديةُ لمفَاضَلتى ، والمتصدِّية لمناضلتى مَتى قِيس التراب بالعسجد؟ أوْ شُبِّه الحصى بالزبرجد؟ ! إن افتخرتِ بشرف هاتيك البقاع التى زها بها منك اليَفاع وَالقَاع ، فأين أنت من عرش الرَّحمن؟ الذى تعكفُ عليه أَرْواحُ أهل الإيمان ؟ وأين أنت من البيت المعْمور ؟ والكرْسى المكلَّل بالنُّور ؟ ؟ وكيف تفتخرين على بروْضة من رياض الجنة ، وهى علىّ بأسرها فضلا من الله ومِنَّه ! أم كَيفَ تزعُمين أنه كُتب لك بأوفر الحظوظ ، وعندى القلم الأعلى واللَّوح المحفوظ ؟ وأما ازْدهاؤك بالْحِيَاض والأنهار ، والرياض المبتهجة بوُرُود(١) الورْد والأزهار ، فليت شعرى هل حويت تلك المعانى إلا بنفحات غُيوثى وأمطارى ؟ أم أَشرقت منك هاتيك المغانى إلا بلمحات شموسى وأقمارى ؟ ! فكيف تُباهِيننى بما منحتُك إياه ، وعطَّرتُ أَرْجاءك بأريج نَشره ورَياه ؟! ويا عجبًا منك كلما لاحَ على شعار الحزن ، خطرت فى أَبْهى حُلة من حلل الملاحة والْحُسن ، وإن افترَّت ثُغُور بدُور أُنسى ، وقرت ببديع جمالى عين شمسى ، زفرْت زفْرَة القيظ ، وكدت أن تَتَميزِى من الغيظ ، ما هذا الجفاء يا قليلة الوفاء ؟! وهل صفتْ أوقاتُك إلا بوجودى ، أوطابت أوْقاتك إلا بوابل كرمى وجُودى ؟ ! ولوْ قطعتُ عنك

(١) وردت الشجرة ورودا اذا اخرجت وردها .

لطائف الإمداد لخلعت ملابس الأُنس ولبست ثياب الحداد ! أَو حجبتُ عنك الشُّموس والأَقمار لما ميّزت بين اللَّيل والنهار ! كُنت بفضلى معترفة حيث إنك من بحرِ فَيْضى مغترفة ؟ ! فَنَزعت «الأَرض» عن مُقاتلتها ، وعلمت أَنها لا قِبَل لها بمقابلتها . وحين عجزت عن العوم فى بحرها ، واستسلمت تمائمها لسحرها ، بسطت لها بساط العتاب ، مُتمثلة بقوْل ذى اللطف والآداب :

إذا ذهب العِتَابُ فليسَ وُدّ ... وَيَبْقى الوُدُّ ما بَقِىَ العِتابُ

ثم قالت : اعلمى أَيتها الموسومة بسلامة الصَّدر ، الموْصوفة بسموٌ المنزلة وَعُلُوٌ القدر ، أَن اللهَ ما قارن اسمى باسمك ، ولاقابل صورة جسمى بجسمك إلا لمناسبة عظيمة ، وأُلفة بيننا قديمة ، فلا تُشمِتِى بنا الأَعداءَ ، وَتَسِيئِى الأَحبَّاءَ والأَوِدّاء ، فإن ذلك من أَعظم الرزايا ، وَأَشَدُّ المِحَن والبلايا .

كلّ المصائب قد تمرُّ على الفتى ... فتهونُ ، غير شماتة الأَعداءِ

أَلا وَإنَّ العبد محلُّ النَّقصِ وَالخلل ، وهل يسُوغ لأَحدٍ أَن يُبَرّئَ نفسه من الزلل ؟ ! وَمَنْ ذا الذى يسلم من القَدْح ، ولو كان أَقوام من القِدْح(١) :

وَمَنْ ذا الذى تُرجى مزاياه كلها ... كفى المرءَ نُبلا أَن تُعدُّ معايبُهْ

هذا ، وإن لى مفاخرَ لاتُنكر ، ومآثرَ تجل عن أَن تحصر ، كما أَنك فى الفضل أَشهرُ من نار على عَلَم ، وَأَجَلُّ من أَن يحصى ثناءً عليك لسان القلم ، فإلى متى ونحن فى جدالٍ وجلاد ، نتطاعنُ بأَسنة أَلسِنَة حداد ، وهل ينبغى أَنْ يجُرّ بعضُنا على بعض ذَيلَ الكِبْرِ وَالصّلف ، عفا اللهُ عمَّا سلف ، وهذه لعمرى ، حقيقة أَمرى ، فانظرى إلى بعينِ الرِّضا واصفحى بحقّك عما مضى .

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التى تجنَحُ إلى طلب السِّلم والإقالة ، قالت لها : مآربُ لا حفاوة ، ومشرب قد وَجَدْتُ له حلاوة ، وما ندبت إليه من المودة

(١) القدح : بكسر القاف السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

والأُلفة ، فلأَمر ما جدَع قصيرٌ أَنفه ، ولو لم تُلْقِى إلى القياد ، لعاينت منّى مادونه خَرْط القتاد ، ولكن لاحرج عليك ولاضَيْر ، فإنك اخترت الصلح والصلح خير ، وكيف جعَلْت العتاب شرطاً بين الأَحباب أو ماسمعت قول بعض أُولى الأَلباب :

إذا كنت فى كلّ الأُمور مُعاتبًا صديقك لم تَلْقَ الذى لا تُعَاتبه
وإن أَنت لم تشرب مِرارًا على القذَى ظمئْت وأَى النَّاس تصفُو مشاربه

وها أَنا رَادّةٌ إليك عوائد إحسانى ، وموائد جُودى وامتنانى ، فقرِّى عيناً وطِيبى نفسًا ، وتيهى ابتهاجاً وأُنْسًا ، وأَبشرى ببلوغ الوطر ، وزوال البُوس والخطر . فسجدت الأَرض شكْرًا ، وَهامت نَشْوة وسُكرًا ، وتهلل وجهها سُرُورًا ، وامتلأَت طرباً وحُبورًا .

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبى المتوفى سنة ٤٠١ ﻫ

قال الرَّبيع : أَنا شبابٌ الزمان ، وروح الحيوان ، وإنسان(١) عين الإنسان أَنا حياة النفوس ، وزينة عروس الغروس ، ونزهة الأَبصار ، ومنطق الأَطيار ، عرف(٢) أَوْقاتى ناسم ، وأَيامى أَعياد ومواسم ، فيها يظهر النَّبَات ، وتنشر(٣) الأَموات ، وتُرَدُّ الودائع ، وتتحرك الطبائع ، ويمرح(٤) جنيب(٥) الجنوب(٦) ، وينزح(٧) وجيب(٨) القلوب وتفيض عيون الأَنهار ويعتدل الليل والنهار ، كم لى عقدٌ منظوم ، وطراز وشىٍ مرقوم ، وحلَّة فاخرة ، وحليةٌ ظاهرة ، ونجم سعد يُدنى راعيه من الأَمل ، وشمس حُسْن تنشدنا(٩) : « بُعد ما بين بُرْج الْجَدى(١٠) والحمل(١١) » عساكرى منصورة ، وأَسلحتى مشهورة فمن سيف غُصْنٍ

(١) مايرى فى سوادها (٢) الريح الطيبة (٣) تحيا (٤) ينشط (٥) مجنوب ، والجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبهامن مطلع سهيل الى مطلع الثريا (٦) ريح تخالف الشمال ومنه اذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير (٧) يبعد ويذهب (٨) كثرة خفقانها (٩) تقول لنا من انشاد الشعر (١٠) برج فى السماء وهو أحد البروج الاثنى عشر التى تمر بها (١١) برج فى السماء أيضا .

مجوْهر ، وَدِرْع بنفسج مُشهَّر ، وَمِغْفرِ(١) شَقِيق(٢) أَحمر ، وتُرْس بهارٍ يَبهر ، وسَهم آس يرْشقُ فينشق ، ورمُح سوسن(٣) سِنانه أَزرق ، تحرسها آيات ، وتكتَنِفُهَا أَلويةٌ ورايات . بى تحمَرُّ من الورد خُدُوده ، وتهتزُّ من البَان قُدُودُه ، ويخضرُّ عذار الرَّيحان ، ويَنتبهُ من النرْجس طَرفه الوسنان(٤) ، وتخرج الخبايا من الزَّوايا ، وَيفترُّ ثغْرُ الأُقْحُوان(٥) قائلا (أَنَا ابنُ جَلَا وَطلاع الثَّنَايا) :

إنَّ هذا الرَّبيعَ شيءٌ عجيبٌ يُضحِكُ الأَرضَ مِنْ بُكاءِ السَّماءِ
ذهبٌ حيثُما ذَهَبنا ودُرٌّ حيث دُرْنا وفضةٌ فى الفضاءِ

(وقال الصيف) : أَنا الخِلّ الموافق ، والصديق الصادِق ، والطبيب الحاذق أَجتهد فى مصلحة الأَحباب ، وأَرفع عنهم كُلْفة حَمْل الثياب ، وأُخَفِّف أَثقالهم ، وأُوَفر أَموالهم ، وأَكفِيهم المؤونة ، وأَجزِلُ لهم المعونة ، وأغْنِيهم عَنْ شراءِ الفِرَا ، وأُحقِقُ عندَهم (أَن كل الصيد فى جَوْف الفَرَا) نُصِرتُ بالصبا ، وأُوتيت الحكمة فى زمن الصّبا ، بى تتضحُ الجادة(٦) وتنضج من الفواكه المادة ، ويزْهُو البُسْرُ والرّطب وينصلحُ مِزَاج العِنب ، ويقوى قلبُ اللوز ، ويلين عطف التِّين والموز وينعقِدُ حَبُّ الرمان ، فيقمع الصفراء ، ويسكنُ الخفقان ، وتخضبُ وجنات التُّفَّاح ويذهب عرف(٧) السَّفرجل مع هُبوب الرياح ، وتسودُّ عيون الزيتون وتخرُج تيجان النَّارنج والليمون ، موَاعدى منقودة ، وموائِدِى مَمْدُودة ، الخير موجود فى مَقَامى ، والرزْق مقسومٌ فى أَيامى .

الفقير يَنصاع(٨) بملءِ مُده وصَاعه ، والغنى يرتعُ فى ربع مُلكه وإقطاعه ، والوحش تأْتى زرافاتٍ(٩) ووحداناً ، والطير تغدو خِماصاً وتروح بطاناً(١٠) .

---

(١) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٢) شقائق النعمان وهو نبت أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة (٣) نبات طيب الرائحة (٤) النعسان الثقلان (٥) البابونج نبت طيب الرائحة حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر (٦) الطريق (٧) رائحته الطيبة (٨) يقفل راجعا مسرعا (٩) جماعات (١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة .

مصيفٌ له ظل ظليل على الوَرَى وَمَنٌّ حلا طعماً وحللَ أخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مُبدياً لصحَّتها حفظاً يُعجز بقراطا(١)

(وقال الخريف) : أنا سائق الغيوم ، وكاسر جيش الغموم ، وهازم أحزاب السَّموم(٢) ،وحادي نجائب السحائب ،وحاسِر نقاب المناقب . أنا أصدُّ الصدى(٣) وأجود بالندى ، وأُظهر كل معنى جليّ ، وأسمو بالوسميّ(٤) والوليّ ؛ في أيامى تقطف الثمار ، وتصفو الأنهار من الأكدار ويَترَقرق(٥) دمع العُيُون ، ويتلون ورق الغصون ، طَوْر يحاكي البقم ، وتارة يُشبه الأرقم ، وحيناً يبدو فى حلته الذهبية فيجذِبُ إلى خلته القلوب الأبية ، وفيها يُكفى الناس همّ الهوامّ ، ويتساوى فى لذة الماء الخاص والعام ! وتقدُمُ الأطيارُ مُطربةً بنشيشها رافلةً فى الملابس المجددة عن رِيشها ، وتُعصرُ بنت العنقود وتوثقُ فى سجن الدنِّ بالقيود ، على أنها لم تجترح إثماً ، ولم تعاقب إلا عُدواناً وظلماً ، بى تطيبُ الأوقات ، وتحصلُ اللذَّات ، وترق النسمات ، وترمى حصى الجمرات ، وتسكن حرارة القلوب ، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب ، كم لى من شجرةٍ أكلها دائم ، وحملها للنفع المتعدى لازم ، ورقها على الدوام غيرُ زائل ، وقدُود أغصانها تُخْجِل كل رُمح ذابل :

إن فصل الخريف وافى إلينا يَتهادَى فى حُلةٍ كالعرُوسِ
غيره كان للعيون ربيعاً وهو ما بيننا ربيعُ النفوسِ

(وقال الشتاءُ) ، أنا شيخُ الجماعة ، ورب البضاعة ، والمقابلُ بالسمعِ والطاعة أجمع شمل الأصحاب ، وأسدلُ عليهم الحجاب ، وأتحفهم بالطعامِ والشراب ، وَمَنْ ليس له بى طاقةٌ أُغلق من دونه الباب ، أميلُ للمطيع ، القادر

(١) بقراط الحكيم اليونانى وهو لفظ يونانى معناه ناسك الصبح
(٢) الريح الحارة (٣) العطش (٤) المطر الذى يأتى فى الخريف ، والولى الذى يأتى بعده (٥) ترقرق الدمع فى العين تحرك .

المستطيع المعتضد بالبرود والفرا ، المتمسك من الدينار بأوثق العُرى ، ومن يَعْشُ عن ذِكْرِى ، ولم يمتثل أمرى ، أرجفته بصوت الرَّعد ، وأنْجَزْتُ له من سيف البرق صادق الوعد ، وسرْتُ إليه بعساكر السحاب ، ولم أقنع من الغنيمة بالإياب معرُوفى معروف ، ونَيل نَيلى موصوف ، وثمار إحسانى دانيةُ القطوف ، كم لى من (وابل) طويل المدى (وجود) وافرِ الجدا (وقطر) حلا مذاقه (وغيث) قيد العفاة إطلاقه (ودِيمة) تُطْرِب السمع بصوتها (وحياً) يحيِي الأرض بعد موتها ، أيامى وجيزة وأوقاتى عزيزة ، ومجالسى معمورة بذوى السيادة ، مغمورة بالخير والمير والسعادة ، نُقلها يأْتى من أنواعه بالعَجَب ، ومناقلها تسح بذهب اللهب ، وراحُها تُنْعش الأَرْوَاح ، وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول الصِّحاح ؛ إن رُدتها وَجَدْت مالاممدودا ، وإن زُرْتها شاهدت لها بَنين شهودا .

مناظرة بين البر والبحر لبعض الادباء

قال (البرّ) : يا صاحب الدَّر ، ومعدن الدُّر ، أطرقْتَ رياضى ، ومزَّقتَ قصورى وأحواضى ، وأغرَقتَ جنَّتى ، ودخلت جنتى ، وتلاطمت أمواجك على جنتى ، وأكلْتَ جزائرى وجروفى ، وأهلكْتَ مَرْعى فصيلى وخروفى ، وأهزلت ثورِى وحملى وفرسى وجملى ، وأجريتَ سفنك على أرْضٍ لم تجْرِ عليها ، ولم تمل طرف غرابها إليها ، وغرست أوتادها على أَوْتاد الأَرض ، وعرست فى مواطن النفل والفرض ، وجعلت مَجْرى مَرَاكبك فى مَجرى مراكبى ، ومَشَى حوتك على بطنه فى سعد أخبية مضاربى ، وغاصَ ملاحك فى ديار فرَحى ، وهاجرت من القرى إلى أم القرى وحملت فَلَّاحى أثقاله على القرى ، وقد تلقيتك من الجنادل بصدرى ، وحملتُك إلى برزخك على ظهرى ، وقبَّلت أمواجك بثغرى وخلفت مقياسى فرحاً بقدومك إلى مصرى وقد جُرْتَ وعدلت وفعلت ما فعلت ، فلعلك تفيض ، ولا يكون ذهابك عن ذهاب بغيض ، أو تفارق هذه

هذه الفجاج ، وتختلط بالبحر العَجاج ، وإن لم تفعل شكوناك إلى من أنزلك من السماء ، وأنعم بك علينا من خزائن الماء :

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغثْ عباداً فمولاهم يُغِيثُ ويرْحَمُ
وإن صدرت منهم ذنوبٌ عظيمة فعفوُ الذى أجراك يا بحرُ أعظمُ
نمدٌّ إليه أيدياً لم نَمُدّها إلى غيره والله بالحالِ أعلَمَ

قال (البحر) : يابرُّ ، ياذا البرِّ ، ومنبتُ البُرِّ ، هكذا تخاطب ضيفك وهو يخصك شتاءك وصيفك ، وقد ساقنى الله إلى أرضك الجرُز ، ومعدن الدُّر والخرز لأُبهج زرعَها وخيلها ، وأُخرج أبَّها ونخيلها ، وَأُكرمَ ساكِنك ، وأُنزل البركة فى أماكنك ، وأُثبت لك فى قلب أهلك إحكام المحبَّة ، وأُنبت بك لهم فى كلِّ سُنبلة مائة حبَّة ، وأُحييك حياة طيبة ، يبتهجُ بها عمرُك الجديد، وتتلو « كذلك يُحيي اللهُ الموْتى » ألسنةُ العبيد ، وأُطهِّرك من الأَوساخ ، وأَحمل إليك الإبليز فأطيبك به من عرَق السباخ ، وأنا هدية الله إلى مصرك ، وملكُ عصرك القائم بنصرك ، ولولا برَكاتى عليك ، ومسيرى كل مسرًى إليك ، لكنت وادياً غيرى ذى زرْع ، وصادياً غير ذى ضرْع :

سَرَيتُ أنا ماء الحياة فلا أذى إذا ما حفظتُ الصحب فالمال هيِّنُ
فكن خضراً يا برّ واعلم بأنّنى إلى طينكَ الظمآن بالرىِّ أُحسنُ
وأَسعى إليه من بلادٍ بعيدةٍ وَأَحسنُ أجرى بالتى هى أَحسنُ
إذا طاف طُوفانى بمقياسك الذى يُسرُّ بإتيان الوفَاءِ وَيُعْلَنُ
فقمْ وتلقَّاه ببسطتك التى لرَوْضتها فضلٌ على الرَّوْض بَيِّنُ

ولعمرى : لقد تلطف (البرُّ) فى عتابه وأحسن ، ودفع (البحرُ) فى جوابه بالتى هى أحسن ، وقد اصطلحا وهما بحمد الله أخوان مُتضافران على عمارة بلاده ، ونشر الثرْوة ونموّ الخيرات بين عباده ، فالله تعالى يخصب مرعاهُما ويحرسهما ويرعاهما .

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء

قال (الهواءُ) : الحمد لله الذى رفع فلك الهواء ، على عُنْصر التراب والماء . « أما بعد » فأنا الهواءُ الذى أُؤَلف بين السحاب وأنقلُ نسيم الأَحباب ، وأَهُبُّ تارةً بالرَّحمة وأُخرى بالعذاب ، وأنا الذى سُيِّرَ بى الفلكُ فى البحر كما تسير العِيسُ فى البِطاح ، وطار بى فى الجوِّ كل ذى جَناح ، وأنا الذى يضطربُ منى الماءُ اضطراب الأَنابيب فى القنا ، إذا صَفَوْتُ صفا العالم ، وكان له نضْرَة وزَهْوًا ، وإذا تكَدَّرْتُ انكدرت النجوم وتكدر الجوُّ ، لا أَتلوَّن مثل الماءِ المتلوِّن بلوْن الإناءِ ، لولاىَ ما عاش كل ذى نفس ، ولولاىَ ما طاب الجوُّ من بخار الأَرض الخارج منها بعدَ ما احْتَبس ، ولولاىَ ما تكلم آدمىٌّ ولا صوَّت حيوان ، ولا غرَّد طائر على غُصن بان ، ولولاىَ ما سُمع كتاب ولا حديث ، ولا عُرف طَيِّب المسموع والمشموم من الخبيث ؛ فكيف يُفاخرنى الماءُ الذى إذا طال مُكثه ، ظهر خبثه ، وعلت فوقه الجيَف وانحطَّت عنده اللآلىءُ فى الصدف .

فقال (الماءُ) : الحمد لله الذى خلق كلَّ حىٍّ « أما بعد » فأنا أول مخلوق ولا فخر ، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر ، وأنا الجوهر الشفاف ، المشبَّه بالسيف إذا سُلّ من الغلاف ، وقد خلق الله فِىَّ جميع الجواهر حتى اللآلئ والأَصداف ، أُحْيِي الأَرضَ بعد مماتها ، وأُخرج منها للعالم جميع أَقواتها ، وأَكسو عرائس الرّياض أَنواع الحلل ، وأَنثر عليها لآلئ الوَبل والطلل ، حتى يضرَب بها فى الْحُسن المثل ، كما قيل :

إن السَّمَاءَ إذا لم تبْكِ مُقْلتُها لم تَضْحك الأَرضُ عن شىءٍ من الزَّهر

فكيف يُنْكِرُ فضلى مَنْ دَبّ أَو درَج ؟ وأَنا البحرُ الذى قيل عنه فى الأَمثال « حدِّث عن البحر ولا حرَج » وأما أَنت أَيها الهواءُ : فطالما أَهْلكت أُناساً بسمُومِك وزمهريرِك ، ولا تقوَّم جَنَّتُك بسعيرك .

وأما قولك : لولاىَ ماعاش إنسان ، ولا بقَى على الأَرض حيوان ، فجوابُهُ : لَوْ شاءَ اللّٰهُ تعالى لعاش العالم بلا هواء ، كما عاش عالم الماء فى الماء ، وأنشدك الله أما رأيْتَ ما حبانى اللّٰهُ به عظيم المِنَّة ، حيث جعلنى نهراً من أنهار الجنة ، وأنا أرفع الأَحداث ، وأُطَهِّرُ الأَخباث ، وأَجلو النظر ، وأُزيلُ الوضَر ، أما رأَيت الناسَ إذا غِبْتُ عنهم يتَضرَّعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء ويسأَلونه تعالى إرْسَالى من قِبَل السماء ؟ واعلم أَنى ما نلتُ هذا المَقَامَ الذى ارتفعتُ به على أَبناء جنسى إلا بانحطاطى الذى عيَّرْتنى به وتواضعى وهَضم نفْسى

وقد كثرَ بينهما النزاع والجدال ، حتى حكم بينهما أَميرٌ وقال :

إن كلاً منكما مُحِق فيما يَدَّعيه ، فما أَشبهكما فى السماء بالفَرْقدين ، وفى الأَرض بالعينين ، إلا أَن مِرآة الحقِّ أَرَتْنى فضيلةً تفْضُلُ بها أَيها الماءُ أَخاك الهواءَ ، وحققت لى بأَنكما لستما فى الفصل سَواء ، وهى (أَن الله تعالى خلقَ آدمَ منَ الماءِ) فاعترف لأَخيه بالفضل والذكاء .

مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ

قال (الجمل) : أَنا أَحْمِلُ الأَحْمَالَ الثقال ، وأَقطع بها المراحل الطوال ، وأَكابدُ الكلال ، وأَصبرُ على مُرِّ النِّكال ، ولا يعترينى من ذلك مَلَال ، وأَصول صَوْلة الإِدلال ، بلى أَنقادُ للطفل الصغير ، ولو شئت استصعبت على الأَمير الكبير فأَنا الذَّلول ، وللأَثقال حَمُول ، لستُ بالخائن ولا الغلول ، ولا الصائل عند الوُصُول ، أَقطعُ فى الوُحُول ما يَعْجَزُ عنه الفحول ، وأُصابرُ الظلماء فى الهواجر ولا أَحُول ، فإذا قضيتُ حقَّ صاحبى ، وبلغْت مآربى أَلقيتُ حَبْلى على غاربى ، وذهبت فى البوادى أَكتسبُ من الحلال زادِى ، فإن سمعتُ صوت حَادِىّ سلمتُ إليه قيادى ، وواصلتُ فيه سُهَادى ، وطلقتُ طِيّبَ رُقَادِى ، ومددتُ إليه عُنقى لبلوغ مرادى ؛ فأَنا إنْ ضَللتُ فالدليلُ هادى ، وإنْ زللتُ أَخَذَ بيدِى مَن إليه

انْقِيادى ، وإن ظَمِئتُ فذِكرُ الحبيب زادى ، وأنا المسخر لكم ، بإشارة « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ » فلم أزل بين رحلة ومقام ، حتى أَصِلَ إلى ذلك المقام .

فقال (الحصان) : أنا أَحْمِلُ صاحبى على كاهلى فأَجتهدُ به فى السير ، وأنطلقُ به كالطير ، وأَهجم هجومَ الليل ، وأَقتحمُ اقتحام السيل ، فإن كان طالباً أَدْرَك بى طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أَسبابَ الرَّدى عنه محتجبة ، فلا يُدْرَك مِنّى إلا الغبار ، ولا يُسْمع عَنِّى إلا الأَخبار ، وإن كان الجملُ هو الصابر المجرَّب ، فأَنا السابق المقرَّب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأَنا المقرِّب السابق ، فإذا كان يوم اللقاء قدمتُ إقدام الوَالِه ، وسبقت سبق نبالِه ، وذلك مُتخلفٌ لثقل أَحْمَاله ، وإن أولقَ سائسى قيدى وأَمِن قَائِدِى كيدى أُوثِقت بِشكالى ، لكيلا أَحُول على أشكالى ، وأُلْجِمْتُ كيلا أَكِلّ عن إقْدَامِى ، فأَنا الموعُود بالنجاة ، المعدُود لِنَيل الجاه ، المشدود للسلامة ، المقصود للكرامَة قد أَجزل المنعم على إنعامه ، أَمضى بالعناية الأَزليَّة أَحكامه « فإن الخير معقودٌ بنواصى الخيل إلى يوم القيامة » خُلِقْتُ من الريح ، وأُلهمت التسبيح ، وما برِح ظهرى عِزّاً ، وبطنى كنزاً ، وصَهْوَتى حِرزا ، فكم رَكَضتُ فى ميدان السباق وما أَبديت عَجزا ، وكم حزرت رءُوس أَهل النِّفاق حزًّا ، وكم أَخليت منهم الآفاق (هل تحسُّ منهم من أَحَدٍ أَو تسمعُ لهم ركزا) .

الفن الثالث فى الأمثال

المثل عبارةٌ عن تأْليف لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد ضُمِّنَ باطنه الْحِكم الشَّافية وهى ثلاثة أَقسام مفترضةٌ ممكنة ، ومخترعةٌ مستحيلة ، ومختلطة :

(١) الأَمثال المفترضة الممكنة : هِيَ ما نُسِب فيها النطق والعمل إلى عاقل(١).

---

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين : الأول أن لهـا مغزى ، والثانى كونها غير واقعـة وان كانت فى حيز الامكان .

(٢) والمخترعة المستحيلة : ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيُعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان .

(٣) والمختلطة : ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق .

وشروط المثل أربعة : (الأول) أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليُفضى المقصودُ منه إلى ذهن السامع . (الثانى) أن لا يكون مُسهباً مُمِلًّا (الثالث) أن يُبهج السامع بطلاوته ويفكه فكرتَه بهزْل كلامه وابتكار معانيه ، ويضبط عقله فى فهم الرواية المختلفة وفضِّ مُشكلها (الرابع) أن يُورد بصورة محتملة .

وفوائد المثل جَمَّة ، منها نزهة البال وترْويح الخاطر ، ومنها استقصاءُ الحكم ؛ وهى قديمة العهد جداًّ ، ولا يعرف اسم أول من تكلم بها ، وكما تكون نثرا تكون نظماً — ونذكر لك من الأَمثال ما طاب وراق فنقول :

أمثال القرآن الكريم

أَمثال القرآن الكريم قسمان : ظاهرٌ مُصَرَّحٌ به ، وكامنٌ لاذِكر للمثل فيه ، أَما أَمثاله الظاهرة : فكقوله تعالى فى شأْن المنافقين « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُون * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهبَ بِسَمْعِهِمْ وأَبصَارِهِمْ » .

وقوله سبحانه تعالى فِى شأْن الذى يُنفق أَمواله ابتغاءَ مرضَاة الله ، والذى ينفقها رياءً : « يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلوا صدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ، كالذِى يُنفِقُ مَالَهُ رئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فمَثَلهُ كَمثَلِ

(١) مطو .

صَفْوَانٍ(١) عليه تراب فأَصابه وَابِلٌ(٢) فتركه صَلدا(٣) لايقدرُون على شيءٍ مما كَسَبُوا والله لا يهدى القوم الكافرين ، ومثلُ الذين يُنْفقون أَموالهم ابتغاءَ مَرْضَاة الله وتثبيتاً من أَنفسهم كمثَل جَنَّةٍ بربْوَةٍ(٤) أَصابها وابلٌ فآتتْ أُكلها ضِعْفَين فإن لم يُصِبها وابلٌ فطلٌّ(٥) والله بما تعملون بصير ، أَيَودُّ أَحدُكم أَن تكون له جنَّةٌ من نخيل وأَعناب تجرى من تحتها الأَنهار ، له فيها من كل الثمرات وأَصابه الكِبَرُ وله ذُرِّيةٌ ضُعفاءُ فأَصابها إِعْصَارٌ(٦) فيه نَارٌ فاحترقت كذلك يُبَيِّنُ الله لكُم الآيات لعلكُم تَتفكَّرُون » .

وقوله تعالى فى تمثيل الحق والباطل : « أَنزل من السَّماءِ ماءً فسالت أَوديةٌ بقدرها فاحتمل السَّيْل(٧) زبدًا رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاءَ حلْيةٍ أَو متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأَمَّا الزَّبَدُ فيذهب جُفَاءً(٨) وأَما ما ينفع الناس فيمكُث فى الأَرض كذلك يضرب الله الأَمثال » .

وقوله تعالى فى تمثيل الحكمة وضدها : « أَلم تَرَ كيف ضربَ الله مثلا كلمة طيِّبَة كشجرة طيِّبة أَصلها ثابت وفرعها فى السماءِ تؤْتى أُكلها كلَّ حين بإِذْنِ رَبِّها ، ويضْرِب الله الأَمْثَالَ للناس لعلهم يتذكَّرُون ، ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجْتُثَّتْ(٩) من فوق الأَرض ما لها من قرار » .

وقوله جل شأْنه فى حال الكفار وما يعبدون من دون الله : « يا أَيها الناس ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له ، إِنَّ الذين تَدْعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإِن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالب والمطلوب » .

وقوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أَولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإِنَّ أَوْهَن البيوت لبيت العَنْكَبُوت لو كانوا يَعْلَمُون » .

---

(١) حجر أملس (٢) مطر شديد (٣) صلدا نقيا من التراب (٤) مكان مرتفع (٥) مطر خفيف (٦) ريح شديد (٧) مايعلو على وجه الماء من قذر ونحوه (٨) باطلا مرميا به (٩) قطعت من أصلها .

وقوله تعالى في أَنَّ عمل الكافرين يذهب هباءً تذرُوه الرِّياح :

«مثل الَّذِين كَفروا بربهم أَعمالهم كرمادٍ اشْتَدَّت به الرِّيح فِى يَوْمٍ عاصف لا يقدرون ممَّا كَسَبُوا على شيء» .

وقوله تعالى : «والَّذِين كَفرُوا أَعمالهم كَسَرَاب(١) بقيعَةٍ(٢) يحسبه الظمآن مَاءً حتى إِذا جاءَه لم يجِدْه شيئاً ووَجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريعُ الحساب أَو كَظُلُمَات فى بحر لُجِّى(٣) يغشاهُ مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوقه سحاب ، ظُلمات بعضها فوق بعض إِذا أَخْرَج يَدَهُ لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له مِنْ نور» .

وقوله تعالى فِى أَنَّ الدنيا ظِلٌّ حائل وخيال باطل :

«واضْرِبْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أَنزلناهُ من السَّماءِ فاختلط به نبات الأَرض فأَصبح هَشِيما(٤) تَذْروه الرِّياح» .

وقوله تعالى : «اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لعبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكُم وتكاثرٌ فى الأَموال والأَولاد كمثل غيث أَعجب الكُفَّار نباته ثمَّ يهيج فتراه مُصفرًا ثم يكون حُطَاماً» .

وأَما أَمثاله الكامنة ، فهى الآداب البارعة ، والحكم الباهرة ، فمن ذلك قوله تعالى :

فى الصِّدق

١ يا أَيها الَّذِينَ آمنُوا اتَّقوا الله وكُونُوا مع الصَّادِقين .

٢ هذا يوم ينفعُ الصَّادِقين صدقُهُمْ

٣ إِنه كان صادق الوعد .

فى الصبر والثَّبَات

١ وَبَشِّر الصَّابرين

٢ فاصبر صَبْرًا جميلا

(١) شعاع يرى مثل المـاء حين اشتداد الحر نصف النهار .
(٢) جمع قاع وهو الارض المستوية (٣) عميق (٤) يابسا متفرقة أجزاؤه

٣ واصبر على ما أَصابك إِنَّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور
٤ فصبرٌ جميلٌ
٥ واصبرْ على ما يَقُولُون واهجرهم هَجْرًا جميلاً

في العلم والاسترشاد

١ إنما يخْشَى الله مِنْ عباده العُلَماءُ
٢ وما يعقِلها إلا العالِمُون
٣ قُلْ هَلْ يستوى الذين يَعْلمون والذين لا يَعْلمون
٤ فاسأَلوا أَهلِ الذكْرِ إنْ كنتم لا تَعْلمون

فى الاتحاد والوئام بعد الخصام

١ واعتصموا بحبل الله جميعًاولاتفرَّقوا واذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أَعداءً فأَلَّف بين قلوبكم فأَصبحتم بنعْمَته إخواناً
٢ وَلَاتَنَازَعُوا فَتَفْشَلوا وَتَذْهَب رِيحكم
٣ ولا تكونوا كالتى نَقَضَت غزْلَها منْ بَعْدِ قوَّةٍ أَنكاثًا

فى العفو

١ فاصفح الصفحَ الجميل
٢ والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس
٣ فمن عفا وأَصلح فأَجْرُهُ على الله
٤ عفا الله عَمَّا سَلف

فى الوفاءِ

١ وَأَوْفوا بِالْعَهْدِ إِنَّ العَهدَ كَانَ مسئولا
٢ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمانات إلى أَهْلِهَا

فى الاقتصاد

١ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبْسُطها كلَّ البَسْط فتَقْعُدَ مَلومًا مَحْسُورًا
٢ إن المُبَذِّرين كانوا إخوان الشَّيَاطين
٣ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

فى الأَمر بالمعروف

١ خُذِ العفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعْرِض عن الجاهلين
٢ وَلْتكن منكم أُمة يَدْعُون إلى الخير ويأْمُرُون بالمعْرُوف وينْهَوْنَ عن المنكر وأُولٰئِكَ هُمُ المفلِحُون
٣ وَتَعَاوَنوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تَعَاوَنوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَان
٤ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسان وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنهى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ والبَغْى

برُّ الوالدين والقريب والجار والصاحب

١ وَقَضَى ربك أَلَّا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَر أَحَدُهما أَو كلاهما فلاتقل لهما أُفٍّ ولاتنهرهما وَقُلْ لهما قولاً كريماً ، واخفضْ لَهُمَا جناحَ الذُّل من الرَّحْمَة وقُلْ رَبِّ ارْحمهما كما رَبيانى صَغيرًا

٢ وَأُولو الأَرحام بعضهم أَوْلى ببعضٍ

٣ وبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى القُرْبَى وَالْيَتَامى والمساكين وَالْجَارِ ذى القرْبى والْجَارِ الْجُنُبِ والصاحب بالْجَنْبِ وابن السبيل وما مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يحبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فخورًا

فى النصيحة

١ إِنى لك من النَّاصحين

٢ وأنا لكم ناصحٌ أَمين

٣ وَنَصَحْتُ لكم ولكن لا تُحِبُّونَ النَّاصحين

فى الشكر

١ لئن شكَرتُم لأَزيدَنَّكُمْ

٢ وقليلٌ من عبادى الشكور

٣ ومن شكَر فإنما يشكُر لنفْسِهِ

٤ وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرين

فى الإِغضاء والتغافل واللين

١ أُولٰئِكَ الذين يَعْلَم اللهُ مافى قلوبهم فَأَعْرِض عنهم وَعظهم وَقُلْ لهم فى أَنفسهم قولاً بليغًا

٢ لاتثريبَ عليكمُ اليوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لكم

٣ ادفع بالتى هى أَحسن

٤ فاصبرْ على مايَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هجرًا جميلاً

٥ ولوْ كنْتَ فَظًّا غليظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

٦ فأَسَرَّهَا يوسفُ فِى نفسِهِ ولَمْ يُبْدِهَا لهم

٧ وإِذَا خاطبَهُمْ الجاهلون قَالوا سلاماً

فى المدح

١ ما هٰذَا بَشرًا إِنْ هٰذَا إِلا مَلَكٌ كريم

٢ إِذا رأَيتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لؤلؤاً منثورًا

٣ إِنك اليومَ لدينا مكينٌ أَمين

٤ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفضلُ المبين

٥ وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم

٦ ختَامُهُ مسك

٧ ذرِّيَّةً بعضُهَا من بعض

٨ وَبَرًّا بوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكنْ جَبَّارًا عَصِيًّا

٩ ذلك خيرٌ وأَحسن تأْويلا

١٠ أُولٰئك هم خير البرية

١١ رضى الله عنهم ورَضوا عنه

١٢ وكلٌّ من الأَخيار

١٣ سِيمَاهُم فى وُجُوههم

١٤ وكانوا أَحَقَّ بها وأَهلها

١٥ أُولٰئِكَ الذين هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهم اقْتَدِهْ

١٦ إنَّ خيرَ من استأْجرتَ القوىُّ الأَمين

في التبرئة والتنزيه

١ حَاشَا الله ما علمنا عَلَيْهِ من سُوءٍ

٢ أُولٰئِكَ مُبرءُون مما يقولون

٣ فبرأَهُ اللهُ مما قَالوا

فى حُسْن الخلق

١ ما شَاءَ اللهُ

٢ وصوركم فأَحسن صُوَرَكم

٣ يزيد فى الخلق ما يشاءُ

٤ فتبارك الله أَحسنُ الخالقين

٥ صُنْعَ الله الذى أَتقنَ كل شَىءٍ

فى الكذب والزُّور

١ وإنهمْ لَيَقُولُونَ منكرًا مِنَ القولِ وَزُورًا

٢ إن هٰذَا إلا اختلاق

٣ كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كَذِبًا

٤ فويلٌ لهمْ مما كتبتْ أَيديهمْ وويلٌ لهم مما يكْسِبُون

٥ فَبَدَّلَ الذينَ ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم

٦ أُنظر كيف كذبوا على أَنفسهم وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون

فى الخيانة ونقض العهد

١ أَوَ كلَّمَا عاهدوا عهدًا نَبَذَهُ فريق منهم

٢ وما وجدنا لأَكثرهم من عهد

٣ إنهم لا أَيمان لهم

٤ فمنْ نكث فإنما يَنْكُث على نفسه
٥ إنَّ الله لايحبُّ من كان خوَّانًا أثيما
٦ وأنَّ اللهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ

في السُّخرية والغيبةوالنميمة والجهر

١ يا أَيها الذين آمنوا لايَسْخر قَوْمٌ من قوم ٍ عَسى أَنْ يَكونُوا خيرًا منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أَنْ يكنَّ خيرًا مِنْهُنَّ ولا تَلْمِزوا أَنفسَكم ولا تنابزوا بالأَلقاب
٢ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتب بعضكم بعضا
٣ لايُحِبُّ الله الجهر بالسُّوءِ منَ القول إلا مَنْ ظُلِمَ
٤ وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَة لُمَزةٍ
٥ وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون

في القتل والانتحار

١ ولا تقتلوا أَولادكم خَشْيَةَ إمْلَاقٍ نَحْنُ نرزقهم وإياكُم إنَّ قَتْلَهم كان خِطئًا كبيرًا
٢ ولا تقتلوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ الله إلا بالحقِّ وَمَنْ قتلَ مظلوماً فقد جعلنا لِوَلِيِّهِ سُلطانًا فلا يُسْرِفْ فى القتل إنَّهُ كان مَنْصُورًا
٣ ولا تلقوا بأَيديكم إلى التَّهْلكَة
٤ ولا تقتلوا أَنفسَكُم إنَّ الله كانَ بكُم رحيما

في الزنا

١ ولا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كان فَاحشةً وسَاءَ سبيلا
٢ ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتكم على البِغَاءِ إنْ أَرَدْنَ تحصُّنًا لتبتغوا عَرَضَ الحياة الدنيا

في الخمر والميسر

١ يسأَلونك عن الخمرِ والمَيْسِر قُلْ فيهما إثمٌ كَبير ومنافعُ للناسِ وإثمُهما أَكْبَرُ من نفعهما
٢ يا أَيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والأَنْصَابُ والأَزلَام رِجْسٌ منْ عَملِ الشَّيْطَانِ فاجتنبوهُ لعَلكم تُفلِحُون إنما يريد الشَّيْطَان أَنْ يُوقِعَ بينَكُمْ العَدَاوَةَ والبغضاءَ فى الخمر والميسر وَيَصُدّكمُ عنْ ذكر الله وعن الصَّلاة فهل أَنتم مُنتهون ؟!

في البخل وحب المال

١ وَمَنْ يَبْخَلْ فإنما يَبخلُ على نفسه والله الغَنِيُّ وأنتم الفقراء

٢ والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفِضَّةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبَشِّرهم بعذاب أَليم

٣ الذى جمع مالاً وعدَّده يحْسَبُ أن ماله أَخْلَدَهُ

٤ وتأْكلون التراثَ أَكلاً لَمًّا وتحبّون المال حُبًّا جَمًّا

في الرِّبَا

١ وَأَحَلّ الله البيعَ وحرّم الرِّبَا

٢ يمْحَقُ الله الربَا ويُرْبِى الصَّدَقات

في العُجْب والكبر

١ واسْتَكْبَر هو وجنودُه في الأَرض بغير الحق

٢ ثم ذهب إلى أَهله يَتَمَطَّى

٣ ثانِيَ عطفِهِ ليُضل عن سبيل الله

٤ أليس في جهنم مَثْوَى للمُتكبرين

٥ إنْ في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه

٦ ولا تُصَعِّرْ خَدَّك للناس ولا تمش في الأَرض مَرَحًا

في الاستبداد والأَثرة

١ فإذا جاءَتهمُ الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصِبهم سيئة يطيَّرُوا بموسى وَمَنْ مَعَهُ

٢ وإن يكن لهم الحقُّ يأْتوا إليه مُذعِنين

٣ ما أُرِيكم إلا ما أَرَى

في التفرق والاختلاف

١ تَحْسَبهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى

٢ كلّ حِزب بما لديهم فَرِحُون

٣ فاختلف الأَحزابُ من بينهم

٤ إنكم لفِى قول مختلف

في الجُبن والفرار

١ إن يُريدون إلَّا فِرَارًا

٢ يَحْسَبون كل صَيْحَةٍ عليهم هم العَدُوُّ

٣ أَشِحَّةً عليكم فإذا جاءَ الخوفُ رَأَيتَهم ينظرون إليك تَدورُ أَعينهم كالذى يُغشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سَلَقوكم بأَلسِنَةٍ حِدَادٍ

فِيمَنْ يأمر بما لا يفعلُ ويعلم ولا يعمل

١ أتأمرونَ الناس بالبِرِّ وتَنْسوْنَ أنْفُسكم
٢ لِمَ تقولون مالا تَفْعَلُون ؟
٣ كمثل الحمارِ يَحْمِلُ أَسفارًا

فى الغفلة

١ لعمرُك إنّهم لفى سكرتِهم يعْمهون
٢ قُتل الخرَّاصُون الذين هُمْ فى غَمْرَة ساهُون
٣ وإذا ذُكِّرُوا لا يذْكرُون
٤ فويْلٌ للْمُصَلِّينَ الذينَ هُمْ عَنْ صلاتهم سَاهُون
٥ إذْ قضِيَ الأَمرُ وهم فى غَفْلَةٍ
٦ يعلمُون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هُمْ غافلون

فى إنكار الجميل

١ فلمَّا كشفْنَا عنهُ ضُرّهُ مَرّ كَأَنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسّهُ
٢ ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضُرٍّ للَجُّوا فى طُغْيَانهم يعْمَهُون
٣ ولو بَسَط الله الرِّزْق لعباده لَبَغَوْا فى الأَرض
٤ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى أَنْ رآه اسْتَغْنَى
٥ قُتِلَ الإِنسان ما أَكْفرَه ؟ !

فى الذم والإِهانة والتهكم والتَّحْقير

١ أَنتم شرٌّ مَكاناً ! !
٢ فَلْيَنْظُرِ الإِنسانُ مِمَّ خُلِق ؟ ؟
٣ خُذُوه فَغُلوهُ
٤ مَا نَفْقَهُ كثيراً مّمّا تقول
٥ كلما دَخلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُختَهَا
٦ لايُسْمِنُ ولَا يُغْنِى مِنْ جُوع
٧ إنا تَطَيَّرْنا بكم
٨ سَوَاءً مَحْيَاهُم ومماتهم
٩ لمَقْتُ اللهِ أَكبرُ مِنْ مقْتكم أَنفُسَكُمْ
١٠ يُعْرَف المُجْرمون بِسِيماهُمْ
١١ ذُق إنك أَنت العزيز الكريم
١٢ ذوقوا فِتْنَتَكُم هذا الذى كُنْتم به تَسْتعجلون
١٣ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فما لَهُ مِنْ مُكْرِم
١٤ وما أُوتيتمْ من العلم إلا قليلا
١٥ ذلك مَبْلَغهُمْ مِنَ العلم
١٦ فمَثَلَهُ كَمَثَلِ الكلب إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أَو تتركْه يَلْهَثْ

١٧ كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
١٨ أُولئك هم شرُّ البَرِيّة
١٩ همّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ منّاعٍ للخير مُعْتدٍ أَثيم ، عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ
٢٠ إنك لَغَوِيٌّ مُبين
٢١ إن شانِئَكَ هُوَ الأَبتَر
٢٢ أُولئك لاخَلَاق لهم فى الآخرة
٢٣ أينما يُوَجِّهْهُ لا يأْتِ بخير
٢٤ أُولئك حزْبُ الشَّيطَان
٢٥ اتَّخَذُوا أَيمَانَهُمْ جُنَّة
٢٦ فما لِهؤُلاءِ القوم لا يكادون يفقهون حديثًا

فى الضالين والمُضِلِّين

١ إنهم أَلْفَوْا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يُهْرَعُون
٢ الشَّيطان سوَّل لهم وأَمْلى لهم
٣ وإنَّ كثيرًا لَيُضِلُّون بأَهوائهم بغير عِلْم
٤ ولقد ضَلَّ قبلهم أَكثَرُ الأَولين
٥ وإخوانهم يَمُدُّونهم فى الغَيِّ ثم لا يُقْصِرون

٦ ربَّنَا إننا أَطعْنَا سادتنا وكُبراءَنا فأَضلونا السبيلا

فيمن عميت بصيرتهم وأَضلهم هواهم

١ لهم قلوبٌ لايفقهون بها ولهم أَعينٌ لايُبصرون بها ولهم آذانٌ لايسمعون بها أُولئك كالأَنعام بل هم أَضلُّ أُولئك هم الغافلون
٢ فإنها لا تَعْمَى الأَبصار ولكن تَعْمَى القلوب التى فى الصدور
٣ أَفرأَيت مَن اتخذ إِلٰهه هواه وأَضله الله عَلَى عِلم ؟ !

فى قرناءِ السوءِ ، والغاوين ، والنهى عن اتباعهم

١ ولا تُطعْ مَنْ أَغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا واتبع هواه وكان أَمْرُه فرُطاً
٢ يدْعُو لمَنْ ضَرُّه أَقرب من نفعه لبئسَ المولى ولبئسَ العَشير
٣ ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار
٤ ولا تتَّبعان سبيل الذين لايعلمون
٥ وإخوانهم يَمُدُّونهم فى الغيِّ ثم لايُقصِرُون

٦ يا ليتَ بيني وبينك بُعْدُ المشرقين فبئس القَرِين

٧ يا وَيْلتَا ليتني لم أتخِذ فلاناً خليلا

في التنبيه على الخطأ والضلال

١ ما لَكم كيف تحكمون ؟

٢ فأَين تذهبون ؟

٣ أَتَسْتبدِلون الذى هو أَدْنَى بالذى هو خيرٌ ؟

٤ تلك إذَن قسمةٌ ضِيزَى

٥ تالله إنكَ لفى ضلالك القديم

٦ ذلك هو الضلالُ البعيد

٧ ويحْسَبون أَنهم على شىء

٨ وهم يحسبون أَنهم يُحْسِنون صنْعًا

في المنافقين والمرائين

١ قد بَدَت البغضاءُ من أَفواههم وما تُخفى صدورُهم أَكبرُ

٢ وإذا خَلَوْا عَضوا عليكم الأَنامِل مِنَ الغَيظ

٣ يقولون بأَلسِنتهم ما ليس فى قلوبهم

٤ يُرْضونكم بأفواههم وتأْبى قلوبُهم

٥ وليحْلِفُنَّ إن أَردنا إلا الحُسْنى والله يشهدُ إنهم لكاذبونَ

٦ إنْ تَمْسَسْكُم حسنةٌ تَسُؤْهم وإنْ تُصِبكم سيئةٌ يفرَحوا بها ، وإنْ تَصبرُوا وتتقوا لا يضركم كَيدهم شيئًا

٧ مُذَبْذَبين بين ذلك لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ

٨ يبغونكم الفتنة وفيكم سَمَّاعون لهم

٩ لقد ابتَغوا الفتنة مِنْ قبلُ وقلبوا لك الأُمور حتى جاءَ الحق وظهرَ أَمرُ الله وهم كارهون

١٠ ويحلِفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنَّهُمْ قومٌ يفرَقون

تمثيل أَعمال المُرائين والمنافقين

١ فَمَثَله كَمَثَلِ صَفْوانٍ عليه ترابٌ فأَصابه وابِلٌ فتركه صَلْدًا

٢ أَعمالهم كرمادٍ اشتدَّت به الريح فى يوم عاصف

٣ أَعمالُهم كسَرابٍ بقِيعَةٍ يَحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءَه لم يَجِدْهُ شيئًا

في الإنذار والوعيد

١ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم
٢ فسوف يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون
٣ لكلِّ نبإٍ مُستقَرٌّ وسوف تعلمون
٤ وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُدْ . ولن تُغنى عنكم فئتُكم شيئًا ولو كثُرَتْ
٥ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين
٦ واتقوا فتنة لا تُصِيبن الذين ظلموا منكم خاصةً
٧ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير
٨ ذلك وعدٌ غير مكذوب
٩ وما هى من الظالمين ببعيد
١٠ هذا بلاغٌ للناس ولْيُنذروا به
١١ عما قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادمين
١٢ وسيعلم الذين ظلموا أى مُنقلَبٍ ينقلبون
١٣ فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُندًا
١٤ اعْمَلوا على مكانتِكم إنى عامل فسوف تعلمون
١٥ إنه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهزل
١٦ ذَرهم يأْكلوا ويتمتعوا ويُلههمُ الأَملُ فسوف يعلمون
١٧ سيعلمون غدًا مَنِ الكذّابُ الأَشِرُ
١٨ سيُهزَم الجمع ويُولُّون الدبُر
١٩ لتُنَبَّؤُنَّ بما عملتم
٢٠ ولقد جاءهم من الأَنباءِ ما فيه مُزْدجر
٢١ اعملوا ما شئتم
٢٢ فستعلمون مَنْ هو فى ضلال مبين
٢٣ إن ما توعدون لواقع
٢٤ فستذكرون ما أَقول لكم
٢٥ فليضحكوا قليلا ولْيَبْكوا كثيرًا
٢٦ فإن للذين ظلموا ذَنُوباً مثل ذَنُوب أَصحابهم فلا يستعجلون
٢٧ اعملوا على مكانتِكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون
٢٨ كلَّا سيعلمون ، ثم كلَّا سيعلمون
٢٩ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأَمثال
٣٠ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون
٣١ ولنخرجنَّهم منها أَذلَّةً وهم صاغرون

٣٢ وقد أَفلحَ اليوم من اسْتَعْلَى

٣٣ ولا تعجبْك أَمْوَالهم ولا أَولادهم
إنما يُريدُ الله أَن يُعَذبهم بها فى الدُّنْيَا

٣٤ لقد كُنْت فى غفلة مِنْ هذا
فكَشفنا عَنْك غِطَاءَك

٣٥ وليعلمنَّ نَبَأَهُ بَعد حين

٣٦ سَنَسِمُه عَلَى الخرطوم

٣٧ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ الله قد أَهْلَك مِنْ
قبلهِ من القرون مَنْ هُوَ أَشد مِنْهُ
قوةً وَأَكْثرُ جَمْعًا

٣٨ كلا لَا وَزَرَ

٣٩ إنَّا مِنَ المجرمين مُنْتَقِمُون

٤٠ سَنُسْتدرجهم مِنْ حيث لايعلمون

٤١ سَنَنْظُر أَصَدَقت أَم كُنْت مِنَ
الكاذبين

فى الحياة الزوجية

١ وَمِنْ آياته أَنْ خلق لَكُمْ مِنْ
أَنفسِكُمْ أَزواجاً لتسكُنُوا إِليها
وجعلَ بَينكُمْ مَوَدَّةً ورحمة

٢ وَأَنْ تعفوا أَقرب للتَّقْوَى ولا
تَنْسوا الفضل بينكُمْ

٣ وَإِنْ خِفتم شِقَاقَ بينهما فابعثوا
حكمًا مِنْ أَهله وَحَكَمًا مِنْ أَهْلها
إِنْ يُرِيدا إِصلاحاً يُوَفقِ الله بينهما

٤ وَلَهُنَّ مثل الذى عليهِنَّ بالمعرُوفِ
وللرِّجَالِ عليهن دَرَجَة

٥ وإِنِ امرأَةٌ خافت مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا
أَو إِعْرَاضاً فلا جُنَاحَ عليهما أَنْ
يُصْلحا مابينهما صلحًا والصُّلح خير

٦ وعَاشروهُنَّ بالمعروف

٧ وَائْتَمِرُوا بينكُم بمعروف

فى آداب النساء

١ وَقُلْ للمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ من
أَبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ
ولا يُبْدين زينتهنَّ إلا ما ظهرَ منها
وَلْيَضربن بخُمُرِهنَّ على جُيوبهِنَّ

٢ وَقَرْنَ فى بيوتكُنَّ ولا تَبَرَّجْن
تَبَرُّج الجاهلية الأُولى

٣ محْصَنَاتٍ غير مسافحاتٍ ولا
مُتَّخذات أَخْدان وقلن قَوْلا معروفاً

٤ إِن اتقَيْتُنَّ فلا تخضعْنَ بالقَوْلِ
فيطمعَ الذى فى قلبه مرضٌ وقلن
قَوْلا معروفاً

فى الصلح والسلم

١ فاتقوا الله وأَصلحوا ذات بينِكُم

٢ إنما المؤمنون إخوَةٌ فَأَصْلِحُوا بين
أَخَوَيْكُم
٣ وَالصُّلحُ خيرٌ
٤ وإنْ جنحوا لِلسلمِ فاجْنَح لهَا
٥ يا أَيُّها الذين آمنوا ادخلوا فِى
السِّلم كَافَّةً ولا تتَّبِعُوا خُطُوَات
الشيطان

الناس بخير ما تباينوا

١ ولو شَاءَ رَبك لجعلَ الناسَ أُمَّةً
وَاحِدَةً ولا يزالون مُختلِفين إلا
مَنْ رحم ربك ولذلك خلقهم
٢ وَرَفعنا بعضهم فوق بعض درجات
لِيَتَّخِذ بعضُهم بعضًا سُخْرِيًّا

فى الحثِّ على الصدقة والنهى
عما يبطلها

١ مَثَلُ الذين يُنْفقون أَمْوالهم فِى
سبيل اللهِ كمثَلِ حَبَّةٍ أَنبتت سبع
سَنَابل فى كُلِّ سُنبلة مائة حبَّة
٢ لَنْ تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مِمَّا
تحبُّون
٣ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لَا تُبْطِلُوا
صدقاتِكُمْ بالمَنِّ والأَذى
٤ قَوْلٌ معروف ومغفرةٌ خيرٌ مِنْ
صدقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى
٥ وما تنفقوا منْ خير يُوَفَّ إليكم
٦ وَأَمَّا السَّائل فلا تَنْهَر

فى التحية والاستئذان

١ وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فحيُّوا بِأَحْسَنَ
منها أَو رُدُّوهَا
٢ رحمة الله وبركاته عليكم أَهْلَ البيت
٣ يا أَيُّهَا الذين آمنوا لا تدخلوا
بيوتاً غير بُيُوتكُمْ حتى تستأْنِسُوا
وَتسلموا عَلَى أَهْلها
٤ فإن لم تجدوا فيها أَحدًا فلا
تدخلوها حتى يُؤذن لكُم
٥ فإن استأْذنوك لبعض شأْنهم فَأْذَنْ
لمنْ شئت مِنْهُمْ

فى آداب المشى

١ وَاقصِد فى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ
صَوْتِك
٢ ولا تمشِ فِى الأَرضِ مَرَحًا إنكَ
لَنْ تخرِقَ الأَرضَ وَلَنْ تَبْلغَ
الجبال طولا
٣ وَعِبَادُ الرحمن الذينَ يَمْشُون على
الأَرضِ هَوْنًا

فى التلطف والدعوة والطلب

١ إن أُرِيدُ إلا الإصلاح ما استطعت
٢ ياقوم اتبعونِ أَهْدِكُم سبيلَ الرشاد

٣ هل أَتبعك على أَنْ تُعَلِّمَنى مِمَّا علمت رشْدًا
٤ فَقُلْ هلْ لك إلى أَنْ تزكَّى
٥ إنى لكُم رسولٌ أَمين
٦ فاتبعْنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سويا

في الشُّورَى

١ وشاورْهمْ فى الأَمر
٢ وأَمْرهم شورى بينهم
٣ أَفْتونى فى أَمرى

فى الشفاعة

١ مَن يَشْفع شفاعة حسنةً يكن له نصيبٌ منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفْل منها

فى الخطإِ والاضطرار

١ وليسَ عَليكم جناحٌ فيما أَخْطَأْتم به ولكن ما تَعَمَّدَت قلوبكم
٢ فمن اضطرَّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إِثمَ عليه

فى المسئوليَّة عن العمل

١ ولا تزر وازرةٌ وزْرَ أُخرى
٢ وأَنْ ليس للإِنسان إِلا ما سَعى
٣ كلُّ امرئٍ بما كسبَ رَهين
٤ وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طائره فى عنقه
٥ لايضركم مَنْ ضَلَّ إِذا اهتديتم

فى الجهاد

١ وَأَعِدُّوا لهم ما استطعتم مِنْ قُوَّة وَمِنْ رباطِ الخيلِ ترْهِبُونَ بهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم
٢ وَقَاتلوهم حتى لا تكُون فِتْنَةٌ
٣ وَفَضَّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أَجْرًا عظيمًا
٤ ولولا دفع الله النَاسَ بعضَهم ببعض لَفَسَدَتِ الأَرضِ

فى الإِيمان

١ وَاحْفَظُوا أَيمَانكُمْ
٢ ولا تجعلوا اللهَ عُرْضَة لأَيمانِكُمْ
٣ ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها

فى الكلام والاستماع

١ أَلم تَرَكيف ضَرَبَ اللهُ مثلا كلمة طَيِّبَةً كشجرةٍ طيِّبَة أَصلها ثابت وَفَرْعها فى السَّماءِ تُؤْتِى أُكلها كل حين بإِذْنِ رَبِّهَا
٢ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّتْ مِنْ فوق الأَرض ما لها مِنْ قَرار

٣ الذين يَسْمَعُون القَوْل فَيتَّبِعُون أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الذين هداهُم اللهُ وأُولئك هُم أُولُو الأَلْبَاب

٤ وَقُولُوا لِلنَّاس حُسْنًا

٥ يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا اتقوا الله وقولوا قَوْلاً سديداً

٦ وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ

٧ وإذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِراماً

في الْجَدل والمناظرة

١ ولا تُجادِلُوا أَهْلَ الكتاب إلا بالتى هى أَحْسَنُ إلا الذين ظلموا منهم

٢ أُدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بالحكمة وَالمَوْعِظة الحسنةِ وجَادِلهم بالتى هىَ أَحْسَنُ

في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات

١ لكلٍّ جَعَلنا مِنْكُم شِرْعَةً ومنهاجاً

٢ ولكلٍّ وَجْهَةٌ هو مُوَلِّيها

٣ قلْ كُلٌّ يَعْمَل على شاكلته

٤ واللهُ فَضَّلَ بعضكُمْ على بَعض في الرِّزْق

٥ وَمَا مِنَّا إلا له مقام معلوم

٦ وفوق كل ذى عِلْمٍ عَليم

٧ وأَنا مِنا الصالحون ومنا دُون ذلك

وبضدها تتميز الأَشياءُ

١ قُلْ لايَسْتَوِى الخبيث والطَّيِّبُ ولو أَعْجَبك كثرة الخبيث

٢ أَفمَنْ أَسسَ بُنْيَانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أَمْ مَنْ أَسسَ بنيانه على شفَا جُرُفٍ هار فانهار به فى نار جهنَّمَ

٣ مثلُ الفريقين كالأَعْمَى والأَصمِّ والبصير وَالسميع هَلْ يستويان مَثلا

٤ وما يستوى البحران هذا عَذْبٌ فراتٌ سائغ شرابه وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ

٥ أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا على وَجْهِهِ أَهْدَى أَم مَنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِراطٍ مُسْتقيم

٦ قلْ هَلْ يستوى الذين يَعْلَمُونَ والذين لايَعْلَمُون

فى الحث على العمل والسعى والتنافس والمهاجرة

١ ولكلٍّ دَرَجَات مما عملوا

٢ وفى ذلك فلْيَتَنَافس المتنافِسُونَ

٣ أَلَمْ تكُنْ أَرضُ اللهِ وَاسِعَةً فتهَاجرُوا فيها ؟ ؟

٤ فامشوا فى مَنَاكِبِها وكلوا مِنْ رِزْقِه

فِى الجزاءِ على العمل

١ ظَهَرَ الفسادُ فى البرِّ والبحر بما كَسَبتْ أَيدى الناس ليذيقَهُمْ بعض الذى عَمِلوا لعَلَّهُمْ يَرْجعون

٢ إن هذا كان لكُمْ جزاءً وكَانَ سعيكُمْ مشكُوراً

٣ فمنْ يَعْمَل مِثْقَال ذرة خيراً يَرَهُ وَمَنْ يعمل مِثْقَالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَه

٤ وأن ليس للإنسان إلَّا مَا سَعَى وأَن سَعْيه سوف يرى ثمَّ يُجْزَاه الجَزَاءَ الأَوْفَى

الجزاءُ من جنس العمل

١ وَإنْ جَنَحُوا لِلسِّلْم فاجْنَحْ لها

٢ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم

٣ وإنْ عَاقبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ماعُوقبتم به

٤ وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها

٥ فمن اعْتَدَى عليكُم فاعْتَدُوا عليه بمثل ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

٦ هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان

٧ للذين أَحْسَنُوا الحسنى وزيادة

٨ فاذكُرُونى أَذكُرُكُم

٩ وإنْ عُدْتُمْ عُدْنَا

١٠ إنَّ الله لايُغَيِّرُ مابِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا ما بأَنفسهم

١١ وأَوْفُوا بعَهْدى أُوفِ بِعَهْدِكُم

١٢ وما كان ربكَ ليهلكَ القرَى بظلم وأَهلها مُصْلحون

١٣ جَزَاءً وفاقاً

شبيه الشيء منجذب إليه

١ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ، والطيِّباتُ للطيِّبين والطيِّبُونَ للطيِّباتِ

فى الإِفساد والبغى والنهى عنهما

١ وَلاتفسدوا فى الأَرض بعد إصلاحها

٢ ولا تبغ الفساد فِى الأَرضِ

٣ وإنَّ كَثيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ ليبغى بعضهم على بعض

٤ ولا تَعَاوَنُوا على الإثم والعدوان

فى المفسدين المكابرين

١ وإذا قيلَ لهم لاتفسدوا فى الأَرض

قالوا إنما نحنُ مُصْلِحُون ألا إنهم
هم المفسدون ولكن لا يشعرون .
٢ الذين ضلَّ سعيُهُمْ فى الحياة الدنيا
وهم يَحْسَبُون أنهم يحسِنُون صنعاً
٣ ويَحْسَبون أنهم على شىء ألا إنهم
هم الكاذِبُون .

فى غرور الظلمة واستدراجهم

١ يُوحى بعضُهم إلى بَعْض زُخْرُفَ
القول غرُوراً .
٢ يَعِدُهم ويُمنِّيهم وما يعِدُهم الشيطان
إلا غُرُوراً .
٣ بل إنْ يَعِد الظالمونَ بعضُهم بعضاً
إلا غُرُوراً .
٤ ولا تَحْسَبَنَّ الله غافلا عما يعمَلُ
الظالمون .
٥ وأُمْلِى لهم إن كَيدِى مَتين .
٦ فَذَرْهُم فى غَمْرَتِهِمْ حتى حين .
٧ فلا تَعْجَل عليهم إنما نَعُدُّ لهم عَدًا
٨ سَنَستدرجُهم من حيثُ لا يعلمون
٩ ذَرهم يأْكلوا ويتَمَتَّعُوا ويُلهِهمُ
الأَمل فسوف يعلمون .

فى سوء عاقبة الظالمين والشماتة
بما يصيبهم

١ فغُلِبُوا هُنالكَ وانقلبُوا صَاغِرِين .
٢ انْقَلَبَ على عَقِبَيْهِ خَسِرَ الدنيا
والآخرةَ ذلِكَ هو الْخُسْرَان المبينُ
٣ فانظرْ كَيْفَ كان عاقبة الظالمين .
٤ فجعَلْنَاهم أَحاديثَ ومَزَّقْنَاهُمْ كلَّ
مُمَزَّق .
٥ فأَتى اللهُ بُنيانهم مِنَ القواعِدِ .
٦ فَخَرَّ عليهم السَّقفُ مِنْ فَوْقهم
وأَتاهُم العذابُ من حيث لا
يَشْعُرون .
٧ فأَصابهُمْ سيئاتُ ما عملوا وحاق
بهمْ ما كانوا به يستهزئون .
٨ فأَصبحَ يُقلِّب كَفَّيْهِ على ما أَنفق
فيها .

الإعراض عن الدعوة

١ وإذا تتْلَى عليه آياتنا ولى مُسْتكبراً
كأَن لم يسمعها كأَن فى أُذنيهِ وَقرًا
٢ كأَنهم حُمرٌ مُستنفرةٌ فَرّت مَنْ
قسورة
٣ ثمَّ نظر ، ثمَّ عبسَ وبسرَ ، ثمَّ
أَدبر واستكبر

فى التدخل فى مالا يعنى والنهى عنه

١ ولا تقفُ ما ليس لَكَ به علم

٢ لاتَسْأَلُوا عن أَشياءَ إن تُبْد لَكم تَسُؤْكم .

٣ عليكم أنفسكم لايضرُّكم من ضلّ

٤ فلا تَسْأَلن ما ليس لكَ به عِلم .

٥ ليس لك من الأَمر شيءٍ .

فى الكرم والإكرام والضيافة

١ ادخلوها بسلام آمنين

٢ كلوا واشربوا هنيئًا .

٣ فكُلُوه هَنيئاً مَرِيئاً

٤ فكُلِي واشربي وقَرِّى عينًا .

٥ وفاكهةٍ مِمَّا يَتَخَيرُون ولحم طيْرٍ مما يشتهون .

٦ وَيُؤْثِرُون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ .

فى التعزية وتهوين الخطب

١ وَيَخْلُقُ ما لا تعلمون .

٢ كل نفس ذائقة الموت .

٣ كلُّ مَنْ عليها فان .

٤ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ .

٥ فإنَّ مع العُسْر يُسْرًا إنّ معَ العسر يسرًا .

٦ ولا تيْأَسُوا مِنْ رَوْح الله .

٧ فلا تَذْهَب نفسُك عليهم حسراتٍ

٨ ولا تحْزَن عليهم ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مما يَمْكُرُون .

٩ ولا يَحْزُنْكَ قَوْلهم .

١٠ سَيَجْعَلُ اللهَ بعد عُسْرٍ يُسْرًا .

فى الكيل والميزان

١ أَوفوا الكيلَ ولا تكُونوا من المُخْسرين وَزِنُوا بالقسطاس المستقيم ولا تَبْخَسُوا الناسَ أَشْياءَهم ولا تَعْثَوْا فى الأَرض مفسِدِين .

٢ ويلٌ للمُطَفِّفِينَ الذين إذا اكْتَالوا على الناس يَسْتَوْفُونَ وإذا كَالُوهم أَو وزَنُوهم يُخْسِرُونَ .

فى النهْىِ عن الرِّشْوَة

١ ولا تأْكلوا أَمْوالكم بيْنَكم بالباطل وَتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام لِتأْكُلوا فريقًا مِن أَمْوال الناس بالإِثْم وأَنتم تعْلمُون .

٢ يا أَيها الذين آمنوا لا تأْكلوا

أَمْوَالكم بينكم بالباطل إلا أَن
تكُون تجَارَةً عن تراضٍ مِنكم

في مال اليتيم ومتاعه

١ ولا تَقْرَبُوا مال اليتيم إلا بالتى
هى أَحْسَنُ .
٢ ولا تأْكلوا أموالهم إلى أموالكم
إنه كان حُوباً كبيرًا .
٣ إن الذين يأْكلون أموال اليتامى
ظلمًا إنما يأْكلون فى بطونهم نارًا
وسيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .
٤ فأَمَّا اليتيم فلا تَقْهَرْ .

فى صكِّ الدَّيْنِ وإنظار المُعْسِر

١ يا أَيها الذين آمنوا إذا تَدَايَنْتُم
بديْنٍ إلى أَجلٍ مُسمًّى فاكتبوه .
٢ وإن كان ذُو عُسْرةٍ فَنَظِرَةٌ إلى
مَيْسَرةٍ .

فى الأَحكام والْحُكَّام

١ وإذا حكمتم بين النَّاس أَن
تحكموا بالعدل .
٢ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان
ذا قُرْبَى .
٣ ولا يَجْرِمَنَّكم شنآنُ قَوْمٍ
على أَلَّا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ
أَقربُ لِلتَّقْوَى .
٤ ولا تُلْبِسُوا الحقَّ بالباطلِ
وتكتموا الحقَّ وأَنتم تعلمون .

فى اتِّهام الأَبرياء

١ ومن يكْسب خطيئةً أَو إثماً ثم
يَرْمِ به بريئاً فقد احْتَمَلَ بهْتَاناً
وإثماً مُبيناً .
٢ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكُونُ
لنا أَن نتكلم بهذا سُبحانَكَ هذا
بُهْتَانٌ عظيم .
٣ إذ تلَقَّوْنه بأَلسنتكم وتقولون
بأَفواهكم ما ليس لكم به علم
وتحْسَبُونه هيِّناً وهو عند الله عظيم
٤ لكل امرئٍ منهم ما اكتَسَبَ
من الإثم والذى تولى كِبْرَه منهم
له عذابٌ عظيم .

فى المُكابرة فى الحق والمعاندة

١ ويُجادل الذين كفروا بالباطل
لِيُدْحِضُوا به الحق .
٢ وجَحَدوا بها وَاسْتيْقَنتها أَنفسهم
ظلماً وعُلوًّا .

٣ ما ضرَبوه لك إلا جَدَلا .
٤ يُريدُون أَن يُطفِئُوا نورَ اللهِ بأَفواهِهم .
٥ يجادلونك فى الحقِّ بعد ما تبيّنَ
٦ وإنَّ فريقاً منهم ليكْتُمُون الحقَّ وهم يعلمون .
٧ أُنظر كيف نصَرِّفُ الآيات ثم هم يَصْدِفون .

فى الحقِّ والباطل

١ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ ولو كره المجرمُون
٢ الآن حَصْحَصَ الحقُّ .
٣ فأَما الزَّبَدُ فيذهَبُ جُفَاءً ، وأَمَّا ما ينفع الناس فيمكُثُ فى الأَرض .
٤ قضِيَ بالحق وخَسرَ هُنالك المُبْطلون .
٥ الحقُّ أَحقُّ أَن يُتَّبع .
٦ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال .
٧ لقد جئناكم بالحق ولكنَّ أَكثركم للحق كارهون .
٨ فوقع الحقُّ وبطل ما كَانوا يعملون .

٩ ولا يأْتونك بمَثَل إلا جئناك بالحق وأَحسن تفسيرا .

فى أَداءِ الشهادة

١ يا أَيها الذين آمنوا كُونوا قوّامين بالقسط. شهداءَ لله ولو على أَنفسكم أَو الوالدينِ والأَقربين .
٢ ولا تكْتموا الشهادة ومن يكْتُمها فإِنهُ آثِمٌ قلبُهُ .
٣ فإذا دفعتم إليهم أَموالهم فَأَشْهدُوا عليهم .
٤ ولا يأْب الشُّهداءُ إذا ما دُعُوا .
٥ وأَشهدُوا إذا تبايعْتم ولا يُضَارَّ كاتبٌ ولا شهيد .
٦ وأَنا على ذلكم من الشاهدين .
٧ وما شهدنا إلا بما علمْنَا .

فى الخبر اليقين

١ ما زاغ البصرُ وما طغى .
٢ فلنقصُّنَّ عليهم بعلمٍ وما كُنا غائبين .
٣ نحنُ نقصُّ عليك نبأَهُم بالحقِّ .
٤ أَحطتُ بما لم تحط. به .
٥ ولا يُنبِّئكَ مثل خبير .

في الاستنكار والتعجب

١ إني لعملكم مِنَ القالين .
٢ لقدْ جئتم شيئاً إدًّا .
٣ لقدْ جِئْت شيئاً إمْرًا .
٤ لقدْ جِئْتَ شيئاً نُكرًا .
٥ مَا سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الأَوَّلين .
٦ إنَّ هذا لشيءٌ عَجيبٌ .

في المحاماة والدِّفاع عن الأَئمةِ

١ ها أَنتم هؤلاءِ جادَلْتُمْ عنهم في الحياةِ الدُّنيا فمن يجادِلُ اللهعنهم يومَ القيامةِ أَمَّنْ يكُونُ عليهم وكيلا .
٢ ولا تُجَادِلْ عن الذين يختانون أَنفسهم .
٣ ولا تعاونوا على الإثم والعُدْوان .
٤ فلن أَكُونَ ظهيرًا للمجرمين .

في التحدِّي وعدم المبالاة

١ فاقْضِ ما أَنت قاض .
٢ فإن كانَ لكم كيدٌ فكيدُون
٣ فكيدُوني جميعاً ثم لا تُنْظِرُونِ
٤ قلْ هاتوا بُرْهانكم إن كُنتم صادقين .
٥ قل هلْ عندكم مِنْ علم فتُخرجوه لنا .

في النَّجوى والمؤَامرَة

١ فتَنَازَعُوا أَمرَهم بَينَهُمْ وأَسَرُّوا النجْوَى .
٢ لا خيرَ في كثيرٍ مِنْ نجْوَاهُمْ .
٣ أَمْ يَحْسَبُون أَنَّا لا نسمعُ سِرَّهم ونجواهم .

في الظَّنّ والشكّ

١ إنْ يَتَّبعُون إلا الظَّنَّ وإن الظنَّ لا يُغنِي من الحق شيئاً .
٢ وَإنهُمْ لَفي شكٍّ منه مُريب .
٣ وإنَّا لَفي شكٍّ مما تَدْعوننا إليه مُريبْ .
٤ إنْ يَتَّبعُون إلا الظن ومَا تَهوى الأَنفسُ .
٥ وما يَتَّبعُ أَكثرهم إلا ظنًّا إنَّ بَعض الظنّ إثمٌ .

في التبرُّؤ والتنصُّل

١ فلمَّا تراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عقِبَيْهِ ، وقال إني بريءٌ منكم إني أَرَى مالا ترَوْنَ .

٢ أَنتمْ بَرِيئونَ مما أَعملُ وأَنا برىءٌ مما تَعْلمون

٣ فلا تلومونى وَلُومُوا أَنفُسَكُم

في موقف الظلمة والمجرمين أمام العدالة

١ وقفوهُم إنهم مسئولون .

٢ هذا يَوْمُ الفصل جمعناكُم وَالأَوَّلين

٣ مكانكُم أَنتم وشركاؤكم

٤ خُذُوهُ فغلُّوهُ

٥ ما لَكُم لا تنْطقونَ

٦ مالَكُم لا تناصَرُون

٧ لا تختَصِمُوا لَدىَّ

في حيرة المجرمين وإشفاقِهم عند ظهور الحق

١ فَعَمِيَتْ عليهمُ الأَنباءُ يومئِذٍ فَهُمْ لا يَتساءَلُونَ

٢ ووقَعَ القول عليهم بما ظلموا فهمْ لا يَنطقون

٣ وَوُضِع الكتاب فترى المجرمين مُشْفِقِين مما فيه .

في الإفحام والإلزام

١ إقرأْ كتابكَ كفى بِنَفْسِك اليوم عليك حَسِيباً .

٢ هذا كتابُنا ينطقُ عليكم بالحق إنا كُنَّا نستَنْسِخُ ما كنتم تعملون

٣ ووجدوا ما عملوا حاضراً

في اليأْس والتيئيس

١ قُضِيَ الأَمْرُ الذى فيه تستفتِيَان

٢ فنادوا وَلاتَ حينَ مناصٍ

٣ اصْبرُوا أَو لا تصبِرُوا

٤ وَلا تخَاطِبْنِى في الذين ظلموا

٥ لا تَعْتَذِرُوا اليَوْم

في إمضاءِ الأَمر

١ فإِذا عزمْت فتوكل عَلَى اللهِ

٢ وكان أَمرًا مَقضيًّا

٣ إفعَل ما تُؤْمَر

٤ فافعَلوا ما تُؤْمرُون

في حال المجرمين وهم يعذبون

١ كلما أَرادوا أَنْ يخرُجُوا منها أُعِيدوا فيها

٢ لهم فيها زَفِيرٌ وَشهِيقٌ

٣ يَتَجَرَّعُهُ ولا يكادُ يُسِيغه

٤ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جلودًا غيْرَهَا لِيَذوقوا العَذابَ .

في الشيب والكبر و الضعف

١ رَبِّ إِني وَهَنَ العَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شيبا .

٢ وقد بَلغتُ من الكِبَرِ عِتِيًّا .

٣ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنكسه فى الخلقِ

٤ ومنكم مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذلِ العُمُرِ لكيلا يَعْلَمَ بَعْدَ علم شيئًا .

جزع الناس ومظاهرهم عند البلاء

١ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهم لايَرْتَدُّ إليهم طَرْفهم وأفئدتُهُمْ هواء

٢ وترَى النّاسَ سُكَارَى وَمَاهُمْ بِسُكَارَى .

٣ هَلْ تُحِسُّ منهم مِنْ أَحَدٍ أو تسمَعُ لَهُمْ رِكزًا .

٤ وَوُجُوهٌ يومئِذٍ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقها قَتَرَةٌ أُولئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ

٥ فانطلقوا وَهُمْ يَتَخَافتون

فى صفات الإنسان الفطرية

١ إنّ الإنسان لظلومٌ كفّار

٢ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جَدَلا

٣ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ

٤ فطرَةَ اللهِ التى فطرَ النّاسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله

٥ وَخلقَ الإنسانُ ضعيفًا

٦ إنّ الإنسان ليطغى أن رآه اسْتَغْنَى

٧ إنّ الإنسان خلقَ هَلُوعًا إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا ، وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً .

٨ قُتِلَ الإنسان ما أَكْفَرَه !

فى الخوف

١ فأَصْبَحَ فى المدينَة خائِفًا يَترَقَّبُ

٢ فَخَرَجَ منها خائفًا يَترَقَّبُ

٣ لو اطلعت عليهمْ لَوَلَّيْتَ منهمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ منهم رُعْبًا

٤ ذلك الذى يُخَوِّفُ الله به عِبَادَه

٥ فأَوْجَسَ منهمْ خيفة

٦ إننَا نخافُ أَنْ يَفْرُط علينا أو أَنْ يطغى .

٧ إنى أخافُ أَن يكَذِّبُون

٨ إذ دخلوا عَلَى دَاوُدَ فَفزِعَ منهم

٩ إنَّا منكُمْ وَجِلُون

في التضجر والتحسر وإظهار الضعف

١ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا
٢ ياليتنى كُنْتُ معهم فأفوزَ فوزًا عظيمًا
٣ ياليتنى مِتُّ قَبْلَ هذا وكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا
٤ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان إنه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِين
٥ هذا يَوْمٌ عَسِر
٦ يا ليتها كانت القاضية
٧ وَيَضِيقُ صَدْرِى ولاينطلق لسانى

في النفس الأمارة بالسوء

١ ما أَصابكَ مِنْ حَسَنَةٍ فمنَ اللهِ وما أَصابك مِنْ سَيِّئَةٍ فمن نفسك
٢ وما أُبَرِّىءُ نَفسى إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ رَبِّى

في الخجل والاستحياء

١ فجاءَتْه إحداهنَّ تمشى عَلى اسْتِحْيَاءٍ
٢ يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ به

في النسيان

١ وما أَنسانيه إلا الشيطانُ أَنْ أَذكُرَه
٢ فَنَسِىَ ولم نَجِدْ لَهُ عَزْمًا
٣ وَنَسُوا حَظًّا مما ذكِّرُوا به
٤ ولا تَنْسوا الفضلَ بينكُم
٥ واذكُرْ ربكَ إذا نَسِيت
٦ سَنُقْرِئكَ فلا تَنْسَى
٧ لاتُؤاخِذْنى بما نَسِيتُ

في الرؤيا والأحلام

١ نَبِّئْنَا بتَأْويلهِ إنَّا نرَاكَ مِنَ المحسنين
٢ أَفتونى فى رُؤيایَ إن كُنتم لِلرُّؤْيا تَعْبُرُون
٣ أَضْغَاثُ أَحلام وما نحنُ بتأْويل الأَحلام بعالمين
٤ أَنا أُنَبِّئُكُم بتأْويلهِ
٥ هذا تأْويل رُؤْيایَ مِنْ قَبلُ قد جعلها رَبِّى حَقًّا.

الفرح بزوال المكروه

١ وكَفَى اللهُ المؤْمنين القِتَالَ
٢ الحمد لله الذى أَذهبَ عَنَّا الحَزَن
٣ الحمدُ للهِ الذى نَجَّانَا مِنَ القَوْم الظالمين
٤ فقطعَ دابرُ القومِ الذينَ ظلموا والحمد للهِ رَبِّ العالمين

٥ فَوَقَعَ الحقُّ وبطلَ ما كانوا يَعْمَلون

٦ فانقلبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفضلٍ لم يَمْسَسْهم سُوء

٧ فوقاه الله سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا

في النعيم والسرور والقصور وما حوت

١ تَعْرِفُ في وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم

٢ إذا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُمْ لؤلؤًا مَنْثُورًا

٣ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ

٤ فيها سُرُرٌ مرفوعَةٌ وأَكْوَاب مَوْضُوعَةٌ ونمارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَة

٥ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِن اسْتَبْرَق

٦ وَيُطَاف عَلَيْهِمْ بآنِيَةٍ مِنْ فضةٍ وَأَكْوَاب كانت قَوارِيرًا

٧ مُتَّكِئِين فيها عَلَى الأَرَائِكِ

في الجبال والبحار والسفن والأمواج

١ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وحمرٌ مختَلفٌ أَلوانها وَغَرَابِيبُ سُودٌ

٢ وقال اركبوا فيها باسم الله مَجْرِيها وَمُرْسَاها

٣ وهيَ تجرى بهم في مَوْج كالجبال

٤ أَو كظلمَاتٍ فِي بحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاه مَوْجٌ من فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظلماتٌ بعضها فَوْقَ بعضٍ إذا أَخرج يَدَه لم يَكَدْ يَراها

٥ فَغَشِيَهُمْ من اليمِّ ما غَشِيَهم

٦ وحالَ بينهما الموجُ فكان مِنَ المُغْرَقِين

٧ ولهُ الجوارِ المُنْشَئَاتُ فِي البحرِ كالأَعلام

في المطر والبرق والرعد والريح

١ يكاد سَنَا بَرقِهِ يذهب بالأَبصار

٢ هذا عارضٌ ممطرُنَا

٣ ريحٌ فيها عذاب أَليم

٤ وهو الذى يُرْسِل الرِّيَاحَ بُشْرَى بينَ يَدَىْ رحمتِهِ

في البساتين والروح والريحان

١ وَدَانِيَةً عليهمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قطوفها تَذْليلا

٢ فيها فاكِهة والنخل ذاتُ الأَكمام

وَالْحَبُّ ذو العَصْف وَالرَّيْحَان
٣ فى سِدْرٍ مَخْضُود وَطلح مَنْضُودٍ
وَظِلٍّ مَمْدُود ، وماءٍ مَسْكُوب ،
وفاكهةٍ كثيرَة ، لا مقطوعة
ولا ممنوعة

في التَّفكُّر والنظر والاستدلال
على الخالق

١ وَمَا مِنْ دَابة فى الأَرض ولا طائر
يطير بجناحَيْهِ إلا أُمَمٌ أمثالُكُم
٢ وترَى الجبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً
وهى تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنعَ الله
الذى أَتْقَنَ كلَّ شىءٍ .
٣ وهو الذى يَبْدَأُ الخلق ثم يُعِيدُه
وهو أَهْوَنُ عليه
٤ ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلَّا كنفس
واحدة
٥ لخلقُ السمواتِ والأَرضِ أكبر
من خلق الناس ولكنَّ أكثر
الناس لا يعلمون
٦ وما خلقنا السموات والأَرضَ
وما بينهما لاعبين
٧ وفى أَنفسِكُم أفلا تُبْصرون
٨ فلينظر الإِنسانُ إلى طَعَامِهِ
٩ فلينظر الإِنسانُ ممَّ خُلقَ
١٠ وَاللهُ أَنْبَتَكُم من الأَرض نباتاً ثم
يُعيدكم فيها ويُخرجكم إِخْرَاجاً
١١ وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتين فمحَوْنَا
آيةَ الليل وجعلنا آية النهار
مُبْصِرَةً لتَبْتَغُوا فضلاً من ربِّكُم
ولتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَالحساب
١٢ وَترى الأَرضَ هَامِدَةً فإِذا أَنزلنا
عليها المَاءَ اهتَزَّت وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
من كلِّ زَوج بهيج

في العِظَة وَالعِبْرَة

١ إنَّ فى ذلك لذكرى لمَنْ كان لَهُ
قَلْبٌ أَو أَلْقَى السَّمع وهو شَهِيدٌ
٢ فَاعْتَبِرُوا يا أُولى الأَبصارِ
٣ ذلك ذِكْرَى للذَّاكرينَ
٤ لنجعلها لكم تذكرَةً وَتعِيها أُذنٌ
وَاعِيَة
٥ إنَّ فى ذلك لعِبْرَةً لمن يَخْشى
٦ إن فى ذلك لعِبْرَةً لأُولى الأَبصار
٧ وما يَذَّكَّر إلَّا أُولو الأَلباب
٨ لقد كان فى قصصهم عِبْرَةٌ لأُولى
الأَلباب

فى نِعم الله وفضله

١ ذلك تخفيفٌ مِنْ ربِّكُم ورحمة .
٢ يريدُ الله بكمُ اليسرَ ولا يريدُ بكمُ العُسرَ .
٣ وما مِنْ دابة فى الأَرض إلا عَلَى الله رزقها .
٤ وإن تعُدُّوا نعمة الله لاتحصوها .
٥ وإنَّ ربَّكَ لذو مَغْفِرَةٍ للناسِ عَلَى ظلمهم .

ما استأثر الله بعلمه

١ إنَّ الله عنده علم الساعة وَيُنَزِّل الغيث ويعلمُ ما فى الأَرحام وماتَدْرِى نفسٌ ماذا تكْسِب غدًا وما تَدْرِى نفسٌ بأَى أَرض تموت إنَّ اللهَ عليم خبير .
٢ ويسأَلونكَ عن الرُّوح قُلِ الروح مِنْ أَمرِ ربى .

فى العمل لوجه الله لا لجزاء الناس

١ إنما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لانريد منكم جزاءً ولا شكُورًا .
٢ وما أَسأَلكم عليه مِنْ أَجْر إن أَجْرىَ إلَّا على ربِّ العالمين .

وصف الدنيا وتحقير متاعها

١ قُلْ مَتاعُ الدنيا قليل .
٢ إنما الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْو .
٣ وما الحياةُ الدنيا إلا متاع الغرور .

فى التحذير من النفس والشيطان وغرور الدنيا

١ الشيطانُ يَعدُكُم الفقر ويأْمركُم بالفحشاء .
٢ إنَّ النفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء .
٣ فلا تغُرّنكمُ الحياة الدنياولايغرّنكُم بالله الغرور .

فى التسليم بقضائه تعالى وقَدَرِه

١ قُلْ لن يُصِيبنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا هُوَ مولانا .
٢ ولو شاءَ ربك ما فعلوه .
٣ ليقضِيَ الله أَمرًا كان مفعولا .
٤ إنَّ الله بالغُ أَمرِهِ .
٥ أَلَا لَهُ الخلقُ والأَمرُ .
٦ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِر
٧ وربك يخلقُ ما يشاءُ ويختار .
٨ لِلهِ الأَمر من قبلُ ومن بعدُ .

٩ ألا إلى الله تصيرُ الأُمُور .

١٠ لا يُسْأَلُ عَمَّا يفعلُ .

في الترغيب والتقوى والإحسان

١ مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ عَشْرُ أَمْثالها .

٢ إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات .

٣ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُم .

٤ ورحمةُ رَبك خَيْرٌ مما يَجمعون .

٥ للذين أَحْسَنُوا الحسنى وَزيَادةٌ .

في الاعتماد على الله والتوكل

١ وعلى الله قصدُ السبيل .

٢ وما ذلك على الله بعزيز .

٣ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيل .

٤ إنما أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنى إلى الله .

٥ ليسَ لها من دُونِ اللهِ كاشفة .

٦ وَاللهُ المستعانُ .

في الموت وعدم تخلف الآجال

١ كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت .

٢ لكلِّ أَجَلٍ كتابٌ .

في التوبة والإنابة

١ إنما التَّوْبَةُ على اللهِ للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ .

٢ وَليستِ التوْبة لِلذينَ يَعملونَ السيئات حتى إذا حضرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قال إنى تُبْتُ الآن .

٣ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَو يَظلِم نَفسهُ ثمَّ يَسْتَغْفر اللهَ يجدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيماً .

في الدعاءِ والتضرع

إلى الله تعالى

١ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذنا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .

٢ رَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إنك سَمِيع الدُّعاءِ .

٣ رَبَّنَا فَاغفِر لنا ذُنُوبَنا وكفر عَنَّا سيئاتنا وتوفنا مع الأَبرار .

٤ رَبِّ أَدْخِلنى مُدْخلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنى مخرج صِدْقٍ وَاجْعَل لى مِنْ لَدُنك سلطاناً نصيرًا .

٥ رَبَّنَا آتنا من لَدُنك رَحْمَةً وَهَيِّىء لنا من أَمرنا رشدًا .

٦ رَبِّ اشْرَح لى صَدْرِى وَيَسِّرْ لى أَمْرِى .

في فضل القرآن الكريم

١ ولقدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فهل مِنْ مُدَّكِرٍ .

٢ إنَّ هذا القرآن يهْدِي للتي هي أَقوَمُ .

٣ فاقرءُوا ما تيسر مِنَ القرآن .

٤ وإذا قُرِىءَ القرآن فاستمعوا لهُ وَأَنْصِتُوا لعلَّكُم ترْحَمُون .

في الإنباء والاستنباء

١ عَمَّ يَتَسَاءَلُون عَنِ النَّبَإِ العظيم الذى هم فيه مختلفون .

٢ فَأَقْبَلَ بَعضُهُمْ على بعض يَتساءَلون .

٣ عَرَّف بعضه وَأَعرض عن بعض .

٤ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا .

٥ هل أَتاك حديث الجُنود .

في الكُتب والكتابة والرسالة

١ إِذْهَبْ بكتابي هذَا فَأَلْقِهْ إليهم .

٢ ولقدْ وَصَّلنَا لَهُمُ القول .

٣ فيها كُتبٌ قَيِّمَة .

٤ هاؤمُ اقرأُوا كتَابِيَهْ .

في الاقتراب والدنو

١ اقتربتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القمَرُ .

٢ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بقريب ؟ ؟

٣ أَزِفتِ الآزِفة .

٤ فكان قاب قَوْسَيْنِ أَو أَدنى .

٥ قلْ عَسَى أَن يكُون قريبًا .

في الضعف والعجز

١ فما استطاعُوا مِنْ قيام وما كانوا مُنْتَصرين .

٢ فما اسْتطاعُوا أَنْ يظهَرُوه وما استطاعوا له نَقبا .

٣ وما ينبغى لهم وما يستطيعون .

٤ إنك لن تستطيع معى صَبرًا .

٥ وإنَّ أَوْهَنَ البُيُوت لَبَيْتُ الْعَنْكَبوت .

٦ ضَعُفَ الطالب والمطلوب .

٧ فما له مِنْ قوَّة ولا نَاصِرٍ .

٨ وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا .

في البلاءِ وما يصاب به الناس

١ فَجَعَلناها حَصِيدًا كأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ .

٢ إنَّ هذا لَهُوَ البلاءُ المبين .

٣ فأَصبحوا لا يرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ

٤ ما تَذَرُ مِنْ شيءٍ أَتتْ عليه إلَّا جعلتْهُ كالرَّمِيمِ .

٥ فَتَرَى القوم فيها صَرْعَى كأَنهم أَعجازُ نَخْلٍ خاوية .
٦ وَأَخْرَجَتِ الأَرضُ أَثْقَالهَا .
٧ فجعلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُول .

في الاغترار بالمظاهر

١ وإذا رأَيتهُمْ تُعْجِبْك أَجْسَامُهُمْ وإن يقولوا تَسْمَع لِقَوْلهم كأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَة .
٢ يَحْسَبُهُ الظمْآنُ مَاءً حتى إذا جاءَهُ لم يَجدْهُ شيئًا .
٣ يَحْسَبهم الْجَاهِلُ أَغنياءَ مِنَ التَّعفُّف .
٤ تَحْسَبهُمْ جميعًا وقُلوبهُمْ شَتَّى .
٥ وَتَحْسَبهم أَيقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ .

في البشرى والتهنئة

١ يا بُشْرَى هذا غُلَام .
٢ بُشْرَاكُم اليومَ .
٣ بَشَّرْنَاك بالحقِّ فلا تَكُنّ مِنَ القانطين .
٤ وَبَشَّرُوهُ بغلام عَلِيم .

ما يقال عند الظفر بالحاجة

١ هذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى .
٢ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفَوْزُ العظيم .
٣ فَضْلا مِنَ اللهِ ونعمة .
٤ ذلك ما كُنَّا نَبْغِ .

في الامتنان بالنعم

١ أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صدركَ .
٢ أَلم يجِدْكَ يَتيما فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضالا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عائلا فأَغنى .
٣ اذْكُرُوا نِعْمَتِى الَّتِى أَنعمتُ عليكُمْ .
٤ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامكُمْ .
٥ ولولا أَنْ ثَبَّتْنَاك لقدْ كِدْتَ تركنُ إليهم شيئًا قليلا .

في التحدث بالنعمة

١ وَبَرًّا بوالدتى ولم يجعلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا .
٢ ولوْلَا نعمة ربى لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِين .
٣ وَأَمَّا بنعمةِ ربكَ فحدِّث .

التأْمين والطمأْنينة

١ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ .
٢ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالمين

٣ أَقْبِلْ ولا تخف إنك من الآمنين.

٤ ولكن لِيَطْمَئِنَّ قلبي .

٥ لاتَخَفْ إنك أنت الأعلى.

٦ وما أُريد أن أَشُقَّ عليك ستجدُنى إن شاءَ اللهُ من الصالحين .

٧ ولا تخَافى ولا تَحْزَنى إنَّا رادوهُ إليكِ .

٨ لَنْ يَصلوا إليك .

٩ ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأَعْلَوْنَ والله معكم .

أمثال مختارة للعرب

إن من البيان لَسحرًا(١) ، إن البلاءَ مُوَكل بالمنطق(٢) ، إن المُوَصِّينَ بَنُو سَهْوَان(٣) ، إن الشقيَّ وافدالبراجم(٤) ، إن البُغَاث بأرضنا يَسْتَنْسِرُ(٥) ، إن الجبان حتفهُ من فوقه(٦) ، إن المعَافى غيرُ مخدوع(٧) ، إن فى الشرخياراً ، إن الحديدبالحديد يُفْلحُ ، إن الشفيق بسوءِ ظَنٍّ مُولَعُ(٨) ، إنّ وراءَ الأَكمة ماوراءَها ، إن العصا من العُصيَّة(٩) ، إن العَوان لاتُعَلِّمُ الخمرة(١٠) ، إن الغنيّ طويلُ الذيل مياس(١١) ، إن الليلَ طويلٌ وأنت مُقمر(١٢) ، إن العصا قُرِعَت لذى الْحِلم(١٣) ، إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال ، إن الهزيل إذا شبعَ ماتَ(١٤) ، إن غداً لناظره قريب ، إن أخاكَ مَنْ آساكَ(١٥) ، إنك لاتجنى من الشوك العنب ، أتتك بحائن رجلاه ،

(١) يضرب فى استحسان المنطق(٢) يضرب لمن أسيء اليه . (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به . (٤) البراجم : بطن من تميم ، يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة طمعا . (٥) يضرب للضعيف يصير قويا . (٦) يضرب فى أن الحذر لاينجى من القدر . (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع . (٨) يضرب لمن يفشى على نفسه أمرا مستورا . (٩) يضرب فى مشـاكلة الفرع للأصل . (١٠) العوان : المرأة النصف ، والخمرة: لبس الخمـار . يضرب فى استغناء المجرب عن الارشـاد . (١١) أى لايستطيع ذو الغنى أن يكتمـه . (١٢) يضرب للامر بالتصبر فى طلب الحاجة . (١٣) يضرب لمن اذانبه انتبه. (١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على النـاس . (١٥) يضرب فى الحث على مراعاة الاخوان .

إنما أُكلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض ، إن يبغ عليك قومك لايبغ عليكَ القمر(١) ، إن كنت ريحاً فقد لاقيْتَ إعصاراً(٢) ، إن ترِد الماءَ بماء أكيس(٣) ، إحدى حُظيَّات لقمان(٤) ، أكل عليه الدهر وشَرِب(٥) ، إنه ليَعْلَم من أيْنَ تُؤكل الكَتف(٦) آكل لحمى ولا أدعُهُ لآكل(٧) ، إياك وما يُعْتذر منه ، إذا زَلّ العَالِمُ زَلّ بزلته عالم ، أنْتَ تئِقٌ وَأنا مَئِقٌ فمتى نتفق(٨) ، إياك أعنى واسمعى ياجارة ، إذا حانَ القضاءُ ضاق الفضاءُ(٩) ، أُم الجبان لاتفرح ولاتحزن ، إذا جاءت السنة جاءمعها أعْوانُهَا(١٠) إن حالتْ القوسُ فَهْمِى صائب(١١) ، ألامن يشترى سهراً بنوم(١٢) ، إذا ما القارظ العنزى آبا(١٣) ، وإن كُنت كَذوباً فكُن ذكُوراً(١٤) ، إنما يحمل الكلَّ على أهل الفضل(١٥) ، إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق(١٦) ، إذا تفرقَت الغنم قادتها العنز الجرباءُ إذا عاب البزاز ثوباً فاعلم أنه من حاجته(١٧) ، إذا أردت أن تطاع فسلْ مايُسْتطاع إن يكن الشغلُ مجهدةً فإن الفراغ مفسدة ، إذا قدم الإخاءُ سمح الثناءُ ، بلغ السيل الزُّبى(١٨) بعض الشر أهون من بعض(١٩) ، بلغ السكين العظم(٢٠) باقعة من البواقع(٢١)

---

(١) يضرب للامر المشهور . (٢) يضرب للمداهى الشديد يبلى بمن هو ادهى منه وأشد . (٣) يضرب للاخذ فى الامور بالاحتياط . (٤) يضرب فى الشر يصدر عمن عرف به ، وحظيات لقمان : سهامه (وفى القاموس خطأ) (٥) يضرب لمن طال عمره . (٦) يضرب فى المجرب المحنك . (٧) يضرب فى الرجل ينصر قرينه وان كان عدوه . (٨) التئق : السريع الى الشر ، والمئق: السريع الى البكاء يضرب للمختلفين أخلاقا . (٩) يضرب لمن يخاطب شخصا وهو يريد غيره تعريضا ، (١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد والامراض ، يضرب فى تجمع الشدائد. (١١) حالت القوس : زالت عن استقامتها . يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته . (١٢) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية . (١٣) يضرب فى امتداد البعد والغيبة (١٤) يضرب الرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه . (١٥) الكل : الثقل. (١٦) يضرب فى القوم يختلفون فيسود فيهم الاشرار. (١٧) البزاز :بائع الثياب (١٨) الزبى : جمع زبية وهى أعلى الجبل ، يضرب لمن جاوز الحد . (١٩) يضرب فى الشرين يختار أهونهما(٢٠) يضرب لمن جاوز الحد . (٢١) الباقعة : الداهية يقال فى الرجل يكون داهيا منكرا .

إبدأهم بالصُّراخ يَفِرُّوا(١) . أبدى الصريح عن الرغوة(٢) . بعض الجدب أمرأُ للهزيل(٣) . بنان كف ليس فيها ساعد(٤) . بعد البلاءِ يكون الثناءُ . أبلغ من قُسّ . أبخل من مادر . أبصر من زرقاء اليمامة ، ومن غُراب . أنقى من الدهر . أبقى من وَحْى فى حجر(٥) . أبينُ من فلق الصبح . أبكَرُ من غُراب . ترك الذنب أيسر من طلب التوبة . تجوع الحرَّة ولا تأْكل بثدييْهَا(٦) . تسألنى برامتين سلجما (٧) تجشأْ لقمان من غير شبع (٨) . تضرب فى حديد بارد . تلدغ العقرب وتصىء(٩) . تركتهم فى حَيْص بَيْص(١٠) . تطلب أثراً بعد عين(١١) . تسمع بالمُعيدى خير من أن تراه(١٢) اتخذ الليل جملا(١٣) . ترى الفتيان كالنخل وما يُدريك ما الدخل(١٤) . التثبت نصف العفو . تقطع أعناق الرجال المطامع . أتبع السيئة الحسنةَ تمحها . اتق شرَّ من أحسنتَ إليه(١٥) تضرَّع إلى الطبيب قبل أن تمرض(١٦) . تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن . التقدير أحد الكاسبين . التدبير نصف المعيشة . جزاءُ سنمار . أسمع جعجعة ولا أرى طحنًا . جَوِّع كلبك يتبعك(١٧) . جاوز الحزام الطبيين(١٨) جانيك من يجنى عليك(١٩) . جليسُ السوءِ كالْقين(٢٠) ، إن لم يحرق ثوبك دخَّنه ،

---

(١) يضرب فى الظالم يتظلم ليسكت عنه (٢) يضرب عند انكشاف الامر وظهوره (٣) يضرب فيمن لايحسن احتمال الغنى بل يطغى فيه (٤) يضرب فيمن له همة ولا قدرة له على بلوغها فى نفسه (٥) الوحى : الكتابة (٦) أى لاتكون مرضعا ، يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب . (٧) السلجم : اللفت ، يضرب لمن يطلب شيئا فى غير موضعه (٨) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك . (٩) يضرب لمن يظلم ويتظلم وصاءت العقرب : صوتت (١٠) يضرب فيمن وقع فيما لامخلص له منه (١١) يضرب فيمن ترك الشيء ثم طلبه بعد ذهابه. (١٢) يضرب فيمن منظره دون مخبره (١٣) أى أدى واجبه من العمل ليلا (١٤) يضرب لذى المنظر لا خير فيه . (١٥) يضرب فى مقابلة الاحسان بالاساءة (١٦) يضرب فيمن يعد ولا يفى (١٧) يضرب فيما ينبغى أن يعامل به اللئيم (١٨) يضرب فى تفاقم الامر (١٩) رأى لاتزر وازرة وزر أخرى (٢٠) القين : الحداد .

جاءُوا على بكرة أبيهم(١) ، أَجود من حاتم ومن كعب بن مامَة ، أَجبن من صافر ومن نعامة(٢) ، أَجهل من فَراشة ، أَجمع من نملة ، حال الجريض دون القريض(٣) ، حَنّ قِدْح ليس منها(٤) ، حسبك من شر سماعه ، حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق(٥) . حُبُّك الشيء يُعمي ويُصِم ، الحديث ذو شجون(٦) ، حافظ على الصديق ولو فى الحريق ، أَحَشْفًا وسوء كيلة(٧) ، الحكمة ضالة المؤمن ، الحبارى خالة الكروان ، الحاجة تَفْتُقُ الحيلة(٨) ، أَحمق من هَبَنَّقَة ، أَحلم من الأَحنف ، أَحكم من لقمان ، أَحذرُ من غُراب ومن ذئب ومن ظليم(٩) ، أَحفظ من الشعبى ، خذ من جذع ما أَعطاك(١٠) ، خالف تذكر ، خرقاء وجدت صوفاً(١١) ، خير المال عين خَرَّارة فى أَرض خَوَّارة(١٢) ، أَخطب من سحبان ومن قس ، أَخونُ من ذئب ، دون ذا وينفق الحمار(١٣) ، أَدهى من قيس بن زهير ومن عمرو بن العاص . ذهبوا أَيدى سبا(١٤) ، الذئب خالياً أسد ، ذكرتنى الطعن وكنت ناسياً(١٥) ، رَمتنى بدائها وانسلت(١٦) ، رماه الله بثالثة الأَثافى(١٧) ، رُبَّ قول أَشد من

(١) أى جاءوا جميعا (٢) الصافر من الطيور بغاثها وضعافها (٣) الجريض الغصة والقريض : الشعر . يضرب فى الامر يتيسر حين لا ينفع (٤) يضرب فى الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه (٥) يضرب فى المقالة السيئة وما يخشى منها . (٦) الشجون : الفنون . يضرب فى الحديث يتذكر به غيره (٧) يضرب فى الجمع بين خصلتين مكروهتين . (٨) يضرب فى مناسبة أحد الشيئين للاخر . (٩) الظليم : ذكر النعام (١٠) جذع : اسم رجل . يضرب فى اغتنام مايجود به البخيل (١١) الخرقاء التى لاتحسن العمل ، يضرب لمن يفسد عماله بسوء تصرفه (١٢) الخوارة : الارض التى فيها لين وسهولة (١٣) يضرب فى المبالغة فى المدح بغير احتياج اليه (١٤) أى تفرقوا تفرقا لا اجتماع معه كما تفرقت سبأ . (١٥) يضرب فى تذكر الشىء بغيره . (١٦) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه . (١٧) الاثافى : جمع ثفية وهى الحجر توضع عليه القدر ، وهما اثنتان وثالثتهما الحبل ، والمراد بها الداهية العظيمة .

صَوْل(١) ، رُب أَخٍ لكَ لم تلِدْه أُمك ، رجع بخفى حنين(٢) ، رُب رمْية من غير رام ، الرَّاوِية أَحدُ الشاتمين(٣) ، رُب كلمة سلبت نِعمةً ، رُب مَلوم لاذَنب له ، رُب زَارع لنفسه حاصدٌ سواه ، أَروَى من ضَبٍّ(٤) ، أَرق من النَّسِيم ومن رقراق السَّراب ومن غِرقئ البَيض(٥) ، الزيتُ فى العجين لا يضيع(٦) ، زَكاة النِّعم المعروف ، أَزكنُ مِن إِياس ، أَزْهى من طاووس(٧) ، سَبَق السيف العَذْل(٨) ، أَساءَ سَمْعًا فأَساءَ إِجابةً ، سكتَ أَلفًا ونطق خُلفاً(٩) ، سُرِق السَّارِق فانتحر(١٠) السليمُ لا ينام ولا يُنِيم(١١) ، سحابةُ صيفٍ عن قَليل تَقشّع ، شرٌّ الرأْى الدَّبَرِى(١٢) ، شُخْبٌ فى الإِناءِ وَشُخْبٌ فى الأَرض(١٣) ، شنشنة أَعْرِفُهَا من أَخْزَم(١٤) ، شَرٌّ من الموت ما يُتمنى معه الموت ، أَشأَم من البَسُوس ، ومن أَحمر عاد ، ومن غراب البين(١٥) ، أَشكر من كلب ، صَدقنى سنّ بكره (١٦) ، صادف دَرْء السَّيل درءًا يصدعه(١٧) ، صدرك أَوْسَع لسرّك ، أَصدقُ من

---

(١) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به (٢) يضرب فى الخيبة (٣) هذا كقولنا شتمك من بلغك (٤) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج الى شرب الماء يفتح فاه للهواء فيكون فى ذلك ريه (٥) الغرقىء القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيضة (٦) يضرب فى الاحسان الى الاقارب (٧) الزهو : العجب (٨) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه الخلف : الردىء من القول (١٠) يضرب لمن تنتزع من يده ما ليس له فيجزع عليه .

(١١) السليم : الملدوغ . يضرب فيمن لايستريح ولا يريح غيره .

(١٢) الدبرى مايسنح بعد فوات الفرصة .

(١٣) الشخب : ماخرج من الضرع ممتدا من اللبن ، يضرب فيمن يصيب مرة ويخطىء أخرى .

(١٤) الشنشنة : الطبيعة والعادة يضرب فى مشابهة الفرع لأصله فى الشر .

(١٥) البسوس : هى المرأة التى هاجت بسببها حرب بكر وتغلب ، واحمر عاد هو أحمر ثمود وهو الذى عقر الناقة فحل العذاب بثمود من جزاء عمله .

(١٦) يضرب فى الانسان يقول الحق على غير قصد منه .

(١٧) هذا كمن قال : لايفل الحديد الا الحديد .

قطاة(١) ، أصعبُ من رد الشُّخْب فى الضَّرع ، ضرَب أخماساً لأَسداس(٢) ، أَضْيَقُ من ظِلِّ الرمح ، أَضعف من بعُوضة ، أَضبطُ من نملة ، أَطرق كرا (٣) ، إنَّ النعامة فى القرى أطولُ صُحبة من الفرقَدَين ، أطمعُ من أشعب ، طبيبٌ يُدَاوى الناس وهو مريض ، طفيليّ ومُقترح ، ظِئر رَءُوم خير من أم سَئوم(٤) . عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرَى(٥) ، عند جُهينةَ الخبرُ اليقين(٦) ، عرض عليه خَصْلتى الضَّبُع(٧) ، عِش رجبًا تر عجباً ، أَعط القوس باريهَا ، أَعرض ثوب الملبس ، العَوْدُ أحمد ، عند الامتحان يُكْرم المرءُ أو يُهَان ، أعزّ من كليب وَائل ، أعيى من باقل ، أَعدى من الظليم ، ومن الشَّنفَرى ، ومن السليك ، أَعق من ذِئبة ، أَعقدُ من ذنب الضَّبِّ ، وأَعجزُ ممنْ فتل الدخان (٨) ، غدّة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلوليَّة(٩) ، غَثُّك خير من سَمِين غيرك ، فى الصيف ضَيَّعت اللبن(١٠) فى بيته يُؤتى الحكم ، فى كل شَجَر نَار ، واستمجد المرْخ والعَفار(١١) ، أفرسُ من بسطام ، أفتك من عمرو بن كلثوم ، قطعت جهيزة قول كل خطيب(١٢) ، قد أَنصف القارة من راماها(١٣) ، قبل الرِّماء تملأُ الكنائن(١٤) ، اقتلونى

---

(١) لأن صوت القطاة واحد لايتغير (٢) يضرب فيمن يريد الشىء ويظهر غيره . (٣) الكرا : الكروان ، يضرب فيمن يتكلم بما لايقدر عليه . (٤) الظئر : الحاضنة والرءوم : العطوف (٥) يضرب فى تحمل التعب رجاء الراحة (٦) يضرب فى الرجل يعرف الشىء على وجهه كقولهم : على الخبير سقطت . (٧) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلبا وخيرته بين أن تأكله وأن تمزقه . يضرب فيمن يسوم غيره ما لاخيار له فيه من البلاء . (٨) يضرب فيمن اذا سألته عن أمر أبهم الجواب (٩) سلول قبيلة ذليلة ، يضرب فى اجتماع خصلتين من الشر (١٠) يضرب لمن يطلب شيئا قد فوته على نفسه (١١) المرخ والعفار : شجرتان قويتا النار . يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض . (١٢) يضرب لمن يقطع على الناس ماهم فيه بحماقة يأتى بها (١٣) القارة : قبيلة من أبرع الناس فى المراماة .

(١٤) يضرب فى الاستعداد للامر قبل الشروع فيه .

ومالكاً (١) ، القول ما قالت حذامِ ، كان كُرَاعا فصار ذراعا (٢) ، كلام كالعسل وفعل كالأَسل (٣) ، كل فتاةٍ بأَبيها مُعجبة (٤) ، كطالب القرن جُدِعت أُذنه (٥) ، كمُجِير أمّ عامر (٦) ، كيف أُعاودك وهذا أَثر فأْسك (٧) ، كأَن على رءُوسهم الطير ، كالمستجير من الرَّمْضَاء بالنار ، لو ذات سوار لطمتنى (٨) ، لو خُيِّرتُ لاخترت ، لوترك القطا ليلاً لنام (٩) ، لعل له عُذرا وأَنت تلومُ ، لأَمر ما جَدَعَ قصير أَنفه ، لكل مقامٍ مقالٌ ، لا مخبأَ لِعِطره بعد عرُوس (١٠) ، لا تعدَمُ الحسناءُ ذامًّا (١١) ، لا تهْرِف بما لا تعرفُ (١٢) ، لا ناقتى فيها ولا جملى ، لا فى العير ولا فى النَّفيرِ (١٣) لا يفل الحديد إلا الحديد ، لا تأْمن الأَحمق وبيده سكين (١٤) ، لا تجزَعَنَّ من سُنَّةٍ أنت سرتها ، ما وراءك يا عصام ، ما يوم حليمة بِسر (١٥) ، ما أَشبه الليلة بالبارحة ، مَرْعَى ولا كالسعدان (١٦) ، ما كل بَيْضاءَ شَحْمة ، منك أَنفك وإن كان أَجدع (١٧) ، من استرعى الذئب ظلم ، من مأْمنه يُؤتى الحذر ،

---

(١) يضرب فيمن يريد يصاحبه المكروه وان ناله هو منه ضرر (٢) يضرب فى الذليل يصبح عزيزا (٣) الأسل : الرماح (٤) يضرب فى عحب الرجل رهطه وعشيرته (٥) أصل المثل فى النعام ، ويضرب فى طلب الأمر يفضى بصاحبه الى التلف (٦) أم عامر الضبع وقد أكلت من أجارها . يضرب فى الذى يجزى على احسانه بالسوء (٧) يضرب فيمن لايفى بالعهد (٨) يضرب فى الوضيع يقع منه العدوان (٩) يضرب فيمن حمل على مكروه من غير ارادته (١٠) يضرب فيمن لايدخر عنه نفيس (١١) يضرب فى الشىء الحسن لايخلو من عيب (١٢) يضرب لمن يتعجل فى مدح الشىء قبل تمام معرفته .

(١٣) يضرب فى الوضيع ليس فيه شىء من خلال الشرف

(١٤) يضرب فى عسف الجاهل اذا قدر

(١٥) حليمة بنت ملك غسان ، يضرب للأمر المشهور الذى لا يكاد يجهل

(١٦) السعدان : نبت من أنفع الأعشاب للأبل ، يضرب فى الشىء يفضل على أشكاله وأقرانه

(١٧) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره .

مواعيدُ عرقوبٍ ، مُكره أَخوك لابطل(١) ، أَمنع من عُقاب الجو ، نفسُ عِصامٍ سَوّدت عصاماً (٢) نعيمُ كلب فى بُؤس أَهله(٣) أَنْدَمُ من الكُسَعى ، وافق شنٌّ طبقة(٤) أوردها سعد وسعدمشتمل(٥) ، أَوفى من السموأَل ، ومن الحارث بن عباد ، هما كفرسَىْ رهان ، يَدَاك أَوكتا ، وفُوكَ نفخ(٦) ، اليوم خمر وغدا أَمر(٧) .

الفن الرابع فى الأَوصاف

الوصف(٨) عبارة عن بيان الأَمر باستيعاب أَحواله وضروب نُعُوته الممثلة له . وأُصولُه ثلاثة :

الأَول : أَن يكون الوصف حقيقيًّا بالموصوف مفرزًا له عما سواه .

الثانى : أَن يكون ذا طلاوة ورونق .

الثالث : أَن لا يخرج فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ، ويكتفى بما كان مناسباً للحال . وأَنواعه كثيرة ، ولكنها ترجع إلى قسمين : وهما وصف الأَشياء ووصف الأَشخاص – أَمَّا الأَشياءُ الْحَرية بالوصف فهى كالأَمكنة والحوادث ومناظر الطبيعة .

وأَمَّا وصف الأَشخاص فيكون بوصف الصورة أَو الطبع أَو بوصفهما معاً ، ولنذكر لك فِقَرًا جارية على أَلسنة البلغاءِ فى صفات شتى ، ثم نتبعها بمقالات فى الوصف نثرًا ونظماً .

---

(١) يضرب فيمن يحمل على ماليس من شأنه (٢) يضرب فى سؤدد الرجل (٣) يضرب فى التابع – كالخادم – يشغل سادته بمصيبته فيغنم ما قدر عليه من أموالهم (٤) يضرب فى تمام المشاكلة والاتفاق (٥) يضرب للمقصر فى الأمر (٦) يضرب لمن يجنى على نفسه (٧) يضرب فى تقلب الأيام (٨) أحسن طريقة للاجادة فى الوصف أن ترسم أولا فى بدء وصفك منظرا عاما جامعا لمجمل الأمر الذى تحاول وصفه ثم تأخذ بايراد مختلف الأجزاء قسما فقسما وذلك اما على تتابع ورود هذا الأجزاء ، أو ايثار ما كان يراه الكاتب اشد مناسبة لغايته .

وصف البلدان

بَلْدَة كأنها صورة جَنَّة الْخُلد ، منقوشة فى عرض الأرض . بلدة كأن محاسِنَ الدنيا مجموعة ومحصورة فى نواحيها . بلدة تُرَابها عنبر ، وحصباؤها عقيق ، وهواؤها نسيم ، وماؤها رحيق . بلدة معشوقة السكنى ، رحبة المَثْوى(١) ، كوكبها يَقْظان ، وجوُّها عُريان ، يومُها غداة ، وليلها سحر . بلدة واسعة الرقعة ، طيِّبة البقْعَة ، واسطة البلاد وسرَّتُها ، ووجهها وغُرَّتها .

وصف القلاع

قلعة حلقت(٢) بالجو تناجي السماء بأسرارها . قلعة تتوشح بالغيوم ، وتتحلى النجوم . قلعة مُتَنَاهِيَة فى الحصانة ، ممتنعة عن الطلب والطالب ، منصوبة على أضيق المسالك وأوعر المناصب ، لم تزِدها الأيام إلا نبُوًّ(٣) أعطاف ، واستِصْعاب جوانب وأطراف ، قد ملَّ الملُوك حصارها ، ففارقوها عن طماح(٤) منها وشماس(٥) وسئمت الجيوش ظلَّها ، فغادرتها(٦) بعد قنوط وإياس ؛ فهى حمى لا يُراع(٧) ومَعْقِل لا يُسْتطاع ، كأن الأيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث والليالى ، وعاهدتها على التسليم من القوارع(٨) .

وصف الدور

دَارُ قرارٍ تُوسِعُ العين قُرَّة ، والنفس مسرة ، كأن بانيها استسلف الجنة فعجّلت له . دار تَغَارُ منها الدور ، وتتقاصر عنها القُصُور . دار اقترن الْيُمن(٩) بيمناها واليسر بيسراها ، الجسوم منها فى حضر ، والعيون على سفر ، دار دار بالسعد نجمها وفاز بالحسن سهمها ، يخدمها الدهر ، ويأويها البدر ، ويكنُفُها لنصر . هى مرتع النواظر ، ومتنفس الخواطر ، أخذت أدوات الجنان ، وَضَحِكَت من العبقرى(١٠) الحسان .

---

(١) الاقامة (٢) ارتفعت (٣) بعدا (٤) كبر وفخر (٥) اباء وامتناع (٦) تركتها (٧) لا يفزع ولا يخاف أحدا (٨) الحوادث والنوائب (٩) البركة (١٠) البسط المعجب شكلها

وصف الديار الخالية

دار لبِست البِلَى وتعطلت من الحلى ، صارت من أَهلها خالية ، بعد ما كانت بهم حالية ، قد أَنفد البَيْنُ سكانها ، وأَقعد حيطانها . دار شاهدُ اليأْس منها ينطق ، وحبلُ الرّجاء فيها يقصر ، كأَن عمرانَها يُطْوَى ، وخَرابَهَا يُنشر ، أَركانها قيَامٌ وقُعود ، وحيطانهَا رُكَّع وسجود .

بَكَت دارهم من بَعْدهم فتهلَّلت ... دموعى فأَى الجَازعين أَلُوم

أَمُسْتعبراً يبكى على اللهو والبِلَى ... أَم آخر يَبْكى شجوه فيهم ؟

وصف أيام الربيع

يَوْمٌ جلابيب غيُومه رواق(١) وأَودِيَةُ نَسِيمه رقاق ، يوم سمَاؤه فَاخِتِيَّة ، وأَرضه طَاوُوسيَّة ، يوم ممَسّك السماء ، مُعصفَرُ الهواء ، مُعَنْبرُ الروض ، مصنْدَل الماءِ ، يوم تبسَّم عنه الربيع ، وتبرج عنه الروض المريع ، يوم كأَنَّ سمَاءَه مُجِدٌ تتبَاكى وأَرضه عروس تَتَجَلَّى ، يوم دجنه (٢) عَاكف ، وقَطْره واكف(٣) .

وصف الرياض

رَوْضَة رقت حواشيهَا وتـأَنق واشيهَا(٤) ، روضة كَالعقود المنظمة على البرود المنمنمة ، روضة قد راضتهَا أَكفُّ المطر ، ودبجتهَا أَيدى النَّدى . رياض كَالعرائس فى حليهَا وزخارفهَا ، والقيَان(٥) فى وشيهَا ومطارفهَا(٦) ، باسطة زرابيهَا وأَنمَاطهَا ، نَاشرة برودهَا ورِياطهَا ، زاهية بحمرائها وصفرائها ، تَائهة بغيدانها وغدرانهَا ، كأَنما احتفلت لوفد ، أَوهى من حبيب على وعد . روضة قد تضوعت(٧) بالأَرج (٨) الطيب أَرجاؤها ، وتبرجَتْ(٩) فى ظلل الغَمَام صَحراؤهَا ، وتنَافحت

---

(١) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه الى الارض (٢) الغيم (٣) سائل

(٤) حائكها وناقشها (٥) جمع قين : المغنية (٦) جمع مطرف رداء من خز مربع فيه أعلام والزرابى البسط ، والأنماط الأثواب التى تطرح على الهوادج ، الرباط الاثواب الرفاق (٧) تحركت (٨) النفح : الريح الطيب (٩) تزينت .

بنَوافح المسك أَنوارها ، وتعارَضت بغرائب النطق أَطيارُها ، بُسْتَان أَنهارُه محفوفة بالأَزهار ، وأَشجاره مُوقرة بالثمار ، أَشجار كأَن الحور أعارتها قُدودها وكستْهَا بُرُودها ، وحلتها عُقودها ، شقَائق كتيجان العقيق على رؤُوس الزنوج كأَنها أَصداغ المِسْك على الوجنات الموردة ، كأَن الشقيق جام(١) من عقيق أَحمر ، مُلِئت قرارته بمسك أَذْفر ، الأَرض زُمُرّدة ، والأَشجار وَشْيٌ ، والماءُ سيوف ، والطيور قِيان(٢) قد غردت خطباءُ الأَطيار على منابر الأَنوار والأَزهار .

وصف طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة قُص جناحها ، وضل صباحها . ليالٍ ليست لها أَسحار ، وظلمات لا تتخللها أَنوار . ليل ثابت الأَطناب(٣) بطيءُ الغوارب طامِع الأَمواج وافى الذوائب . بات بلية ساورته(٤) فيها الهموم ، وسامرته النجوم ، واكتَحل السهاد ، وافترش القتاد ، واكتَحل بماءِ السهر ، وتململ على فراش الفكر ، قد أَقض مِهادُه(٥) وقلِقَ وساده ، هموم تفرق بين الجنب والمِهَاد ، وتجمع بين العين والسهاد .

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأَفول النجوم

قد اكتهَلَ(٦) الظلام ، قد نَصَّفنا عمر الليل واستغرقنا شبابه ، قد شاب رأس الليل ، كاد يتم النسيم بالسحر ، قد انكشف غطاءُ الليل وستر الدجى ، هَرِم الليل وشَمِطت ذوائبه ، قُوِّضت(٧) خيام الليل ، وخلع الأُفق ثوب الدجى ، تبسم الفجرُ ضاحكا من شرقه ، ونصب أَعلامه على منازل أُفقه ، اقتنص بازى الضوءِ غراب الظلام ، وفَضَّ كافور النور من الغَسَق مسك الختام ، طرز قميص الليل بغرَّة الصبح ، باح الصبح بسره ، خلع الليل ثيابه وحَدَر(٨) الصبح نقابه ، بث الصبح طلائعه ، تبرقع الليل بغرة الصبح ، أَطار منادى الصبح غراب الليل ،

---

(١) اناء (٢) مغنيات (٣) حبال الخيمة (٤) شغلته وقاومته
(٥) خشن وتترب (٦) صار كهلا تشبيها بالرجل الكهل وهو من جاوز الأربعين سنة . (٧) هدمت . (٨) أنزل .

عزلت نوافج الليل بجامات الكافور ، وانهزم جيش الظلام عن عسكر النور ، مالت الجوزاءُ (١) للغُرُوب ، وولّت مواكب الكواكب ، وتناثرت عقود النُّجوم ، وَوَهى نطاق الجوزاءِ ، وانطفأ قنديل الثريا .

وصف طلوع الشمس وغروبها

بَدَا حَاجبُ الشمس ، أَلقت الغَزَالة (٢) لُعَابهَا وضَرَبت الضُّحى (٣) أَطنَابَها ، انتشر جناح الضوءِ فى أُفقِ الجوّ ، استوى شبابُ النهار على رونق الضحى ، بلغت الشمس كبِدَ السماءِ ، قام قائمُ الهاجرة ورمت الشمس بجمرات الظهر . اصفرّت غلالة (٤) الشمس ، وصارت كأَنها الدينارُ يلمع فى قرار الماء ، نفضت تبرًا على الأَصيل ، وشدت رَحْلها للرَّحيل ، جنحت الشمس إلى مغاربها ، دلكت (٥) دلوح (٦) واغبرَّ لَوْحُ اللوح (٧) تصوبت الشمس للمغيب ، وتَضيَّفت للغُرُوب ، فآذن جنبُهَا بالوجوب (٨) ، شاب النَّهار وأقبل شباب الليل . استتر وجه الشمس بالنقاب وتوارت بالحجاب . وكأَن هذا الأَمر مِنْ مطلع الفَلَق إلى مجمع الغَسق .

وصف الرعد والبرق

قام خَطيبُ الرَّعد . نَبَض (٩) عِرْق . سحابة ارتجزت (١٠) رُعُودُها . وذهبت بِبُروقها بُرُودها . نطق لسانُ الرّعد . وخَفَقَ قلبُ البرق . فالرعد ذو صخب (١١) والبرق ذو لهب . ابتسم البَرْق عن قَهقهة الرعد . زأَرت أُسُود الرعد ولمعت سُيوف البرق . رعدت الغَمائم وبرقت . وانحلت عُرى السماءِ فطبقت . هدرت رواعِدُها ، وتربت أَباعدها . وصدقت مواعدها .

---

(١) برج فى السماء (٢) الشمس (٣) الضحى جمع ضحوة ، مؤنث والضحا تذكر على أنها اسم (٤) الثوب الرقيق (٥) غربت (٦) السحابة (٧) واللوح اللمح واللمعان من لاح يلوح لوحا (٨) وجبت الشمس وجيبا ووجوبا غابت (٩) تحرك (١٠) الرجز ضرب من الشعر ويقال رجز الراجز وارتجز أيضا
(١١) كثير اللغط والجلبة .

وصف مقدّمات المطر

لبِست السماءُ سِرْبالها ، وسَحَبت السُّحبُ أذيالها ، قد احْتَجَبَتْ السماءُ فى سُرادق الغيم ، لبِسَ الجو مُطرَفَه(١) الأَدكن(٢) ، باحَتِ الرِّيحُ بأَسرار النَدَى ، ضُربت خيمة الغمام ، ابتلّ جناح الهواءِ ، واغْرَوْرقت مُقلة السماءِ ، هبّت شمائل الجنائب ، لتأْليف شمْل السحائب ، تـألفت أشْتات الغيوم ، وألْقَتْ الستور على النجوم .

وصف الثلج والبَرْد وأيام الشتاءِ

مَدّ الشتاءُ رواقَه ، وأَلقى أوراقه (٣) وحلّ نطاقَه . أناخ بنوازِلهِ ، وأَرْسى بكلاكله ، وكلح بوجهه ، وكشر عن أَنْيَابه ، قد عادت الجبالُ شيبًا ، ولبست من الثلوج ملاءً قشيبًا(٤) . شابتْ مفارق البُرُوج بتراكم الثلوج ، أَلمّ الشيب بها ، وابيضت لمَمُهَا(٥) ؛ بردٌ يقضقضُ(٦) الأَعضاءَ ، وينقضُ الأَحشاءَ ، برد يُجمِّدُ الريق فِى الأَشداق والدمع فى الآماق ، يوم كأَن الأَرض شابتْ لهَوْله ، يوم فضيّ الجلباب مسكى النقاب ، عبوس قمطرير(٧) ، كشر عن ناب الزمهرير ، وفرش الأَرض بالقوارير(٨) ، يومٌ أَرْضه كالقوارير اللامعَة ، وهواؤه كالزنابير اللاسعة .

وصف المطر والسحاب والماءِ والغدران

ماءٌ إذا مسته أَيدى النسيم(٩) ، حكى سلاسل الفضة ؛ غديرٌ ترقْرقت(١٠) فيه دموع السحائب ، وتواترت عليه أنفاس الرِّياح الغرائب ، انحلّ عِقد السماءِ وانهلّ دمع الأَنواءِ(١١) ، انحل سلك القطر عن دُر البحر ، سحابةٌ تحدو من الغيوم جمالاً ، وتمدّ من الأَطار جبالاً . سحابة ترسل الأَمطار أَمواجًا

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) المائل الى السواد (٣) جمع روق ، وهو والرواق بمعنى (٤) جديدا (٥) جمع لمة للشعر الذى يجاوز شحمة الآذان . (٦) يكسر ويضعف (٧) شديد مظلم (٨) جمع قارورة وهى الاناء من الزجاج (٩) شابته (١٠) تحركت (١١) جمع نوء : المطر

والأَمواجَ أفواجًا . سحابةٌ يضحك من بكائها الروضُ ، وتخضرٌ مِن سوادها الأَرض ، سحابةٌ لا تجف جفونها ، ولايخف أنينها ، ديمةٌ(١) روّت أديم(٢) الثرى(٣) ، ونبهت عيون النور من الكرَى(٤) ، سحابة ركِبت أعناق الرياح ، وسَحّت كأَفواه الجراح . مطرٌ كأَفواه القرب

وصف القيظ. وشدة الحر

حرٌ يشبه قلب الصب ، ويُذيب دماغ الضبٌ(٥) قوى سلطان الحرّ ، وبسط بساط الجمر ، أوقدت الشمس نارها ، وأذْكت(٦) أُوارها(٧) ، حرٌ يلفح حرّ الوجه ، هاجرةٌ كأَنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نار الفِراق ، هاجرة تحكى نار الهجر ، وتذيب قلب الصخر ، حرٌ تهرب له الْحِرْباءُ(٨)من الشمس ، قد صَهَرَتِ(٩) الهاجرة الأَبدان ، وركبت الجناذيب(١٠) العيدان ، حرٌ ينضج الْجُلود ، ويذيب الجلمود ، أَيام كأَيام الفرقة امتدادًا ، وحر كحرٌ الوجه اشتدادًا ، هاجرة(١١) كالسعير الهاجم ، يحز أَذيال السمائم(١٢)

وصف الشيب

ذوى(١٣) غصن شبابه ، بدتْ فى رأسه طلائع المشيب ، أَقمر ليل شبابه ، ظهرت غرة القمر ، وأَوْمَض(١٤) البرق فى ليل الشَّعْرِ ، رمى فاحم العود(١٥) بضدِّه واشتعل المبيض فى مسوده ، لمع ضوءُ فرعه ، وتفرق شمل جمعه ، علاه غباره وقائع الدهر ، بيْنا هو راقدٌ فى ليل الشباب ، إذ أَيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأَنفق عمره بغير حساب ، جاوز من الشباب مراحل ،

(١) المطر بلا رعد (٢) وجه الأرض (٣) التراب (٤) النوم (٥) حيوان برى لا يعيش الا فى الجهات الشديدة الحر (٦) أوقدت (٧) نارها (٨) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانا بحر الشمس . (٩) أذابت . (١٠) الجراد . (١١) شدة الحر عند الزوال (١٢) الرياح الحارة (١٣) ذبل . (١٤) برق ولمع (١٥) معظم شعر الرأس مما يلى الأذن

وورد من الشيب مناهل ، فَلَّ (١) الدهرُ شباته ، ومحاسن رُواته ، طار غراب شبابه ، انتهى شبابُه ، وشاب أترابُه ، استبدل بالأدهم(٢) الأبلق(٣) وبالغراب العَقْعَق(٤) ، استعاض (٥) من الغراب بقادمة النِّسر ، أَسَفَرَ صبحُ المشيب ، علتهُ أهبةُ الكبَرِ ، نفض جبة الصبا ، وتولى داعية الْحِجا (٦) ، الشيب زُبدةٌ مَخضتها الأيام ، وفضة محَّضتها التجارب . سرَى فى طريق الرُّشد بمصباح الشيب ، الشيبُ خطام المنيَّة ، الشيب نذير الآخرة .

وصف آلات الكتابة

الدواة ــ المداد ــ الأقلام

الدواةُ من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتاد(٧) ، وللخاطر زناد ، غدير لا يرِدُ غير الأفهام ، ولا يمتح(٨) بغير أرشية (٩) الأقلام ، غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره ، وتنشأ سحب البلاغة من قراره .

مِدَاد كسواد العين ، وسويداء القلب ، وجناح الغراب ، ولُعاب الليل ، وألوان دُهم الخيل ، مداد ناسب خافية الغراب ، واستعار لونه شرْخ الشباب(١٠)

أقلام جَمَّة المحاسن ، بعيدة عن المطاعن ، أنابيب ناسبت رماح الخط فى أجناسها ، وشاكلتْ الذهب فى ألوانها ، وضاهت الحديد فى لمعانها ، أقلام كأنها الأميال استواء ، والآجال مضاء ، بطيئة الحفى قوية القُوى . قلم لاينبُو(١١) إذا نبت الصّفاح ، ولا يُحْجِم (١٢) إذا أحجمت الرّماح ، قلم يسكتُ واقفا ، وينطق ساكتًا .

وصف الخطباء

جَلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة ، وشحذوا بمواعظهم الأذهان الكليلة ، ونبهوا

---

(١) هزم (٢) الأسود (٣) الأبيض وأصله للرخام (٤) طائر قدر الحمامة (٥) جعله عوضا (٦) العقل (٧) ما يعده الانسان لحوادث الدهر (٨) لا يبرح (٩) حبال الدلاء (١٠) ريعانه (١١) لا يبعد (١٢) لا يتأخر

القلوب من رقدتها ، ونقلوها عن سوءِ عادتها ، فشفوْا من داءِ القسوة ، وغباوة الغفلة وداووْا من العيِّ الفاضح ، ونهجوا لنا الطريق الواضح ، خطيب لا تناله حبسة ، ولا ترتهنُه لكنة ، ولا تتمشى فى خطابه رُتة(١) ، ولا تتحيف(٢) بيانه عجمة ، ولا تعترض لسانه عقدة ، خطيب جواهر نفثاته صحاح ، وعرائس أفكاره صباح ، خطيب تزينت بِدُرَرِ ألفاظه عقود الْمُلح ، لاعيب فيه إلا أن لفظه عطل الياقوت والدُّر ، خطيب مصقع ينثر لسانُه اللؤلؤ المكنون ، هو الخطيب المصقع الذى أشخصَ بآيات خطبهِ الزاجرة عيون القوْم وأبكاها ، هو الخطيب المصقع الذى تتلاعب بالعُقول معانيه ، ويصَاغ الدُّرُّ من لفظِ فيهِ ، هو الخطيب الذى تهتز له المنابر ، وتنقاد إليه كلمات السِّحر متسابقةً ، آخذًا بعضها برقاب بعض .

وصف العُلماءِ

بَدْر العلومِ اللائح ، وقطرُها الغادى والرائح ، وثبيرها(٣) الذى لايزحم ، ومنيرها الذى ينجلى به ليلها الأَسحم(٤) ، أَما فنون الأَدب فهو ابن بجدتها(٥) وأَخو جُملتها وأَبو عذرتها ، ومالك أَزِمَّتها ، تستخرج الجواهر من بُحوره ، وتحلى لمعات الطروس بقلائد سطوره ، وتآليفه عقائل أصبح الدهر من خطابها ، له بدائع مائسات(٦) الأَعطاف ، بحر البيان الزَّاخر ، شيخ المَعارف وإمامها ومن فى يديه زمامُها ، لديه تنشد ضوالّ الأَعراب ، وتوجد شوَارد اللغة والإعراب ، مالك أَعِنّة العلوم وناهج طريقها ، والعارف بترْصِيعها وتنْمِيقها ، النَّاظم لعقودها الرَّاقم لبُرُدها ، الْمُجيد لإرهافها(٧) العالم بجلائها وزفافها ، ملك رق الكتابة والإنشاءِ ، وتصرف فى فنون الإبداع كيف شاءَ ، عالم يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الْحِكمة من نواحيه ،

(١) العجمة . (٢) بمعنى تنقص (٣) المثابر المواظب . (٤) الأسود .
(٥) العالم بها المتقن لها . (٦) متبخترات مائلات . (٧) لرقتها ولطفها .

صاحب المصنفات التي دلت على وفرة اطلاعه ، وغزارة مادته ، وحُسْن بيانه ، لم يترك معنى مغلقاً إلا فتح صياصيه(١) ، ولا مشكلا إلا أوضحَ مبانيه .

وصف البُلغاء

فلان يحوكُ الكلامَ على حسب الأَمانى ، ويخيطُ الأَلفاظ على قدُود المعانى ، يجتنى من الأَلفاظ أَنوارها ، ومن المعانى ثمارها ، يعبث(٢) بالكلام ويقوده بأَلين زمام ، حتى كأَن الأَلفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره ، والمعانى تَتغايرُ فِي الانثيال (٣) على أَنَامِله . بليغ نسق (٤) من جواهر كلامه أَكاليل دُرّ ، ما لمنظومها سلك بليغ تُفلُّ سهام أَفكاره الزرَد ، ناظم سلك البلاغة وقائد زمام البراعة ، إذا أَوجز أَعجز ، وإذا شاء أَطال ، وأَطلق من البلاغة العقال ، إذا أَذكى سراج الفِكْر ، أَضاءَ ظلام الأَمر ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغُيوب .

وصف الشعراء والمنشئين ومحاسن النظم والنثر

مقذِفُ حصى القريض وجماره ، ومطلعُ شموسه وأَقماره ، نثرُه سِحْر البيان ونظمه قطع الْجُمان ، طلعت شمس الأَدب من أُفق أَشعاره ، وتفجرت ينابيعها من خلال آثاره ، شاعر توقدتْ جمراتُ أَفكاره ، شاعر عرائس أَفكاره صباح ، إن نثر فالنجُوم فى أَفلاكها ، أَو نظمَ فالجواهر فى أَسلاكها ، أَخذت بمجامع القلوب كلمُه ، إذا كتب انتسبِ إليه السِّحْر أَصح انتساب ، ونسق(٥) المعجزات نسق حساب ، وأَرى البدائع بيض الوجوه كريمة الأَحساب ، إن نثر رأَيت بحراً يزخر ، وإذا نظم أَزْرَى بنظم العقود بالجوهر ، وأَتى بأَحسن من رقم البرُود ، إذا كتب مَلأَ المهارِق (٦) بياناً ، وأَرى

(١) جمع صيصة : الحصن المنيع (٢) يلعب (٣) الانصباب (٤) نظم
(٥) نظم (٦) جمع مهرق حرير ثوب أبيض ينقى الصمغ منه ويغسل ثم يكتب فيه .

السحر عِياناً ، هو الكاتب الذى تحسُدُ أَرقام الطراز سطورَ قلمه ، ويود التِّبرُ لو كان مِداد كلمِه ، هو الكاتب الذى تنقاد إلى يراعه(١) دقائق المعانى صَاغِرةً بزمام ، نثر كنثرِ الورد ، و نظم كنظم العقد ، نثر كالسِّحْر أَو أَدق ، ونظم كالماءِ أَو أَرق ، نثر كما تفتَّح الزهر ، ونظم كما تنفس السحر ، رسالة تضحكُ عن غرر وزهر ، وقصيدة تنطوى على حبر ودُرٍ ، كلام كما هَبَّ نسيم السَّحر ، على صفحات الزَّهر . كتاب مطلعه مطلع أَهلِة الأَعياد ، وموقعه موقع نيل المراد ، كتاب حَسِبته يطير من يدىّ لِخِفته ويلطف عن حِسى لقلته ، صحائف انطوت المحاسن تحت رقّ منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على أَغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقراطيس تَزُفُّ إلى الأَسماع عرائس القرائح ، صحائف أَلبسها الْحِبْرُ أَثواباً من الْحُبَرِ(٢) ، ودبجها(٣) صوبُ(٤) الفكر ، لا صوب المطر .

وصف الأُمراءِ والأَشراف

فلان من شرف العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم(٥) ، أَصل راسخ ، وفرع شامخ(٦) ، ومجد باذخ(٧) ، قد ركَّبَ الله دَوْحته(٨) ، فى قرارة المجد وغرس نبعته(٩) فى منبتِ الفضل ، المجد لسان أَوْصافه ، والشرف نسب أَسلافه . دَوْحة رسب(١٠) عِرْقها وبَسَق(١١) فرْعها وطلب عُودُها واعتدل عمودها وفيَّأَت ظلالها ، وتهدَّلت(١٢) ثمارها وتفرَّعتْ أَغصانها ، وبرد مقيلُها(١٣) ، أَمير جيشه الهمم ، دَوْحةُ مجده وريفَةُ(١٤) الظِّلِّ وريقة(١٥) أَمير لاعيبَ فى نداه(١٦) إلا أَنه يستعبد كلّ حُرّ . هو غَرَّة الجمال ، وصورة

(١) أقلامه (٢) الحبرات التى تلبسها النساء المصريات اذا خرجن (٣) نقشها (٤) المطر (٥) الخالص (٦) المرتفع (٧) العالى (٨) الشجرة العظيمة (٩) الشجر أيضا (١٠) نبت (١١) ارتفع (١٢) تدلت (١٣) مكانها . (١٤) ممتدة متسعة (١٥) مورقة (١٦) عطائه وهذا نوع من أنواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم :

ولا عيب فى معروفهم غير أنه … يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وفى الحقيقة ليس بعيب بل نهاية فى المدح .

الكمال . عقد المناصب به تَضيد ، أميرٌ عَبَقت من شمائله نَسَمات النَّد ، وقطرت من سلسبيل أوصافه مياهُ المجد ، جامعٌ ماتفرق من شمل الفضائل ، ناظم ما انتثر من عقد المآثر ، أنارت به نجوم المعالى وشموسها ، له شرف باذخ تعقد بالنُّجوم ذوائبه ، ألقت إليه الرياسة مقاليدها(١) ، وملكته طريفها وتليدها(٢) . أمير تفرَّعَ من دَوْحة سناء(٣) ، وتحدّر من سُلالة أكابر ، ورُقاة أُسرة ومنابر ، مُرْتضع ثَدْىِ المجد ، ومفترش حِجْر الفضل ، له صدر تضيق به الدَّهْناءُ(٤) ، وتنزع إليه الدّهماءُ(٥) ، له فى كلِّ مَكْرُمَة غُرَّة الإصباح ، وفى كل فضيلة قادمة الجناح ، له صورة تَسْتنطق الأَفواه بالتسبيح ، ويترقرق فيها ماءُ الكرم ، وتقرأُ فيها صحيفة البِشْر ، ينابيع الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماك يضحك من فواصله ، له أخلاق خلقن من الفضل وَشِيَمٌ تشام(٦) منها بوارق المجد ، أَرِجَ(٧) الزمان بفضله ، وعِقم النساءُ عن الإتيان بمثله ، ماله للعفاة(٨) مباح ، وفَعَالُه(٩) فى ظلمة الدهر مصباح ، مناقب تشدخ(١٠) فى جبينها غُرَّة الصباح ، وتتهادى أنباءها(١١) وُفود الرياح ، سألت عن أخباره فكأَنى حركت المسك فتيقًا ، أو صبَّحت الروض أنيقًا(١٢) هو رائش(١٣) نبلهم ، ونبْعة(١٤) فضلهم ، وواسطة(١٥) عقدهم ، له هِمَّة علا جناحها إلى عنان النجم ، وامتد صباحها من شرق إلى غرب ، همَّتُه أبعد من مناط(١٦) الفرقد ، وأعلى من منكِب الْجوزاءِ(١٧) ، موضعه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد ، وليلة التِّم من الشهر ، بل ليلة القدر إلى مطلع الفجر ، هطلت علىَّ سحائب عنايته ، ورفرفت

(١) مفاتيحها . (٢) حديثها وقديمها (٣) مجد ورفعة (٤) الفلاة الواسعة (٥) جماعة الناس (٦) تنظر (٧) فاحت منه رائحة طيبة (٨) الطالبون للعطاء (٩) بفتح الفاء :كرمه (١٠) تفاق (١١) أخبارها (١٣) معجبا (١٣) السهم ذى الريش(١٤) الشجرة (١٥) ما تكون وسط العقد وهى أحسنه (١٦) محل علاقته (١٧) برج فى السماء

حولى أَجنحة رعايته ، وقد استظهرت على جَوْر الأَيام بعدله ، واستَتَرْتُ من دهرى بظله ، قد غَرَّقتنى نعمه حتى استنفدتْ شكْر لسانى ويدى ؛ وتَتَابَعَتْ نعمه تتابع القَطر على القَفْر ، وترادفت مِنَنُه ترادُف اليسر إلى ذوى الفقر ، له أَياد قد عمَّت الآفاق ، وطوقت الأَعناق ، أَياد قد حبستْ عليه الشكر ، واسْتَعبدت له الحر ، مِنَنٌ توالت توالِىَ القَطْر ، واتسعت سعة البَرِّ والبحر ، وأَثقلت كَاهِلَ الحر .

وصف القلم

القلم أَحد اللسانين ، وهو المخاطِب للغُيُوب ، بسرائر القلوب ، على لُغات مختلفة من معان معقولة ، بحروف معلومة ، متباينات الصور مختلفات الجهات ، لِقاحُها التفكر ونِتاجها التَّدَبر ، تخرس منفردات ، وتنطق مُزدوجات بلا أَصوات مسمُوعة ، ولا أَلْسُن محدودة ، ولا حركات ظاهرة ؛ خلا قلم حَرَّف باريه قَطَّه ، ليتعلق المداد به ، وأَرْهفَ جانبيه ليرُدَّ ما انتشر عنه إليه ، وشق رأْسه ليحتبس المداد عليه ، فهُنالك استمد القلم بشقّه ؛ ونشر فى القرطاس بخطه حروفاً أَحكَمها التفكر ، وأَولى الأَسماع بها الكلام الذى سداه العقل ولحمته اللسان ونهَستْه اللهوات ، وقطعته الأَسنان ، ولفظته الشفاه ، ووَعتْه الأَسماع عن أَنحاءٍ شتّى من صفات وأَسماء ، قال البُحترى :

طعانٌ بأَطراف القوافى كأَنه طعانٌ بأَطْرَاف القَنا المتكسِّر

وقال ابن المقفّع : « القلم بريد القلب : يُخبر بالخبر ، وينظر بلا نظر » .

وقال أَبو دُلَف : « القلم صائغُ الكلام يفرغ ما يجمعُه العلم » .

وقال الجاحظ : « الدواة منْهَل ، والقلم ماتح ، والكِتاب عَطَن » .

وقال سهل بن هارون : « القلم أَنف الضمير ، إذا رعف أَعْلَنَ وأَبان آثاره » .

وقال عمرو بن مسعدة : « الأَقلام مطايا الفِطن » .

وقال المأْمون : « لله دَرّ القلم كيف يَحُوك وَشْى المملكة » .

وقال جالينُوس : « القلم طبيب المنطق » .

وقال أَحمد بن عبد الله : « القلم راقدٌ فى الأَفئدة ، مُسْتيقظ فى الأَفواه »

وقيل : « عُقول الرجال تحت أَقْلَامها » .

وقال آخر : « القلم أَصمّ يسمع النّجْوى ، وأَخرسُ يفصح بالدعوى ، وجاهل يعْلَم الفَحْوى » .

وقال أَيضًا أَحمد بن يوسف : « عبرات الأَقلام فى خدود كتبها أَحسن من عَبَرات الغوانى فى صُحون خدودها » .

وقال أَيضاً : « القلم لسان البَصر يُناجيه بما استتر عن الأَسماع ؛ إذا نَسَج حلله ، وأَودعَها حكمه » .

وقال العتابى : « الأَقلام مطايا الأَذهان » .

وقال عبد الحميد : « القلم شجرةٌ ثمرتها الأَلفاظ ، والفكر بحر لُولُؤه الحكمة »

وقيل : « بِرِىّ القلم تروى القلوب الظَّمِئة » .

وقال ابن أَبى دواد : « القلم سفير العقل ، ورسوله الأَنبلُ ، ولسانه الأَطول ، وترجمانه الأَفضل » .

وقال أَيضاً : « القلم الدنيا والآخرة » .

وقال آخر : « بِنَوْءِ القلم تصوب الحكمة » .

قال ابن مَيثَم : « من جلالة شأن القلم أَنه لم يكتب لله تعالى كتاب قطُّ إلا به »

وقالوا : « القلم قَسيم الحكمة » .

وقال يحيى بن خالد البرمكى : « الخط صورة روحها البيان ، ويدها السرعة وقدمُها التسوية ، وجوارحها معرفة الفصول » .

ووصف أَحمد بن إسماعيل خطاً حسنًا فقال : « لو كان نباتاً لكان زَهْرًا ولو كان معدناً لكان تبرًا ، أَو مَذَاقاً لكان حلوًا ، أَو شراباً لكان صفوًا » .

وقال إقليدس : « الخط هندسة رُوحانيَّة ، وإن ظهرت بآلة جسمانية ». أخذه النّظام فقال : « الخط أصل فى الروح وإن ظهر بالجسد » .

وقال بعض الملوك اليونانية : « أمر الدِّين والدُّنيا تحت شيئين : قلم وسيف ، والسيف تحت القلم » .

وقال أفلاطون : « الخط عِقَالُ العقل » .

وقال أرسطاليس : « القلم العلَّة الفاعلة والمداد العلَّة الهيولانيَّة ، والخط العلَّةُ الصُّورية ، والبلاغة العلَّة السامية » .

سئل بعض الكُتَّاب عن الخط : متى يستحق أن يُوصف بالجودة ؟ فقال : « إذا اعتدلت أقسامُه ، وطالت ألفه ولامُه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صعوده حدوره ، وتفتّحت عيونه ، ولم تشبه راءَهُ نونه ، وأشرق قرطاسه ، وأظلمت أنفاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العيون تَصَوُّره ، وإلى العقول ثمره ، وقُدِّرت فُصُوله ، واندَمجت وصوله ، وتناسب رقيقه وجليله ، وخرج عن نمط الوراقين ، وبعد عن تصَنُّع المحبرين ، وقام لكَاتبه مقام النسبة والحلية » .

وقالوا : « القلم أحدُ اللِّسانين ، والعمُّ أحد الأَبوين ، والتَّثبُّت أحد العفوين ، والمَطْل أحد المَنْعين ، وقلَّة العيال أحد اليَسارَيْن ، والقناعة أحد الرِّزقين ، والوعد أحد الضَّرْبين ، والإصلاح أحد الكسْبَين ، والرَّاوية أحد الهاجيين ، والهجر أحد الفراقين ، واليأْس أحد النُّجْحين ، والمزاح أحد السبابين » .

وقال آخر : « مَساقُ الدُّنيا بسين وقاف فيقال سق » يريد السيف والقلم

وقال آخر : « القلم لسانُ اليد » .

حدثنى يحيى البحترى قال : حدثنا أبى عن ابن الترجمان — وكان الواثِقُ أنفذه إلى ملك الروم بهدايا — قال : وافَقت لهم عيدًا ، فرأَيتُهم قد علَّقوا على باب بيعتهم كتباً بالعربية منشورة ، فسأَلت عنها ، فقيل :

هذه كُتب المأْمون بخط أَحمد بن أَبى خالد الأَحول ، استحسنُوا صُوره وتقديره فجعلوه هكذا . فحدّثتُ أنا بهذا الحديث أَبا عُبَيد الله محمد بن داود بن الجرَّاح فقال : هذا حق ، قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم فى أَيام المُعتمد فقال : ما رأَيتُ للعرب شيئًا أَحسنَ من هذا الشكل ، ولستُ أَحْسِدُهم على شىءٍ حسدى إيَّاهم عليه ، والطَّاغية لايقرأُ العربى ، وإنما راقَه اعتداله وهندستُه وحُسْنُ موقعه ومرَاتبه .

وقال هشام بن عبد الملك لأَعرابى : انظر ، كم على هذا الميل من عدد الأَميال ، وكان الأَعرابى لايحسنُ أَن يقرأَ فمضى ونظر ثم عاد فقال : رأَيتُ كرأْس المحجن مُتّصلا بحلقة صغيرة ، تتبعه ثلاثة كأَطباء الكلبة ، تفضى إلى هنة كأَنها رأْس قَطاة بلَا منقار . ففهم بوصفه أَنها خمسة .

حدثنى يعقوبُ بن بيان الكاتب قال : قال بعضُ الكُتَّاب « القلمُ الرّدىءُ كالولد العاقِّ » .

وقالوا : « رَدَاءَةُ الخط إحدى الزّمانتين ، كما أَن حسنه إحدى البلاغتين »

حدثنى طلحة بن عبد الله قال :

اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شىءٍ بلغه عنه ، فرأَى خطَّه قبيحًا ، فوقع فى رقعته : « أَردنا قبولَ عُذرك ، فاقتطعنا عنه ما قابلنا من قبح خطِّك ولو كنت صَادقاً فى اعتذارك لساعدتك حركةُ يدك ، أَو ما علمت أَنّ حسن الخطِّ يناضل عن صاحبه بوضوح الْحُجَّة ، ويُمكِّن له درك البغية » !

وكان أَبو هَفَّان عبد الله بن أَحمد المُهتزمى من أَقبح الناس خطًّا وكان يَبْتَدئ الخط من رأْس الوَرَقة ويعوِّج سطُوره حتى يبقى آخر سطر فى الورقة كلمةً واحدةً فرثاه يحيى بن علىّ فقال فى مرْثيَّته :

مع خط كأَنَّه أَرجُل البط ... أَو الخطِّ فى ذوى الفتيان !

قالوا : « رَداءَة الخط زمانة الأَديب » .

نظر عبد الله بن طاهر إلى خط بعض كُتَّابه فلم يرضه ، فقال : «نَحُّوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط ، ولا يُومن أن يُعدى غيره» .

أنشدنى العَنزى بن على فى قبح الخط :

جزعت من قُبح خطى وفيه وضعى وحطِّى
رجعتُ من بعد حِذْقى إلى تعلم حطِّى

حدثنا أبو العباس الرِّيعى قال حدثنا الطلحى قال حدثنى أحمد بن إبراهيم قال : دخل على الرَّشيد أعرابى فأنشده أرجوزة – وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أَحسنَ النَّاس خطًّا ، وأسرعهم يداً – فقال الرشيد للأعرابى : صف هذا ، فقال له : ما رأيتُ أطيش من قَلمه ، ولا أثبت من حلمه ، ثم قال :

له قلمٌ بُؤسى ونعمى كلاهما سحابته فى الحالتين درور
يناجيك عمَّا فى ضميرك لحظُه ويفتح باب النّجح وهو عسير

فقال الرشيد : «قد وجب لك يا أعرابى عليه حقٌّ ، هو يقضيك إياه ، وحق علينا فيه نحن أن نقوم به ، ادفُعوا إليه دِيَةَ الحر» فقال له : «على عبدك دية العبد» .

جاء يوماً عبد الله بن المُعتز فى المسجد الجامع إلى أبى العباس أحمد ابن يحيى ليسلم عليه فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابنُ المُعتزّ قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمنْ حوله :

لكفِّى ثأْرٌ عند رجلى لأنها أثارتْ قتيلاً ما لأَعظمه جبرُ

فعجب الناس من سرْعة بديهته .

وأهدى رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه :

قد وجهت إليك أعزّك الله بمفاتح العلوم ، بادٍ جمالُها ، تام كمالها ، فهى كما قال الشاعر :

ليس فيها ما يقالُ له كملت لو أنّ ذا كَمُلَا

كلّ جزءٍ من محاسنها كائنٌ من حسنه مَثلَا

وقال أحمد بن إسماعيل :

وإذا نَمْنَمتْ بَنانك خطًّا مُعرباً عن إصابة وسَدَادِ

عجبَ الناس من بياض مَعانٍ يُجتنى من سواد ذاك المِدَاد

حدثنا أحمد بن يزيد المهلّبي قال حدثني أبو هفّان ، قال سألت ورّاقًا عن حاله فقال :

«عَيشِي أَضيقُ من محبرةٍ ، وجِسْمِي أَدقُّ من مِسطرةٍ ، وَجاهي أَرقّ من الزجاج ، ووَجهي عند النّاس أَشدُّ سوادًا من الحبر ، وحظي أَحقرُ من شَقّ القلم ، وَبَدَنِي أضعف من قصبة ، وطعامي أَمرّ من العَفْص ، وسُوءُ الحال أَلزمُ لي من الصبغ » فقُلت له عَبَّرْتَ عن بلاءٍ ببلاء(١) .

وسُئِلَ ورَّاقٌ عن حاله فقال :

وإذا كنت بالليل لا أَكتُب وطُول النهار أَنا أَلعبُ

فَطَوْرًا يُبطلنى مَأْكلٌ وطورًا يبطلنى مشْربُ

فإنْ دام هذا على ما أَرى فبيتى أَولُ ما يخربُ

وصف الكتاب

الكتابُ نِعْمَ الأَنيس في ساعة الوَحدة ، ونعْم المعرفَةُ في دار الغُرْبة ، ونعم القَرين والدَّخيل ، ونعم الزَّائر والنزيل ، وعَاءٌ مُلِئ علما وظرفاً ، وإناءٌ مُلِئ مزحاً وجدًّا ، وحبَّذا بستان يحمل في خرج ، وروض يقلب في حِجْر ، هل سمعت بشجرة تؤتى أُكلها كل حين بألوان مختلفة وطعوم متباينة ؟ هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يتوَى(٢) وثمر لا يفنى ، ومن لك بجليس

(١) ومثاله قول قائلهم :

تبا للرزق نازل من شق هذى القصبه

تبا له ، تبا له ما أتعبه ، ما أتعبه

(٢) يتوى : يهلك .

يفيد الشيء وخلافه ، والجنس وضِدّه ، يَنطقُ عن الموْتى ويُترجم عن الأَحياء ، إن غَضبتْ لم يَغضب وإن عَربدتْ لم يَصخْب(١) ، أَكتَمُ من الأَرض وأَنمُّ من الرِّيح وأَهوَى من الهوى ، وأَخدعُ من المُنَى ، وأَمتع من الضحى ، وأَنطلق من سحبان وائل ، وأَعيي من باقِل(٢) هل سمعت بعلم تَحَلّى بخلال كثيرة وجمع أَوصافاً عَديدةً ، عَرَبىٌّ فارسىٌّ يُونانىٌّ هندى سِندى رومى ، إن وعَظ أَسمع ، وإن أَلهى أَمتع ، وإن أَبكى أَدمعَ وإن ضرب أَوجع ، يُفيدك ولا يستفيدُ منك ، ويزيدك ولا يستزيد منك إن جَدّ فعبِرة ، وإن مَزَح فنُزهة . قبرُ الأَسرار ومخزَن الودائع ، قيد العلوم وينبوعُ الحكم ، ومعدن المكارم ومؤنسٌ لا ينام . يفيدك علم الأَولين ، ويخبرك عن كثير من أَخبار المتأَخِّرين . هل سمعت فى الأَولين أَو بلغك أَن أَحدًا من السَّالفين جمعَ هذه الأَوصاف مع قلة مؤنته ؟ وخفة محمله ، لا يرزؤك (٣) شيئًا من دُنياك ، نعم المدّخر لعُدَّة (٤) ، والمشتغل والحرفة ، جليس لا يطريك (٥) ورفيق لا يَملك ، يطيعك فى الليل طاعته فى النهار ، ويطيعك فى السّفر طاعته فى الحضَر . إن أَطلت النَّظر إليه أَطال إمتاعك(٦) وشحذَ(٧) طباعك ، وبسط لسانك وجوَّد بيانك ، وفخَّم أَلفاظك ، إنْ أَلِفْته خلد على الأَيام ذكرك ، وإن دَرَسْتَه رفع فى الخلق قدْرك ، وإن نَعَتَّه نوه عندهم باسمك ، يُقْعد العبيد فى مقاعد السَّادات ، ويُجْلس السوقة فى مجالس الملوك ، فأَكرم به من صاحب ، وأَعْزز به من موافق .

---

(١) لم يصوت (٢) رجل من اياد يضرب به المثل فى العى ، ومن عيه أنه اشترى طيبا فجعله على عاتقه، فسئل عن ثمنه ، فحل عنه يديه وفتح أصابعه وأشار بها ، وأخرج لسانه ، يريد أنه بأحد عشر درهما ، ولم يلهم أن يخبر عن سره بلسانه ، فصار عيه مثلا .

(٣) لاينقصك (٤) ما يعده الانسان لحوادث الدهر من سلاح وغيره

(٥) لا يمدحك (٦) انتفاعك

(٧) أحدها وأقواها

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ

أَتى عارض فى ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة ، وكانت فيه ظُلُماتٌ متكاثِفة وبُرُوق خاطفة ورِياح عاصفَة ، فقويَتْ أَهويتُهَا ، واشتدَّ هُبوبها فتدافعت لها أَعِنةٌ مُطلقات ، وارتفعتْ لها صواعقُ مُصعِقات ، فرَجَفتْ لها الْجُدران واصطفَقَت ، وتلاقتْ على بُعدها واعْتنقت ، وثارَ بين السَّماء والأَرض عجَاج فقيل لعلَّ هذه على هذه أطبقت .

وتحسب أَنَّ جهنم قد سالَ منها وادٍ وعدا منها عادٍ ، وزاد عصف الرِّياح إلى أَن انطفأَت مصابيح النُّجوم ، ومُزِّق أَديمُ السَّماء ومُحىَ ما فوقهُ من الرّقوم ، لا عاصِمَ من الخطف للأَبصار ، ولا مَلجأً من الخطب إلَّا معاقل الاستِغْفَار ، وفرّ النّاس نساءً ورِجالاً ، ونفرُوا من دُورهم خفافاً وثِقالاً ، لايستطيعون حِيلة ، ولا يهتدُون سبيلا ، فاعتَصمُوا بالمساجد الجامعة ، وأَذْعنوا للنّازلة بأَعناق خاضعَة ، ووجوه عافيَة ، ونُفوس عن الأَهل والمال سالية ، يَنظرون مِن طرفْ خفِىٍّ ، ويتوقعون أَىَّ خطبٍ جلى ، قد انقطعت من الحياة عُلُقهم وعميَتْ عن النَّجَاة طرُقهم ، ووقعت الفِكرةُ فيما هُم عليه قادمون ، وقاموا إلى صلاتهم وَوَدُّوا أَن لو كانوا من الذين هم عليها دائمون ، إلى أَنْ أَذِن الله فى الرُّكود وأَسعَف الهاجدينَ بالهجود .

وَأَصبحَ كلٌّ يسلمْ على رَفيقه ، وَيُهنِّئه بسلامة طريقه ، ويرى أَنه قد بُعثَ بعدَ النفخة ، وأَفاقَ بعدَ الصَّيحة والصَّرْخة ، وَأَنَّ الله قد ردَّ له الكرَّة وَأَدبَهُ بعدَ أَن كاد يأْخُذَه على غِرة ؛ ووردَتْ الأَخبار بأَن كسِرَت المراكبُ فى البحار ، والأَشجار فى القفار ، وأُتلِف خلقٌ كثير من السّفار ، ومنهم من فرَّ فلم ينفعه الفرار .

وصف العلم لبديع الزّمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

العلم شَيْءٌ بعيد المرام ، لايصادُ بالسّهام ، ولا يقسم بالأَزلام(١) ، ولا يُرَى فى المنام ، ولايُضبَط باللجام ، ولايكتبُ للئام ، ولايُورثُ عن الآباءِ والأَعمام .

وزَرْع لا يزكو(٢) إلا مَتَى صَادَفَ من الحزم ثرى طيِّبًا ، ومن التوفيق مطرًا صيبًا ، ومن الطبع جوًّا صافيًا ، ومن الجهد رَوْحًا(٣) دائمًا ، ومن الصبر سُقْيًا نافعًا .

وَغَرَضٌ لا يصاب إلّا بافتراش المدر(٤) ، واستِناد الحجر ، ورد الضجر ، وَرُكوب الخطر ، وإدمان السَّهر ، واصطحاب السَّفَر ، وكثرة النَّظر ، وإعمال الفكر .

وصف رجل لخصمه

كان أَحمدُ بن يوسُف(٥) مُنصرفاً عن غَسَّان بن عباد ، وجرت بينهما هنات(٦) بحضرة المأْمون ، ثم قال المأْمون يوماً لخاصة أَصحابه : «أَخبرونى

(١) الأزلام : جمع زلم ــ بفتح الزاى أو ضمها مع فتح اللام ــ وهى سهام لا نصل لها ولا ريش . كان العرب اذا أرادوا القمار أحضروا جزورا فنحروها وقسموا لحمها الى ثمانية وعشرين قسما ، ثم أتوا بعشرة أزلام ، فرسموا على واحد منها خطا ، وعلى الثانى خطين ، وعلى الثالث ثلاثة ، وهكذا الى السابع ، فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلى ، وتبقى ثلاثة غفلا لا يرسم عليها شىء ، ثم يضعون الجميع فى خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلما باسم واحد من المقامرين ، فان كان مرسوما له عليه شىء أخذ من أقسام اللحم بقدره ، وان كان غفلا غرم ثمن الجزور . والمقصود من هذه العبارة أن العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة ، كما ينال اللحم المقسوم .

(٢) يزكو : ينمو ويطيب . (٣) الروح ــ بفتح فسكون ــ نسيم الريح .

(٤) المدر : قطع الطين اليابس ، وافترش المطر : نام عليه

(٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون ، وكان بارعا فى الرسائل ، ويكنى : أبا جعفر (٦) الهنات : جمع هنة ، وقد تجمع على هنوات ، والمراد : أمور

عن غسّان بن عباد ، فإنّى أريده لأمر جَسيم » وكان قد عزَم على تقليده السِّنْدَ . فتكلم كلّ بما عنده فى مدحه ، فقال أحمدُ بن يوسف : هو يا أمير المؤمنين رجل محاسنه أكثرُ من مَساويه ، لا يَتطرق(١) إلى أمر إلا تقدَّم فيهِ ، ومهما تُخُوِّف عليه فإنه لن يَأْتى أمرًا يُعْتَذَرُ منه . قَسَم أيامَه بين أفعال الفَضْل ، فَجَعَل لكلِّ خلقٍ نوبة (٢) إذا نظرتَ فى أمره لم تَدر أىّ حالاته أعجب : أمَا هَداه إليه عَقْله ؟ أمْ مَا اكتسبه بأَدبه ؟ فقال له المأْمون : لقد مدحتَه على سُوءِ رأْيك فيه . قال : لأَنى فى أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كَفى ثمنًا لِما أسديتَ أَنِّى ... نَصحتُك فى الصّدِيق وفى عَدَائى
وإِنِّى حين تَنْدُبنى لأَمر ... يكون هَواك أَغلبُ مِنْ هوائى(٣)

وصف أَبي دُلف لعبد الله بن طاهر

دخَل أَبو دُلف(٤) على المأْمون بعد الرِّضا عنه ، فسأَلهُ عن عبد الله ابن طاهر(٥) فقال : خَلفته يا أَميرَ المؤمنين أَمينَ غَيب ، نَصيحَ جَيب(٦) أَسدًا عاتيًا قائمًا على بَرَائِنه ، يَسْعَد به وليّك ، ويشقى به عَدوّك ، رَحْبَ

(١) تطرق الى الأمر : ابتغى اليه طريقا .
(٢) النوبة : الفرصة والدولة والمرة ، جمعها نوب كغرف .
(٣) يريد هواى ، ومده للضرورة .
(٤) أبو دلف — كعمر — هو القاسم بن عيسى البكرى من قواد المأمون ثم المعتصم ، وكان جوادا شجاعا ، وفيه يقول الشاعر :

انما الدنيا أبو دلف ... بين ناديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

توفى سنة ٢٢٦ هـ .
(٥) هو عبد الله بن طاهر بن الحسن ، من كبار ولاة المأمون ولى مصر مدة سنتين تقريبا . قال صاحب كتاب ادب الخواص : ان البطيخ العبدلاوى الموجود بالديار المصرية منسوب اليه ، اهـ .
(٦) يقال : هو ناصح الجيب ، أى القلب والصدر .

الفِنَاء لأَهل طاعتك ، ذا بأْسٍ شديد لمن زاغ عن قصد محجّتك ، قد فقّهه الحزم ، وأَيقظه العزم ، فقام في نحر الأَمور على ساق التشمير ، يبرمها بأَيْدِه(١) وكيده ، ويفُلُّها بحده وجِدّه ، وما أَشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرْداس :

أَكرُّ على الكتيبة لا أُبالى أَحَتْفِي كان فيها أَم سواها

فقال قائل : ما أَفصحه على جبليَّته ! فقال المأْمون : إن بالجبل(٢) قوماً أَمجادًا(٣) كراماً أَنجادًا(٤) ، وإنهم لَيُوَفون السيف حظه يوم النزال ، والكلام حقه يوم المقال .

وصف أَعرابى لرجل

وصف أَعرابى رجلاً فقال :

إنْ سأَلَ أَلحف ، وإنْ سُئل سوَّف ، وإذا وعد أَخلف ، وإذا صَنعَ أَتلف ، وإذا همَّ بالفعل الجميل توقف ، ينظر بنظر الحسود ، ويُعْرِض إعراض الحقود ، بينما هو خِلٌّ وَدُود ، إذا هو خَلٌّ وَدُود ، فناؤه شاسع ، وضيفه جائع ، وشرّه شائع ، وسرّه ذائع ، ولونه فاقع(٦) ، وجفنه دامع ،

(١) الأيد : القوة .

(٢) الجبل . بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وبلاد الديلم .

(٣) الأمجاد — جمع ماجد أو مجيد ، كأشهاد فى شاهد وشهيد — والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمح .

(٤) الأنجاد — جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها — وهو الشديد البأس ، ومن كلام على : أما بنو هاشم فأنجاد أمجاد .

(٥) فناء البيت : الساحة أمامه ، وجمعه أفنية والشاسع : البعيد ، والجملة كناية عن أنه بخيل ، لأن من عادة البخيل عندهم أن يبنى خباءه بعيدا عن الحى حتى لا يقصد ، ، قالت الفارعة :

ولا يحل اذا ما حل منتئيا يخشى الرزية بين الماء والبادى

(٦) الفاقع : الشديد الصفرة ، وربما أكد به الأبيض .

وديارِه بَلاقِع ، رَدِئُ المَنْظَر ، سَيِّئُ المَخْبَر ، يَبْخَل إذَا أَيسر ، ويَهلَع(١) إذا أَعسر ، ويكْذِب إذا أَخْبر ، إنْ عاهَد غَدَرَ ، وإنْ خَاصَم فَجَر ، وإنْ خُوطِبَ نَفَر .

وصف الإمام العادل

كتب عُمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله تعالى عنه لمّا وَلِى الخِلافة إلى الحسن ابن أَبى الحسن البصرى ، أَن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب إليه الحَسَنُ :

اعلم يا أَمير المؤمنين أَنَّ الله جعلَ الإمام العادل قوام كلّ مائل ، وقصد كلّ جائر ، وصلَاح كل فاسد ، وقُوَّة كل ضعيف ، ونصفة كلّ مظلوم ، ومفزعَ كلّ ملهُوف . والإمام العادلُ يا أَمير المؤمنين كالرَّاعى الشّفيق على إبله ، الرَّفيق الذى يرْتَادُ لها أَطيب المراعى ، ويذودُها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السِّباع ، ويكنُفُهَا من أَذى الحر والقرّ . والإمام العادل يا أَمير المؤمنين ، كالأَب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارًا ، ويُعلمهم كبارًا ، يكتسبُ لهم فى حياتِه ويدّخِرُ لهم بعد مماته . والإمام العادل يا أَمير المؤمنين ، كالأُم الشّفيقة ، البرَّة الرَّفيقة بولدها ، حملتهُ كرهًا ، ووَضعتهُ كرْهًا ، وربّته طِفلاً ، تسهرُ بِسهره ، وتسكُن بِسكونه ، تُرضِعهُ تَارَةً ، وتَفْطمه أُخرَى ، وتفرَح بِعَافيتهِ ، وتغْتَمُّ بشكايته . والإمام العادل يا أَمير المؤمنين ، وصىُّ اليتَامَى ، وخازنُ المساكين ، يُربّى صغيرَهم ويُمَون كبيرَهم . والإمام العادل يا أَمير الموٴمنين ، كالقلب بين الجَوَانح ، تصلُح الجَوَانح بصلاحه ، وتفسدُ بفساده . والإمام العادل يا أَمير المؤمنين ، هو القائمُ بين الله وبين عباده ، يَسمع كلام الله

(١) الهلع : أشد الجزع .

ويُسْمِعَهُمْ ، وينظرُ إلى الله ويُريهم ، وينقادُ إلى الله ويَقُودُهم — فلا تكن يا أَميرَ المومنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتَمَنَهُ سيِّده ، واستحفظه مالَه وَعِيَالَه ، فبَدد المال ، وشرَّد العِيَال ، فأَفقرَ أَهلَه وفَرَّق ماله .

واعلم يا أَمير المؤمنين أَن الله أَنزل الحُدُودَ لِيزْجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أَتاها من يليها ؟! وأَنَّ الله أَنزل القَصاصَ حيَاةً لعبادِهِ ، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم ؟! واذكر يا أَمير المؤمنين الموْت وما بعده ، وقلَّة أَشيَاعك عِنده ، وأَنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعدهُ من الفزع الأَكبر .

واعلم يا أَمير المؤمنين ، أَنّ لك منزلاً غير منزلك الذى أَنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقُك أَحبَّاؤك ، يُسْلمُونك فى قعره فريدًا وحيدًا ، فتزوّد له ما يصحبُك ، يَوْمَ يفرُّ المرءُ من أَخيه ، وأُمِّه وَأَبِيهِ وصَاحبتِه وبنيه — واذكر يا أَمير المومنين ، إذا بُعثرَ ما فِى القبور ، وحُصِّل ما فى الصدُور ؛ فالأَسرار ظاهرة ، والكتَابُ لا يُغَادرُ صغيرةً ولا كبيرة إلَّا أَحصاها — فالآن يا أَمير المؤمنين وأَنت فى مهل قبل حُلول الأَجل ، وانقطاعِ الأَمل — لاتحكم يا أَمير المومنين فى عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظَّالمين ، ولا تُسلّط المستكبرين على المستضْعفين ، فإنّهم لايرقبُون فى مُؤمن إلاًّ ولا ذمّة ، فتبُوءَ بأَوْزارك وأَوْزار مع أَوْزارك ، وتحمل أَثقالك وأَثقالاً مع أَثقالك ، ولا يَغُرّنّك الذين يتنعَّمون بما فيه بُؤسك ، ويأْكلُون الطَّيبات فى دُنياهم بإذهاب طيِّبَاتك فِى آخرتك ، ولا تنظر إلى قُدْرَتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدْرَتك غدًا ، وأَنت مأْسورٌ فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمُرْسلين ، وقد عنت الوُجوه للحىِّ القيُّوم . إنى يا أَمير المؤمنين ، وإنْ لم أَبلغ بعظَتى ما بلغهُ أُولُو النُّهى من

قبلي فلم آلُكَ شفقةً ونُصحًا ، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجُو له في ذلك مِنَ العافية والصحة .

وصف عمرو بن العاص مصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

مصر تُرْبَةٌ غَبْرَاءُ ، وشجرةٌ خضراءُ ، طُولها شهر ، وعرضها عشر(١) ، يَخُطُّ وسطها نهر ميمون الغَدَوات ، مُبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنّقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عُيون الأرض ويَنابيعها ، حتى إذا أَصلح عجاجه ، وتعظَّمت أمواجه ، لم يكن وُصول أهل القرى إلى بعض إلا فى خِفافِ القَوارب(٢) وصِغار المَراكب ، فإذا تكاملت زيادته نكص(٣) على عَقِبيه كأوَّل ما بدأ فى شِدَّته ، وطَما(٤) فى حِدّته ، فعند ذلك يخرجُ القوم ليحرُثوا بُطُون أَوْدِيتِهِ وروابيه فيبذرون الحَبَّ ويَرْجُون الثِّمَار من الرب ، حتى إذا أَشرق وأشرف ، سقَاهُ من فوقه النَّدى ، وغذاه من تحته الثرَى ، فعند ذلك يدُرُّ حلابُه ، ويغنى ذبابه — فبينما هى يا أمير المؤمنين درّة بيضاءُ ، إذا هى عَنبرَةٌ سوداء ، فإذا هى زبرجدَةٌ خضراءُ ، فتبارك الله الفعال لما يشاءُ .

وصف حرب لأَبي منصور الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ ﻫ

عند ما دارت رَحا الحرب ، صَمَتَتْ الأَلسنةُ ، ونَطَقت الأَسِنَّةُ ، وخطبت السُّيوف على منابر الرِّقاب ، وأَقدمت الرماح على الخطط الصِّعاب ، وتلاصقت القنا والقَنابل(٥) ، وتعانقت الصّوارم(٦) والمناصل ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأَدْركت السيوفُ المناحرَ ، وضاقَ المجال ، وتحكَّمت

---

(١) أى عشر ليال ، لأن عادة العرب السير فى الليل .
(٢) السفن الصغيرة (٣) رجع (٤) ارتفع
(٥) القنا : الرماح ، والقنابل : جمع قنبل ما بين الخمسين فصاعدا من الخيل (٦) السيوف القاطعة ، وكذا المناصل

الآجال ، فلا ترى إلّا رُءُوساً تُنْدَر(١) وَدِماءً تهدَرُ ، وأَعضاء تتطاير وتَتَناثر ، وأَجساماً تتزايل وتمايل حتى ثملت الرِّماحُ من الدِّماء ، فتعثرَت فى النحور ، وتكسّرت فى الصدُور ، فرجعوا الأَعداء من جوانبهم ، وتمكّنوا من فض مُواكبهم .

وصف المطر شعرًا لأَبى الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ

مع مقدمة لعمر بن على المطوعى فى وصف ذلك المطر نثرًا

حكى عمرُ بن على المطوعى قال : رأَى الأَمير السيدُ أَبو الفضل عبد الرحمن ابنُ أَحمد أَدام الله عِزّه أَيام مُقامِه بجُوَين(٢) أَن يطالع قرية من قرى ضياعه(٣) تُدعى « بجاب » على سبيل التنزه والتفرُّج ، فكنت فى جُملة من استصحبه إليها من أَصحابه ، واتفق أَن وصلنا والسماء مُصحية(٤) ، والجو صاف ، لم يُطرز ثوبه بعلم الغمام(٥) والأُفق فَيْرُوزجٌ لم يعبق به كافور السحاب(٦) . فوقع الاختيار على ظل شجرَة باسِقة الفُرُوع(٧) ، مُتسعة الأَوْراق والغصّون ، قد سترَت ما حَواليها من الأَرض طولاً وعرْضاً ، فنزلنا تحتها مُستظلين بِسماوَةِ أَفنانها(٨) مُستترين من وَهَج الشمس بستَارَة أَغصانها(٩) ، وأَخذنا نتجاذَب أَذيَال المُذَاكرة(١٠) ، ونَتسالب أَهدابّ المناشدة والمحاورَة(١١) ، فما شَعُرْنَا بالسماءِ إلّا وقد أَرْعَدَتْ

(١) تسقط (٢) كورة بخراسان ، وبلدة بسرخس من بلاد فارس .

(٣) والضياع : جمع ضيعة ، وهى العقار والأرض المغلة (٤) لا غيم فيها (٥) عبارة عن خلو الجو من السحاب (٦) أى لونه مثل الفيروزج وهو الزرقة ، ولم يعبق به : لم يلصق به ، والكافور : طيب يستخرج من شجر كبير ، ولون هذا الطيب يصير أبيض بعد عماية تعمل فيه . والمعنى : أنه لا يرى شىء من السحاب فى الأفق (٧) طويلتها (٧) الأفنان : الغصون ، وسماوتها : يعنى أوراقها العريضة المتلاحمة تلاحما يجعلها تشبه السقوف

(٩) وهج الشمس : شدة حرها وتوقدها

(١٠) عبارة عن تذاكرهم

(١١) عبارة عن تناشدهم الأشعار وتحاور بعضهم مع بعض تحاورا أدبيا

وَأَبرقت(١)وأظلمت بعد ما أشرقتْ ، ثم جادت بمطر كأفواه القرب ، فأجادت(٢) وحكت أنامل الأجواد ، بل أوفت عليها وزادت(٣) ، حتى كاد غيثها يعود عيثاً(٤) وهم وبلها أن يستحيل ويلا(٥) فصبرنا على أذاها وقلنا سحابة صيف عن قليل تقشع(٦) فإذا نحن قد أمطرتنا بَرَد الثغور ، لكنها من ثغور العِذَاب(٧) لا من الثغور العَذَاب(٨) ، فأيقنا بالبلاء ، وسلمنا لأسباب القضاء(٩) ، فما مرت ساعةٌ من النهار ، حتى سمعنا خرير الأنهار(١٠) ورأينا السيل قد بلغ الزبى(١١) والماءَ قد غمر القيعان والربا(١٢) فبادرنا إلى حصن القرية ، لائذين من السيل بأفنيتها(١٣) ،

(١) يقال : رعدت وبرقت ، أى جاءت بالرعد والبرق ، وأرعدت وأبرقت يعنى تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق . (٢) جادت : تكرمت، وأجادت: أحسنت

(٣) حكت : شابهت : وأنامل الاجواد : المقصود أيدى الكرام ، ومحاكاتها لأيدى الكريم يعنى مشابهتها لايديهم فى السخاء ، وأوفت وزادت بمعنى واحد .

(٤) الغيث : المطر ، والعيث : الافساد (٥) الوبل : المطر العظيم القطرات والويل : الشر (٦) أى لا تمكث الا قليلا وتذهب (٧) البرد — بفتحات — قطرات المطر المتجمدة تنزل على الأرض كالحب فى شكل الثلج أو الجليد، تشبه به أسنان الغوانى وثناياها عند افترار الثغور ، والثغر : الفم ، وثغور العذاب : فتحاته .

(٨) من الثغور العذبة الريق . (٩) وخضعنا لحكم المقادير .

(١٠) يعنى جرى الماء بشدة ، فصار يسمع له صوت كصوت مياه الانهار .

(١١) السيل : الماء العظيم الذى يتجمع من المطر ، ويسيل بشدة ، والزبى — جمع زبية — وهى الأرض المرتفعة ارتفاعا عظيما بحيث لا يعلوها الماء عادة ، أو حفرة تحفر فيها ليصاد فيها الأسد .

(١٢) الربا — جمع ربوة — الأرض المرتفعة ارتفاعا ، والقيعان — جمع قاع — وهو الأرض السهلة المطمئنة التى انفرجت عنها الجبال والآكام .

(١٣) فبادرنا : أسرعنا ، والحصن : الموضع الحصين المنيع ، الذى لا يوصل الى جوفه ولائذين : محتمين متحصنين ، والأفنية — جمع فناء — وهو المتسع أمام الدار .

وعائذين من القَطر بأَبنيَتها(١) ، وأثوابُنا قد صَنْدَل كافورَها ماء الوبل(٢) ، وغلفَ طرازها طينالوَحْل(٣) ، ونحن نحمد الله تعالى على سلامة الأَبدان ، وإنْ فقدنا بياض الأَكمام والأَرْدان(٤) ، ونشكره على سلامة الأَنفس والأَرواح ، شكر التاجر على بقاء رأس المال ، إذا فُجعَ بالأَرباح(٥) فبتنا تلك الليلة تحت سماء تَكِفّ ولاتنكُف(٦) ، وتبكى علينا إلى الصباح بأدمع هوام(٧) ، وأَربع سجام(٨) ، فلما سُلَّ سيفُ الصبح من غمد الظلام(٩) ، وصُرف بوالى الصحو عاملُ الغمام(١٠) ، رأينا صواب الرأى أَنْ نوسعَ الإقامة بها رفضا (١١) ، ونتخذ الارْتحال عنهَا فرضاً ، فما زلنا نطوى الصحارى أَرْضًا فأَرضاً ، إلى أَن وافينا المستقر ركضاً (١٢) ، فلما نفضنا غُبَار ذلك المسير(١٣) ، الذى جعلنا فى ربقة الأَسير(١٤) ، وأَفْضَيْنَا إلى ساحة التيسير(١٥) بعد ما أُصِبْنَا بالأَمر العسير ،

(١) عائذين : ملتجئين ، والقطر : ما نزل من ماء المطر ، والأبنية : المبانى

(٢) صندل : استعمله متعديا بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضاربا الى السواد ، والكافور والوبل تقدم معناهما (٣) غلف الشىء : جعل له غلافا اى حجابا وسترا ، والطراز : رسم الثوب ، والمعنى : أن رسم الثوب ستره الطين المتناثر من الوحل .

(٤) الأردان : أصول الأكمام (٥) أى أوجع بعدم الارباح وفقد المكاسب

(٦) تكف : تمطر ،ولاتكف :لاينقطعمطرها (٧) هوام — جمع هام — من همى يهمى بمعنى سال (٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيرا .

(٩) أى الصبح الشبيه بالسيف ، والظلام الشبيه بالغمد (١٠) الوالى : العامل أو الحاكم،والمعنى أزال الصحو الغمام (١١) أى أن نرفض الاقامة بها رفضا باتا

(١٢) وافينا : أتينا ، والمستقر : السكن ، وركضا : يعنى عدوا ، وجريا على الأقدام .

(١٣) يعنى لمازلنا وسخ هذا السير بمعنى استرحنا (١٤) الربقة : عروة تجعل فى حبل مع عرى غيرها ، ويربط فى هذا الحبل (ويسمى الربق) أولاد الضأن والمعز والبقر (١٥) أفضينا : وصلنا ، والساحة : رحبة واسعة بين الدور ، والتيسير : بمعنى اليسر والتسهيل .

وتذاكرنا ما لقينا من التعب وَالمَشقة ، فى قطع ذلك الطريق وطى تلك الشقة(١) أخذ الأَمير السيد أطال الله بقاءه القلم فعلق هذه الأَبيات ارتجالا :

دَهَتْنا السماءُ غَدَاة السَّحَاب بغيث على أُفقه مُسْبلِ(٢)
فجاءَ بِرَعْد لهُ رَنَّةٌ(٣) كرنةِ ثكلى ولم تثكل(٤)
وثنى بِوبْلٍ عدا طَوْرهُ(٥) فعادَ وبالا على المُمحلِ(٦)
وأَشرَفَ أَصحابنا مِنْ أذاهُ على خَطَرٍ هائل مُعضلِ(٧)
فمنْ لائذٍ بفناءِ الجِدَارِ(٨) وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهملِ(٩)
ومن مُسْتَجير يُنادِى الغريق هناكَ ومن صارخٍ معولِ(١٠)
وجادَتْ علينا سماءُ السقوف بدمع من الوَجدِ لَمْ يُهمل(١١)

---

(١) طى تلك الشقة : أى قطع تلك المسافة (٢) الغداة : أول النهار ، يعنى دهمتنا السماء بمطر فى أول النهار الذى كان فيه غيم ، والغيث : المطر، والمسبل ، الهاطل يعنى دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذى كان السحاب مخيما عليه

(٣) له رنة : أى دوى وصوت هائل .

(٤) الثكلى : التى فقدت ولدها ، ولم تثكل : يعنى لم يفقدها الله ولدها والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها،مع أن الله لم يهلكه ، فهى تصوت على غيابه ولم ينقطع أملها من وجوده

(٥) الوبل : تقدم تفسيره وهو المطر الشديد ، وعدا طوره : تجاوز حده .

(٦) فصار ثقيلا وخيما على المكان المحل الجدب المنقطع عنه المطر .

(٧) أشرف على كذا : قرب منه ، والمعضل : الذى لا دواء له .

(٨ و ٩) فمن متحصن بالأراضى المجاورة للجدران ، ومن لاجىء الى سرب فى الأرض لم يتعهده احد

(١٠) ينادى الغريق : أى يدعو الناس ويقول الغريق لينقذوه ، والمعول : الرافع صوته بالبكاء

(١١) همل الدمع : سال ، والمعنى :انها جادت بدمع لم يكن السبب فى اسباله لا الغرام ولا الوجد

كأَن حراماً لها أَن ترى يبيسًا مِن الأَرض لم يبللِ(١)
وأَقبل سيلٌ له رَوْعَةٌ(٢) فأَدبَرَ كل عن المُقبل(٣)
يُقلعُ ما شاءَ من دَوْحة(٤) وما يَلقَ من صخرة يحمل(٥)
فَمِنْ عامرٍ رَدَّهُ غامِرًا(٦) ومن مُعلم عاد كالمجهل(٧)
كفانا بَليتَّهُ رَبُّنَا فقد وجب الشكر للمفضل(٨)
فقل للسماءِ ارْعدى وابرقى(٩) فإنا رَجعنا إلى المنزل

وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٩٧٧ ه

لما صدأَت مِرآةُ الجنان(١٠) قصدتُ لجلائها بعض الجنان(١١) فدخلت إليها ، وما كدتُ أَن أَقدِمَ عليها ، فإذا هى جنةٌ عاليةٌ(١٢) قطوفها دانية(١٣) وطلحها مَنضود(١٤) ، وظلها مَمْدُودٌ(١٥) ، وأَعلام أَشجارها مرفوعة(١٦) وفاكهتها

(١) كأن حراما لها ، أى كأن السماء محرم عليها أن ترى أرضا يابسة لم تبل بالماء .

(٢) الروعة : الفزعة . (٣) كل واحد يولى ويهرب ممن يقابله

(٤) يقتلع كل ما يريد من الشجر العظيم

(٥) يحمل كل ما يلقاه من الصخور الضخام

(٦) رده غامرا : صيره خرابا (٧) من معلوم صار كالمجهول

(٨) كفانا الله شره . فوجب الشكر له لأفضاله علينا

(٩) ايت بالرعد والبرق

(١٠) الجنان : القلب ، وصدئت مرآته علامة على الوسخ ، والمعنى : لما كل القلب ، ومل العمل .

(١١) لجلائها : أى ازالة الوسخ الذى علاها ، والجنان — جمع جنة — وهى الحديقة ذات النخل والشجر (١٢) أى مرتفعة (١٣) عناقيدها متدلية قريبة من الجانى .

(١٤) الطاح : الأشجار العظام ، ومنضود يعنى متراكم بعضه فوق بعض

(١٥) أى متسع (١٦) اى أغصانها مرتفعة .

كثيرة لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ(١) ، تجوس المياه خلال ديارها (٢) وَتُشْرِق بآفاقها أنواراً نوّارها (٣) ، نزهة النواظر(٤) ، وشركُ الخواطر(٥) ، بها أشجار لا تحصى(٦) ، وثمار لا تُعَدُّ ولا تُسْتَقصى(٧) .

وصف البيان لأَمير المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

البيان تُرْجمان القلوب ، وصقيل العقول(٨) ، وَمُجْلِي الشبهة(٩) ، وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرق بين الشكّ واليقين ، وخير البيان ما كان مصرِّحاً عن المعنى ، ليسرع إلى الفهم تلقيه ، أو موجزاً ليخف على اللفظ تعاطيه .

ووصف أَيضاً المكارم فقال :

لن تكْسبَ ـ أعزك اللهَ ـ المحامدَ ، وتستوجب الشرف ، إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأَثقال ، وبذل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تُنَالُ بغير مؤونة لاشترك فيها السفل(١٠) والأَحرار ، وَتَساهَمَها الوضعاءُ(١١) وذوو الأَخطار ، ولكن الله تعالى خصّ الكرماءَ الذين جعلهم أَهلها ، فخفف عليهم حملها وَسَوَّغهم فضلها وحظرها(١٢) على السفلة لصغر أَقدارهم عنها وَبُعْد طباعهم منها ، ونفورها عنهم وَاقْشِعْرارها منهم .

ووصف أَيضاً القرآن الكريم فقال :

فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهر غير خفي

(١) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع عنه (٢) أى تتردد بين بيوتها
(٣) النوار : الزهر (٤) تتنزه فيها العيون (٥) تصطاد الخواصر وتسبى العقول
(٦) لا يمكن الاتيان على عددها (٧) لايتأتى ادراك آخرها (٨) جلاؤها
(٩) كاشفها (١٠) السفل : جمع سفلة ، وهم طغام الناس وغوغاؤهم .
(١١) جمع وضيع : وهو الساقط (١٢) منعها

يشهد بذلك عجزُ المتعاطين ، ووَهْن(١)المتكلفين ، وهو المبلِّغُ الذى لايمَلّ ، والجديدُ الذى لايخلقُ(٢) والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحى لظلم الضلال ، ولسان الصدق النافى للكذب ، ومفتاح الخير ، ودليلُ الجنة — إن أَوْجَز كان كافيًا وإن أكثر كان مُذكِّرًا ، وإن أمر فناصحًا ، وإن حكم فعادلاً ، وإن أخبر فصادقًا . سراجٌ تستضىءُ به القلوب ، وبحر العلوم ، وديوان الحكم ، وجوهر الكلم .

وصف البلاغة لفحول البلغاء

(١) قال الجوهرى : أحسن الكلام نظاماً ماثقبته يد الفكرة ، ونظمته الفطنة ووُصل جوهر معانيه فى سُمُوط(٣) ألفاظه ، فاحتملته نُحُورُ الرواة .

(٢) وقال العطَّار : أطيبُ الكلام ما عُجِنَ عنبرُ ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نشقه(٤) وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

(٣) وقال الصائغ : خير الكلام ما أَحْميتَه بكير الفكر ، وسبكتهُ بمشاعل النظر ، وخلَّصته من خبَث الإطناب ، فبرَزَ بُرُوزَ الإبريز ، فى معنًى وَجيز(٥) .

(٤) وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقدته عين البصيرة ، وجلتهُ يَد الرويّة ووَزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظرٌ يزيفه(٦) ؛ ولاسَماع يُبهرجه(٧) .

---

(١) ضعف (٢) لا يبلى

(٣) السمط : الخيط الذى ينظم فيه (٤) النشق : الاستنشاق ، العبق : لصوق الطيب بالشىء ، وتغلف الرجل بالطيب : ادهن به ، والسراة : الأشراف .

(٥) الكير : زق ينفخ فيه الحداد ، والمشاعل : جمع مشعل وهو القنديل وهو موضع شعل النار أى الهابها . (٦) زيف الدراهم : اى انها زائفه اى مغشوشة . (٧) وبهرجها : أبطلها

(٥) وقال الحداد : أَحسنُ الكلام ما نصبت عليه منفَخَة القريحة ، وأَشعلتَ عليه نار البصيرة ، ثم أَخرجته من فحم الإِفحام وَرَقَّقْتَهُ بغطيس الأَفهام(١) .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أَحكمت بحر معناه بقَدُّوم التقدير ، وَنَشرته بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارضةً(٢) لِسَقف اللسان.

(٧) وقال الحائك : أَحسن الكلام ما اتصلت لُحمة أَلفاظه ، بسُدَى معانيه مفوفاً منيرًا ، موشى محبرًا(٣) .

(٨) وقال الجمَّال : البليغ من أَخذ بخطام(٤) كلامه ، فأَناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقالا ، والإِجادة له مجالا ، فلم(٥) يند عن الآذان ولم يشذ عن الأَذهان .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أَبى سفيان لصعصعة بن صَوْحان : صِفْ لى عُمر بن الخطاب فقال : كان عالما برعيته ، عادلاً فى قضيته ، عارياً من الكبرِ قَبولا للعذر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريا للصواب ، رفيقًا بالضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغريب .

---

(١) الغطيس كسكين المطرقة العظيمة (٢) العارضة : الخشبة العليا التى يدور فيها الباب وعوارض البيت خشب سقفه . (٣) المفوف : الرقيق من الثياب أو الذى فيه خطوط بيض، والمنير : المنسوج على نيرين أى المضاعف النسج ، والموشى : المنقوش والمحبر : المحسن (٤) الخطام : كل ما وضع فى أنف البعير ليقاد به ، وجمعه : خطم (٥) ند : هرب

وصف على بن أبى طالب

قال مُعاوية لِضرار الصدائى : ياضرار صف لى عليًّا قال : اعفنى يا أمير المومنين قال : لتصفنه ، قال : أما إذ لابد من وصفه فكان والله بَعيدَ المدى(١) شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلمُ من جوانبه وتنطقُ الحكمة من نواحيه ، يَستوحشُ من الدنيا وَزَهرتها ، وَيَستأْنسُ بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، وَيُخاطبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأَحدنا يُجيبنا إذا سأَلناه وينبئنا إذا استنبأْناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وَقُربه منا ، لا نكادُ نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأَس الضعيف من عدله .

وصف كلام العرب لعتبة بن أبى سفيان

قال عُتبة بن أَبى سفيان : إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواءِ ، وأعذبُ من الماءِ ، مَرَقَ من أَفواههم مرُوق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ، إن فسرت بغيرها عُطلت(٢) ، وإن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة أَلفاظهم توهمك أَنها لُكْنة إذا سُمعت ، وصعوبتها تعلمك أَنها مفقودة إذا طُلِبت(٣) .

---

(١) المدى : الغاية

(٢) التعطيل : ترك الشىء ضياعا

(٣) هذا النوع من الكلام يسمى الممتنـــع

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ : الكتاب وعَاءٌ مُلِئَ علمًا وظَرْفٌ حشى ظُرْفاً ، وبستان يحملُ فى رُدْن(١) وروضةٌ تقلب فى حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجمُ كلام الأَحياء ، ولا أَعلم جارًا أَبر ، ولا خليطًا أَنصف ، ولا رفيقًا أَطوع ، ولامعلمًا أَخضع ، ولاصاحبًا أَظهر كفَاية ، وأَقل جنَاية ، ولا أَقل إملالاً وإبراماً ، ولاأَقل خلافًا وإجرامًا ، ولا أَقل غيبة ، ولا أَبعد من عَضْبهة(٢) ، ولا أَكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولاأَقل صلفًا(٣) وتكلفًا ولا أَبعد من مراءٍ ، ولا أَترك لشغب ، ولاأَزهد فى جدال ، ولا أَكفَّ عن قتَال — من كتَاب ، ولا أَعلم قرينًا أَحسن مواتَاة(٤) ، ولا أَعجل مكافأَة ، ولا أَخصر معونة ، ولا أَقل مؤونة ، ولاشجرة أَطول عمرًا ولا أَجمع أَمرًا ، ولا أَطيب ثمرة ، ولا أَقرب مُجتنى ، ولا أَسرع إدراكا فى كل أَوان ، ولا أَوجد فى غير إبان — من كتَاب ، ولا أَعلمُ نتَاجا فى حداثة سنهِ ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأَخبَار اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، ومن المذاهب القديمة ، والتجَارب الحكيمة والإخبَار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والأَمثَال السَائرة والأُمم البَائدة(٥) ما يجمع الكتَاب .

وقيل لبعض العلمَاءِ : ما بلغَ من سرورك بكتبك ؟

فقَال : هى إن خلوت لذتى ، وإن اهتممتُ سلوتى ، وإنْ قلت : إنَّ زَهر البستَان ونور الجنَان يجلوان الأَبصارَ ، ويمتعَان بحسنهمَا الأَلحَاظ ، فإن

(١) الردن : الكم ، وجمعه أردان . (٢) العضبهة : البهتان والنميمة .
(٣) الصلف : تمدح المرء بما ليس عنده . (٤) المواتاة : حسن المطاوعة والموافقة وأصله بالهمزة وفى الحديث : خير النساء المواتية لزوجها .
(٥) القديمة الهالكة .

بستَان «الكتب» يَجلو العقل، ويَشْحذُ الذّهْن، ويُحيي القلب، وَيُقَوِّى القريحة، ويُعين الطبيعة، ويبعثُ نتائجَ العقول، ويستثير دفائن القلوب، وَيُمْتِعُ فى الْخَلوة، ويُونس فى الوحشة، ويضحك بنوادره، ويَسُرُّ بغرائبه، وَيُفِيد ولا يستفيد، وَيُعْطى ولا يأْخُذ، وتَصِل لَذَّته إلى القلب من غير سآمة تُدْرِكك، ولا مَشَقَّة تعرض لك.

وصف التاريخ لابن الأَثير

التاريخ: مَعَاد(١) معنوى، يعيد الأَعصار وقد سَلفت، وَيَنْشُر أَهلها، وقد ذهبت آثارُهم وعفت(٢)، وبه يستفيدُ عُقول التجارِب مَنْ كان غِرًّا، ويلقى مَنْ قبله من الأُمم وهَلُمَّ جَرًّا. فهم لديه أَحياء، وقد تَضَمَّنتهم بُطونُ القبور، وعنه غُيَّبٌ وقد جعلتهم الأَخبار فى عِدَاد الحضور، ولولا التاريخ لجهلت الأَنساب ونُسِيت الأَحساب، ولم يعلم الإنسانُ أَنَّ أَصله من تراب، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وَعَمِيَ(٣)على الأَواخر حال قدمائها، ولم يُحَطْ علمًا بما تداولته الأَرض من حوادث سمائها، ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب مِنْ كُتُبِ الله المنزلة، فمنها ما أَتى بأَخباره المُجْمَلة، ومنها ما أَتى بأَخباره المُفَصَّلة، وقد وردفى التوراة مُفردًا فى سِفر من أَسفارها، وتضمَّن تفصيل أَحوال الأُمم السالفة ومُدَد أَعمارها.

وقد كانت العرب على جهلها بالقَلَم وخَطِّه، والكِتَاب وَضَبطه، تصْرِفُ إلى التواريخ جُمَل دواعيها، وتجعل لهُ أَوّل حَظٍّ من مساعيها، فتستغنى بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها، وتَعْتَاض برقم صُدُورها، عن رقم سُطُورها،

(١) معاد: يقصد أنه كاليوم الآخر. (٢) عفا الشيء: هلك.
(٤) عمى عليه الأمر: التبس وكذلك عمى عنه.

كل ذلك عِناية منها بأخبار أَوَائِلِها ، وأيام فضائلها ، وهل الإنسان إلا ما أَسَّسَهُ ذِكْرُه وبناه ؟ وهل البقاءُ لِصُورَة لحمه ودَمه لولا بقاءُ معناه !!

وصف الرَّجُل الكامل

كتب الحسن(١) بن سهل إلى محمد(٢) بن سَمَاعَة القاضى ، يَصِفُ لهُ الرَّجُلَ الكامل :

أَما بعدُ : فإنى احتجتُ لبعض أُمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذِى عِفَّة ونزاهة ، طُعمة(٣) قد هذبته الآداب وأَحكمته التجارب ، ليس بظَنّين(٤) فى رأيه ، ولا بمطعُون فى حَسبه ، إن أُوتمن على الأَسرار قام بها ، وإن قُلِّدَ مهمًّا من الأُمور أَجزأَ(٥) فيه ، له سِن مع أَدَب ولسان ، وتُقْعِدُه الرزانة ، ويسكنه الْحِلم قد فرَّ(٦) عن ذكاءٍ(٧) وفطنة ، وعَضَّ على قَارحة(٨) من الكمال ، تكْفيه اللَّحظة وترشدهُ السكتة ، قد أَبصر خدمة الملُوك وأَحكمها ، وقام فى أُمُورِهمُ فحمد فيها له أَناةُ الوزراءِ ، وصولة الأَمَراءِ ، وتَوَاضع العلماءِ ! وفهم الفقهاءِ وجَوَاب الحكماءِ ، لايبيعُ نَصِيبَ يومه بِحِرْمَان غَده ، يكَاد يسترق(٩) قلوب الرجال بحلاوة لِسَانه ، وحُسْنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليهِ لائحة ، وأَماراتُ العلم شاهده .

---

(١) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفى سنة ٢٢٦ هـ . (٢) من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة توفى سنة ٢٢٣ ، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحواس . (٣) الطعمة بالضم طريق الكسب وبالكسر هيئة الأكل والسير فيه . (٤) الظنين : المتهم (٥) أجزأ : أغنى (٦) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها (٧) الذكاء تمام السن واكتماله أو حدة الذهن . (٨) الفرس القارح الذى استكمل القوة باكتمال العمر ونظيره فى الابل البازل ، والسن التى تنبت له عند قروحه تسمى قارحا وقارحة والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال (٩) يستعبد .

مُضطلعًا(١) بما استنهض ، مستقلا(٢) بما حُمِّلَ ، وقد آثرتك بطَلَبِه وحبَوْتك بارْتِيَادِه(٣) ، ثِقَةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحُسْنِ تأَتِّيك(٤) .

وصف قناة السويس

للمرحوم أحمد شوقى بك

مخاطبًا ابنَيه يوم أَنْ عبرَ قناة السويس ميممًا الأَندلُس حينما نَفَتْه الأَحكام العُرْفيَّة إبانَ الحرب العالميَّة [الأُولى]

يا بَنِيّ : القناة لقومكما فيها حياة ، ذِكْرى إسماعيل وريَّاه (٥) ، وعُلْيَا مَفَاخِرِ دُنْيَاه ، دولة الشرق المرجاة ، وسلطانُه الْوَاسِعُ الْجَاه ، طريقُ التِّجَارة ، والوسيلة والمنَارَة ، ومشْرَع(٦) الحضارة .

تعبُرَانها اليومَ على مُزْجَاة(٧) كأَنها فُلْكُ النَّجَاة ، خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطُغْيَان الكَوَارث ، تفارق برًّا مُغْتَصبهُ مُضَرِىٌّ(٨) الغَضْبة . قد أَخذَ الأُهْبَة ، وَٱسْتَجْمَعَ كالأَسد للْوَثْبَة ، وتلَاقِىَ بحرًا جُنَّتْ جواريه ، ونزت(٩) بالشَّرِّ نوازيه ، وتمثَّلتْ بكل سبيل عواديه مملوءًا ببغتات الماءِ ، مُترعاً بفجاءَات السماءِ من نون(١٠) ينْسِف الدوارع ، أَو طَيْرٍ (١١) يَقْذِفُ البيض مصارعَ ، فقلت : بِ يرِى ، عَوّذْتك بِوَدِيعة (١٢) التابوت ، وبِصَاحب(١٣)

---

(١) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه اذا كان قديرا عليه . (٢) استقل بالحمل نهض . (٣) والارتياد : الطلب . (٤) تأتى للامر : ترفق وأتاه من وجهه . (٥) الريا : الرائحة الطيبة(٦) المشرع: المورد . (٧) زجاء وأزجاه : ساقه وسيره (٨) مضر فخذ منأفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهذا مأخوذ من قول بشار :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطر الدما

(٩) النزو : الوثب ، والنازية : حدة الرجل الوثاب الى الشر وجمعها نواز . (١٠) النون الحوت والمراد الغواصة (٧) يريد بالطير الطائرات وبالبيض ما يلقى منها من مهلكات القذائف (١٢) هو موسى كليم الله (١٣) هو نبى الله يونس .

الْحُوت ، وبالحيِّ الذى لا يموتُ ، وَاسْرِى يا ابنة اليَمِّ زِمَامُك الروح(١) ، ورُبَّانك(٢)نوح ، فكم عليك من مَنْكُوب ومجرُوح .

إن للنفى لرَوْعَة ، وإن للنأْى للوعة ، وقد جرت أَحكَامُ القضاء ، بأَن نعبرُ هذا الماءَ ، حين الشرُّ مُضطرم ، واليأْس محتدم ، والعدوّ مُنْتَقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جَذْلان مُبْتسم ، يَهْزَأُ بالدمع ، وإن لم ينسجم(٣) . نفانا حُكَّامٌ عُجم ، أَعوان العدوان والظلم ، خَلَفناهم يفرحُون بذهب اللجم ، ويمرَحُون فى أَرسانٍ يُسَمُّونها الْحُكم ، ضربونا بسيفٍ لم يطبعوه ، ولم يملكوا أَن يَرْفَعُوه ، أَو يضعُوه ، سامحهم فى حقوق الأَفراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد ، وما ذَنْبُ السيف إذا لم يستَحِ الجلَّاد ! !

ماذا تهمِسَانِ ! كأَنى أَسمعكما تقولان : أَى شئٍ بدا له ، على هذه الضاحية(٤) وماذا شَجا خياله من هذه الناحية ! أَى حسن أَو طيب للمح يتصبب فى كثيب ماءٍ عكر فى رمل كدر ! !

قناة حَمِئة(٥) كأَنها قناة صَدِئة ، بل كأَنها وَعِبْرَيْهَا(٦) رمال بعضها متماسك وبعضها منهال ، وكأَن راكب البحر مُصْحِر(٧) ، وكأَن صاحب البَرِّ مُبحر ! رُوَيْدَكُمَا : ليس الكتاب بزِينَة جلده ، وليس السيف بحليَة غِمده . تلك التنائف(٨) من تاريخكم صحائف ، وهذه القفار كتبٌ منه وأَسفار ، وهذا المجاز هو حقيقة السيادة ، ووثيقة الشّقاءِ أَو السعادة ، خيط الرقبة ، من اغتصبه اختصَّ بالغلبة ، ووقفَ للأَعقاب عقبة ، ولو سكتُّ لنطقت العِبر ، وأَينَ العيان وأَينَ الخبر !

---

(١) جبريل . (٢) الربان رئيس الملاحين وجمعه ربابنة . (٣) انسجم الدمع : سال . (٤) الضاحية كل أرض بارزة للشمس . (٥) الحمئة : التى فيها الحمأة أى الطين الأسود المنتن ، والقناة الأولى الترعة والقناة الثانية الرمح . (٦) عبر النهر شاطئه . (٧) أصحر سار فى الصحراء (٨) التنائف جمع تنوفة وهى المفـــازة .

انظرا : تريا العِبرين عبرة الأيام ، حصون وخيام ، جنود قعود وقيام ، جيش غيرنا ،فرسانه وقُوّاده ،ونحن بُعْرانه(١) وعلينا أزواده(٢) ، ديك على غير جداره خَلا له الجو فصاح ، وكلبٌ فى غير داره انفرد وراءَ الدار بالنُّبَاح .

القَنَاة وما أدراكما ما القناة ، حظّ البلاد الأغبر من التِقَاء الأبيض والأحمر بَيْدَ أنها أحلام الأُول ، وأمانى الممالك والدّوَل : الفراعنة حاولوها ، والبَطالسة زاولوها(٣) ، والقياصرة تناولوها ، والعرب لأمر ما تجاهلوها(٤) ، إلى أن جرى القَدَر لغابته ، وأتى « إسماعيل » بآيته ، فانفتح البرزخ بعنايته ، والتقى البحران تحت رايته فى جمع من التِّيجان لم يشهده إكليله(٥) ، قد كان يُتَوّج فيه ؛ لو شهدته جيوشه وأساطيله ، وما إسماعيل إلا قَيْصَرٌ لو أنه وفق والإسكندر لو لم يُخْفق . ترك لكم عزَّ الغد وكنز الأبد ، والمَنْجم الأَحد ، والوقف الذى إن فات الوالد فلن يَفوت الولد .

ماذا على الرِّمَال من لمحات جلال وجمال ؟ ارجعا القَهْقَرى بالْخيال ، إلى العَصر الخال واعرضا فى حداثتها الأجيال ، تريا على هذا المكان وُجُوهاً تتمثل وركاباً تتنقل ، وتريا النُّبُوّة تتهلل ، والآيات تتنزل ، وتريا الملك يتَرَجّل ، حتى كأنكما بالزمان الأُول فهاهنا وضعَ المنبوّة المهد ، وابتدأ بها العهد ، فأقبل صاحب المقام ، ومحطم الأَصنام ، وبنّاءَ البيت الحرام ، خليل ذى الجلال والإكرام(٦) .

هاجر إلى مصر أكرم من هاجر ، ثم انقلب منها بأم العرب هَاجِرْ(٧) ، ومِن هذه الثنيّات طلع يوسف فى القيد ، وهو للسيارة صيد ، يسير من كَيْدٍ إلى كَيْدٍ ، قَلْبٌ جرحته الإخوة ، وجنْبٌ قَرّحته النسوة ، فيالك «يوسف» من

(١) البعران جمع بعير كأبعر . (٢) الأزواد جمع زاد وهو الطعام .
(٣) زاول الشيء : حاوله . (٤) يروى ان هارون الرشيد فكر فى أن يصل البحرين بقناة وأنه استشار يحيى بن خالد البرمكى فى ذلك فقال له : ياأمير المؤمنين « ان خرق السويس خرق فى الاسلام » فعدل عن رأيه !
(٥) الاكليل : التاج (٦) هو خليل الله ابراهيم (٧) هى جارية مصرية أهداها فرعون الى السيدة سارة زوج سيدنا ابراهيم فوهبتها له فاستولدها اسماعيل جد العرب المستعربة .

أُسْوة(١) ، عِزٌّ بعد هَوْن ، وذلة بعد المنزِل الدّون ، وشئون أقدار وشُجُون ، وسُهول حياة وحُزون ، وسجوف القصُور بعد السجون إلى سجود الشمس لك والقمر والكواكب الآخَر .

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَوِيلُهُ(٢) ، وطلبه قتيله ، وزيَّنَ له الفرار خليله(٣) ، فحوته هذه الرمال ، فإذا الأَمن سبيله ، وَالْيُمْن دليله ، والسلامة زاملته(٤) والسِّلم زميله ، ولو أَطلعه الله على غيبه ، للَمسَ النبوّة بين يديه وجَيبه إلى أَن رُفِع له المنار ، واكتحل بالنور واقتبس من النار ، وقيل له : كُنْ من الأَحرار الأَحبار ، وارْجع فسلِّط الحقَّ على فرعون الجبار ، فكَان عليه السلام أَول من اقتحم على الفرد جبروته ، وهتك على المستبد طاغوته(٥) ، وخطم(٦) المتَأَله(٧) وحطم عظمُوته ، ماءُ الحق على لُطفه ، ظفِر بنار الباطل على عُنْفِه ، ظهر العدل على الحيف ، وكسرت العَصَا السيف .

وعلى هذه الأَرض مَشت السماءُ(٨) الطاهرة ، والنَّيرَة الزَّاهرة ، والآية المتظاهرة أَم الكلمة (٩) وطريدة الظلمة ، سرحوا فى عِرضها فأَخرجوها من أَرضها فضربت فى طول الأَرض وعرضها ، يوسف حاديها ، وجبريل هاديها ، والقدس ناديها ، والطهارة أَرجاءُ واديها ، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وجناح الرحمة والإِصباح من الظلمة ، حتى هبطت به أَكرم الأَديم(١٠) فنشأَ بين الحكيم والعليم

(١) الأسوة : القدوة ، وما يتأسى الحزين أى يتعزى (٢) زال زويله : فزع وحذر (٣) يشير الى ما كان من امر موسى حين وجد قبطيا واسرائيليا يقتتلان فاستنصره الاسرائيلى على القبطى فوكزه وكزة كانت القاضية ، فاما أصبح وجد الاسرائيلى نفسه يقاتل قبطيا آخر فاستغاثه فقال موسى انك لغوى مبين . ثم هم بنصرته على القبطى فظن أنه يريده بالأذى فصاح الاسرائيلى ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس فذاع أمره ولم يلبث أن جاءه رجل وقال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج منها الى بلاد مدين (٤) الزاملة ما يحمل عليه من الابل وغيرها . (٥) الطاغوت : الشيطان وكل رأس ضلال (٦) خطمه : قهره أو ضرب أنفه (٧) أراد المتكبر غير أن معناها اللغوى المتنسك المتعبد . (٨) يريد السيدة مريم (٩) الكلمة سيدنا عيسى (١٠) الأديم: وجه الأرض

وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم . فيالك من دار لعبت على عُرَاصاتها الأقدار ، ناوئت(١) موسى القريب ، وآويت عيسى الغريب ، نَبوت(٢) بالنبي وحَبَوْت الأَمنَ عيسى وهو صبي ، عُذرك لا تنضى(٣) إليه المطى ، فإنما أَغضبت القبطى لابنك القبطى .

ثم انظرا تريا إبلا صِعَاباً ، وخَيْلا عراباً (٤) . وتريا الرُّعاة(٥) انقضوا على الوادى ذئاباً ، فأَخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبدوا بالملك فيها آونة . وتريا الوحوش الضاربة والجوارح الكاسرة ، يقودها شر الأَكاسرة(٦) ، مَلأَت هذه الفجاج(٧) ، وكأَنها حرجات(٨) السَّاج ، أَوحركات الأَمواج ، ثم تدفقت تكتسح الدِّيار ، باغية السيف طاغية النار ، تدك الهياكل والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل .

وتريا الإِسكندر الكريم ، قد لمَع كالصارم من هذا الضريم(٩) ، يحمل الحملات النَّجائب ويفتح بالكتب والكتائب .

وتريا ابن العاص والصَّحابة ، مروا من هذه الأَرجاءِ مرّ السحابة ، يفتحون للحقِّ ويفتكون بالرّق ، حتى أَخلوا القُصُور من القياصرة ، وأَراحوا مصر الصابرة من صلف الجبابرة .

وتريا صلاح الدين يَختفى كالبدر ويبدو ، ويروح كالغيث وَيَغْدُو ، بعوثٌ بلا عَدَد ، ومددٌ إِثر مدد ، وذخائر وعُدد ، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قد ركب طيشه ، وأَركب الغرر جيشه . وتريا إبراهيم بن على مشهور الجراز ، موفور الجهاز ، ملك سورية وضبط الحجاز . وتريا إسماعيل

---

(١) ناوأه ونواه : عاداه (٢) نبا به المكان : لم يوافقه (٣) انضى المطية : هزلها (٤) العراب من الخيل والابل العربية (٥) العمالقة الذين ملكوا مصر مدة من الدهر (٦) قمبيز (٧) الفجاج : الطرق الواسعة (٨) الحرجة : الشجرة الملتفة والساج شجر يعظم جدا ويذهب طولا وعرضا له ورق عريض جدا . (٩) الضريم : الرمل

بعث الحشرين ، وحشد الحافرين ، وقرّب المسافة للمسافرين ، غيّر وجه السفر ، فقيل : بلغ غاية الظفر ، وقيل : وقع الحافر فيما حفر .

ثمَّ انظرا اليوم تريا القناة في يد القوم إنْ أَمنوا ركزوها ، وإن خافوا هزوها

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً :

هو حَسَنُ القميص ، جيد الفُصُوص ، وثِيق القصب ، نقيّ العصب ، يُبصر بأُذُنيه ، ويتبوع بيديه ، ويُداخل برجليه ، كأنه موج في لُجَّةٍ أَو سيل في حدُور يناهب المشى قبل أَن يبعث ، ويلحق الأَرانب في الصعُوداء ، ويجاوز جوارى الظِّباء في الاستواء ، ويسبق في الحدود جرى الماء ، إن عُطِفَ جار ، وإن أُرسل طار ، وإن كُلِّف السير أمعن وسار ، وإن حبس صفَنَ ، وإن استوقف قطن ، وإن رعى أَنن ، فهو كما قال تـأَبط شَرًّا :

ويسبق وفد الريح مِنْ حيث تُنْتَحَى بمنخَرَق من شدَّة المتدارِك

وصف العصا

لقي الحجَّاج أعرابياً ، فقال : مِنْ أَين أَقبلت؟ قال من البادية قال : ما بيدك؟ قال : عصاً أَركزها لصلاتى ، وأُعدُّها لعُداتى ، وأَسوق بها دابتى وأَقوى بها على سفرى ، وأَعتمد عليها في مشيِي ، ليتسع بها خطوى ، وأَعبر بها النهر فتؤمنى وأَلقى عليها كساء فيسترنى من الحرِّ ، ويقينى من القرِّ ، وتدنى ما بعد منى ، وهى محمل سُفرتى وعلاقة إداوتى(١) ومِشجبُ ثيابى ، أَعتمد بها عند الضراب وأَقرع بها الأَبواب ، وأَتقى بها عقور الكلاب ، تنوب عن الرُّمْح في الطعان ، وعن الحرْبة عند مُنازلة الأَقران ورثتها عن أَبى ، وأُورثها بعدِى ابنى ، وأَهش بها على غَنمِى ، ولى فيها مآرب أُخرى ، كثيرة لا تحصى .

---

(١) الاداوة : وعاء ماء يتطهر به .

وصف كرة القدم لمؤلف الكتاب

قاتل الله الكرة : ما أَعجب أَمرها ، وما أَدقَّ سرَّها ، قد جمعت الأَضداد واسترقت النجباء والأَوغاد ، فهى كبيرة الحجم ، مُفوَّقة الجسم ، لكنها خفيفة الوزن ، سريعة الوثْب ، وهى ناعمة اللمس ، مليحة الرقص ، لكنها تأْبى الوخْز ولا تطيق اللكز ، وهى تفرُّ من المداعبة والملاعبة ، ولكنها لا تمل من ضرب ولا تكل من دحرجة ، وهى محبوبة مأْلوفة ، تنقل على الأَيدى والأَحضان ، لكنها تطرد بالأَرجل والعصىِّ ، فهى عزيزة ذليلة ، حقيرة جليلة ، تُشْبه القنابل فى صورها ، والدُّفوف فى أَصواتها ، والطير فى امْتطاءِ الهواءِ ، واختراق الفضاءِ .

وصف جيوش لابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ

وصار فلان فى جيوش ، عليهم أَردية السيوف ، وأَقمصة الحديد ، وكأَن رماحهم قرون الوعول(١) ، وكأَنَّ أَدراعهم زبد السيول على خيل تأْكل الأَرض بحوافرها وتمد بالنقع سُرَادِقها ، قد نُشرت فى وجوهها غرر(٢) كأَنها صحائف الرق(٣) وأَمسكها تحجيل(٤) كأَنها أَسورة اللجين وقرطت عذرا(٥) كأَنها الشنوف تتلقف الأَعداء أَوائلها ، ولم تنهض أَواخرها ، قد صب عليهم وقار الصبر ، وهبت معهم ريح النصر .

وصف الحسد للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الحسد ــ أَبقاك الله ــ داء ينهك الجسد ، علاجه عسيرٌ وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض(٦) وماظهر منه فلايداوى ، وما بطن منه فمداويه فى عناء ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دَب(٧) إليكم داءُ الأُمم من قبلكم الحسد والبَغْضاءُ »

الحسد عقيد(٨) الكفر ، وحليف الباطل(٩) وضدّ الحق ، منه تتولد

---

(١) جمع وعل وهو تيس الجبل (تيس الشاة الجبلية) وقرونه طويلة .
(٢) جمع غرة وهى بياض فى جبهة الفرس (٣) الرق جلد رقيق أبيض يكتب فيه (٤) التحجيل بياض قوائم الفرس (٥) أى السبت عذرا وهو ما على خد الفرس من اللجام . (٦) أى مسالك خفى يعسر الخروج منه (٧) سرى فيكم (٨) أى معاهدة ومحالفة (٩) ملازمة

العداوةُ ، وهو سبب كل قطيعة(١) ومُفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم مِنَ الأَقرباءِ(٢) ، ومُحدثٌ للتفرق بين القُرناء(٣) ، ومُلقح الشرِّ بين الحلفاءِ(٤)

ووصف أيضًا أفضل الكلام ـ وقال :

أفضل الكلام ما كان قليله يُغنى عن كثيره ، ومعناهُ ظاهرا فى لفظه ، وكأن الله قد ألبَسَه من ثياب الجلالة ، وغشاه(٥) من نور الحكمة ، على حسب نِية صاحبه وتقوى قائله ـ فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه(٦) مُنزهًا عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلف ، صنع فى القلوب صنيع الغيث(٧) فى التربة الكريمة ، ومتى فُصّلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأْييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عُقول الجهلة .

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُريد : سأَلت أَبا حاتم عن « أَبى نواس » فقال : إن جدّ أَحسن وإن هزل ظرف ، وإن وصف بالغ ، يُلقى الكلام على عواهنه لا يُبالى مِنْ أَينَ أَخَذَ ، قلت : « فبشار بن بُرْد » قال : نظار غوّاص مطيلٌ مجيد يصف مالم يره كأنه رآه على أن فى شعره خلَلا كثيراً ، قلت : « فمروانُ بن أَبى حفصة » قال : شاعر راض عن نفسه يستحسن كل ما جاءَ منه معجبٌ به ، لا يرى أَنَّ من سبقه يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة قلت : « فمسلم بن الوليد » ؟ قال : خليج صافٍ ينزع من بحر كدر ، كالزند يورِى تارةً ويصلد أُخرى ، قلت : « فأَبو العتاهية » قال : غناء جَمٌّ ، واقتدار سهل وشعر كخرز الزجاج ، وربما أَشبه الياقُوت والزبرجد ، قلت : « فعباس بن

(١) انفصال (٢) كل قرابة واتصال (٣) المناظر (٤) مولد الشر بين المتحالفين (٥) كساء (٦) أى من اجبار الفكر (٧) المطر

الأحنف» قال : يُلقى دلوَهُ في الدلاءِ فيغترفُ الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه ، قلت « فسلم الخاسر » قال : مُقِلٌّ مداح ، شعره دِيباج وعهن ، يُمَوّه الردىء حتى يشبه الجيد ، قلت « فأبو الشيص » قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التى نفضت ففيها المستعذب والمستبشع قلت « فعلى بن جبلة » قال : بحّاث عن الكلام الفَخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينالُ مرتبة القُدماء ، ويجل عن منزله النظراء . قلت « فأبو تمام » قال : سيل كثير الغثاء ، غزير الغَمار ، جم النطاف ، فإذا صفا فهو السّلاف بالماءِ الزلال ، قلت : « فعبد الصمد بن المعذل » قال : خرَّاج وَلاَّج ، يعتسف تارة ويهتدى أخرى ، قلت « فعلى بن الْجهْم » قال كلام رصين ومسلكٌ وعر ، عقله أغلبُ على شعره من طبعه ، قلت « فبكر بن النطاح » قال : تشبه بالأعراب فأفرط. وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط بين القريتين .

وصف ابن الأثير المتوفى سنة ٨٥٩ هـ أبا تمام والبُحْترى والمتنبى

قال : لقد وقفت من الشعر فى كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقفُ على ساحله ، وكيف يُحصى قول لم تُحص أسماء قائليه ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتتشعب مقاصدُه ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداعُ المعنى الشريف ، فى اللفظ الجزل اللطيف فمتى وجدت ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبى تمام ، والبحترى والمتنبى ، وهؤلاءِ الثلاثة هم (لَاتُ الشعر وعُزَّاهُ ومناتُه) الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومُستحسناته ، وقد حَوَتْ أشعارُهم غرابةَ المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماءِ . أما أبو تمام : فإنه ربٌّ معان وصيقل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مُبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مُدَافع عن مقام الإعراب ، الذى برز فيه

على الأَضراب . ولقد مارست من الشعر كل أول وأَخير ، ولم أَقل ما أَقوله إلا بعد التنقير ، فمن حفظ شعر الرَّجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه أَطاعته أَعِنَّة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت «حَذَام » فخذ منِّى فى ذلك قول حكيم وتعلم (ففوْقَ كلِّ ذى عِلْم عَليم) .

وأما البُحْترى : فإنه أَحسنُ فى سبك اللفظ على المعنى ، ولقد حاز طرفى الرِّقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجدٍ ، إذ يتشبَّث بريف العِراق ، وسُئِل المُتنبي عنه وعن أَبي تمام وعن نفسه فقال : أَنا وأَبو تمام حكيمان ، والشاعر البُحترى . ولعمرى إنه أَنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن البُحْترى أَتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصَّخرة الصماءِ ، فى اللفظ المصُوغ من سُلافة الماءِ ، فأَدرك بذلك بُعْدَ المرام ، مع قُرْبه إلى الأَفهام ، وما أَقول إلا أَنه أَتى فى معانيه بالنوادر الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدَّرجة العالية . وأَما المُتنبي فإنه أَراد أَن يسلك مسلك أَبي تمام ، فقصُرَت عنه خطاه ، ولم يعطه الشِّعر من قياده ما أَعطاهُ ولكنهُ حُظِيَ فى شعره بالحكم والأَمثال . واختص بالإبداع فى وصف مواقِفِ القتال وأَنا أَقول قولا لستُ فيه مُتأَثماً ، ولا منه مُتَلثِّما ، وذلك أَنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أَمضى من نصالها ، وأَشجعَ من أَبطالها . وقامت أَقواله للسامع مقام أَفعالها ، حتى يظن أَن الفريقين قد تقابلا ؛ والسِّلاحين قد تواصلا فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أَنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أَداه إليه عِيانه ، ومع هذا فإنى رأَيت الناس عادلين عن سُنن التوسُّط فإما مفرِّط فى وصفِهِ وإما مُفْرط . على أَنه إذا كان انفرد بطريق صار أَبا عذره ، ولقد صدق فى قوله من أَبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رُؤيته ... إن الكرام بأَسخاهم يدًا خُتموا
ولا تبال بشعر بعد شاعِره ... قد أُفْسِدَ القول حتى أُحْمِدَ الصمم

وصف المفضل الضبى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مروره ببعض أحياء العرب

رَوَى المفضل الضبي قال : نزل علينا بنو ثعلبة فى بعض السنين وكنتُ مشغوفًا بسماع أخبار العرَب وجمعها ، فأَخذت أَجولَ بين خيامهم ، وأَتحسسُ من أَحوالهم وإذا أنا بامرأَة واقفة فى فِناءِ خبائها آخذة بيد غلام قلَّما رأَيتُ مثله فى حسنه وجماله وهى تعاتبُهُ بلسان رطب، وكلام عَذْب ، يسترقهُ السمع ويترشفه القلب ، فكان أكثر ما أَسمعهُ منها (بنىِّ – وأَى بنىٍّ) وهو يتبسم فى وجهها وقد غلب عليه الحياء والخجل كأَنه من ربات الحِجَال فلا يَحِيرُ جواباً ، ولا يبدى خطاباً ، فاستحسنتُ ما رأَيتُ ، واستحليت ما سمعتُ ، فدنوتُ فسلمت فرد عَلَىّ السلام ووقفتُ أَنظر إلى المرأَة والغلام ، فقالت لى : يا حضرى ما حاجتك؟ قلت : الاستكثارُ مما أَسمعُ ، والاستمتاع بما أَرى ، فابتسمت وقالت : يا هذا إن شئت سقْتُ إليك ما هو أَحسنُ مما رأَيتَ ، فقلت هات حفظك الله ، قالت : ولد هذا الغلام فكان ثالث أبويه فَرُبِّىَ بيننا كانه شبلٌ ، وكنتُ أَقِيه برد الشتاءِ وحرّ الهجير ، حتى إذا ماتمت لهُ خمس سنين ، أَسلمتُه إلى المؤدِّب فحفظه القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فروَاه ، ورغب فى مُفاخرة قومه ، وطلب مآثر آبائه وأجداده فلما اشتد عظمه وكمُل خلقه ، حملتُه على عِتَاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى لخيلاءَ بين بيوتات الحى ، وأَصغى إلى أَصوات ذوى الحاجات ، فأَخذ فى قِرَى الضيف وإطعام الطعام ، وأَنا عليه وجلة أَحرسه من العيون أَن تصيبه ، ومن الأَلسن أَن تعيبه ، إلى أَن نزلنا فى بعض الأَيام منهلاً من المناهل بين أَحياءِ العرب ، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأْر لهم وشاءَ الله تعالى أَن أَصابت لغلام وعكة شغلتْهُ عن الخروج ، حتى إذا أَمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره . ونحن آمنون وادعون ، فوربك ما هو إلا أَن أَدبر الليل وأَقبل الصبح حتى طلعت علينا طلائع العدو وغرر الجياد ثوارًا لا زوارًا ، فما كان

إلا هنيهة حتى أَحرزوا الأَموال ، وهو يسأَلنى ما الخبر ؟ وأَنا أَستره عنه إشفاقًا عليه وضنًّا به ، حتى إذا علت الأَصوات وَبُرِّزَت المخدرات ، رمى دِثاره وثار كما يثور الضرغام إذا أُغضِبَ ، فأَمر بإسراج فرسه ، ولبس دِرجَ حربه ، وأَخذ رمحه بيده ، وركب حتى لحق حماة القوم وأَنا أَنظر إليه فطعن أَدناهم منه فرمى به ، ولحق أَبعدهم فقتله ، فانصرفت إليه وُجوه الفرسان ، فرأَوه غلاماً صغيراً لا مدد وراءه ، فحملوا عليه ، فأَسرع يَؤُمُّ البيوت ، حتى إذا خلفهم وراءه وامتدوا فى أَثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزّق ، وَمَرَق كما يمرق السهم من الرمية ، وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به ، أَو لأَهلكن دونه ، فتداعت إليه الأَقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأَسنة ، ومالوا عليه بالأَعنة ، فوثب عليهم وهو يزأَر كالأَسد ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا هزمها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ، ففاز بالأَموال وأَقبل بها ، فكبرت القوم عند رويته ، وفرحوا فرحاً عظيما بسلامته ، فوالله ما رأَينا قطُّ يوماً كان أَصبح صباحاً وأَحسن رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته ينشد فى وجوه فتيات الحى هذه الأَبيات :

تأَملنَ فعلى هل رأَيتن مثله ... إذا حشْرجَت نفس الكمى عن الكرب
وضاقت عليه الأَرض حتى كأَنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلبِ
أَلم أعطِ كلاًّ حقه ونصيبه ... من السمهرى اللدن والصارم العضْبِ
أَنا ابن أَبى هند بن قيس بن خالد ... سليل المعالى والمكارم والسيْبِ
أَبى لى أَن أَعطى الظلامة مُرْهفٌ ... وَطرفٌ قوى الظهر والجوف وَالْجنْبِ
وعزم صحيحٌ لو ضربت بحده ... شماريخ رضوى لانحططن إلى الترب
وعرضٌ نقىٌّ أَتقِى أَن أَعيبَه ... وَبَيت شريف فى ذُرَا ثعلب الغلبِ
فإن لم أُقاتل دُونكن وأَحتمى ... لكن وأَحميكن بالطعن والضرب

وأَبذُل نفسًا دونكن عزيزة علىَّ لأَطراف القنا وَظُبَى القضبِ
فلم تصدق اللاتى مشين إلى أَبى يهنئنه بالفارس البطل النَّدبِ

وصف نهج البلاغة للإمام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ ه

أَوفى لى حكم القدر بالإطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدفةً بلا تعمد، أَصبته على تَغيُّر حال، وتبلبل بال، وتزاحم أَشغال، وعطلة من أَعمال، فحسِبته تَسلية وَحيلةً، فتصفحت بعض صفحاته، وتأَملت جملاً من عباراته من مواضع مختلفات، ومواضيعَ متفرقات، وكان يخيل لى فى كل مقام أَن حروباً شبتَ، وغارات شنت، وأَن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأَن للأَوهام عرامة (١)، وللريب دعارة (٢)، وأَن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة، فى عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأَبلج (٣) والقويم الأَملج (٤)، وتمتلج (٥) المهج برَوائع الحجج، وتفل دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس (٦) فما أَنا إلا والحق منتصر، والباطل منكسر، وَمَرْج الشك فى خمود، وَهَرْج الريب فى ركود، وأَن مدير تلك الدولة، وباسل الصولة هو حامل لوَائها الغالب، أَمير المؤمنين علىّ بن أَبى طالب؛ بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أَحسُّ بتغيُّر المشاهد، وتحول المعاهد، فتارة كنت أَجدنى فى عالم تعمره من المعانى أَرواح عالية، فى حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية تُوحى إليها رشادها، وتقوم منها منآدها، وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال، وطورا كانت تتكشف لى الجمل عن وجوه باسرة، وأَنياب كاشرة، وأَرواح فى أَشباح النمور، ومخالب النسور، وَقد تحفزت للوثاب، ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها، وَأَخذت

(١) العرامة: الشراسة (٢) الدعارة: سوء الخلق (٣) الصفيح: السيف، والأبلج: اللامع البياض (٤) الرمل الأملج: الاسمر (٥) تمتلج: تمتص (٦) الخوانس خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء

الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأَهواء ، وباطل الآراء ، وأَحياناً كنت أَشهد أَن عقلا نُورانيًّا لا يشبه خلقاً جسدانياً فُصِل عن الموكب الإلهىّ ، واتصل بالرُّوح الإنسانىّ ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأَعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأَجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأَنى أَسمع خطيبَ الْحِكمة ، يُنادى بأَعلياءِ الكلمة ، وأَولياءِ أَمر الأُمة ، يُعَرِّفهم مواقعَ الصواب ، ويُبصرهم بمواضع الارتياب ويُحذرهم مزالق الاضطراب ، ويُرشدُهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويُشرف بهم على حسن المصير .

وصف حفلة للمرحوم المُويلْحى المتوفى سنة ١٩٣٠ م

لو كان لليالى لسانٌ ينطق بالفَخَار ، وجنانٌ يجرى بنظم الأَشعار ، لأَنشدت ليلةَ الحفلة (الخديوية) قصيدةً تسجل لها فى ديوان العصور والدهور ، مالم تبلُغه ليلة قبلها فى تكامل الفرح والسرور ، ولو كان الدهر يُفْصِحُ لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه ، لأَنبأْنا بأَنه ادّخرها غُرَّة لجبينه ، ودُرَّة لتاجِه .

لا زالت أَيام الجناب العالى ولياليه مُشرقةً بالسعد والهناءِ ، مُتأَلقة تأَلق البدُور فى أُفق السماءِ .

ووصف أَيضاً متحفاً من مقامة له

قال عيسى بن هشام : زايلْنا الأَهرام وخليناها ، تندُبُ من شادها وتنعى مَنْ بناها ، وملنا إلى دار التُّحَف ومستودع الآثار ، لمشاهدة ما حفظتُه لنا من صُنوف الطرف وعُيون الأَخبار ، وما أَخْرَجته الأَيام من عالم الخفاءِ إلى عالم الظهور ، بعد أَن كان سرًّا مكتوماً فى خواطر العصور والدهور ، وما صانتهُ بطون القُبور من الفناءِ والدثور ، وحمته أَحشاء الرُّمُوس من العفاءِ والدُّرُوس وما أَخْبَتْه

أَرحام المعابد والهياكل من بقايا الماضِين وخبايا الأَوائل ، وما انكشفتْ عنه سُجُوف الأَحقاب وديعةَ الأَسلاف للأَعقاب ، من مكْنُون الدفائن ومكنوز الخزائن وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع البِدْع الأَنيق ، وغرائب الصنع العَتِيق ، بليتْ فى اصطحابها بطونُ الأَيام والليالى ، وانحنت فى احتضانها ظهورُ العُصور الخوالى ، وانقلبت البحار وهادًا ، وأَصبحت الوِهاد أَطوادًا ، وغدتِ الأَغوارُ أَنجادًا ، وأَضحى العمارُ خراباً والخرابُ عمارًا ، والغمَارُ سرَاباً ، والسراب غمارًا ، وتمدينتْ بوَاد ، وتبدَّتْ مدائن(١) ، وبادتْ مواطن وقامت موَاطن(٢) ، ومضت دول ، وذهبت أُولٌ إثرَ أُول ، وبدَتْ أَحوالٌ وحالت ، وظهرت أَعمالٌ وزالت ، وهى كما تركها أَهلُها ، مَصُونٌ وَضْعُهَا ، محفوظٌ شكلها ، خبرٌ صادق ، ولسانٌ ناطق تخبر بالعبر ، وتحدث عمنْ غبر :

مضت غبراتُ العيش وهى غوابر على الدهر مكتوبٌ عليها حبائس

وصف الفونغراف « الحاكى » للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ

مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقْتَطِف الأَلفاظ اقتطافاً ، ويختطف الصوت اختطافاً ، مطبعة الأَصوات ، ومِرْآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية ، نقل كلام عمر رضى الله عنه إلى سارية(٣) أَشدُّ من الصدى فى إعادة الصوت على أَصله ، كأَنه الحروف على يد الطابع ، والوتر عن يد الضارب والقصبُ على فم القاصِب ، يحفظ الكلام ولا يُبيدُه ، ومتى استعدته منه يعيده ، من غير أَن يُبقى لفظاً فى صدره ، أَو يكتُم شيئاً من أَمره ، كأَنما حِفظُ الوَديعة فى نفسه طبيعة ، فلو تقدَّم له الوجودُ فى مرتبه الزمن لما احتجنا فى الإخبار إلى عنعنة(٤) ، ولا فى الدعاوى إلى بيِّنة ، بل كان يُسْمِعنَا كلام السيد المسيح فى المهد ،

(١) البادية : الصحراء (٢) مواطن الأولى — جمع موطن — أى مكان الانسان ومقره ، ومواطن الثانية : مشاهد الحرب (٣) ابن زيد الذى ناداه عمر رضى الله عنه على المنبر (٤) مراده الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم التى تروى عن فلان عن فلان .

وصوت عاذر(١) من اللحد ، وكانت اسْتَوْدَعَتْه الفلاسفة حكمتهم ، وأَنشدُوه كلمتهم ، فرأينا غرائب اليونان وبدائع الرُّومان ؛ وربما سمعنا خُطب سحبان وشعرَ سيِّدنا حَسَّان بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غيرَ محدود بزمن من الزمان . لله درُّه من تلميذ يَستوعب ما عند المعلم ، ويستخلصه فى لحظة مُعيدا لقوله ، ناقلا لصوته ولفظه :

لقد وجدتُ مكانَ القول ذا سَعَةٍ فإن وجدت لساناً قائِلا فَقُلِ

نديم ليس فيه هفوةُ النديم ، وسمير لا يُنسب إليك تقصير ، تُسْكته وتستعيده تَذُمه وتستجيده ، تنقصه وتَسْتزيده ، وهو فى كلّ هذه الأَحوال راضٍ بما يقال ، لا يكل من تحديث ، ولا يملُّ من حديث ، نمامٌ ينمُّ لك كما ينم عليك ، وينقلُ لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصوِّرُ لكلّ فن ، المتكلمُ بكلِّ لُغة ، المتحدِّث عن كلِّ إنسان ، المؤرِّخ لكل زمان ، الشاعر الناثر ، المغنى العازف لا تعجزه العبارة ، ولا يُجهده الأَداء ، ولا يضرُّه اختلافُ شكل ، ولا تبايُنُ أَصل بل تعهدت شِدَّة حفظه للبشرية من اللغات ، إلى حفظ أَصوات العجماوات إلى اصطكاك الجمادات

وقال ووصف أَيضاً نظارة ويشكر من أَهداها :

ورد الكتابُ المطَرَّزُ بحلى الكَرم . المُحَلى بجميل النِّعم ، واستلمتُ الهدية فسلمتْ يدٌ أَهدتها ، وحُفِظتْ السجايا التى محاسن الأَعمال هدتها ، ودامت رحابٌ لمثل هذه الحسنات فيها مجال ، وللمُحسنات بهاء وجمال ، وللآمال محط رحال ، وللمقاصد كعبةُ إقبال ، وطابت نفسٌ تعالى الله أَن تماثلها نفسُ عصام فإنها نسخت آية الكَرِّ والإقدام ، بآية الْجُود والإكرام ، وفعلت فى القلوب بالعطاءِ والنَّوال ، ماقصرت عنه الرِّماحُ الطوال ؛ وتأَملتُها فأَرَتنى الاعينٌ رأَتْ

(١) هو الذى أحياه عيسى، عليه السلام .

وأَظهرتْ من محاسن المَناظر ما أَمرت وقربت كلَّ منظور بعيد ، وتلت «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» وصفا وقتى بصفائها ، فلم أَشْتَهِ شيئاً إلا جمعتْ بينه وبيني ، وصحَّ علينا قولُ القائل : «رأَيت بعينها ورأَت بعيني» ثم سرَّحت نظرى فى الأَطلال والرُّسوم ، حتى نظرتُ نظرة فى النجوم فلم تُخف عنِّى شجرًا ولا مدرًا ، ولا نجماً ولا قمرًا :

يزيد وجهُها حُسْناً إذا ما زِدْته نَظرا

ببهاء يخيَّل لى أَنها صيغتْ من ضياء ، فلا عَيْب فيها غير أَنى نظرتُ بها فى سماء فضلك الباهر ، وأُفق شرَفك الظاهر ، فلم ينكشف لى بها لجُودك آخر ، لا زال كرَمُك بعيدًا حدُّه على كلِّ ناظر وباصر ، وفضلُ مناهلك غاية تقصدها الأَوائل والأَواخرُ .

وصف سان استفانو بالإسكندرية لمؤلف الكتاب

كتابي والقلمُ فى البنان ، يُسَطِّرُ ما يمليه الجنان ، على محاسن ذلك المكان المشهور بـ (سان استفانو) . هناك ترَى البحر كالمرآة تمثلتْ فيها السماءُ ، فكأَنما الماءُ سماء ، والسماءُ ماء ، وتخال الشاطئَ مَرْتعاً للظبيات الآنسَات ، أَو سُوق جمال تُباع فيه القلوبُ على الغانيات .

هُناك الشبيبة واللعب ، والزَّهْوُ والطرب ، وقد اعتلَّ الصَّبا ، وصحَّ الصِّبا ، حُورٌ ووِلدان يمرحون بنشاط الشباب ، ويتهادُون بنشوَة الدَّلال والإعجاب ، فمن «غادات» روائح وغاديات ، قُدُودُهن الرِّماح الطاعنات ولحاظهنَّ القاتلات المُحْيِيات .

ومن «ولدان» يلعبون بالكرة والصوْلجان ، فالكرة قلبُ المحِبّ المتيَّم ، والصَّوْلجان الذى يدفعُها شوق العاشق المغرم ، هُناك نغمات الأَوتار تدعُو إلى اغْتِنَام الأَوطار ، تهدى الارْتياح إلى الأَرواح ، وتُبْدِل الأَفراح من الأَتراح

هُناك الكؤوسُ على قُطْب الخلاعة تدُور ، فهي برشفاتها الثغور ، وبنُورها البدُور تَشْرُق من الحنان وتَغرُب فى أفواه الندمان ، فيعلُو الوُجوه الشفق ، فتبارك المبدِعُ فيما خلق .

هُناك فريقٌ من أهل الهوَى ، حُلفاء الأَسى والجوَى ، يختلسُون النَّظرات وتحتها سهام صائبات ، تقصدُ قلوبهم ولا راحمَ لهم ، ينادون من يُحبون فلا يُجابون ، ويتذلُّون لعزِّ الجمال على أنهم لا يُحَابُون ، يتمنَّون الرِّضا بعد الهَجْر وحلوَ اللقا بعد الصبر ، وفريقٌ آخر قد وافاهم السعد فنالوا الأَمانى ، تعلو وُجوههم نضرَةُ النعيم بما نالوه من إشارة أَو تسليم ، يتبادلون التحيَّاتِ بالحواجب ، ويُشْفِقُون على القلوب فيضعون الأَيدى فوق الترائب ، حتى إذا الليلُ سجا ، وسترَهم رِداء من الدُّجى ، يَتلاقون إلى جانب اليمِّ ، ويَتهامسون والفمُ قريب من الفم ، ترَاهم على الأَرائك جَنْباً بجنب ، وعُنقاً على كتف ، مبتعدين عن العُيون هنا وهنا ، وقد بلغوا الآرابَ والمُنى ، يَجْتَنُون الثمرَ من السَّمر ، ويلثمون الرَّاح بالراح ، ولا يزالون فى مسرّة وهناء وأنس وصفاء ، حتى يُنادِى منادى الموائد بحَىِّ على شهِىّ الطعام ، وهلمُّوا إلى رَائق المُدَام ، فيجلسون مثنى وثلاث ورُباع محفوفين ببيانع الأَزهار ، مستضيئين بأَزهى الأَنوار ، والغلمان عن يمينهم وشمالهم قائمون بحوَائجهم ، وهم فى لباسهم كأَقمار ، وفى خِفَّتهم كلمح الأَبصار فيأْكلونَ ويشربون ، ويضحكون ويلعبون بين نغمة بالحديث الرَّخيم ، ونشوة بالمدام القديم ، حتى إذا أَخذتْ كل حاسة حظَّها ، وتلجْلجتْ الأَلسنة فلا تفهم لفظها ، هنالك تراهم كسرْب الظباء رائح وغاد ، هذه مائلة وهذا مُتهَادٍ ، إلى أن يتمشَّى النوْم فى الجفون ، فتذبل العيون فينصرفون إلى المنام ، ويحلمون بلذيذ الأَحلام ، بعد أَن يتعاهدوا على الأَوبة ويحسنوا الختام بالتوبة .

وصف الشمس

الشمس كوكبٌ مضىء بذاته ، وهى أَعظم الكواكب المرئية لنا منظرا ،

وأَسطعُها ضوءًا ، وأَغزرها حرارةً ، وأَجزلُها نفعًا للأَرض التى نسكنها ، ولكثير من أَخواتها ، سيارات الشمس وبناتها .

والشمس كرةٌ متأَجِّجة نارًا ، حرارتها أَشد من حرارة أَى ساعور(١) أَرضىّ ، ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقْلِ الأَرض ، وهى أَكبر منه جِرماً بثلثمائة أَلف وأَلف مرّةٍ .

وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة فى نحو خمسة وعشرين يوماً . وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين أَلف أَلف ميل وخمسمائة أَلف ميل وهى مع كلِّ هذا العِظَم الهائل لاتعد فى النجوم الكبرى ، بل إن فى أَكثر ما نشاهد من النجوم الثابتة شموسٌ أَكبر من الشمس بالأُلوف الأُلوف ، والشمس بسياراتها تابعٌ من توابع أَحدها .

وسطح الشمس مهب عواصف وزوابعَ نيرانيةٍ شديدةٍ ، تثير فى جوِّها أَشوظةٌ(٢) هائلةٌ تندلعُ(٣) أَلسنتها المتأَجِّجة عن محيط كرتها أَميالاً ، وقد وصف بعض العلماء لهبًا ارتفع من سطحها لأَول وهلة نحو أَربعين أَلف ميل فى الفضاء ، ثم ازداد بريقًا(٤) ثم ارتفعَ بعدَ نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائة أَلف ميل ، ثم جعل يَضْول ويضعف ، فلم يمض ساعتان حتى اضمحلّ اضمحلالا ، غير أَن ما وصفه هذا العالم ليس إلا من قبيل النّوادر ، ولكن ارتفاعَ اللهب نحو مائة أَلف ميل ليس بغير العادى وكثيرًا ماتبلغ سرعة اللهب مائة ميل فى الثانية ، وأَكثر مادة الشمس من عنصر المُخْذِى (الإيدروجين) المتقد .

وبرصد الشمس مرارًا بالمرقب المغشى بالسواد شوهدَ فى صفحة قرصها نكتٌ سودٌ ، وكلف يشوِّه محياها ، كأَنما هى كرةٌ سوداء الباطن غلفت

---

(١) الساعور : النار نفسها أو موقدها (٢) الشواظ اللهب
(٣) اندلع اللسان خرج من الفم . (٤) تلألؤا

بِسَطحٍ ساطع من الصعادات يَتَخَلله نَقَبٌ يظهرُ تحتها السوادُ ، ولا تزال حقيقة هذه البقع موضوع البحث والتعليل عند الفلكيين ، ومن تنقلِ هذه النكت عرفت دَورتها على مِحْورها .

وللشمس سيارات أو أبناءٌ انفصلت منها منذُ أزمانٍ سحيقة ، عُلِمَ منها إلى الآن نحوُ ثمانية ، هي على ترتيب الأقرب منها فالأقرب : عطارد ، فالزّهْرَة ، فالأرض ، فالمرِّيخ ، فالمشتَرى ، فزُحل ، فأُرانوس ، فنبتُون . ولم تعلم كل شئون هذه السيارات حق العلم ، وإنما ألمّ العلماءُ بمعرفة مَوادها وكثافتها وأبعادها .

ولكن أمرَ الحياة فيها لم يَزَل مبهماً مستغلقًا ــ اللهُمَّ إلا فى الأرض وقمرها .

أَما مِقدارُ النعم التى سخَّرها الله لنا بوُجود الشمس فمما لايُحصيه العد ، فهى مبعثُ حياتنا وحياة الحيوان الذى يعيشُ معنا ، ومصدرُ نورِنَا ونارِنَا وحرِّنَا وبَرْدِنَا ، وهى التى تحيل مياه البحار بخارًا ، وتقلها فى الجو غيوماً ، وتنزلها على الأرض أمطارًا ، حيثُ تجرى جداولَ وأنهارًا ، فتروى زَرْعنا ، وتنمى غراسنا وتثيرُ الرياح ، وتطلعُ الأنواءَ ، وتزجى(١) السُّفُنَ والبواخرَ فى عباب الماءِ وتدفعُ القطرَاتِ الحديدية ، وتديرُ الآلات البخارية ، وتنيرُ المصابيحَ الدخانية والزيتية إذ ليس الفحمُ الحجرى والزيت الأرضى إلاحرارة نارها المدخرة منذ قديم الدهور ، لينتفعَ بها أحياء هذه العصور ، وما النهار المبصِرُ ، والليلُ المظلم إلا آيتان من آيات اللهِ المسخرة لنا بتسخير هذا المخلوق العجيب ، فنى النهار نَسعى فى مناكب الأرض لابتغاءِ رزقنا ، وتدبير معاشنا ، وتنظيم شئون حياتنا ، ونسبح بحمد ربنا ونعتبرُ بآثار من سبقنا ، وفى الليل نسكُن لإراحة أبْداننا ، واستجماع(٢) قوانا ، واستيفاءِ حظنا من النوم الذى به نستديمُ صحتنا ، ونستعيضُ ما فقدناه بأعمالنا ، وننظر فى

---

(١) تسير . (٢) استجماع .

ملكوت السموات وما خلقَ الله من شيءٍ فى حركات الكواكب وانتقالها ، وبديع صُوَرها وألوانها ، فتعنو وجوهنا ، ويتضاءَلُ كبرياؤنا ، أمام قدْرَة خالقنا العظيم ، فسبحانه من إلٰه حكيم .

وما الأَلوان التى نراها فى نور الأَزهار ، وريش الأَطيار ، ونفائس المصنوعات إلا أثر وقوع أضوائها على هذه المرئيّات وانعكاسها(١) على أَبصارنا ؛ فإنّ نور الشَّمس الأَبيض مؤلَّفٌ من سبعة أَلوان أَصلية(٢) تنشأُ منها كلُّ الأَلوان الفرعية وهى : الأَحمر ، والبُرْتقالى ، والأَصفر ، والأَزرق ، والأَخضرْ والنّيلجى ، والبنفسجىُّ . فمن الأَجسام مالا يمتص شيئًا من هذه الأَلوان ، بل يعكسُهَا كلها على العين ، فيبدو أَبيض ناصعًا كزهرة الياسمين ، ومنها ما يمتصُّ بعضها ويعكِس باقيها ، فَيَتَلَوَّن بلَوْن ما يعكس منها ، فإذا أَبصرتَ ورقَةَ الشجر خَضْرَاءَ عرفت أَنها اختزنت من ضَوْءِ الشمس ستة أَلوان ، وردت إلى عينيك سابعها وهو الأَخضر لأَن فيما ادخرتهُ نفعًا لها ، وليس بها إلى ما لَفَظَتْهُ افتقارُ ، ومنها ما يرد لونين أَو أَكثر ، فيبدو لونه مزيجًا بين هذه الأَلوان السبعة ، وهذه الأَلوانُ من عجائب صنع الله فى الأَرض لتمييز بعضها من بعض ، فقد يَتماثلُ الشيئان شكلاً وحجماً وصلابةً وليناً وشمًّا ، ثم لايتباينان إلا من حيثُ اللون فيكُون اللون آيةَ تباينهما ، وأَكثر ما يكُون ذلك فى الأَزهار .

وتنوعُ الأَلوان هو السِّرُّ فى جمال المرئيات من مشاهد الطبيعة وبدائع الصناعة . وإن أَعظم المصوِّرينَ وأَمهرَ النقاشين لم يبرزوا على غيرهم ، ويدلوا على ذكائهم ونبوغهم إلا ببراعتهم محاكاة أَلوان الطبيعة المؤتلفة وأَشكالها المتجانسة ، وإنما يتم لهم ذلك إذا عَرفوا كيف يمزجون من الأَصباغ ما يستخدمون به أَلوان النور خيرَ استخدام ، وينتفعون به أَحسن انتفاع ،

(١) انعكس مضارع عكس كما فى الأساس .
(٢) أمكن ارجاع هذه الألوان فى الصناعة الى ثلاثة .

وقد سخر علماءُ الطب تباين الألوان في كشف النقابِ عن حقائق الجراثيم ، فإنَّ منها ما لايتضح للعين فى المِجْهرِ إلا إذا أُلقى عليه صبغٌ خاصٌ يُؤثِّرُ فيه فيُصبغُ به .

ولأمواج الشمس الضوْئية سرعةٌ معلومة تسيرُ بها ، فاذا انخفضت هذه السرْعة عما هى عليه لم تعد العينُ قادرة على رؤيتها ، لأنها تستحيل إلى مظهرٍ آخر غير مظهر الضوءِ والحرارة ، وليس ينكر ما للضوءِ والحرارة معاً من الأثر الْحَسن فى تنقية المساكن مما يَقْطُنها من الجراثيم القتَّالة ، والعفن المضنى ، ولذلك قيل إنَّ الدار التى تدخُلها أشعة الشمس لا يدخلها الطبيبُ .

وصف القمر

القمرُ أَجملُ الكواكب صُورةً ، وأَبينها منظراً ، وأَسهلها رصدًا ، وأَكبرها فى رأْى العين بعد الشمس جرْماً ، وهو سيارٌ كروىٌّ أَصغر من الأَرض بنحو تسع وأَربعين مرَّة ، انفصل منها زَمن التكوين وصَار تابعاً لها ، طائفاً حولها ، مُستمدًّا نوره من الشمس مثلها دائراً حول الشمس معها ، غير أَنَّ طواف الأَرض بقمرها حولها يتمّ فى سنةٍ شمسيَّةٍ ، وطواف القمر حول الأَرض يتمّ فى شهر قمرىٍّ : أَى مُدَّة تسع وعشرين يوماً ونصف يوم تقريباً ، ومع أَنه خاضعٌ لنظام الأَرض لايقلّ بُعْدُه عنها عن واحد وعشرين أَلفاً ومائتى أَلف ميل .

والذى يسترعى أَنظارنا كما استرعى أَنظار من قبلنا اختلافُ أَشكاله وتعدُّد مطالعه ، مما جعله مبعث تخيُّل القُدَمَاءِ ، ومثار تفكر الحكماءِ ، ومقصدًا لعبادة الْجُهلاءِ ، فتراه يلوحُ ليلة أَوَّل الشهر إثر غروب الشمس ضئيلا مُقوَسًا ، لا يلبثُ أَن يغْرُب ويغيب فى شفق الشمس ، ثم يهل فى الليلة الثالثة أَبين صُورة وأَبقى زمناً لازدياد تأَخره فى الغروب عن الشمس ، ولا يزال نورُه فى تزايد ، ومطالعُه فى تقدُّم نحو المشرق حتى يطلع من المشرق فى الليلة الرابعة عشرة عند غروب

الشمس بدرًا كاملا ، بهىّ الطلعةِ باهرَ الأَنوار ؛ فتبارك اللهُ أَحسنُ الخالقين .

ولكنَّ الكمال للهِ وحدهُ ، فإِن مُنتهى الزِّيادة مُبتدأ النقصِ ، ففى الليلة الخامسةَ عشرة يتأَخر طلوعُه من المشرق ، وينقُصُ من حافةِ نوره التى كانت موضع هلاله الأَول زيقٌ لا يُشعرُ به إلا فى الليالى التالية ، ولا تزال مطالعُه فى تقهقر ونوره فى تناقُص حتى قربِ آخر الشهر فيشرِق قبيلَ الفجر هلالاً ضئيلاً يكادُ يكونُ مقلوبَ الهلال الأَول ، فى الليلة الأَخيرة يكونُ عند الصباح فى الأُفق الشرقىِّ مُظلما لا يُرى منه شىء ، وهو ليلة المحاقِ أَو السرار ويظل بعضَ النهار كذلك ثم يتولدُ هلاله الجديد ، ولكنه لا يظهر إلا بعد أَن يغيب قرص الشمس فيلوح هلاله ، ثم يختفى كما قدمنا .

وعِلةُ ذلك : أَن نورَ القمر كنور الأَرض مُستفاد من الشمس ، وهو لا يُقابل الأَرض إلا بوجهٍ واحد لا يتغيَّر ، وهذا الوجه بالنسبة إلى حركتهِ مع الأَرض حول الشمس لا يقابل الشمس مقابلةً تامةً إلا فى وضع واحد ومرَّة واحدة هى الليلة الرابعة عشرة ، فيغشاه ، نورها ويصير بدرًا ، أَما بقية الليالى التى قبلها والتى بعدها فينحرفُ قليلاً أَو كثيراً عنها ، حتى يصير كله ظلاماً ليلة المحاق ، فيطوى خبره ويكون الوجه الآخر الذى لا يرى لنا بدراً كاملا ، ثم يتولدُ هلاله خلقاً جديداً .

وكذلك شأْن الأَرض فى استمداد نورها أَوما نسميهِ نهارًا ، ولو كان فى القمر سكان ، لكانت الكرة الأَرضية فى رأْى أَعينهم أَكبر كوكب فى السماءِ ، ولشاهدوها أَكبر من الجرْم الذى نشاهد القمر عليه أَضعافاً مضاعفة ولكانت عندهم أَروع جمالاً وأَبدع من قمرهم فى نظرنا تشكلاً ، فبدورانها على نفسها يرونها كلَّها جزءًا فجزءًا ، وتظهر قاراتُهَا ومحيطاتها واضحة عليها فى وقت الصحو ، ومُظَلَّلا بعضها بالغمامِ فى وقت الدجن ، وتبدو أَهِلتُهَا وبُدُورها ضخمة باهرة ، ولكن لا يراها إلا سكان النِّصْفِ المقابل لنا أَو الذين يريدون التفرج برويتها من أَهل النصف الثانى .

ولقُرب القمر منا وخلو جوّه من الهواءِ سهل رصده علينا ، فترى فى صفحته عند الشُّرُوق ليلة التمام كثيراً من المَحْو (١) يجعلُ صورته أَشبه بوجه إنسان ذى أَنف وفم وحاجبين وعينين إحداهما مُغضيةٌ ، ولا يزالُ كذلك حتى يتعدى خطّ زوال مكان الناظر . فإِذا مال إلى المغرب انحرفتْ هذه الصورة حتى يصير عاليها سَافلها ، وليس هذا المحو إلا ظلامَ بطون الأَودية والسهول البعيدة الغوْر وظلال الجبال والهضَاب الشاهقة الطول شهوقاً يكاد يمنع استدارته . أَما قممُ الجبال وسطوحُها المقابلة للشمس فَتُرَى لامعة ساطعة فتبين سلاسل الجبال طرائق مضيئة وقممُهَا نقطاً لامعة وفوهات جبال ناره الشديدة السّعة ، البعيدة الغور التى تعد بعشرات الأُلوف ، كأَنها حلقاتٌ وسطها نقط سود .

وقد ظنَّ القدماءُ فى علّة المحو ظنوناً ، بعضها صادف الحقيقة ، وبعضها جَانبهَا حتى ظهر غاليلْيُو ، واخترع سنة ١٦٠٦ ، مرْقباً يقرِّب الأَشباح ثلاثين مسافة فأَثبت وجود الجبال والأَودية فيه ، وزاد عليه غيره فى تحسين المراقب المكبِّرة حتى أَصبح القمر يُرَى كأَنه عَلَى بُعد أَربعين ميلاً منَّا ، على أَن هذا القرب لا يجعلنا نرى الأَشباح الصغيرة التى من نوع الحيوان لنتحقق أَن للقمر سكانا كما للأَرض أَو لا ؟ ولكن قد أَصبح من المرجح إن لم يكن من المحقق أَنه خالٍ منَ الماءِ ومن السحاب والضباب الناشئين منه ومن النبات ، إذ لو كان به شىءٌ منها لتغيّر شكله من حال إلى حال ، ويُشَكُّ أَن له هواءً ، وإن كان له هواءٌ فلعله لا يزيد على قمم جباله ، ولا شك أَن الماءَ والهواءَ هما ينبوعا الحياة ، وتجرُّده منهما ، وخمود جبال ناره ، ويُبْس جرمه يجعل برده شديدًا جدًّا فى الليل ، وحرّه عظيا جدًّا فى النهار على فرْط طولهما البالغ فيه خمسة عشر يوماً مما يجعل الحياة فيه متعسِّرَة بل مستحيلة ، اللهم إلا أَن تكونَ حياة غير حياتنا .

---

(١) المحو : السواد فى القمر .

ويُرجِّحون أَنَّ القمرَ كان فى أَزمان سَحيقة على طبيعةٍ تقرُب من طبيعة أُمِّهِ الأَرض ، فكان آهِلاً بالحيوان والنباتِ ، إلا أَن صِغَرَ جسمه جعله يسبق الأَرض فى اليُبْس والبرُودة فَتَقَبّض وبرد وانتهت دُنياه ، وأَصبح كإِسفنجةٍ مشعثة ذاتِ شعبٍ ونخَاريب(١) تكوينُها من جنسِ تكوين الأَرض .

ولقد خلق الله القمر مسخراً لأَهل الأَرض خاصة ، فهو يعكس نور الشمس عليهم هدايةَ لهم فى ظلمات البرِّ والبحر ، ولقد قضى الإِنسان عُصُوراً ودُهوراً وليس له مصباحٌ فى جُنح الظلام غيره ، ولا يزالُ كذلك لأَهل البَدْو وقبائلِ الهمج . وهو باختلافِ أَشكاله تَقويم فطرىٌّ لهم فبإِهلاله يُعْرَفُ أَولُ الشهر وبالتربيع الأَول يعرفُ رُبعهُ ، وببدره(٢) يعرفُ نصفه ، وبالتربيع الأَخير ثلاثة أَرباعه ، وبمحاقهِ تعرفُ نهايته .

وإِذا مَرَن الإِنسانُ على النظر فى تقدير ضَوْئِهِ ، وأَوقات مطالعه ، عرَف الشهر يوماً يوماً ، والليل ساعةً ساعةً ، قال تعالى : «يَسأَلونك عن الأَهلَّةِ قُلْ هىَ مواقيت للناس والْحجِّ » .

وباتحاد جذبِه مع جذب الشمس للأَرض ينشأُ المَدُّ والجزرْ ، وفائدتهما فى تسهيل الملاحةِ لا تنكر ، فكم موانئَ ومرافِىء لولاهما لَسُدت برَواسبِ الأَنهار والسيول .

ولضوءِ القمر فى إِنضاج الثمار والبقول أَثر أَيما أَثر حتى إِن بعضها لا ينمو ويزهُو لونه إِلا فى لياليه البيض .

الفن الخامس : فى المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأْليف ، أَنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

---

(١) جمع نخروب ، وهى الثقوب التى تكون فى مثل خلايا النحل .

(٢) مصدر بدر البدر يبدر بدرا . وبالمصدر سمى هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق فى ليلة التمام عند غروبها .

أَدبيّة ، ومدارُها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرُّواة ، ووقائع شتى تُعْزَى إلى أَحد الأُدباء ؛ والمقصود منها غالباً جمعُ دُرَر وغُرَر البيان ، وشوارد اللغة ونوادر الكلام ، منظوم ومنثور ، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعية ، والرَّقائق الأَدبية ، كالرَّسائل المُبتكرة ، والخُطب المُحَبرة ، والمواعظ المبكية والأَضاحيك الملهية(١) ولنذكر منتخباتٍ من مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريرى(٢) المتوفى سنة ٦١٥ هـ — المقامة التاسعة الاسكندرانية :

أَخبر الحارث بن همَّام قال : طحابي(٣) مَرَحُ(٤) الشباب وهوى الاكتساب(٥) إلى أن جُبْتُ(٦) ما بين فرغانة(٧) وغابة(٨) أَخوضُ الغمار(٩) لأَجنى الثمار وأَقتحم الأَخطار(١٠) لكى أُدركَ الأَوطار(١١) ، وكنتُ لقفتُ من أَفواه العلماء وثقفت(١٢) من وصايا الحكماء ، أَنه يلزمُ الأَديب الأَريب(١٣) إذا دخلَ البلد الغريب ، أَن يستميل قاضيَه(١٤) ويَستخلص مَرَاضيه ليشد ظهره عند الخصام ، ويأْمن فى الغُرْبة جوْر الحكام ؛ فاتَّخذتُ هذا الأَدبَ إماماً وجعلته لمصالحى زماماً ، فما دخلت مدينة ، ولا ولجت عرينة إلا وامتزجت

(١) اعلم أن المقامات تعرف بالمكان الذى تجرى فيه فيقال المقامة الحلبية أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب أو الموصل ، وربما نسبت الى المروى عنه ، ويستحب فى راوى المقامة أن يمثل رجلا ظريف النفس كثير الأسفار حسن الرواية متفرغا لفنون الأدب جادا فى طلب غرره كادا ذهنه فى تحصيل درره كالحارث بن همام فى المقامات الحريرية وعيسى بن هشام فى المقامات البديعيه ، ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذانى وبعده الحريرى ، واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وان لم يبلغوا شأوهما .

(٢) تقدم أنه توفى سنة ٦١٥ هـ (٣) ذهب بى . (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥) أى محبة اكتساب المال (٦) قطعت (٧) بلد بأقصى المشرق (٨) مدينة بالمغرب (٩) بالكسر جمع غمرة : الماء الكثير ، وهنا الأمور الصعبة (١٠) أى أدخل فى القحمة بالضم وهى الشدة ، والأخطار : الأمور العظمة . (١١) الحجابه (١٢) أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه ويترضاه .

بحاكمها امتزاج الماءِ بالراح ، وتقوَّيت بعنايته تقوِّى الأَجساد بالأَرواح ؛ فبينما أَنَا عند حاكم الإِسكندرية ، فى عشيَّة عريَّة(١) وقد أَحضر مال الصدقات ، ليفُضه(٢) على ذوى الفاقات(٣) إِذ دخل شيخٌ عِفْرية(٤) تعتِلُه(٥) امرأَة مُصبية(٦) فقالت : أَيَّدَ(٧) الله القاضى ، وأَدام به التراضى(٨) ، إِنى امرأَةٌ من أَكرم جُرثومة(٩) ، وأَطهر أَرومة(١٠) ، وأَشرف خؤولة وعمومة ، مِيْسَمِى(١١) الصَّوْن(١٢) ، وشيمتى(١٣) الهون(١٤) ، وخُلقى نعم العون(١٥) ، وبينى وبين جارتى بَوْن(١٦) وكان أَبى إِذا خطبنى بُناةُ(١٧) المجد وأَرباب الجدِّ ، سكَّتهم(١٨) وبكَّتهم(١٩) وعاف وصلتهم(٢٠) وصلتهم(٢١) واحتج بأَنه عاهد الله تعالى بحلفه ، أَن لا يُصاهر(٢٢) غير ذى حرفة(٢٣) ، فقيض القدر(٢٤) لنصبى ووصبى(٢٥) أَن حضر هذا الْخُدعة(٢٦) نادِىَ أَبى(٢٧) فأَقسم بين رهطِه(٢٨) أَنه وفق شرطه ، وادَّعى أَنه طالما نظم دُرَّة ، فباعها ببدرة(٢٩) فاغتر أَبى بزخرفة محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كناسى(٣٠) ورحلنى عن أُناسى ، ونقلنى إِلى كَسره(٣١) وحصَّلنى تحت أَسره ، وجدته قُعدة جُثمة(٣٢) وأَلفيته ضُجعة نُومة(٣٣)

---

(١) أى شديدة البرد (٢) يفرقه (٣) أى الفقراء المحتاجين . (٤) أى شديد الدهاء (٥) تجره بعنف (٦) أى ذات صبيان (٧) قواه ونصره (٨) أراد رضاء الخصوم بحكمه الغالب والمغلوب (٩) أى أصل (١٠) الأرومة: أصل الشجرة ثم استعير لأصل الحسب (١١) علامتى ، والميسم : الآلة التى يكوى بها (١٢) الحفظ والعفاف (١٣) خلقى وعادتى (١٤) الرفق (١٥) أى الرفيق الظهير (١٦) أى تفاوت فى الفضل (١٧) جمع بان (١٨) قال لهم كلاما لا جواب له (١٩) ألزمهم الحجة (٢٠) كره قربها (٢١) أعطاهم (٢٢) يزوج ابنته (٢٣) صناعته (٢٤) يعنى قدر الله تعالى (٢٥) لتعبى (٢٦) المخادع (٢٧) مجلس أبى (٢٨) قومه وعشيرته (٢٩) البدرة عشرة آلاف درهم (٣٠) أى منزلى ، وأصله بيت الظبى (٣١) بفتح الكاف وكسرها جانب بيته (٣٢) كثير القعود كثير الجثوم أى يلازم الموضع الذى يقعد فيه (٣٣) الضجعة والنومة أصله العاجز الذى لا يتصرف ، والمعنى انه عاطل عن العمل .

صحبته برياش وزى وأثاث(١) ورى(٢) فما برح يبيعه فى سوق الهضم (٣) ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم(٤) إلى أن مزق مالى بأسره(٥) ، وأنفق مالى فى عسره ، فلما أنسانى طعم الراحة ، وغادر بيتى أنقى من الراحة(٦) قلت له : يا هذا إنه لا مخبأ بعد بوس(٧) ولا عطر بعد عروس(٨) فانهض للاكتساب بصناعتك ، واجتن(٩) ثمرة براعتك(١٠) فزعم أن صناعته قد رُميت بالكساد(١١) لما ظهر فى الأرض من الفساد ولى منه سُلالة(١٢) كأنه خلالة(١٣) وكلانا ما ينال منه شبعة(١٤) ولا ترقأ(١٥) له من الطوى(١٦) دمعة ، وقدقدته(١٧) إليك وأحضرته لديك ، لتعجم(١٨) عود دعواه وتحكم بيننا بما أراك الله — فأقبل القاضى عليه ، وقال له : قد وعيت(١٩) قصص عِرْسك ، فبرهن الآن عن نفسك ، وإلا كشفت عن لبسك(٢٠) وأمرت بحبسك . فأطرق إطراق الأفعوان(٢١) ثم شمّر للحرب العوان(٢٢) وقال :

اسمع حديثى فإنه عجبُ يضحك من شرحه وينتحب(٢٣)
أنا امرو ليس فى خصائصه(٢٤) عَيْبٌ ولا فى فخاره ريب
سُرُوج دارى التى ولدتُ بها والأصل غَسَّان(٢٥) حين أنتسب

---

(١) رياش : مال ولباس فاخر ، زى : هيئة حسنة ، أثاث : متاع البيت .
(٢) حسن حال وكثرة نعمة وهو بكسر الراء وفى الأصل اسم من روى
(٣) المراد ببيعه بأقل من القيمة (٤) الأكل بأطراف الأسنان وقيل الخضم أكل بأطراف الاسنان والقضم بمقدمها وقيل الخضم أكل الرطب والقضم أكل اليابس : تريد أنه يصرف ثمنه فى اع الأكل واللذات (٥) أى فرق الذى لى بأجمعه (٦) بطن الكف لقائه من الشعر (٧) أى فقر (٨) مثل قالته امرأة من العرب مات عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل أبخر وأمرها أن تتعطر فقالته (٩) أى الجنى : جمع الثمار (١٠) أى فضلك على أقرانك (١١) هو خمود السوق وقلة البيع ضد النفاق بالفتح (١٢) يعنى ولدا (١٣) ما يتخلل به (١٤) قدر ما يشبع به مرة (١٥) أى لا تسكن (١٦) الجوع (١٧) أتيت به (١٨) لتقضى وتختبر (١٩) فهمت وحفظت ما قصته زوجك (٢٠) أظهر أشكالك وتعمية أمرك (٢١) ذكر الأفاعى أو العظيم منها (٢٢) الحرب التى قبلها وهى تكون أشد من الأولى (٢٣) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢٤) خصاله وطباعه (٢٥) اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا اليه منهم أبو جفنة ورهط الملوك وقيل غسان قبيلة .

وشغلى الدرسُ والتبحرُ فى العـ ـلم طلابى وحبذا الطلبُ
ورأس مالى سحر الكلام(١) الذى منه يصاغ القريضُ(٢) والخطبُ
أغوص فى لُجَّة البيان فاخـ ـتار اللآلئ منها(٣) وأنتخبُ
وأجتنى(٤) اليانع(٥) الجنِىَّ(٦) من القول وغيرى للعُود يحتطبُ
وآخذ اللفظ فضة فإذا ما صغته(٧) قيل إنه ذهبُ
وكنت من قبل أمترى نشباً(٨) بالأدب المقتنى وأحتلبُ
ويمتطى(٩) أخمصى(١٠) لحرمته مراتباً ليس فوقها رُتَبُ
وطالما زُفَّتِ الصِّلات إلى ربعى(١١) فلم أرض من يَهِبُ(١٢)
فاليوم من يعلقُ الرجاءُ به أكسدُ شىء فى سوقه الأدب(١٣)
لا عرض أبنائه يُصان ولا يرقب(١٤) فيهم إلٌّ(١٥) ولا نسب
كأنهم فى عراصهم(١٦) جِيَف يبعد من نتنها ويُجْتنبُ
فحار لُبِّى(١٧) لما منيت به(١٨) من الليالى وصرفها(١٩) عجبُ
وضاق ذرعى(٢٠) لضيق ذات يدى وساورتنى(٢١) الهموم والكربُ
وقادنى دهرى المليم(٢٢) إلى سلوك ما يستشينه(٢٣) الحسب(٢٤)

---

(١) هو ما لطف مأخذه وراق (٢) الشعر (٣) أى أتعمق فى بليغ المعانى وانتقى منه الملح (٤) أقتطف (٥) الزاهى (٦) الطرى من التمر الذى جنى حديثا (٧) سبكته (٨) أى اكتسب مالا (٩) أى يركب (١٠) ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض (١١) أى حملت الجوائز والهدايا الى منزلى (١٢) أى لم أكن تحت منة كل حد بل لم أنل الا من العظماء (١٣) أى أن ما يتعلق به الأمل ويرجى منه النوال لا يستعمل الأدب والمعارف حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده . (١٤) يحفظ (١٥) بخفض الهمزة وتشديد اللام ــ العهد والقرابة والجوار (١٦) جمع عرصة وهى فناء الدار أى كأنهم فى مواضعهم (١٧) تحير عقلى (١٨) بليت به (١٩) تقلبها (٢٠) القبض قلبى (٢١) انتابتنى وغلبتنى (٢٢) الذى يأتى بما يلام عليه (٢٣) يستبشعه (٢٤) ما يعد من مفاخر الاباء أو الدين وقيل الكرم .

فبعت حتى لم يبق لى لَبَدٌ(١) ولا بتاتٌ(٢) إليه أَنقلبُ
وَادّنْتُ(٣) حتى أثقلت سالفتى(٤) بحمل دَيْنٍ من دونِهِ العطبُ
ثم طويت الحشا على سَغبٍ(٥) خمساً(٦) فلما أَمَضَّنِى(٧) السَّغَبُ
لم أَرَ إلا جهازها عرضاً(٨) أَجولُ فى بيعه وأَضطرب
فَجُلتُ فيه والنفس كارهةٌ والعين عبرى(٩) والقلب مكتئبُ(١٠)
وما تجاوزت(١١) إذ عَبَثْتُ(١٢) به حَدَّ التَّراضى(١٣) فيحدث الغضبُ
فإن يكن غاظها توهُّمُها أَن بنانى بالنظم تكتسبُ
أو أَننى إذ عزمت خطبتها زخرفتُ قولى لينْجَح الأَرب(١٤)
فوالذى سارت الرفاقُ(١٥) إلى كعْبته تَسْتَحِثها (١٦) النُّجُب (١٧)
ما المكر بالمحْصَنات(١٨) من خُلقى ولاشعارى(١٩) التمويه(٢٠) والكذب
ولا يدى مُذْ نشأَتُ نِيطَ بها (٢١) إلا مواضى اليَرَاع(٢٢) والكتبُ
بل فكرتى تنظم القَلَائِدَ(٢٣) لا كفى وشعرى المنظوم لا السُّخُب(٢٤)

---

(١) يقال ماله سبد ولا لبد أى لاشعر ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشى ، وأراد الحريرى أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة (٢) الزاد ومتاع البيت (٣) تداينت (٤) صفحة العنق وقيل مقدمه (٥) جوع (٦) خمس ليال (٧) أحرقنى (٨) حطام الدنيا ، وهو المال قل أو كثر (٩) دامعة باكية (١٠) حزين (١١) تعديت (١٢) فعلت به ما لايليق فعله (١٣) أى حد الرضا (١٤) الحاجة (١٥) جمع رفقة ، وهو جمع رفيق (١٦) تستعجلها (١٧) جمع نجيبة ، وهى الكريمة من الابل (١٨) جمع محصنة أى النساء العفائف . (١٩) تخلقى (٢٠) تزيين الكلام وأصله أن يطلى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما أو الفضة بالذهب (٢١) علق بها (٢٢) جمع يراعة وهى القصبة الجوفاء والمراد بها الأقلام (٢٣) جمع قلادة أصله ما تقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار (٢٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شىء تجعل فى أعناق الأطفال .

فهذه الحِرفة المشارُ إلى ما كنت أحوِى بها وَأَجْتَلِبُ
فَأْذَنْ لشرحي كما أذنْتَ لها وَلَا تُرَاقب(١) واحكم بما يجبُ

قال : فلما أَحكم ما شاده(٢) ، وأَكمل إنشاده ، عطف القاضى إلى الفتاة ، بعد أَن شغف(٣) بالأَبيات ، وقال : أَما أنه قد ثبت عند جميع الحكام ، ووُلاة الأَحكام انقِرَاضُ(٤) جيل الكِرَام(٥) وميل الأَيام إلى اللثام ؛ وإنى لإِخال(٦) بَعْلَكِ(٧) صدوقاً فى الكلام بَرِيًّا من الملام ، وها هو قد اعترف لك بالقرض ، وصرح عن المخض(٨) ، وَبَيَّنَ مِصْداق النظم ، وتبين أنه معروق العظم(٩) ، وَإِعْنَاتُ المعذر ملأَمة(١٠) ، وحبس المعسر(١١) مأْلمة(١٢) ، وكتمان الفقر زهادة وانتظار الفرج بالصَّبر عبادة ، فارْجِعى إلى خدرك(١٣) ، واعذُرى أَبا عُذْرك(١٤) وَنَهنهى من غَرْبك(١٥) ، وسلمى بقضاء ربك - ثم إنه فرض لهما فى الصَّدَقات حِصَّةً ، وناولهما من دارهمها قبضة(١٦) . وقال لهما : تعللا(١٧) بهذه العُلالة(١٨) ، وتنديا بهذه البلالة(١٩) وصبراً على كيد الزمان وكده ؛ فعسى الله أن يأْتى بالفتح

(١) أى لا تنظر الى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق (٢) أى أتقن ما بناه والانشاد من أشاد البناء اذا طلاه بالشيد وهو الجص . (٣) ويروى بالعين المهملة من شغف الحب فؤاده أى علاه وشمله — وبالعين المعجمة أى فتن وبلغ حبها شغافه ، وهو غلاف القلب . (٤) انقطاع وفناء (٥) أى جماعة الكرم ، والجيل أهل زمان واحد (٦) بكسر الهمزة — أى لا أظن (٧) زوجك (٨) الخالص (٩) كناية عن الهزال يقال عظم معروق اذ أخذ ماعليه من اللحم (١٠) الاعنات : الحمل على المشقة الشديدة والمعذر البالغ فى العذر أو هو الذى يأتى بما يعذر به ويطلق على المحقق العذر ، وعلى الذى بان عذره والملأمة اللوم . (١١) العاجز عن قضاء الدين . (١٢) ايلام (١٣) بيتك وسترك (١٤) أبو عذر المرأة أول زوج لها . (١٥) أى كفى وازجرى نفسك عن الحدة (١٦) هى ما يتناوله الانسان بأطراف أصابعه (١٧) تشاغلا وتلاهيا (١٨) ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن (١٩) قدر ما يبل به الشيء واسم لبقية أيضا

أو أَمْرٍ من عنده ؛ فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الإسار(١). وهِزَّة الموسر بعد الإعسار .

قال الراوى : وكنت عرفت أنه أبو زيد ، ساعة بزَغَتْ شمْسُه ، ونزعت(٢) عرسُه وكدتُ أُفصح عن افتنانه(٣) ، وأثمار أفنانه(٤) ثم أشفقت(٥) من عُثور(٦) القاضى على بُهتانه(٧) ، وتزويق(٨) لسانه ، فلا يرى عند عرفانه(٩) أن يُرشحه(١٠) لإحسانه ،فأَحْجَمْت(١١) عن القول إحجامَ المرتاب(١٢) ، وطويت ذكره كطىّ السِّجل للكتاب(١٣) ، إلا أنى قلت بعد ما فَصَل(١٤) ووصل إلى ما وصل ، لو أن لنا مَنْ يَنْطلق فى أثره لأَتانا بفَصِّ خبره(١٥) ، وما يُنشر من حَبَرِه(١٦) ، فأَتبعه(١٧) القاضى أَحد أُمَنَائه ، وأَمره بالتَّجَسُّس(١٨) عن أنبائه(١٩) ، فما لَبثَ أن رجع مُتدهْدهاً(٢٠) ، وَقَهْقَر مُقَهقهاً(٢١) ، فقال له

---

(١) القيد الذى يشد به الأسير (٢) خبثت والنزع الذكر بالقبيح والافساد بين الناس ومعناه خاصمته عرسه (٣) يقال افتن الرجل فى حديثه اذا جاء بالافانين وهى الأساليب والمرادهنا تصرفه فى الفنون والمعارف (٤) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن (٥) خفت (٦) اطلاع . (٧) كذبه (٨) التزويق التحسين ، والتزويق مأخوذ من الزاووق ، وهو الزئبق (٩) معرفته (١٠) الترشيح والتربية ، والتأهيل من ترشيح الظبية ولدها ، لأنها اذا بلغ ولدها السعى سعت به حتى عرق فتقوى ، ويأتى بمعنى التقوية أيضا (١١) تأخرت (١٢) الشاك (١٣) السجل : الصحيفة فيها الكتابة ـ أى كما تطوى الصحيفة الكتابة (١٤) ذهب . (١٥) بحقيقة حاله (١٦) الحبر أردية يمانية موشاة جمع حبرة وهى : ما تلبسه المرأة المصرية ، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر فى الحسن . (١٧) أى أرسل وراءه من يتبعه (١٨) أى بالبحث سرا بحيث لا يشعر (١٩) أخباره (٢٠) التدهده : الاسراع من دهدهت الحجر اذا دحرجته وتبدل الهاء الأخيرة ياء فيقال تدهدى تدهديا . (٢١) القهقرى المشى الى الوراء ، والقهقهة الضحك بصوت مرتفع .

القاضى : مَهيمَ (١) يا أَبا مريم (٢) ؟ فقال له : لقد عاينت عجباً ، وسمعت ما أنشأ لى طَرَباً . فقال له : ماذا رأيت ؟ وما الذى وعيْتَ ؟ قال : لم يزل الشيخ مُذ خرج يُصفِّق بيديه ، ويخالف بين رجليه (٣) ، ويُغَرِّد بملءِ شدقيه . ويقول :

كدْتُ أُصْلَى (٤) ببليّه   من وقاح (٥) شَمّرِيه (٦)
وأَزورُ السِّجن لولا   حاكم الإسكندريه

فَضَحك القاضى حتى هوت (٧) لدنيّته (٨) . ودوت (٩) سكينته (١٠) . فلما فاءَ (١١) إلى الوقار . وَعَقَّبَ الاستغفار بالاستغفار ، قال : اللهم بحُرْمَة عبادك المقربين حَرِّم حبسى على المتأدبين ، ثم قال لذلك الأَمين : على به (١٢) . فانطلق مُجِدًّا فى مطلبه ، ثم عاد بعد لَأْيه (١٣) مخبراً بنأْيه (١٤) ، فقال له القاضى : أَما إنه لو حضر لكُفِىَ الحذر (١٥) ، ثم لأَوليتُهُ ما هو به أَولى ، ولأَريته الآخرة خير له من الأُولى . قال الحارث بن همام : فلما رأَيت صَغْوَ (١٦) القاضى إليه ، وفوت ثمرة التنبيه عليه غَشِيتنى (١٧) ندامة الفرزدق (١٨) حين أَبانَ

---

(١) أى ما الخبر ، وهى كلمة لأهل اليمن معناها : ما خبرك وما شأنك (٢) يقال لعون القاضى أبو مريم (٣) أى يرقص (٤) احترق (٥) الوقاح : قليلة الحياء بينة القحة والوقاحة ، وحافر وقاح : صلب (٦) الشمرى : الماضى فى الأمور الجاد فيما يحاول (٧) وقعت (٨) بتشديد النون والياء جميعا : قلنسوة طويلة يلبسها القضاة كأنها منسوبة الى لدن (٩) ذبلت وفترت (١٠) وقاره (١١) رجع (١٢) أى ائت به واحضره (١٣) اللأى كالسعى : الابطاء والاحتباس (١٤) أى يبعده (١٥) ما يحتار منه ويخاف (١٦) ميله (١٧) أتتنى وحضرتنى (١٨) هو همام بن غالب التميمى الشاعر

النَّوار(١) والكُسَعِيِّ(٢) لما استبان النهار .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا ، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها ، وقال : ما رأيت كاليوم ، فقالت :

أَعْجَب بِشْرًا حَوَر فى عينى وساعد أَبيض كاللُّجين

ودونه مَسْرُجُ طُرف العين خَمْصانة ترفل فى حجْلينِ

أَحسن من يمشى على رجلينِ لو ضَمَّ بِشر بينها وبَينى

لأَسفَر الصبحُ لذى عينين

قال بشر : ويْحَك من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ فقالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

---

(١) النوار — على وزن سحاب — اسم زوجة الفرزدق . وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ، ومن شعره فى ذلك قوله :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار

وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

ولو أنى ملكت يدى وأمرى لكن على القدر الخيار

(٢) الكسعى هو عامر بن الحارث نسبة الى كسع ، بضم الكاف وفتح السين ، حى من بنى ثعلبة ، كان راعيا وعمل قوسا بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلا فنفذت فى الرمية ووقع السهم فى حجر فقدح منه الشرر فظن أن السهم أخطأ الرمية ، فرمى ثانيا وثالثا الى آخر الأسهم وكانت خمسا ، وهو يظن خطأها فعمد الى قوسه فكسرها ، ثم بات فلما أصبح تبين أن أسهمه كلها أصابت فندم ندما شديدا فضربت العرب المثل به فى الندامة .

وَيْحكِ يا ذات الثنَايَا البِيض   ما خلتُنى منك بمُسْتعيض
فالآن إذ لوحت بالتعريض   خلَوْت جوًّا فاصفِرى وبيضى
لا ضُمّ جفْناى على تغميض   مالم أَشلْ عرضى من الحضيض

فقالت :

كم خاطبٍ فى أمرها ألحّا   وهى إليك ابنة عمّ لحّا

ثم أَرسل إلى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العمّ أُمنيَّته ، فآلى ألا يرعى على أحد منهم إن لم يُزوِّجه ابنته ، ثم كَثُرَت مضراته فيهم واتصلت معراته إليهم ، فاجتمع رجال الحى إلى عمه ، وقالوا : كُف عنَّا مجنونك ، فقال : لا تُلبسُونى عارًا وأَمهلونى حتى أَهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أَنت وذاك . ثم أَرسل إليه عمه : إنى آليتُ أَن لا أُزوّج ابنتى هذه إلا ممن يَسُوق إليها أَلف ناقة مَهْراً ، ولا أَرضاها إلا من نُوق خزاعة .

وكان غرض العم أَن يَسْلك بِشْر الطريق بينه وبين خزاعة فيفترسُهُ الأَسد ، لأَن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق ، وكان فيه أَسدٌ يُسَمَّى « داذًا » وحيةٌ تُدْعى « شجاعا » يقول فيهما قائلهم :

أَفتك من « داذ » ومن « شُجَاع »   إن يَكُ داذ سَيِّد السِّبَاع
فإنها سيِّدةُ الأَفاعى

ثم إن بِشْرًا سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقى الأَسد ، وقمص مُهْرُه فنزل وَعَقَرَهُ ، ثم اخترط سيفه إلى الأَسد واعترضه وقطعه ، ثم كتب بدم الأَسد على قميصه إلى ابنة عمه :

أَفاطمُ لو شهدت ببطن خَبْت   وقد لاقى الهزْبرُ أَخاك بِشْرا
إذًا لرأَيْتِ ليْثاً أَمَّ ليثاً   هزَبراً أَغلباً لاقى هزبرا
تبهنَسَ حين أَحْجمَ عنه مُهْرى   محاذرةً ، فقلت : عقُرْتَ مُهْرا

أَنِلْ قَدَمَىّ ظهر الأَرض إنى … رأيتُ الأُرض أثبت منك ظَهْرا
وقلْتُ له وقد أَبْدَى نِصَالاً … مُحَددة ووَجْهاً مكفهرا
يُكَفْكِفُ غِيلةً إحدى يديه … وَيَبْسُط للوثوب علىّ أُخْرى
يُدِلُّ بمِخْلب وبحدّ ناب … وباللحظات تحسبهُنّ جَمْرا
وفى يُمْنَاى ماضى الحد أبغى … بمضربه قراع الموت أَثرا
أَلم يَبْلغْك ما فعلت ظبَاه … بكاظمة غداة لَقيتُ عَمْرا
وقلبى مثلُ قلبك ليس يخشى … مُصاوَلةً ، فكيف يخاف ذُعرا
وأَنت ترُومُ للأَشبال قوتاً … وأَطلُبُ لابنة الأَعمام مهرا
ففيم تَسُوم مثلى أَن يولى … ويجعل فى يديك النَّفس قسْرا
نصحتك فالتمِسْ ياليث غيرى … طعاماً إن لحمى كان مُرًّا
فلما ظن أَن الغش نُصْحى … وخالفنى كأَنى قلت هُجرا
مَشَى ومشيت من أَسدين راما … مَرَاماً كان إذ طلباه وَعْرا
هَزِزْتُ له الحسام فخلْتُ أَنى … سللت به لدى الظلماء فجرا
وجُدْت له بجائشة أَرته … بأَن كذَبَتْه ما مَنَّتْه عذرا
وأَطلقت الْمُهنَّد من يمينى … فَقَدَّ له من الأَضلاع عشرا
فَخر مجنْدَلا بدَمٍ كأَنّى … هدمتُ به بناءً مُشْمَخِرا
وقلت له : يَعزُّ علىَ أَنّى … قتلت مُنَاسِبى جَلدًا وفخْرا
ولكن رُمت شيئًا لم يرُمْه … سواك فلم أطق يا ليث صبرا
تُحَاوِل أَن تعَلّمنى فرارًا … لعمر أَبيك قد حَاولْت نكْرا
فلا تجزع فقد لا قيت حُرًّا … يحاذر أَن يُعاب فمُتَّ حُرًّا

فلما بلغت الأَبيات عمه ندم ، على ما منعه تزويجها ، وخشى أَن تغتاله الحية ، فقام فى أَثره وبلغه ، وقد ملكته سورة الحية .

فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده فى فم الحية وحكَّم سيفه فيها وقال :

بِشْرٌ إلى المجد بعيد همّه لمَّا رآد بالعراء عمّه
قد ثكلتْهُ نفسه وأُمه جاشت به جائشةٌ تهمه
قام إلى ابنٍ للفَلا يؤمه فغاب فيه يده وكُمُّه
ونفسه نفسى وسمِّى سمه

فلما قتل الحية قال عمه : إنى عرضتك طمعاً فى أمر قد ثنى الله عنانى عنه ، فارجع لأُزوجك ابنتى .

فلما رجع جعل بشْر يملأُ فمه فخرًا حتى طلع أَمرد كشقِّ القمر على فرسه مدججاً فى سلاحه . فقال بشْر : إنى أَسمع حس صيد وخرج ، فإذا بغلام على قيد فقال : ثكلتك أُمك يابشر أَن قتلت دودة وبهيمة تملأُ ماضغيك فخرًا ، أَنت فى أمان إن سلمت عمك ، فقال بشْر : مَنْ أَنت ؟ لا أُمّ لك . قال : اليوم الأَسود والموت الأَحمر . فقال بشْرٌ : ثكلتك من سلحتك . فقال : يا بشْرٌ ومن سلحتك . وكرَّ كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشْر منه ، وأَمكن الغلام عشرين طعنة فى كُلْية بشر ، كلما مسه شبا السِّنان حماه عن بدنه إبقاءً عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أَليس لو أَردت لأَطعمتك أَنياب الرمح ! ثم أَلقى رمحه ، واستل سيفه فضرب بشرًا عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة . ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب فى أَمان . قال : نعم . ولكن على شريطة أَن تقول لى من أَنت . فقال : أَنا ابن المرأَة التى دلَّتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصَا مَن هذه العُصية وهل تلد الحيَّةُ إلا الحيَّة

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حصاناً ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

الفن السادس : فى الروايات

الرواية عبارة عن ذكر قولٍ أو فعل حدثا ، أو أمكن حدوثهما .

وخواصها أربعة : الإيضاح ، والإيجاز ، والإمكان ، والتلطُّف .

فالإيضاح : يكون بتقديم فرش للحديث ، وتوطئةٍ للخبر ، يُقَرِّب مأْخذَ الرواية ، وبمُرَاعاة الترتيب الطبيعى فى إيراد ظُرُوف الخبر مالم يكن لِلرَّاوِى غرضٌ لتجاوز هذا النظام ، وبالعُدُول عن كثرة الاستطرادات فى إنشاءِ الحديث لأَن ذلك يصرفُ العقلَ عن الرواية ويذهب برَوْنقها .

والإيجاز : حذفُ فضول حَشْو الكلام مع انتقاء أَخصِّ الظروف وأَنسبها للغاية ، ولا بأْسَ بالإطناب إذا ما دعَا إليه مُقتضى الحال .

والإمكان : ترشيح الرواية للقبول فى ذهن السامع .

والتلطُّف فى الرواية : أَن يَبلغ الكاتبُ كُنْهَ القلوب ، ويأْخذَ بمجامع اللُّبِّ بأَن ينتقل فيها من حال إلى حال لأَن النفس قد جُبلتْ على محبة التحوُّل ، وَطُبعت على إيثار التنقل .

وللرواية ثلاثة أَجزاء :صدرُها ،وعِقدتها ، وختامُها . فالصدر : التوطئة للواقع بحيث يقف السامع على أَسماءِ الأَشخاص وطباعِهم ،وعلى مكان الواقع وسوابق العمل .

والعقدةُ : هى الجزء الذى على مِحْوَره تدور الرواية ، وهو المجال الأَوسع الذى تتقابلُ فيه الأَشخاص وتشتبك الأَحوال وتضطرم فى النفس لواعجُ الشوق للوقوف على عاقبة الأَمر ، فتنتقل من الرجاءِ إلى الخوف ، ومن الفرح إلى الحزن .

والختام : الجزء الأَخير من الرواية الذى به تُفَكُّ الإِرْبة وتُحل رِباق الحديث فتنال النفوس بذلك مَرَامَها وتفوزُ بوطَرِها ، وسِمَتُه أَن يكون فُجَائياً مُرْتبطاً مع ما قبله ارتباطاً محكماً وافياً بالمراد بحيث تَرضَى به النفوس ، وترتاح إليه القلوب ، وشواهد الرواية كثيرة لانُطيل بذكرها ، أَفْرَدها الأُدباءُ بالتآليف العديدة ، ولنذكر هنا بعض مُلح لا يستغنى عنها المقام .

ليلى الأَخيلية مع الحجاج

روَى بعضهم : أَنه بينما كان الحجَّاج فى مجلس ، ومعه عَنْبسة بن سعيد ، إذ دخل الحاجب فقال : امرأَةٌ بالباب ، فقال له الحجاج : أَدخِلها ؛ فدخلت فلما رآها الحجاج طأْطأَ رأْسه حتى ظننت أَن ذقنَه قد أَصاب الأَرض ، فجاءَت حتى قعدتْ بين يديه فنظرتُ فإذا امرأة قد أَسنَّت ، حسنة الْخَلق ، ومعها جاريتان لها وإذاهي ليلى الأَخيليَّة ، فسأَلها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : ياليلى ما أَتى بك ؟ فقالت : إخلافُ النجوم وقلة الغيوم ؛ وكلب البرد ، وشدَّة الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرِّفد ، فقال لها ، صِفى لنا الفجَاجُ ، فقالت : الفجاج مُغبرة ، والأَرض مقشعِرَّة ، وَالمبْرَكُ معتل ، وذى العيال مختلّ ، والهالك للقل والناس مسنتون ، رحمةَ الله يرجون ، وأَصابتنا سنُون مجحفة مُبلطة ، لم تدع لنا هُبَعاً ولا ربعاً ، ولا عافطة ولا نافطة ، أَذهبت الأَموال ، ومزَّقت الرجال وأَهلكت العيال ، ثم قالت : إنى قلت فى الأَمير قولاً ، قال : هات ؛ فأَنشأَت تقول :

أَحجَّاج لا يفللْ سلاحُك إنما المنايا بكف الله حيث يراها
أَحجَّاج لا تعطـ العُصَاة مناهم ولا الله يُعْطى للعُصَاة مُناها
إذا هبطـ الحجَّاج أَرضاً مريضة تتَبَّع أَقصى دائها فشفاها
شفاها من الدَّاءِ العُضال الذى بها غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها
سقاها فَرَوَّاها بشرْب سجاله دماء رجَالٍ حيث مال حشاها
إذا سمع الحجَّاج رِز كتيبَةٍ أَعدَّ لها قبل النزول قِرَاها
أَعدَّ لها مَصْقولةً فارسيةً بأَيدى رجال يحلبون صراها
فما ولد الأَبكار والعون مثله ببَحر ولا أَرضٍ يَجف ثراها

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ، ما أَصاب صِفَتِى شاعرٌ منذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت إلى عَنْبسة بن سعيد فقال : والله إنى لأَعد للأَمر عسى أَن لا يكون أَبدًا ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُك ، قالت : إنى

قد قلت أكثر من هذا . قال : حسبُك ، وَيْحَكَ حسبُك ، ثم قال : ياغلام اذهب بها إلى فلان ، فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأَمير اقطع لسانها . قال : فأَمرَ بإِحضار الحجّام ، فالتفتت إليه فقالت : ثَكَلَتْكَ أُمك أَما سمعت ماقال ؟ إنما أَمركَ أَن تقطع لساني بالصلة ، فبعث إليه يستثبتُهُ ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وَهَمَّ بقطع لسانه ، وقال : اردُدها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد (وأَمانة الله) يَقطع مِقولى ، ثم أَنشأَت تقول :

حجاج أَنت الذى ما فوقه أَحدٌ إلا الخليفةُ والمستغفر الصمد
حجاج أَنت شهاب الحرب إن لقحت وأَنت للناس نور فى الدجى يَقِدُ

ثم أَقبل الحجاج على جُلسائه فقال : أَتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أَيها الأَمير ، إنا لم نرَ قطُّ أَفصحَ لساناً ، ولا أَحسن مُحَاورة ، ولا أَملحَ وجهاً ، ولا أَرصنَ شعرًا منها . فقال : هذه ليلى الأَخيلية التى مات توبة الخفاجى من حُبها ، ثم التفتَ إليها فقال : أَنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أَيها الأَمير هو الذى يقول :

وهل لَيْلَى تبكِينِى إذا مِت قبلها وقام على قبرى النساءُ النوائح
كما لو أَصاب الموتُ ليلى بكيتُها وجاد لها دمعٌ من العين سافحُ
وَأُغْبَطُ من ليلى بما لا أَناله بلَى كل ماقَرّت به العينُ طائحُ
ولو أَن ليلى الأَخيلية سلَّمت عَلَىّ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ
لسلَّمتُ تسليم البشاشة أَو زَقا إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

ثم قال : سلى يا ليلى تُعطى ، قالت : أَعطِ فمثلُك أَعطى فأَحسن ، قال : لك عشرون ، قالت : زِدْ ، فمثلك زاد فأَجمل ، قال : لك أَربعون ، قالت : زِدْ فمثلُك زاد فأَكمل ، قال : لكِ ثمانون ، قالت : زِد فمثلُك زاد فتمم ، قال : مائة واعلمى أَنها غنم ، قالت : معاذ الله أَيها الأَمير ، أَنتَ أَجْوَدُ جودًا ، وأَمجد مجدًا ، وأَورى زندًا من أَن تجعلها غنما ، قال : فما هى ويحك يا ليلى ؟ قالت :

مائة من الابل برُعاتها ، فأَمر لها بها ، ثم قال : أَلك حاجة بعدها ؟ قالت : يدفع إلىّ النابغة الجعدى . قال : قد فعلت . وقد كانت تهجوه ويهجوها . فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائذًا بعبد الملك ، فأَتبعتْهُ إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مُسلم بخراسان فأَتبعتْهُ على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة بقومَس ويقال بحلوان .

بنات الشاعر المقتول

كان لشاعر عدوٌّ فبينما هو سائر ذات يوم فى بعض الطرق إذا هوبعَدُوّه ؛ فعلم الشاعر أن عَدُوّه قاتله لا محالة ؛ فقال له : ياهذا ، أنا أَعلم أَن المنيَّة قد حضرت ولكن سأَلتك الله إذا أَنت قتلتنى أَن امْض إلى دارى ، وقِفْ بالباب وقل : « أَلا أَيها البنتان إن أَباكما » فقال : سمعاً وطاعة . ثم إنه قتله . فلما فرغ من قتله أَتى إلى داره ، ووقف بالباب وقال : « أَلا أَيها البنتان إن أَباكما » فأَجابتاه بفمٍ واحد : « قتيلٌ خُذَا بالثأْر ممن أَتاكما » ثم تعلقتا بالرجل . ورفعتاه إلى الحاكم فاستقْرَرَه فأَقرَّ بقتله فقتله .

المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم

قال عبد الله بن المبارك : خرجت حاجًّا إلى بيت الله الحرام وزيارة قَبر نبيّه عليه الصلاة والسلام . فبينما أَنا فى بعض الطريق إذ أَنا بسوادٍ؛ فتميزت ذاك فإِذا هى عجوزٌ عليها دِرْعٌ من صُوف وخِمَارٌ من صوف . فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقالت : « سلام قولاً من رب رحيم » فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعينَ فى هذا المكان ؟ قالت : « ومن يُضلل الله فلا هَادِى لَهُ » فعلمتُ أَنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أَين تُريدين ؟ قالت : « سُبحان الذى أَسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأَقصى » فعلمت أَنها قد قضت حَجَّتها وهى تريد بيت المقدس . فقلت لها : أَنتِ مُنذ كم فى هذا الموضع ؟ قالت : « ثلاث ليال سَويًّا » فقلت : ما أَرى معك طعاماً تأْكلين . قالت :

« هو يُطعمُنى ويسقين » فقلت : فبأَىِّ شىءٍ تتوضئين؟ قالت : « فإن لم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيدًا طيِّباً » فقلت لها : إن معى طعاماً فهل لك فى الأَكل ؟ قالت : « ثم أتمُّوا الصِّيَام إلى الليل » فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : « ومَنْ تَطَوَّعَ خيرًا فإن الله شاكرٌ عليم » فقلت : قد أُبيح لنا الإفطار فى السَّفَر . قالت : « وأَن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون » فقلت : لِمَ لا تكلمينى مثل ما أُكلمك ؟ قالت : « ما يلفظُ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد » فقلت : فمن أَى الناس أَنت ؟ قالت : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علْمٌ إن السَّمع والبصر والفؤاد كلُّ أُولئك كان عنه مسئولا » فقلت : قد أَخطأْت فاجعلينى فى حلٍّ . قالت : « لا تثْرِيبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم » فقلت : فهل لك أَن أَحملك على ناقتى هذه فتدرِكى القافلة ؟ فقالت : « وما تفعلوا من خير يَعْلمه الله » قال : فأَنَخْتُ ناقتى قالت : « قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أَبصارهم » فغضضت بصرى عنها ، وقلت : آركبى . فلما أَرادت أَن تركب نفرَت الناقة ، فمزقت ثيابها فقالت : « وما أَصابكم من مصيبة فَبِما كَسَبت أَيديكم » فقلت لها : اصبرى حتى أَعقلها ، قالت « ففهَّمْنَاها سليمان » فعقلت الناقة وقلت لها : أَركبى فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كُنَّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » قال : فأَخذت بزمام الناقة وجعلت أَسرع وأَصيح ، فقالت : « واقصدْ فى مَشيك واغضض من صوتك » فجعلت أَمشى رويدًا رويدًا وأَترَنم بالشِّعْر ، فقالت : « فاقرءُوا ما تيسر من القرآن » فقلت لها : لقد أُوتيت خيرًا كثيرًا قالت : « وما يذَّكَّر إلا أُولُو الأَلباب » فلما مشيتُ بها قليلاً قلت : أَلَكِ زَوجٌ ؟ قالت « يَا أَيها الذين آمنوا لا تسأَلوا عن أَشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُم » فسكَتُّ ولم أُكَلمها حتى أَدركت بها القافلة ، فقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت : « المال والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا » فعلمتُ أَن لها أَولادًا ، فقلتُ : وما شأْنهم فى الحجِّ ؟ قالت : « وعلاماتٍ وبالنَّجْم هم يهتدون » فعلمت أَنهم أَدلَّاءُ الركب فقصدت بها القِبَاب والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لَك فيها ؟ قالتْ :

« وَاتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خليلا » « وَكَلَّمَ اللهُ موسى تكليما » « يا يَحيي خُذ الكتاب بقُوَّةٍ » فناديت يا إبراهيم ياموسى يا يحيي فإذا أنا بشُبَّان كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقرَّ بهم الجلوس ، قالت : « فابعثوا أحدكم بوَرِقكُم هذه إلى المدينة فلينظُرْ أيها أزكى طعاماً فليأْتِكُم برزق منه » فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدىّ ، وقالت : « كلُوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » فقلت : الآن طعامكم علىّ حرام حتى تخبرونى بأمرها . فقالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن ، مخافة أن تَزلَّ فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاءُ ، فقلت : « ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

مروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير

روَى عُقيل بن خالد عن ابن شهاب أنَّ مروان بن الحكَم وعبد الله بن الزُّبير اجتمعا ذات يوم فى حُجرة عائشة (والحجابُ بينهما وبينها) يُحدثَانها ويسألانها ، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة ، وعائشة تسمعُ .

فقال مروان :

فمن يَشَا الرحمن يَخْفِضْ بقدرِه وليس لمن لم يرفع الله رافعُ

فقال ابن الزبير :

ففَوّضْ إلى الله الأُمُور إذا اعْترت وبالله ، لا بالأقربينَ ، أُدافعُ

فقال مروان :

ودَاوِ ضميرَ القلب بالبرِّ والتُّقى فلا يستوى قلبان قَاسٍ وخاشعُ

فقال ابن الزبير :

ولا يَسْتَوِى عبدان هذا مُكَذّب عُتلٌ لأرحام العَشيرة قاطعُ

فقال مروان :

وعبدٌ يُجَافى جَنْبهُ عن فراشه يبيتُ يُنَاجى ربَّه وهو راكعُ

فقال ابن الزُّبير :

وللخير أَهْلٌ يُعْرَفون بهديهم إذا اجْتَمَعَتْ عندالْخُطوب المجامعُ

فقال مروان :

وللشَّرِّ أَهْلٌ يُعْرَفون بشكلهم تُشِيرُ إليهم بالفُجور الأَصابعُ

فسكت ابن الزُّبير ولم يُجب ، فقالت عائشة : يا عبد الله مالك لم تُجِبْ صاحبك ؟ فوالله ما سمعتُ تجاولاً فى نحو ما تجَاوَلْتُمَا فيه أَعجب إلى من تجَاوُلكما ، فقال ابن الزُّبير : إنى خِفْتُ عَوَار القول فكففتُ .

عُبَيدُ بن الأَبرص ، وامْرُؤ القيس

قيل : إنَّ عُبيد بن الأَبرص لقى امرأ القيس يوماً فقال له : كيف معرفتك بالأَوابد ؟ قال : ما أَحببتُ ، فقال :

ما حبَّةٌ قامتْ بميتتها دَرْدَاء ما أَنبَتت نَاباً وأضراساً

فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تُسْقى فى سَنَابلها
قد أَخرجت بعد طُولِ المكث أَكداساً

فقال عُبيد :

ما السُّودُ والبيضُ والأَسماءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهنَّ النَّاسُ تمساسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك السَّحاب إذا الرَّحمٰنُ أَنشأَها رَوَّى بهنَّ مُحول الأَرض أَيباسَا

فقال عُبيد :

ما مُرْتجَاتٌ على هَوْلٍ مَرَاكبها يقْطَعْنَ بعد المدى سيرًا وأمراسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك النُّجومُ إذا حانت مطالعها شَبَّهتها فى سواد الليل أَقباسَا

فقال عُبيد :

ما القاطعاتُ لأَرض لا أَنيسَ بها   تـأْتى سِرَاعاً وما يرجِعْن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرِّياحُ إذا هَبَّت عواصِفُهَا   كفى بـأَذيالها للترب كُنَّاسَا

فقال عُبيد :

ما الفاجعاتُ جهارًا فى علانيَةٍ   أَشدّ من فَيلق ملحُومة باسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقينَ من أَحَدٍ   يـأْخذن حَمْقى وما يُبقين أَكياسَا

فقال عُبيد :

ما السَّابقات سِرَاعُ الطير فى مهل   لا يشتكين ولو طال المدى باسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجياد عليها القوم مُذْ نتجت   كانوا لهنَّ غداة الرَّوْع أَحلاسَا

فقال عُبيد :

ما القاطعات لأَرض الجوّ فى طلق   قبل الصباح وما يسوين قرطاسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك الأَمانىّ يتركن الفَتَى ملكاً   دون السماءِ ولم تُرْفَع له راسَا

فقال عُبيد :

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ   ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النَّاسَا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أَرسلها   ربّ البرية بين الناس مقياسَا

أَبو تراب ، والشَّرِيف العَبَّاسى

اجتمعَ يوماً أَبو تراب هبةُ الله بن السريجى ، والشريف العباسى ، وكانا شاعرين

فقال أبو تراب :

أَسلوت حبّ بُدُورَ أم تتجلَّد وسهرت ليلك أم جُفونكَ ترقد

فأَجاب الشريف بديهاً :

لا بل هُمُ أَلِفوا القَطِيعَةَ مثل ما أَلِفُوا نزُولهم بها فَتبَعَّدوا

فقال أبو تراب :

فإلَامَ تصبرُ والفُؤادُ مُتَيَّمٌ ولظى اشتياقِكَ فى الْحَشى يتوقد

فأَجاب الشريف :

ما دام لى جلد فلستُ بجازعٍ إذ كان صبرى فى العواقب يُحمد

فقال أبو تراب :

أَحسنت ! كِتمان الهوى مُسْتحسَنٌ لو كان ماءُ العين مما يجمد

فأَجاب الشريف :

إنْ كان جَفنى فاضحى بدموعه أَظهرت للجُلساءِ أَنى أَرمَد

فقال أبو تراب :

فهبِ الدموعَ إذا جرت مَوَّهتها فيقال لِمَ أَنفاسُهُ تتصعد

فأَجاب الشريف :

أَمْشِى وأُسرعُ كى يظنُّوا أَنها من ذلك المَشْىَ السَّريع تولد

فقال أبو تراب :

هذا يجوزُ ومثلهُ مُسْتعملٌ لكنَّ وجهك بالمحبة يشهد

فأَجاب الشريف :

إن كان وجهى شاهدا بهوًى فما يدرى إلى مَنْ بالمحبَّة أَقْصِد

فقال أبو تراب :

إخضعْ وذلّ لمن تحبّ فليس فى حُكْمِ الهوى أَنفٌ يشالُ ويعقد

فأجاب الشريف :

ذا لا يكُونُ مع الحبيب وإنما   مع ساقط مُتَحَيِّل يتعمّدُ

المأمونُ والمرأة المُتَظَلِّمةُ

جلس المأمونُ يوماً للمظالم فكان آخرُ من تقدم إليه ، وقد هَمَّ بالقيام امرأَةً عليها هيئة السفر ، وعليها ثيابٌ رثَّةٌ فوقفتْ بين يديه فقالت : « السلام عليك يا أَمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فنظر المأمون إلى يحيي(١) بن أَكْثَمَ ، فقال لها يحيي : وعليك السلام يا أَمة الله ، تكلَّمى فى حاجتك ، فقالت :

ياخيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى له الرّشد   ويا إِمَاماً به قد أَشْرَقَ البلَدُ

تشكُو إليك عَميدَ القوم أَرْمَلَةٌ   عدا عليها فلم يترك لها سَبد(٢)

وابْتَزَّ مِنِّى ضياعى حتى مُنِعْتُهَا   ظُلْماً وفَرَّق مِنِّى الأَهل والولد

فأَطرق المأمون حيناً ثم رفع رأْسَهُ إليها وهو يقول :

فى دُونِ ما قلت زال الصبر والْجَلَدُ   عَنِّى وأُقرح منى القلب والكَبِدُ

هذا أَوَانُ صلاة العصر فانصرفى   وأَحْضِرِى الْخَصْم فى اليوم الذى أَعِدُ

والمجلس السبت إنْ يُقْضَ الجلوس لنا   نُنْصفْك منه وإلا المجلسُ الأَحَدُ (٣)

فلما كان يومُ الأَحد جلس فكان أَولُ مَنْ تقدم إليه تلك المرأَة فقالت : « السلام عليك يا أَمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فقال : وعليك السلام ، أَين الخصمُ ؟ فقالت : الواقف على رأْسك يا أَمير المؤمنين ، وأَومأَتْ إلى العباس ابنه فقال : يا أَحمد بن خالد خُذْ بيده فأَجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامُها يعلو كلام العباس . فقال لها أَحمد بن خالد : يا أَمة الله إنك بين يدى أَمير المؤمنين وإنك تكلِّمين الأَمير فاخفضى من صوتك . فقال المأمون : دعْهَا

(١) يحيى بن اكثم قاضى قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة اكثم ابن صيفى توفى سنة ٢٤٢ (٢) أصل السبد : القليل من الشعر ، ويقال ما له سبد ولا لبد أى لا قليل ولا كثير (٣) قوله : والا المجلس ، اسقط منه فاء الجواب للضرورة .

يا أحمد ، فإن الحق أنطقها وأخرسهُ ، ثم قضى لها بردّ ضيعتها إليها ، وأمر بالكِتاب لها إلى العامل ببلدها أن يُوَفِّر لها ضيعتها ، ويُحسن معونتها وأمر لها بنفقة .

عمر بن الخطاب ، والهرمزان

لما أُتىَ بالهرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين هذا زعيم العَجم وصاحبُ رئيسهم ، فقال له عمر : أَعرضُ عليك الإسلام نصحاً لك فى عاجِلِك وآجلك ، قال : يا أمير المؤمنين إنما أعتقِدُ ما أنا عليه ، ولا أرْغَب فى الإسلام فدعا له عمر بالسيف فلما هم بقتله ، قال يا أمير المومنين شرْبةٌ من ماءٍ أفضل من قتْلى على ظمأ ، فأمر له بِشَرْبةٍ من ماء ، فلما أخذها قال أأنا آمِنٌ حتى أشربها ؟ قال : نعم ، فرمى بها وقال : الوفاءُ ياأمير المؤمنين نور أبلج ، قال : صَدَقت لك التَّوَقف عنْك والنظر فى أمرك ، ارْفعُوا عنه السيف ، فلمَّا رُفع عنهُ قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا عبدُه ورسوله وما جاءَ به حقٌ من عنده ، فقال عمر : أسلمت خير إسلام فما أخَّرَك؟ قال : كرِهْت أن تظن أنى أسلمت جزعاً من السيف ، فقال عمر : إن لأَهل فارس عقُولاً بها استحقُّوا ما كانوا فيه من الملك ، ثم أمر به أن يُبَرّ ويُكْرَم ، وكان بعدُ يشاوره فى توجيه الجيوش لأَهل فارس .

إبراهيم بن المَهْدِى ، وابن بختيشوع

قال العُتْبى : تنازع إبراهيم بن المهدى وابن بختيشوع الطبيب بين يدى أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس الحكم فى عقار بناحية السواد ، فأربى(١) عليه إبراهيم وأغلظ له(٢) فأغضب ذلك ابن أبى دؤاد فقال :

يا إبراهيم إذا نازعت فى مجلس الحكم امرءاً فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد ، وليكن قصدُك أمماً(٣) وريحك ساكنة ، وكلامك مُعتدلاً ،

(١) أربى عليه : زاد . (٢) أحفظه: أغضبه ، والحفيظة : الحمية
(٣) الأمم : البين من الامر والوسط .

ووفِّ مجالس الخليفة حُقوقها من التعظيم والتوقير والاستِكانة والتَّوجُّهِ إلى الواجب ، فإن ذلك أَشْبه بك ، وأشكل بمذهبك فى مَحتدك(١) ، وعظيم خَطرك ولا تعجلن فرُبَّ عجلة تَهبُ ريثاً (٢) . والله يَعْصِمُك من خطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أَصْلَحَكَ الله ، أمرت بسداد ، وَحَضَضت على رشاد ، ولست عائدًا لما يَثْلِم(٣) مُرُوءَتِى عندك ، ويُسْقِطنى من عينيك ، ويُخْرِجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأَنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مُقِرّ بذنبه مُعترف بجرمه ، ولا يزال الغضبُ يستَفِزنى(٤) ببوادره ، فيردُّنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلت حَقِى فى هذا العقار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأَرش(٥) الجناية عليه «ولم يتلف مال أفاد مَوْعظة» حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل .

الأَحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم

قيل لِلأَحنف بن قيس : مِمّن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقرى رأَيتُه قاعدًا بفِناءِ داره مُحْتبياً(٦) بحمائل سيفه يُحَدِّث قومه حتى أُتِىَ برجل مكتوف ، ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أَخيك قتل ابنك ، فو الله ما حَلّ حبوته ولا قطع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أَخيه وقال له : يا ابن أَخى أَسأْت إلى رحمك ، ورميتْ نفسكَ بسهمِكَ ، وقتلت ابن عمِّك ، ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بُنَىَّ فحلَّ كتاف ابن عمك ووارِ أَخاك ، وسُقْ إلى أُمِّه مائة ناقة دِيةَ ابنها ، فإنها غريبة ، ثم أَنشأَ يقول :

إِنى امْرُؤٌ لا يطبِى حسبى دَنَسٌ يُهَجِّنُه ولا أَفَنُ(٧)

---

(١) المحتد : الأصل (٢) الريث : الابطاء والمقدار (٣) ثلم الاناء : كسره من حرفه (٤) استخفه وازعجه (٥) الأرش : الدية وما يعطى تعويضا (٦) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ، والاسم من ذلك الحبوة (٧) أطباه : دعاه واستهواه . والأفن : ضعف الرأى وفعله كفرح

من مِنقَرٍ فى بيت مَكْرُمة والغُصْنُ يَنْبت حوله الغُصْن
خطباءُ حين يقول قائِلُهم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسنُ(١)
لا يفْطِنون لعيب جارهم وهم لحِفظ جواره فطنُ(٢)

معن بن زائدة وجاره بين يدى المهدى

قال سعيد بن مسلم : نذر المهدى دم رجُل من أهل الكوفة ، كان يَسْعى فى فساد سُلطانه ، وجعل لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام(٣) ، فكان ظاهراً كغائب خائفاً مترقباً ، فبينما هو يمشى فى بعض نواحيها إذ بصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفهُ ، فأهوى إلى مجامع(٤) ثوبه ، وقال : هذا بُغْية أمير المؤمنين فأمكن الرجُل من قياده ، ونظر إلى الموت أمامه ، فبينما هو على تلك الحال ، إذ سَمِع وقع حوافر الخيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله فوقف وقال للرجل الذى تعلق به : وما شأنك ؟ قال : بغية أمير المؤمنين الذى نذر دمه ، وأعطى لمن دلَّ عليه مائة ألف درهم ، فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحْمِل أخانا ، فصاح الرجل يا معشرَ الناس يحال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين! قال معن : اذهب فأخبرهُ أنه عندى ، فانطلق إلى باب أمير المومنين فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدى فأخبره فأمر بحبس الرجل ، ووجَّه إلى معْنَ من يحضر به ، فأتته رُسل أمير المومنين وقد لبس ثيابهُ وقُرِّبت إليه دابته فدعا أهل بيته ومواليه ، وقال : لا يُخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف(٥) ، ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدى ، فلم يَرُد عليه وقال : يا معن أتجير علىّ ؟ قال : نعم

---

(١) رجل لسن والسن فصيح ، ويجمع ألسن على لسن كأحمر وحمر (٢) فطن : جمع فطن . كجون : جمع جون ، وهذا جمع نادر (٣) مدينة السلام : هى بغداد ، أو قسم منها (٤) مجامع الثوب : ما أحاط بالجيب ويقال لها تلابيب (٥) طرفت العين : تحركت

يا أمير المؤمنين ، قال : ونعم أيضاً ؟ واشتد غضبه ، فقال معن : يا أمير المؤمنين قتلت فى طاعتكم باليمن فى يوم واحد خمسة عشر ألفاً ، ولى أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائى وحسن غنائى ، فما رأيتمونى أهلاً أن تهبوا لى رجلاً واحداً استجار بى ؟ فأطرق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سُرِّى(١) عنه فقال : قد أجَرْنا من أجَرْتَ ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يَصِله فيكون قد أحياه وأغناه ، فعل ، قال : قد أمرنا له بخمسة آلاف ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم فأجْزِل الصِّلة ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف ، قال فتَعَجلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدُّعاء ثم انصَرَف ولحقه المالُ ، فدعا الرجل وقال له : خُذْ صلتك والحق بأهلك وإيَّاك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

معن بن زائدة والأسود

روى مروان بن أبى حفصة عن معنِ بن زائدة أنه قال : لما جد المنصور فى طلبى ، وجعل لمن يحملنى إليه مالاً ، اضْطررتُ لشدة الطلب أن تعرضتُ للشمس حتى لوحتْ(٢) وجهى ، وخففتُ عارضى(٣) ، ولبِسْتُ جُبَّة صوف ، وركبتُ جَمَلاً وخرجتُ متوجهاً إلى البادية لأقيم بها ، فلما خرجتُ من باب حَرْب ، وهو أحد أبواب بغداد ، تبِعنى أسود متقلد سيفاً ، حتى إذا غِبت عن الحرس قبض على خِطام الجمل فأناخه وقبض على يدى ، فقلت له : ما بك ؟ فقال : أنت(٤) طلبة أمير المؤمنين ، فقلت : ومن أنا حتى أُطلب ؟ فقال : أنت معن بن زائدة ، فقلت له : يا هذا ، اتّق الله عز وجل ، وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فإنى والله لأعرف بك منك ، فلما رأيت منه الجد قلت له : هذا عقد جوهر ، قد حملته معى بأضعاف ما جعله المنصور لمن يجيئه بى فَخذْه ولا تكن سبباً

(١) سرى عنه الهم : انكشف ، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور
(٢) لوحه العطش والسفر : غيره ولوحت وجهه الشمس : غيرت لونه .
(٣) العارضان جانبا الوجه ، وما يكون عليهما من اللحيـة (٤) الطلبـة : الحاجة وما يطلب .

لسَفْك دمي ، قال : هاته ، فأَخرجتُه إليه . فنظر إليه ساعة وقال : صَدقت فى قيمته ولست قابله منك حتى أسأَلك عن شيء فإن صدقتنى أَطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إنَّ الناس قد وصفوك بالجود ، فأَخبرنى هل وهبت مالك كله قَطُّ ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ فقلت : لا ، قال : فَثُلْثَه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العُشْر ، فاستَحْيَيت وقلت : أَظن أَنى قد فعلت هذا ، قال : ما ذاك بعظيم ؛ أَنا والله راجل(١) ، ورزقى من أَبى جعفر المنصور كلّ شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وقد وَهَبْتُه لك ووهبتُكَ لنفسك ولجودك المأْثور بين الناس ولتَعْلَم أَنَّ فى هذه الدنيا مَنْ هو أَجودُ منك فلا تعجبك نفْسُك ولتحقر بعد هذا كلّ جودٍ فعلتَهُ ولا تتوقف عن مَكْرُمة ، فقلت : يا هذا قد والله فضحتنى ولسَفْكُ دمى علىَّ أَهْوَن مما فعلت ، فخذ ما دفعتُه لك فإنى غَنِىٌّ عنه ، فضحك وقال : أَردتُ أَنْ تكذِّبنى فى مقالى هذا ، والله لا أَخَذْتُه ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً أَبدًا ، ومضى لسبيله ، فوالله لقد طلبته بعد أَن أَمنْتُ ، وبذلت لمن يجىء به ما يشاءُ ، فما عرفت له خبرًا ، وكأَنَّ الأَرض ابتلعته .

معاوية والأَعرابية

خرج معاوية مُتَنَزِّها ، فمرَّ بحواءٍ(٢) ضَخْم ، فقصد قصْد بيت منه ، فإذا بفنائه امرأَة بَرْزَة(٣) ، فقال لها : هل من غداءٍ ؟ قالت : نعم حاضر ، قال : وما غداؤك ؟ قالت : خُبْزٌ خمير ، وماءٌ نمير ، وحيْسٌ(٤) فطير ، ولبن هَجِير(٥) ، فَثَنى وَرِكه ونزل ، فلما تغَدَّى قال : هل لك من حاجة ؟ فذكرت حاجة أَهل الحواءِ ، قال : هات حاجتك فى خاصة نفسك ، قالت : يا أَمير المؤمنين إنى أَكره أَن تنزل وادياً(٦) فيَرِفَّ أَولُه ويقف آخرُه(٧) .

---

(١) الراجل : غير الراكب (٢) الحواء ككتاب : جماعة البيوت المتدانية
(٣) البرزة من النساء : الكهلة الجليلة تبرز للقوم وتحدثهم مع العفـــة .
(٤) الحيس : تمر بخلط بسمن ولبن ممخوض (٥) الهجير : الخاثر من اللبن (٦) رف النبات : اهتز (٧) قف النبات : يبس

الأَحنف بين يدى معاوية

وَفَدَ الأَحنف بن قيس على مُعَاوية مع أَهل العراق . فخرج الآذنُ فقال إن أَمير المؤمنين يَعْزِم عليكم أَن لا يتكلم أَحدٌ إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأَحنف : لولا عَزْمة أَمير المؤمنين لأَخْبَرْتُه أَن دافَّة دفت(١) ، ونازلة نزلت ، ونابتة نبتت ، كلهم بهم حاجة إلى معروف أَمير المؤمنين وبرِّه ، فقال معاوية : حَسْبُك يا أَبا بَحْرٍ فقد كفيت الشاهد والغائب .

الأَحنف بين يدى عمر بن الخطاب

قدم الأَحنف بن قيس التميمى على عمر بن الخطاب فى أَهل البصرة ، وأَهل الكوفة ، فتكلَّموا عنده فى أَنفسهم وما يَنُوب كلّ واحدٍ منهم ، وتكلم الأَحنف فقال : يا أَمير المؤمنين ، إن مفاتيحَ الخير بيد الله ، وقد أَتتك وفودُ أَهل العراق وإخوانَنَا من أَهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازلَ الأُمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازلَ كسرى وقيصر وبنى الأَصفر(٢) ، فهم من المياه العَذبة والجنان المختلفة فى مثل حُوَلاءِ السّلى(٣) وحَدَقة(٤) البعير ، تأْتيهم ثمارُهم غَضَّة(٥) لم تَخْضُر وإنا أَنزلنَا أَرضاً طَرَفٌ فى فَلَاة ، وطَرَفٌ فى ملح أُجَاج ، جانب منها منابت القصب وجانبٌ سَبْخَة نَشاشة(٦) لا يجف ثراها ، ولا يَنْبُت مرعاها ، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذبُ الماءَ من فرسخين ، وتخرج المرأَة بمثل ذلك تُرَنِّق(٧) لولدها ترنيق العَنْز ، تخَافُ عليه العدوّ والسّبُع فإلا ترفع خسيستنا ، وتنْعَش(٨) ركيستنا

(١) يقال : دفت دافة أى أتت فئة مهاجرة (٢) بنو الأصفر عند العرب : هم الروم (٣) السلى غلاف رقيق يكون فيه المولود ، والحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد وهذا يكنون به عن الخصب وكثرة الماء والخضرة (٤) قال فى اللسان : وفى حديث الأحنف نزلوا فى مثل حدقة البعير أى نزلوا فى خصب وشبهه بحدقة البعير لأنها ريا من الماء (٥) غضة : طرية (٦) أرض سبخة نشاشة : لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها . (٧) رنق الماء : صفا (٨) نعشه : رفعه كأنعشه ، والركيسة الضعيفة

وتَجْبُرُ فاقتنا ، وتزدْ في عيالنا عيالا ، وفى رجالنا رجالا ، وتُصَغِّر درهمنا ، وتكبر قفيزنا(١) ، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماءوإلا هلكنا ، فقال عمر : هذاوالله السيد ؟ هذا والله السيد ! ثم كتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يحتفِر لهم نهرًا .

أُسَيِّد بن عنقاء – وعميلة الفزارى

كان أُسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه ، وأشدهم عارضة ولساناً ، وطال عمره ، ونكبَه دهره ، واختلت حاله ، فخرج عشية يتبقل(٢) لأهله ، فمَرّ به عميلة الفزارى ، فسلم عليه وقال : ياعم ما أصارك إلى ما أرى ؟ قال بُخْل مثلك بماله ، وصَوْن وجهى عن أموال الناس ، فقال : لئن بقيتُ إلى غدٍ لأُغَيِّرَن ما أرى من حالك ، فرجع ابن عنقاء إلى أهله ، فأخبرها بما قال له عُميلة ، فقالت له : لقد غَرك كلام غلام ، فى جنح ظلام(٣) فكأنما ألقمَتْ فاه حجرًا ، فبات مُتَمَلْمِلاً بين رجاء ويأْس ، فلما كان السحر سمع رُغَاءَ الإبل وثغاءَ الشاة وصهيل الخيل ولَجَب الأموال(٤) فقال : ماهذا ؟ فقالوا : هذا عُمَيلة ، ساق إليك مَالهُ ، فخرج ابن عنقاءَ له ، فقسم عُميلة ماله شطرين ، وساهمه(٥) ، عليه ، فأنشأ ابن عنقاءَ يقول :

رآنى على ما بى عُمَيلة فاشتكى ... إلى ماله حالى أَسَرّ كما جَهَرْ
دعانى فآسانى ولو ضن لم يُلم ... على حين لا بدوٌ يُرَجّى ولا حضَرْ
فقلت له خيرًا وأثنيْتُ فعله ، ... وأوفاك ما أُبليت من ذم أو شَكَرْ
ولما رأى المجد استُعيرتْ ثيابه ... تردّى رِدَاءً سابغ الذيل واتزرْ(٦)
غلام رَمَاه الله بالخير مُقْبلاً ... له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البصر(٧)
إذا قيلت العَوْرَاء أَغضى كأنه ... ذليلٌ بلا ذُل ولو شاءَ لانتصر(٨)

(١) القفيز : مكيال (٢) تبقل : خرج يطلب البقل (٣) جنح الليل أو الظلام الطائفة منه (٤) اللجب : الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمه : قارعه أى ضرب القرعة (٦) أتزر من الأزار – قلبت الهمزة تاء الافتعال (٧) السيما والسيماء ، والسيميا والسيمياء : العلامة يقول يفرح به من يراه للطف محياه . (٨) العوراء : الكلمة القبيحة ،وقرب من هذا البيت قوله :

يصم عن الفحشاء حتى كأنه ... اذا ذكرت فى مجلس القوم غائب

الفضل وجعفر ابنا يحيى البرمكى

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمى(١) : كانت أُمُّ جعفر بن يحيي تزورُ أُمى وكانت لبيبة من النساء، حازمة فصيحة بَرْزَة، يعجبُنى أن أجدها عند أُمى فأَستكثر من حديثها، فقلت لها يوماً : يا أُم جعفر، إن بعض الناس يفضِّل جعفرًا على الفضل، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر، فأَخبرينى، قالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل فقلت : إن أَكثر الناس على خلاف هذا، فقالت : هاأنا ذَهْ أُحدثك واقض أَنت وذلك الذى أَردت منها، فقالت : كانا يوماً يلعبان فى دارى، فدخل أَبوهما فدعا بالغداءِ وأَحضرهما، فطعما معه، ثم آنسهما بحديثه، ثم قال لهما : أَتلعبان بالشطرنج فقال جعفر وكان أَجرأَهما : نعم ! قال : فهل لاعبت أَخاك بها ؟ قال جعفر : لا، قال : فالعبا بها بين يدى لأَرَى لمن الغلب ؟ فقال جعفر : نعم ! وكان الفضل أَبصر منه بها، فجىءَ بالشطرنج فصُفَّت بينهما، وأَقبل عليها جعفر، وأَعرض عنها الفضل فقال له أَبوه : مالك لا تلاعبُ أَخاك ؟ فقال : لا أُحب ذلك، فقال جعفر : إنه يرى أَنه أَعلم بها منِّى فيأْنف من ملاعبتى، وأَنا أُلاعبه مخاطرة، فقال الفضل لا أَفعل، فقال أَبوه : لاعبه وأَنا معك، فقال جعفر : رَضِيت، وأَبى الفضلُ، واستعفى أَباه، فأَعفاه. ثم قالت لى : قد حدثتك فاقضِ، فقلت : قد قضيت بالفضل لجعفر على أَخيه، فقالت : لو عَلِمت أَنك لا تحسن القضاءَ لما حكَّمْتك، أَفلا ترى أَن جعفرًا قد سقط أَربع سقطات تنزه الفضل عنهنَّ ؟

فسقط حين اعترف على نفسه بأَنه يلعب بالشطرنج، وكان أَبوه صاحب جِدّ.

وسقط فى التزام مُلاعبة أَخيه وإظهار الشهوة لغلبه والتعرض لغضبه.

وسقط فى طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أَخيه.

والرابعة قاصمة الظهر حين قال أَبوه لأَخيه لاعِبه وأَنا معك، فقال أَخوه لا،

---

(١) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة

وقال هو نعم ؟ فناصب صفًا فيه أبوه وأخوه ؟ فقلت : أحسنت ، والله وإنك لأقضى من الشعبي ، ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خَفى مثل هذا على جعفر ؟ وقد فَطِن له أخوه ، فقالت : لولا العَزْمة لما أخبرتك ، إن أباهما لما خرج قلت للفضل خالية به : ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران ؛ أحدهما : لو أنى لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثانى : قول أبى لاعبَهْ وأنا معك فما يسرنى أن يكون أبى معى على أخى ، ثم خلوت بجعفر ، فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف ، وأبوك صاحب جد ؟ فقال : إنى سمعت أبى يقول : نِعْم لَهْوُ البال المكدود(١) وقد علم ما نلقاه من كدّ التعلم والتأدب ولم آمَنْ أن يكون بلغه أنا نلعبُ بها ، ولا أن يُبادِر فيُنكر فبادرت بالإقرار إشفاقاً على نفسى وعليه . إن كان توبيخٌ فَدَيته من المواجهة به . فقلت له : يا بنى . فلم تقول ألاعبه مخاطرة ! كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله . فقال : كلا . ولكنه يستحسنُ الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين فعرضتها عليه فأبى قبولها ، وطمعت أن يُلاعبَنى فأُخاطرهُ عليها . وهو يغلبنى فتطيب نفسه بأخذها . فقلت لها : يا أُمّاه ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفراً دخل على أمير المؤمنين ، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر ، محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظر إليها فوهبها له . فقلت : إيه . فقالت ثم قلت لجعفر : هبْك اعتذرْتَ بما سمعت . فما عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال لاعبه وأنا معك ! فقلت أنت : نعم . وقال هو : لا ؟ فقال : عرفت أنه غالبى . ولو فتر لَعِبُه لتغالبت له ، مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه . قال محمد ابن عبد الرحمن : فقلت : بَخٍ بَخٍ (٢) هذه والله السيادة ! ثم قلت لها : يا أُمّاه ، أكان منهما من بلغ الحُلم ؟ فقالت : يا بنى ، أين يُذَهب بك ! أُخبرك عن

(١) كده : أجهده وأتعبه

(٢) يقال : بخ بخ — وبخ بخ ، اعجابا بالشيء واظهارا للسرور به

صبيين يلعبان . فتقول : «أكان منهما من بلغ الْحُلم» ؟ ! لقد كنا ننهى الصبي إذا بلغ العشر ، وحضر من يُسْتَحَى منه ، أن يبتسم .

براعة الرشيد فى الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زدْهُ من الخيرات ، وابْسُط له من البركات ، حتى يكون فى كل يوم من أيامه مُرْبياً على أمْسِه ، مقصِّرًا عن غده .

فقال له الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحَهُ وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول .

فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدًا تقدمَنِى إلى هذا المعنى ، قال بل أعْشى همدان حيث يقول :

رأيتُك أمسَ خير بنى لُؤَى وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غدًا تزيد الخير ضِعفاً كذاك تزيدُ سادةُ عبد شمسِ

الواثق وابن أبى دؤاد

قال أبو العيناء : دخل ابن أبى دؤاد على الواثق فقال له : ما زال اليوم قوم فى ثلبك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم ، والله ولى جزائه وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ذَلَّ يا أمير المؤمنين من كنت ناصره ، ولا ضاع من كنت حافظه ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت : يا أبا عبد الله :

وسعَى إلى بِعيب «عزَّة» معشرٌ جعل الإلٰهُ خُدُودَهُن نِعَالها

المنصور والربيع بن يونس(١)

قال سعيد بن مُسلم بن قتيبة دعا المنصور بالربيع فقال : سَلْني ما تريد؟ فقد سكت حتى نطقت(٢) وخففْتَ حتى ثقلت ، وأقللتَ حتى أكثرتَ ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أَرْهَبُ بخلك ، ولا أستقصِرُ عمرك ، ولا أستصغرُ فضلك ، ولا أغتنم مالك ، وإن يومى بفضلِك علىّ أحسن من أمسى ، وغَدَك فى تأميلى أحسن من يومى ، ولو جاز أن يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى فى ذلك أحد .

قال : صدقت ، عِلمى بهذا منك أحَلك هذا المحل ، فَسَلني ما شئت ؟؟

قال : أسألك أن تقرِّب عبدك « الفضل » وتُؤْثره وتُحِبه .

قال : يا ربيع ، إن الحب ليس بمال يوهب ، ولا رُتبة تُبذل ، وإنما تؤكده الأسباب .

قال : فاجعل لى طريقاً إليه بالتفضل عليه .

قال : صدقت ، وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولما أَصِلْ بها أحدًا غير عمومتى لتعلم ماله عندى ، فيكون منه ما يستدعى به محبتى ، وكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟

قال : لأنها مفتاح كل خيرٍ ، ومِغلاقُ كل شر ، تستتر بها عندك عُيوبه وتصير حسناتٍ ذنوبه ، قال : صدقت ، وأتيت بما أردت .

الأعرابى السائل

وقف أعرابى يسأل ، فعبِثَ به فتى ، وقال : ممَّنْ أنت ؟

فقال الأعرابى : من بنى عامر بن صعْصَعة قال : من أيهم ؟

---

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور توفى سنة ١٧٠ هـ

(٢) يقول : انك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك ، فقام السكوت مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعده

قال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة فليس مقامي بمقام مجادلة ولا مُفاخرة ، وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم(١) فلست من أعجازهم .

فقال الفتى : ما رويت عن فضيلتك إلا النقص فى حَسَبك .

فامْتعض(٢) الأعرابى لذلك ، فجعل الفتى يعتذر ، ويخلط الهزل والدُّعابة(٣) باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابى : يا هذا ! إنك منذ اليوم أدبتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف من جهلك بكلامك ما كان السكُوتُ يستره من أمرك ، ويْحَكَ ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدَّث أسقط(٤) ، وإن قدَر تسلط وإن عزم على أمر تورَّط(٥) ، وإن جلس مجلس الوقار تبَسَّط(٦) ، أعوذ منك ومن حال اضطرتنى إلى احتمال مثلك .

معاوية والأحنف بن قيس

لما عزم معاوية على البيعة ليزيد ، كتب إلى زياد أن يُوجِّه إليه بوفد أهل العراق ، فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة ، فتكلَّمت الخطباءُ فى يزيد والأحنف بن قيس ساكت ، فلما فرغوا ؛ قال : قل يا أبا بحر فإن العيون إليك أشرع(٧) منها إلى غيرك ، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين ، إنك أعلَمُنَا بيزيد فى ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره ،

(١) الهامات : الرءوس (٢) امتعض : تألم (٣) الدعابة : اللعب والمزاح (٤) أسقط : أخطأ (٥) تورط فى الأمر : وقع وارتبك . (٦) تبسط : أكثر من القول وجانب الاحتشام (٧) أشرع : أرفع وأكثر نظرا .

فإن كنت تعلمُه لله رضاً ، فلا تُشاوِرْ فيه أحدًا ، ولا تُقِم له الخطباءَ والشعراءَ ، وإن كنت تعلمُ بُعْدَه من الله ، فلا تُزوِّدْه من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يوم يفِرُّ المرءُ من أخيه ، وأمِّه وأبيه ، وصاحِبَتِه وبنيه ، فكأنه أفرغ على معاويةَ ذَنوب(١) ماءٍ بارد .

فقال له : أقعد يا أبا بحر ، فإن خِيَرَة الله تجرى ، وقضاءه يمضى ، وأحكامه تنفُذُ ، لا مُعقِّبَ لُحكمه ، ولا راد لقضائه(٢) ، وإن «يزيد» فتى بَلَوْناه ولم نجدْ فى قريش فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت تَحكى عن شاهد ، ونحن نتكلم على غائب ، وإذا أراد الله شيئاً كان .

الحجاج ورسول المهلب

يُروى أن المهلّب(٣) لما فرغ من أمْرِ عبد ربّه الحرُورى(٤) ، دعا بشْر بن(٥) مالك ، فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسْمُك؟ قال : بِشْرُ بن مالك ، فقال الحجاج : بشارةٌ ومُلك ، كيف خلفت المهلب ؟ قال : خلفته وقد أمِنَ ما خاف ، وأدرك ما طلب ، قال : كيف كانت حالكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البُداءة لهم ، والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبة للمتقين ، فما حال الجند ؟ قال : وسِعَهم الحق وأغناهم النفل(٦) ، وإنهم لمع رجل

---

(١) الذنوب : الدلو الملأى ، جمعه أذنبة وذنائب (٢) أى لا راد لقضائه
(٣) هو المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، كان شجاعا مهيبا وقائدا من أكبر قواد الجيوش فى الدولة الأموية ، وهو الذى شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفى ٨٣ .
(٤) الحرورى : نسبة الى حروراء على غير القياس وهى بلدة بقرب الكوفة والحرورية : فرقة من الخوارج كالأزارقة (٥) كذا فى زهر الآداب . وفى تاريخ ابن خلكان أن اسم الرسول مالك بن بشير . (٦) النفل : الغنيمة وجمعه أنفال

يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم قتال الصُّعلوك ، فلهم منه بر الوالد ، وله منهم طاعة الولد ، قال : فما حال ولد المهلب ؟ قال : رُعاة البيات حتى يأْمنوا . وحماة السرح(١) حتى يردُّوه ، قال : فأَيهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم . قال : وأَنت أَيضاً ، فإِنى أَرى لك لساناً وعبارة ، قال : هم كالحلقة المفرغة(٢) لا يُدْرى أَين طرفاها ، قال : ويْحك ! ! أَكُنت أَعددتَ لهذا المقام هذا المقال ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا – والله – الكلام المطبُوع ، لا الكلام المصنوع .

حديث معاوية وليلى(٣) الأَخيلية

قال بعض الرواة : بينا معاوية يسير إذ رأَى راكباً فقال لبعض شُرَطه ائتنى به وإِياك أَن تروعه فأَتاه فقال : أَجب أَمير المؤمنين ، فقال : إِياه أَردت ، فلما دنا الراكبُ حدَرَ لثامه ، فإِذا ليلى الأَخيلية ، فأَنشأَت تقول :

مُعاوِىَ لم أَكد آتيك تهوى ... برحْلى نحو ساحتك الركابُ
تجوبُ الأَرض نحوك ما تأْبى ... إِذا ما الأَكم قنَّعها السَّراب(٤)
وكنت المُرتجى وبك استعاذت ... لتنعشها إِذا بَخِلَ السَّحابُ

فقال : ما حاجتُكِ ؟ قالت : ليس مثلى يطلبُ إِلى مثلك حاجة ، فتخير أَنت أَعلى عَيْناً ، فأَعطاها خمسين من الإِبل ، ثم قال : أَخبرينى عن مُضر ، قالت فاخر بمضر ، وحارِبْ بقِيس ، وكاثر بتميم ، وناظر بأَسد(٥) .

فقال : ويحك يا ليلى ؟ أَكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : ياأَمير

---

(١) السرح : الماشية فى المرعى (٢) الحلقة المفرغة : المصبوبة قطعة واحدة وهذه الجملة مثل : لا امرأة عربية (٣) ليلى الأخيلية : اشعر امرأة عربية بعد الخنساء (٤) الأكم : واحده أكمة – وسكنت الكاف للوزن – تقول : ان ركابها تجول فى الأرض قاصدة معاوية ، ولا تتأبى عند اشتداد الحر اذ تتغطى الآكام بالسراب (٥) مضر : أصل لقيس وتميم واسد : تقول : ان مضر ذات مجد عظيم وقيس اهل البسالة والاقدام وتميم ذوو الكثرة والعدد واسد أهل الحجة واللدد

المؤمنين ليس كل الناس يقول حقا ، الناس شَجَرة بغي يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ، كان يا أمير المؤمنين : سبط البنان ، حَدِيد اللسان ، شجى الأَقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أَبعُدْ عن الحق فيه :

بعيدَ المدَى لا يبلُغُ القَرْم غورَه ... ألدٌّ مَلدّ يغلب الحق باطله(١)

فقال معاوية : ويحك يا ليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجراً ؛ فقالت من ساعتها مرتجلة :

مَعاذ النُّهى قد كان والله توبةُ ... جوادًا على العلات جمًّا نوافلُهْ(٢)
أغر خفاجيًّا يرى البخل سُبَّة ... تحالف كفاه النَّدَى وأَنامِلهْ
عفيفاً بعيد الهم صُلباً قناتُه ... جميلا مُحَيَّاه قليلا غوائله(٣)
وكان إذا ما الضيف أَرغى بعيرُه ... لديه أَتاهُ نيله وفواضلهْ
وقد علم الحدبُ الذى كان سارياً ... على الضيف والجيرانِ أَنك قاتلهْ
وأَنك رَحْب الباع ياتوب بالقرى ... إذا ما لئيم القَوْم ضاقت منازلهْ
يبيتُ قرير العين من كان جاره ... ويُضحِي بخير ضيفه ومُنازله

فقال لها معاوية : ويحكِ يا ليلى ! لقد جُزْتِ بتوبة قدره ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، والله لو رأَيْتُه وخبرته لعلِمتَ أَنى مُقَصِّرة فى نعته ، لا أَبلغ كُنْهَ ما هو له أهل ، فقال لها معاوية : فى أى سِنْ كان توبة ؟ فقالت : يا أَمير المؤمنين :

أَتته المنايا حين تم تمامه ... وأَقصَرَ عنه كل قِرن يُناضلهْ
وصار كلَيْثِ الغاب يحمى عرينَه ... فترضى به أَشبالُه وحلائلهْ

(١) القرم السيد . والألد : الشديد الخصومة . والملد مبالغة فى الألد . تقول : لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق (٢) على العلات : أى على كل حال . والنوافل : العطايا (٣) الغوائل : الدواهى . وفلان قليل الغوائل : أى ليس فيه مايعيبه العشير .

عطوفٌ حليمٌ حين يُطلب حلمه   وسُمٌّ زُعافٌ لا تصاب مقاتلهْ

فأمر لها بجائزة ، وقال : أى ما قلت فيه أشعر ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت شيئاً إلا والذى فيه من خصال الخيرِ أكثر ، ولقد أجدتُ حيث أقول :

جزَى الله خيراً والجزَاءُ بكفه   فتًى من عقيل ساد غير مكلف

فتًى كانت الدُّنيا تهون بأَسرِها   عليه فلمْ ينفَكَّ جَمّ التصرف

ينال علِيَّات الأُمور بهَوْنة   إذ هى أَعْيت كل خِرْق مُسَوِّف(١)

الحارث(٢) بن عوف المرِّى ومصاهرته أَوس(٣) بن حارثة الطائى

يروى أن الحارث بن عوف المُرِّى : قال يوماً لخارجة بن سنان المرِّى ، أَترانى أخطب إلى أحد فيردنى ؟ قال : نعم ، قال : ومن ذاك ؟ قال : أَوس بن حارثة بن لأَم الطائى ، فقال الحارث لغلامه : ارحل بنا ، ففعل ، فركبا حتى أَتيا أَوساً . فلما رأَى الحارث بن عوف قال : مرحباً بك يا حارث ، قال : وبك ، قال : ماجاءَ بك ؟ قال : جئتك خاطِباً ، قال : لست(٤) هناك ، فانصرف ولم يكلمه ، ودخل أَوْسٌ على امْرَأَته مُغْضباً — وكانت من بنى عبْسٍ(٥) — فقالت : مَنْ الرجل الذى وقف عليك فلم يُطِل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث

(١) الهونة : التؤدة . والخرق : الفتى الحسن الكريم السجايا والمسوف : من يصنع ما شاء لا يرده أحد (٢) هو أحد عظماء ذبيان . ومرة : بطن من ذبيان . والحارث أحد السيدين اللذين سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء التى دامت نحو أربعين سنة وقد احتملا فى مالهما خاصة غرامة تلك الحرب (٣) هو سيد طىء فى زمانه ، وفيه يقول الشاعر :

الى أوس بن حارثة بن لأم   ليقضى حاجتى فيمن قضاها

فما وطىء الحصا مثل ابن سعدى   ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٤) أى لست كفؤا (٥) عبس وذبيان أبناء عم

ابن عوف المرِّى ، قالت : فمالك لا تستنزله ؟ قال : إنه استَحْمَق(١) ، قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطباً ، قالت : أَفترُيد أن تُزَوِّجْ بناتك ؟ قال : نعم ، قالت : فإذا لم تُزَوِّجْ سيد العرب ، فمن ؟ قال : قد كان ذلك ، قالت : فتدَارِكْ ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : تلحقُه فترده ؟ قال : وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ قالت : تقول له : إنك لقِيتنى مُقتضباً (٢) بأَمر لم يتقدم منى فيه قول ، فلم يكُن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندى كل ما أَحببت . فإنه سيفعلُ ، فركب فى أَثرهما . قال خارجة بن سنان : فوالله إنى لأَسِيرُ إذ حانت منّى التفاتةٌ ، فرأيته فأَقبلت على الحارث وما يُكلمنى غَمًّا ، فقلت له : هذا أَوس بن حارثة فى أَثرنا قال : وما نصنع به ؟ امْض ، فلما رآنا لا نقف عليه ، صاحَ : يا حارثُ أَربع(٣) على ساعة ، فوقفنا له ، فكلَّمنا بذلك الكلام ، فرجَعَ مسروراً .

فبَلغنى أَن أَوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة -لأَكبر بناته- فأَتتهُ ، فقال : يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيدٌ من سادات العرب ، قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أَردت أَن أُزَوِّجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولِمَهْ ؟ قالت : لأَنى امرأَة فى وجهى رَدَّة(٤) وفى خلقى بعض العُهدة(٥) ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أَن يرى منى ما يكْره فيُطَلقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه ، قال : قومى بارك الله عليك ادعى لى فلانة - لابنته الوسطى - فدعتها ، ثم قال لها مثل قوله لأَختها فأَجابته بمثل جوابها وقالت : إنى خرقاءُ(٦) وليست بيدى صناعة ، ولا آمنُ أَن يرى

(١) استحمق : فعل فعل الحمقى (٢) الاقتضاب : المفاجأة (٣) ربع عليه : وقف أو مال اليه (٤) يقال فى وجهه ردة ، أى قبح مع شىء من الجمال (٥) العهدة ، الضعف (٦) الخرقاء ، التى لا تحسن صنعة

منى ما يكره فيُطَلقنى ، فيكون على فى ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمى فيرعى حقى ولا جارك فى بلدك فيستحيك ، قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى « بُهَيْسة » – يعنى الصغرى – فأُتى بها ، فقال لها كما قال لهما ، فقالت : أنت وذاك ، فقال لها : قد عرضت ذلك على أُخْتَيكِ فأبتاه ، فقالت – ولم يذكر لها مقالتيهما : لكنى والله الجميلة وجهاً ، الصناع(١) يدًا ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ، فقال : بارك الله عليك .

قال خارجة : ثم خرج إلينا فقال : قد زوجتك يا حارث « بهيسة » بنت أوس ، قال : قبلت . ثم أمر أُمها أن تهيِّئها ، وتصلح من شأْنها ، ثم أمر ببيت فضُرِب(٢) له ، وأنزله إياه ، فلما هُيِّئت بعث بها إليه ، فلم يلبث عندها إلا هُنَيْهَةً(٣) ثم خرج إلى ، فقلت : أبنيت بأهلك ؟ قال : لا والله ، فإنى لما دَنَوْت منها قالت : مَهْ أَعِنْدَ أَبى وإخوتى ؟ هذا والله مالا يكون ، قال خارجة : ثم ارتحلنا بها فَسِرْنا ما شاء الله ثم انتحَى بها ناحيةً ، ولم يلبث أن عاد إلى ، فقلت : أَبنَيت بأَهلك ؟ قال : لاوالله فقد قالت : أكما يُفعل بالأَمة الجليبة (٤) ! والسبية الأَخيذة(٥) ! لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يُعمل لمثلى ، قلت : والله إنى لأَرى همة وعقلاً ، وأرجو أن تكون المرأة مُنْجبة إن شاء الله ، فرحلنا حتى قدمنا وأَحْضَرَ الإبل والغنم ، ثم خلا بها ، ولم ينشبْ أن خرج فقلت : أبنيت بأَهلك ! قال : لا – فقد قلت لها أحضرنا من المال ما قد تريدين ، فقالت : والله لقد ذكرت لى من الشرف مالا أراه فيك ، قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغ للنساء والعرب يقتلُ بعضها بعضاً – وذلك فى أيام حرب عبْس وذبيان – قلت : فماذا تريدين ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم

---

(١) امرأة صناع : حاذقة فى الصناعة (٢) ضرب : اقيم ، وبنى له بيت (٣) الهنيهة : الزمن اليسير (٤) الجليبة : المجاوبة (٥) الأخيذة : المأخوذة

فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ، قال خارجة ، فقلت : والله إنى لأرى همة وعقلاً ، قال : فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصُّلح ، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذكر(١) :

ولو كان النساءُ – كمثْل هَذِى – لفضِّلت النساءُ على الرجال

سَوْدة بنت عمارة ومعاوية

قال عامر الشعبي : وفدتْ سودة بنت عمارة بن الأَشتر الهمدانية على معاوية ابن أَبى سُفيان ، فاستأْذنت عليه فأَذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها : كيف أَنت يا ابنة الأَشتر ؟ قالت : بخير يا أَمير المؤمنين ، قال لها : أَنت القائلة لأَخيك :

شمِّر لفعل أَبيك يا ابن عمارة يوم الطِّعَان ومُلتقى الأَقران
وانْصُرْ عليّاً والحسين ورَهْطَه واقصد لهند(٢) وابنها بهوانِ
إنَّ الإمام أَخا النبيِّ محمد عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ
فَقُدِ الجيوش وسِرْ أَمام لوائه قُدُماً بأَبيض صارم وسنانِ

قالت : يا أَمير المؤمنين مات الرأْس وبُتر الذنب ، فَدع عنك تذكار ما قد نُسِي ، قال : هيهات ، ليس مثل مقام أَخيك نسى ، قالت : صدقت ، والله يا أَمير المؤمنين ، ما كان أَخى خفى المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساءُ :

وإن صَخرًا لتأْتَم الهداة به كأَنه عَلَمٌ فى رأْسه نارُ

---

(١) وقد خلد زهير هذا الذكر الجميل فى معلقته اذ يقول من أبيات كثيرة :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(٢) هند : هى أم معاوية

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين إعفائى مما استعفيته ، قال : فعلت ، فقولى حاجتك ، قالت :

يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأُمورهم مُقَلَّد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدمُ علينا من ينهض بعزك ، ويبْسُط بسلطانك ، فيحصدنا حِصادالسُّنْبُل ،ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة (١) ويسألنا الجليلة ، هذا ابن أرطاة ، قدم بلادى وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة ، لكان فينا عِزًّا ومنعةً ، فإما عزلته فشكرناك ، وإمَّا لا فعرفناك ، فقال معاوية : أإياى تُهددِين بقومك ؟ والله لقد هَمَمت أن أَرُدَّك إليه على قَتَب أَشرَس(٢) فَيُنْفِذ حكمه فيك ، فسكتت ، ثم قالت :

صَلَّى الإله على روح تَضمَّنَه قبرٌ فأَصبح فيه العدل مدفونَا
قد حالف الحق لا يبغى به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرونَا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علىّ بن أبى طالب ، قال : ما أرى عليك منه أثراً ، قالت : بلى ، أتيته يوماً فى رجل ولَّاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يُصلِّى فانفتل (٣) عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : أَلك حاجة ؟ فأَخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أَخرج من جيبه قطعةً من جِرَاب ، فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم « قد جاءتكم بيِّنة من ربكم فأَوفُوا الكيل والميزَان ولا تَبخسُوا الناسَ أَشياءهم ولا تَعْثَوْا فى الأَرض مفسدين ، بَقيّة الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ » إذا أتاك كتابى هذا فاحتفِظْ بما فى يديك حتى يأْتى من يَقبضُه منك والسلام . فعزله يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها ،

(١) سلمه الأمر : كلفه اياه . تقول : يجشعنا دنايا الأمور (٢) القتب : الرحل الصغير ، والأشرس : الخشن الغليظ (٣) انفتل : انصرف

فقالت : أَلِيَ خاصة أم لقومى عامة ؟ قال : وما أَنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاءُ واللؤم ، إن كان عدلاً فشاملا ، وإلا يسعنى ما يسعُ قومى ، قال : هيهات ، لمَّظكم(١) ابن أَبى طالب الجرأَة ، وغرّكم قوله :

فلو كنت بواباً على باب جنَّة لقلت لهَمْدَان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديتُ هَمْدان والأَبواب مُغْلقة ومثل هَمْدان سنى فتحةُ الباب
كالهِنْدُوَانىّ لم تفلل مضاربه وجْهٌ جميل وقلب غير وجَّاب

اكتُبُوا لها بحاجتها .

أم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أَبى حُذافة : حبس مروان وهو والى المدينة غلاماً من بنى ليث فى جناية جناها ، فأَتته جدة الغلام – وهى أم سنان بنت جُشَمَة المذحَجِيَّة – فكلمته فى الغلام ، فأَغلظ مروان لها ، فخرجت إلى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال : مرحباً بابنة جشمة ، ما أَقدمك أَرضنا ، وقد عهدتك تَشْتمييننا وتحضِّين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أَخلاقاً طاهرةً ، وأَحْلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علْم ، ولا يَسْفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أَولى الناس باتباع ما سَنَّ آباؤه لأَنت ، قال : صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قولك :

عَزَبَ الرُّقَاد فمقلتى لا ترقد والليلَ يُصْدر بالهموم ويُوردُ
يا آل مَذْحج لا مُقام فَشَمِّرُوا إن العدوّ لآل أَحمد يقصدُ
هذا علىّ كالهلال تَحُفه وسط السماء من الكواكب أَسْعُد

---

(١) لمظه الشىء : منحه اياه

خيرُ الخلائف وابن عم محمد إن يهدكُم بالنُّور منه تهتدوا
ما زال مُذْ شهد الحروب مُظَفَّراً والنصر دون لوائه ما يعقد

قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً ، فقال رجل من جُلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعْرَف هادياً مَهْدِيًّا
فاذهب عليك صَلَاة ربك ما دعت فوق الغُصُون حَمَامَةٌ قَمْرِيًّا
قد كنت بعد محمد خَلَفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وَفِيًّا
واليومَ لا خلفٌ يُؤَمَّل بعده هيهات نأْملُ بعدهُ إنْسِيًّا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان فطن ، وقول صدق ، ولئن تحقق ما ظننا فحظّك الأَوفر ، والله ما وَرّثك الشنآن فى قلوب المسلمين إلا هؤلاءِ ، فأَدحض مقالتهم ، وأَبعد منزلتهم ، فإِنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قُرْباً ومن المؤمنين حُبًّا ، قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعْتُذِر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأْينا وضمير قلوبنا .

شكرًا لربى الذى أعاننى على طبع الجزءِ الأَول ، ويليه الجزءُ الثانى وأَوله : « الفن السابع فى التاريخ »

فهرست

الجزء الاول من كتاب جواهر الادب

صفحة